الإسلام دين وأمة
وليس دينًا ودولة

فهرست

مقدمة

الباب الأول

الدولة الإسلامية فى عصر الرسول والخلفاء الراشين

الفصل الأول: دولة المدينة أيام الرسول تجربة فريدة لا تتكرر
(1) قبل أن تظهر دولة الدولة
(2) نصوص قرآنية ونبوية
(3) دولة المدينة أيام الرسول

الفصل الثانى: الخلافة الراشدة
برزخ بين رحمة الحكم النبوى وغشومة المُلك العضوض
(1) المسلمون يواجهون المستقبل
(2) سقيفة بنى ساعدة السجال الذى حدد مستقبل الدولة الإسلامية
(3) انتهى الوحى وبدء التاريخ أبو بكر المتبع الأمين يسير فى آثار الرسول
(4) عمر المبتدع العظيم يرسى دعائم الدولة الإسلامية

الفصل الثالث: نهاية الخلافة الراشدة
(1) أول الوهن
(2) الفتنة الكبرى
(3) نهاية الخلافة الراشدة

الباب الثانى

السلطة تفسد العقيدة (الأيديلوجيا)

الفصل الرابـع: الأمة – الدولة – السلطة
الفصل الخامس: السـلطة تفسد الخلافة الراشـدة وتحولها إلى مُلك عضوض
الفصل السـادس: السـلطة تفسد التشـيع العلـوى وتحوله إلى تشيع صفوى
الفصل الســابع : الســلطة تفسد اليهودية وتحولها إلى محكمة تفتيش
الفصل الثامن : السلطة تفسد الاشـتراكية وتجعلها دولة الحكم الشمولى
الفصل التاسع: السلطة تفسد المسيحية وتحولها إلى صهيونية
(1) خصوصية الدين اليهودى
(2) الميثولوجية التى صنعت النفسية اليهودية
(3) من الخروج إلى الدياسبورا

(4) من وعد بلفور حتى الفترة الراهنةً

الباب الثالث
الدولة الإسلامية فى العصر الحديث بين التنظير والتطبيق
الفصل العاشر: من جمال الأفغانى إلى حسن البنا
الفصل الحادى عشر: منظرو الدولة الإسلامية
(1) المــودودى
(2) سيــد قطب
(3) الإمام الخومينى
الفصل الثانى عشر: جماعات الرافضة الجديدة
(1) جماعة التكفير والهجرة
(2) حزب التحرير
(3) جماعات الجهاد والجماعة الإسلامية
الفصل الثالث عشر: من التنظير إلى التطبيق

الباب الرابع
إنما تتقدم الأمم بفضل الأنبياء والحركات والجماعات الشعبية والعلماء والمخترعين
الفصل الرابــع عشر: الأنبياء أول الدعاة لتحرير الشعوب
الفصل الخامس عشر: الحركة النقابية تنهض بمستوى الشعب البريطانى
الفصل السادس عشر: العلمــاء والمخـترعون والـدعاة يقيمـون العصر الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

في هذا الكتاب دراسة إسلامية وثقافة اجتماعية وسياسية لأننا نؤمن أن معالجة موضوع الدولة، أو الحكم فى الإسلام لا يجوز أن يقتصر على الكتابات الإسلامية كما هو الدأب المألوف. فيعود الكاتب إلى ما كتبه الماوردى فى الأحكام السلطة وابن تيمية فى السياسة الشرعية. ويتصفح تاريخ الطبرى والبداية والنهاية ويعود إلى الأحاديث صحيحها وسقيمها ويعتبر أن دوره ينتهى عند هذا. إن ما فات هؤلاء الكتاب أن الحكم – إسلامياً أو غير إسلامى – هو الحكم وأن له طبيعته الخاصة التى لا يمكن لأى صفة تعلق به أن تجرده منها وإنما قصارى ما يمكن أن تصل إليه هو أن تضيف إليها، أو تنقص منها بعض الصفات دون أن يؤدى هذا إلى تغيير طبيعتها.

إذا كان الأمر كذلك فإن من الواجب تفهم تجارب الحكم فى مختلف النظم والعهود والشعوب وما يمكن أن يبديه ذلك التفهم من أعماق الحكم وجوانبه المتعددة ثم دراسة تفاعل الإسلام مع طبيعة الحكم، ومدى نجاحه فى كبح جماحها وحُسن توجيهها.

وأدت بنا دراسة الحكم منذ أن ظهر من أقدم العصور حتى العهد الحديث إلى المبدأ المحورى الذى حكم سياق وروح الكتاب. ألا وهو "**إن السلطة التى هى خصيصة الدولة تفسد الأيديولوجيا (أو العقيدة) وأن هذا الإفساد هو فى طبيعة السلطة ولا يمكن أبداً أن تتحرر منه. وأن أى نظام يقترن بها بفكرة إصلاحها لابد وأن تفسده.. وأن أى نظام يحاول تطويعها لابد وأن تطوعه، وبدلاً من أن يكون سيدها يصبح تابعها.**

هذا المبدأ القاهر هو الذى جعلنا نقول إن الإسلام دين وأمة وليس ديناً ودولة.

ويجب الإشارة إلى أن هذا المنهج الذى أغفله الكتاب الإسلاميون، ورأى البعض فيه منهجاً علمياً أو موضوعياً مستقلاً عن الإسلام هو فى حقيقته إسلامى لأن القرآن الكريم قرن إنزاله الكتاب بإنزاله "الحكمة" وأمر بالسير فى الأرض ودراسة آثار السابقين وعاقبة أمرهم. فنحن عندما نطبقه إنما نطبق منهجاً أمر به الإسلام..

كما أن تركيزنا للأهمية على الأمة وليس على الدولة، وجعلها (أى الأمة) المعول فى التقدم جعلنا نطرق مجالات جديدة على كتاب عن الحكم فى الإسلام كما يتضح ذلك فى ثنايا فصوله وبوجه خاص فى الباب الأخير، مما قد يعد استطراداً فى غيره، ولكنه لزوم بالنسبة له وبحكم اسمه وعنوانه.

* * *

عالج الكتاب فى الباب الأول **"دولة المدينة عهد الرسول والخلفاء الراشدين"** ورأى أنها **"تجربة فريدة لا تتكرر"** وأن من الخطأ الفاحش تصور إقامة دولة على غرارها لأن دولة المدينة لم تتوافر فيها مقومات الدولة بالصورة التى يفترض أن تتوافر فى الدول الحديثة.. فلم يكن لديها جيش محترف، ولا سجون، ولم تفرض الضرائب.. وأهم من هذا كله أن رئيسها كان نبياً مرسلاً يرعاه الله ويصحح له الوحى اجتهاداته ولا يملك من الأمر شيئاً وإنما يحكم بما أنزل الله.. وهذه كلها لا يمكن أن تتوافر فى أى دولة أخرى. ثم كانت الخلافة الراشدة امتداداً للعهد النبوى وسيراً فى آثاره وانتهت هذه الخلافة بطعن عمر بن الخطاب وموته. أى أنها لم تستمر سوى أقل من ثلاثة عشر عاماً. ثم أخذت بذور الفساد تظهر.. وعندما أراد على بن أبى طالب أن يعيد الأمر إلى ما كان عليه عهد الشيخين استحال ذلك.

بهذا الباب حل الكتاب مشكلة الحكم فى الإسلام "فحقاً" إنه كان هناك دولة فى عهد الرسول وفى عهد الخلفاء، ولكن هذه الدولة كانت تجربة فريدة لا تتكرر.

فلم تتوافر لها مقومات لابد منها فى الدولة الحديثة. بينما أضـيفت لها مقومـات (حكم الرسول لها) لا يمكن أن تتوافر فى العصر الحديث، فالقياس عليها باطل..

وفى الباب الثانى – السلطة تفسد الأيديولوجيا – تحـدث الكتـاب عن التفرقة ما بين الأمة والدولة، وأن العلاقة الفارقة بينهما هى السلطة الـتى لا تتـوافر للأمة والـتى تجعل الدولة جهاز قمع أو إرشـاء وبالتـالى فلا يمكن أن تنهض برسـالة دعـوة أو تحقق قيم دين، وأن هذا يجب أن تتولاه "الأمة" التى تضغط على الدولة وتدفعها إلى تطـبيق الشريعة، ثم تراقب هذا التطبيق حـتى لا تفسـده السـلطة. ثم بين فى خمسة فصـول كيف أن السـلطة أفسـدت الخلافة الإسـلامية فحولتها إلى حكم عضـوض. وكيف أنها أفسدت التشـيع العلـوى فحولته إلى تشـيع صـفوى وكيف أنها أفسـدت المسـيحية من ديانة المحبة فجعلتها محكمة تفـتيش وكيف أفسـدت اليهودية وحولتها إلى صــهيونية. وكيف أفسدت الاشتراكية فجعلت منها مدرسة الحكم الشمولى.

يعود الكتاب فى الباب الثالث إلى المجال الإسـلامى **"الدولة الإسـلامية فى العصر الحديث بين التنظـير والتطـبيق"** فيشـير فى فصل إلى جمـال الأفغـانى وحسن البنا باعتبارهما أفضل من كتب عن الحكم الإسلامى. ويـبرز نقطة هامة هى أن حسن البنا الـذى صك صـيغة "الإسـلام دين ودولـة" كـان من واقع كتاباته ديمقراطيا يتقبل دستور مصر سنة 23 وإن طالب بتعديله ثم ينتقل الكتـاب إلى محـاولات تنظـير الدولة الإسلامية فيتحدث عن المودودى. وسيد قطب. والإمام الخميـنى وفكـرة "ولاية الفقيـه" وأخـيراً فإنه يتـابع جماعـات الرافضة الجديـدة وبوجه خـاص جماعة التكفـير والهجرة الرائدة. ثم حزب التحرير ثم جماعة الجهاد...

ويختم البـــاب بفصل عن تجربة إقامة الدولة الإســلامية فى العصر الحـــديث، يستعرض تجربة "السعودية" وتجربة الجزائـر، وتجربة السـودان، وتجربة تركيـا، ويقف طويلاً عند تجربة إيران التى يراها أنجح هذه التجارب وإن كانت تتعرض لمأزق خطـير. وينتهى إلى أن العناصر الذاتية الـتى فرضت نفسـها على "التنظـير" وأفقدته الصـفة الموضوعية تجلت عند التطـبيق وأن محـاولات الدولة الإسلامية فى هـذه الـدول ليس فيها المقومات الجوهرية للدولة الإسلامية، وأنها تكاد تكون أسوأ من نظم سياسية فى أوربا وأمريكا. ففيها القمع، وكبت الحريات والسجون والفساد المالى والثراء الفـاحش والفقر المـدقع، وانتفـاء المعارضة السياسـية الحـرة، وفيها السـجون الـتى تحتشد بالمخالفين وتمارس فيها أساليب التعذيب فأين الإسلام !!.

ويختم الكتاب بالباب الرابع **"إنما تتقدم الأمم بدعوات الأنبيـاء.. وجهـود الجماعات والهيئات والعلماء والمخترعين"** يكشف عن أن الأنبياء كانوا أول من حرر الجماهير والجماعات من النظم الوثنية. ويبرز الدور القيادى للأنبياء، وأنهم قـدموا المثال لما يجب أن يكون عليه القائد والقيادة.

وفى العهد الوسيط يتحدث الكتـاب عن وجـود الهيئـات والجماعـات من أحـزاب ونقابات وهيئـات إصـلاح الخ... وأثرها فى تقـدم الأمم ويضـرب المثل بالحركة النقابية فى بريطانيا. وأخيراً يظهر كيف أن العلمـاء والفلاسـفة والمخـترعين والأدبـاء والـدعاة هم الـذين بـدؤوا العصر الحـديث وأقـاموه لحمة وسـدى وجمعـوا بين العلم والعمل وجعلوا العلم فى خدمة الحياة فأثروها وأناروها بالكهرباء، وجعلوا الحيـاة الـدنيا جنـات تجرى من تحتها، وجاوزوا ما وصل إليه سليمان فى القديم.

فهذه الجهود التى بدأها الأنبياء وختمها العلماء هى سبب تقـدم الأمم وهى الـتى كانت من القوة بحيث كبحت جماح السلطة ووجهتها وجهة الخدمة وليس السيطرة.

* * *

فى ختام هذه المقدمة أعترف للقارئ أنـنى تـرددت قبل وضع عنـوان "الإسـلام دين وأمه وليس دينا ودولة" لعلمى بمـدى اعـتزاز فريق كبـير من الجمهـور الإسـلامى بفكـرة الدولة الإسـلامية، ولأن كلمة دولة قد تتضـمن أطيافـاً عامـة، ولكن لما كـانت "السلطة" هى فى النهاية جوهر الدولة، فلم يعد مناص من الانتهاء إلى عنواناً حسـماً

لآثــار هــذا العنصر المــدمر. وقد آن للمســلمين أن يعلمــوا أن كل ما خــرج عن إطــار الاعتقاد دخل فى إطار الاجتهــاد وما دمنا لا نتحــدث عن الله تعــالى أو طبيعته أو ذاتــه، وما دمنا لا نجحد الوحى والرسل واليوم الآخر فلا جنــاح علينا إذا أخضــعنا الموضــوعات الأخرى للاجتهاد وإذا كانت الدولة الإسلامية ترتبط فى أذهان البعض بــذكريات مجيــدة، فإنها تتضمن أيضاً سوءات عديدة.

ولابد أن نقلع – ونحن نجابه المستقبل – عن التــأثر الســلبى بالماضى أو محاولة فرضه على الحاضر ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَــبْتُمْ وَلا تُسْــأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. {141 البقرة}.

جمال البنا

القاهرة في: شوال 1423/يناير 2003

الباب الأول
الدولة الإسلامية فى
عصر الرسول والخلفاء الراشدين

كانت – ولا تزال – تلك التجربة التاريخية الفريدة الـتى قـام بها الرسـول عنـدما تطلبت الأوضــاع منه أن يتــولى إدارة المدينــة، وأن يكــون سـيدها المطــاع، وحاكمها المتبع، ثم ما قام به أبو بكر وعمر بعده فى السـير على أثـره والاهتـداء بهديه – نقـول إن هذه الحقبة لا تزال فى الفكر السياسى الإسلامى حية – متوهجة، تتخذ مثالاً عمليـاً وواقعياً على أن الإسلام "دين ودولة"

فهل هذه هى الحقيقة.. أو أن الحقيقة هى ما ذهب إليه الشيخ على عبد الـرازق من أن الإسـلام لا علاقة له بأصـول الحكم. أو أن الحقيقة هى ما ذهب إليه المـودودى وسـيد قطب وحـزب التحرير من أن الإسـلام هو الحاكمية الإلهيـة، هو الشـريعة، هو الخلافة.

إن هذا الفصل يجيب على ذلك بفضل المعالجة التى تلمس كل أبعـاد الموضـوع وتلحظ أثر الأحداث وتفاعلها مع النصوص وما أدى إليه هـذا من تـوافر خصـائص معينة تميز دولة المدينة عن أى دولة أخرى وتوجب تصنيفاً خاصاً، إذ فى الوقت الــذى يجتمع فيها بعض وظـائف الدولـة، فإنها تتجـرد من وظـائف أخـرى تعد حيوية فى كل دولـة، بالإضافة إلى أنها لم تستمر قرابة خمس وعشرين سنة. منها عشرة فى حياة الرسول والباقى فى خلافة أبى بكر وعمر. وعنـدما طعن عمـر، طعنت الخلافة الراشـدة معـه. وانطوت صفحتها، لأن عثمان حاد عن سـيرة الشـيخين، ولأن عليا عنـدما أراد أن يعـود بها سيرتها الأولى َتأبّتْ عليه، بل ودفع حياته ثمناً لذلك..

من أجل هـذا يمكن القـول إنه حـدث فعلاً فى تـاريخ الإسـلام أن قـامت دولة إسلامية فى المدينة المنورة لمدة خمس وعشرين سـنة، ولكنها لما كـانت دولة خاصة جداً وتخالف مألوف الدول فى أبرز صفاتها، فإنها لم تدم سوى تلك المدة. أما ما تلاها فإنه كـان الطريق إلى الملك العقيم العضـوض الـذى اسـتمر حـتى سـقوط الخلافة التركية سـنة 1924 ولا تحسب هـذه الـدولات على الإسـلام لأنها لم تقم على أسس إسلامية، وإنما هى جزء من تاريخ الدول التى ادعت انتسابها للإسـلام، وهى فى حقيقة الحـال جـزء من التـاريخ السياسى الـذى يقـوم على الغصب والحـروب والسـيطرة والاسـتحواز على الأرض واسـتعباد الجمـاهير، وبالتـالى فـإن من الخطأ الكبـير تصـور إمكانية إقامة دولة إسـلامية على غـرار دولة المدينة فى عهد الرسـول أو فى عهد الخلفاء الراشدين. لأن الصفات الاسـتثنائية الـتى اتصـفت لا يمكن أن تتكـرر وأولها إن دولة المدينة كان على رأسها رسول يوحى إليه وهذا ما لا يمكن بالطبع أن يتكرر.

الفصل الأول
دولة المدينة أيام الرسول
تجربة فريدة لا تتكرر

- 1 -
قبل أن تظهر دولة المدينة

ألـفَ كثـير من الكتـاب والـدعاة أن يبـدءوا عرضـهم لقضـية الحكم فى الإسـلام بالحديث عن دولة المدينة التى أقامها الرسول وواصلها الخلفاء الراشدون. وهذا وإن كـان بالنسـبة للحكم صـحيحاً إلا أنه لا ينفى أن الإسـلام لم يبـدأ فى المدينة وإنما فى مكة وأن الرسول قضى فى مكة مدة أطـول من الـتى قضـاها فى المدينـة، وأن أكـثر من نصف القرآن نزل فى تلك المرحلة التى لم يكن فيها دولـة، بل كـان الإسـلام فيها ملاحقاً بالاضطهاد من القرشيين..

إن من المحقق أن دعوة الإسلام التى تـنزل بها الـوحى الأمين نـزلت فى مكـة، وأن الرسول دعا المكيين إلى الإيمان بها. وأن الإسلام برز متميزاً، له جـوهره الخـاص وهو الإيمان بالله تعالى الواحد الأحد كما جاء فى القـرآن. والإيمـان بالـدار الآخـرة وما فيها من ثواب وعقاب والإيمـان برسـالة الرسـول وهـذه المقومـات الـتى تمثل جـوهر الإسـلام هى ما نـزل على الرسـول بمكة – ولم يـنزل عليه أن يؤسس دولة – أو يجند جنـداً أو يخـوض قتـالاً الخ... بل لم يـنزل عليه إلا ما يعد مكملاً للعقيـدة دون أن يمثل إضافة فى لبها وجوهرها.

ومن المؤكد أيضاً أن هذه المدة الطويلة كـانت مدرسة الإيمـان الـتى تعلم فيها قادة الإسلام ومرنوا على الصلابة والصبر والثبات وقبول التضـحية، وهى الخلائق الـتى يفترض وجودها فى بناة الدول..

ومعـنى هـذا أن <u>الحقبة المكية أثبتت أن من الممكن أن يوجد الإسـلام دون أن تكون له دولـة. بل حـتى وهو ملاحق مضـطهد من الأعـداء</u> وهـذا ما يضـعنا فى صـميم القضية. فالإسلام كدعوة وعقيدة وخلق ليس فى حاجة إلى دولة على وجه الضـرورة، لأنه إيمان والإيمـان اقتنـاع نفسى لا تسـتطيع الدولة أن تدعمه وتقويـه، ولا أن تقاومه وتمحوه لأن هذا يتوقف على درجة الإيمان. فإذا تمكن الإيمان من النفس، فلا تستطيع القوى الخارجة أن تؤثر عليه. وهذا هو حال الأقليات المسلمة الموجودة اليوم فى عدد كبير من دول العالم التى تتعرض للاضطهاد وصنوف من التمييز، دون أن ينال هـذا من إيمانها أو يمس إسلامها..

بل إن الحقبة المكية تثبت أنه من الممكن للدعوة المجردة من أى قوة إلا قـوة الحق ونصاعة الحجة أن تزحف بحيث تكسب جمهوراً وشعباً جديداً. فلم تؤمن المدينة بالإسلام إلا نتيجة تعليم مصعب بن عمير القرآن للمدنيين وبـذلك توصل إلى إسـلامهم وانطبقت عليهم كلمة عائشة "فتحت المدينة بـــالقرآن. فـــالفتح الأول والأعظم فى التاريخ الإسلامى بأسره لم يحدث بسـيف أو رمح، ولكنه بـالقرآن. وبفضل فتح المدينة فتحت مكة..

ولو أنعمنا النظر فى أول آية نـزلت عن القتـال. وأوجـدت بالتـالى مقومـاً من مقومـات الدولة لم يكن موجـوداً فى مكة لرأينا أن هـذا الإذن مبـنى على ما اكتنف الحقبة المكية من أذى واضـطهاد فالآية تقـول ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـاتَلُونَ (بفتح التـاء) بِـأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ. الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْـرِ حَـقٍّ إلا أَنْ يَقُولُـوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾. فتقرير القتال فى الإسلام إنما بنى على سبيل رد ظلم وقتال الآخرين الـذى مارسـوه لفتنة المؤمـنين عن عقيـدتهم. فالقتـال فى الإسـلام كـان دفاعـاً عن حرية

العقيدة ولم يكن قتالاً للاستحواز على أرض أو لاختلاف سياسى، بمعنى أنه لم يكن لحساب الدولة ولكن لحساب العقيدة.

بل إن هذا هو ما يقال على الهجرة نفسها التي لم يدفع الرسول إليها إلا تآمر المشركين. بمعنى أنها لم تكن أمراً مقرراً لولا هذا التآمر، كما لم تكن هجرة المسلمين إلى الحبشة إلا بحثاً عن أرض يمكن للمسلمين فيها ممارسة إسلامهم دون ظلم أو ملاحقة أو اضطهاد.

ما نريد أن نوجه الأنظار إليه هو أنه وإن كانت مرحلة المدينة قد أوجدت "الدولة الإسلامية" فإن مرحلة مكة قد عمقت العقيدة التى قامت عليها الدولة.. والتى هى الأصل والأساس. وأنه عندما وهنت العقيدة فى نفوس الناس مع تطاول الزمن فقدت الدولة الإسلامية قوتها، وميزتها وخصيصتها.

وهذه الوقائع التاريخية نجد لها سنداً فى القرآن مما يجعلها أصلاً من أصول الدعوة إلى الإسلام..

- 2 -

نصوص قرآنية ونبوية

من الطبيعى أن نسترشد أول ما نسترشد فى موضوع الدولة والحكم بما جاء فى القرآن الكريم أو روى عن الرسول باعتبارهما المصدرين الأصليين للإسلام، وأن كل ما يأتى بعدهما تبع لهما.

وكما سنرى هذه الأسانيد – وهى آيات وأحاديث تجعل الرسول مبلغاً ومبينا، وبشيراً ونذيراً وداعيا إلى الله بأذنه وسراجاً منيراً – كما تجعله رحمة للعالمين، ومن باب أولى – رحمة للمؤمنين، وتجرده من كل هيمنة أو أن يكون جباراً أو مسيطراً، أو حتى وكيلاً، وهى صفات تبعده – بداهة – عن السلطة بل إنها تجرده من أى سلطة جبرية..

كما تجعل هذه الآيات الهداية من الله "إنك لا تهدى من أحببت". وتجعل الأفراد هم الذين يؤمنون ويكفرون بمحض إرادتهم بحيث تكون قضية الإيمان والكفر قضية فردية تعود إلى صاحبها وليست من قضايا النظام العام فقد أراد الله تعددية الأديان، ولو شاء لجعل الناس أمه واحدة، وليس من الإسلام فى شىء أن تتجادل الأديان أو أن يدعى بعضها الأفضلية والامتياز، أو أنه يحتكر الهداية، والآيات تقضى بأن الله تعالى هو – وحده – الذى سيفصل فيما كانوا فيه يختلفون يوم القيامة ويتسق مع هذا كله أن القرآن الكريم لم يضع حداً دنيويا للردة..

وهذه الآيات فى مجموعها تبعد الرسل والأديان عن الحكم والسلطة قدر ما تقربهم من الأمة.

ولا يُستغرب بعد هذا أن لا يكون فى القرآن إشارة إلى دولة أو حكومة. ودائما نجد التأكيد والتكرير على " الأمة ".

كما يتفق مع هذا أن تكون كلمة الحكم التى ترددت فى القرآن بمعنى القضاء ومن ثم فإنه يتبعها بحرف "بين" أما عندما يطلقها عامة فإنه ينسب الحكم لله تعالى.. وليس لأحد من البشر...

وفيما يلى هذه الآيات والأحاديث..

1. الرسول مبلغ.. وليس حاكما:

- ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾{99 المائدة}..
- ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِي السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾{188 الأعراف}..
- ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾{41 يونس}..

- ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾{12 هود}..
- ﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾{ 40 الرعد}..
- ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ﴾. {94 الحجر}..
- ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾{82 النحل}..
- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا **(56)** قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً **(57)** وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ {58 الفرقان}
- ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ {45 ق}..
- ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ **(52)** أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ **(53)** فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ **(54)** وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾{55 الذاريات}..
- ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ {6 الشورى}..
- ﴿أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى **(5)** فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى **(6)** وَمَا عَلَيْكَ أَلا يَزَّكَّى﴾{7 عبس}..
- ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ **(21)** لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾{22 الغاشية}.

2. الهداية من الله...

- ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ {البقرة 272}..
- ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾.{88 النساء} ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ **(99)** وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ {100 يونس}..
- ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾{ 56القصص}..
  - ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ {8 فاطر}..

3. الإيمان والكفر قضية شخصية..

- ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ {256 البقرة}..
- ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾{108 يونس}..
- ﴿مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ {15 الإسراء}..
- ﴿وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾{29 الكهف}

- ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ(91) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنْ الْمُنذِرِينَ(92) وَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ {93 النمل}.
- ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ {44 الروم}..
- ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلا مَقْتًا وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلا خَسَارًا﴾. {39 فاطر}..
- ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنْ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾. {41 الزمر}..

4. لا يوجد حد دنيوى على الردة..

- ﴿أم تريدون أن تسئلوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل﴾. {108 البقرة}..
- ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ {217 البقرة}..
- ﴿إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون﴾. {90 آل عمران}..
- ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلْ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾. {137 النساء}..
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ {54 المائدة}..
- ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلا أَنْ أَغْنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُنْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمْ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾. {74 التوبة}..
- ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنْ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. {106 النحل}..
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾. {25 محمد}

5. لا يوجد فى القرآن دولة، ولكن أمة..

لم ترد كلمة "دولة" فى القرآن الكريم إلا مرة واحدة بصدد الحديث عن الفىء ﴿كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم﴾ كما جاءت إحدى اشتقاقاتها ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾.

ولا نجد فى معاجم اللغة لكلمة دولة معنى إلا بالمعنى الذى أوردها القرآن الكريم أو بمعنى الغلبة..

فى مقابل هذا نجد القرآن يستخدم كلمة أمة فى 49 موضعاً ويجعل هذه الكلمة الوصف الجماعى للناس، وللمؤمنين. ويضيق المجال بالطبع عن إيراد كل هذه الآيات وحسبنا منها..

- ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾. {143 البقرة}..
- ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا ﴾ {41 النساء}..

- ﴿وَلِكُـلِّ أُمَّةٍ أَجَـلٌ فَـإِذَا جَـاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْـتَأْخِرُونَ سَـاعَةً وَلا يَسْـتَقْدِمُونَ ﴾ {34 الأعراف}..
- ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُـونَ﴾. {47 يونس}..
- ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُـرُونَ بِالرَّحْمَـانِ قُـلْ هُـوَ رَبِّي لا إِلَـهَ إِلا هُـوَ عَلَيْـهِ تَـوَكَّلْتُ وَإِلَيْـهِ مَتَـابِ﴾. {30 الرعد}..
- ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِـدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُـدُونِي(92) وَتَقَطَّعُـوا أَمْـرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُـلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾. {93 الأنبياء}..
- ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِي﴾. {52 المؤمنون}

ويمت إلى هـذا بصـلة أن القـرآن الكـريم – وكما سـنرى السُـنة – تطلق على الرسول أو القائم بالأمر تعبيراً مشتقاً من الأمة وهو "الإمام" فلا يعرف الإسلام (قرآنا وسُـنة) كلمة ملك أو حـاكم ولكن إمـام وأئمة ﴿وَجَعَلْنَـاهُمْ أَئِمَّةً يَهْـدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾. {73 الأنبياء}..

- ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَـالَ لا يَنَـالُ عَهْـدِي الظَّالِمِينَ ﴾ {124 البقرة}..

6. الحكم فى القرآن بمعنى القضاء..

- ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾. {42 المائدة}..
- ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾{105 النساء}..
- ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾{58 النساء}..
- ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾{48 النور}..
- ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾{42 المائدة}..
- ﴿خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ﴾{22 ص}..
- ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُـونَ حَتَّى يُحَكِّمُـوكَ فِيمَا شَـجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِـدُوا فِي أَنفُسِـهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾{65 النساء}..
- ﴿وَكَيْـفَ يُحَكِّمُونَـكَ وَعِنْـدَهُمْ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْـدِ ذَلِـكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ {43 المائدة}..
- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنـزِلَ مِنْ قَبْلِـكَ يُرِيـدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُـرُوا بِـهِ وَيُرِيـدُ الشَّـيْطَانُ أَنْ يُضِـلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا﴾ {60 النساء}..
- ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيـدَا إِصْـلاحًا يُوَفِّقْ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ {35 النساء}..

كما يلحظ فى كل الآيات التى جاء فيها الأمر بـالحكم بين النـاس أن هـذا الحكم مقيد بما أنزل الله. فالحاكم قاض يحكم بين النـاس بقـانون هو ما أنـزل له ولا يحل له أبداً أن يحكم بخلاف ذلك، وهناك آيات عديدة تحـذر الرسـول من أن يحكم بـالهوى أو أن يُفتن عما أنزل الله.

وهكـذا نـرى الحكم هو القضـاء وما يـوحى إليه ذلك من البعد عن معـنى الحكم السياسى وحكم القـادة والملـوك وما يتسم به من تـداعيات بعيـدة عن معـنى العدالة قدر ما هى قريبة من معنى الجبروت والسلطة.

وليس الحكم بمعنى القضاء غريباً أو جديداً على الأديان فقد ظل "القضاة" يحكمون بنى إسرائيل فى الفترة من موت يشوع حتى اختيار شاول أول ملك لليهود وتبلغ هذه الفترة نحو أربع مائة سنة على وجه التقريب، ولم يكن هؤلاء.. حكاماً أو قواداً عسكرين، ولكنهم كانوا أفراداً متميزين من صميم الشعب.

وقد صك القرآن الكريم تعبيراً جديداً عندما قال "أولى الأمر" "أطيعوا الله والرسول وأولى الأمر منكم"، وأولى الأمر تعود إلى "منكم" وبالتالى تسع لعديد من الأفراد..

وهذا اصطلاح يعود إلى أصل أعم هو مجرد كلمة "الأمر" التى تستخدم فى السُنة، وكذلك فى القرآن الكريم (حوالى 72 مرة) بمعنى الحكم كما يدل على ذلك سياق الآيات :

- ﴿لَيْسَ لَكَ مِنْ الأمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾. { 128 آل عمران}..
- ﴿هَلْ لَنَا مِنْ الأمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾. {154 آل عمران}..
- ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾. {159 آل عمران}..

كما ذكرت فى السُنة مناسبات عديدة أشهرها ما جاء فى حديث العباس عندما مرض الرسول ﷺ فطلب من على بن أبى طالب أن يسأل الرسول "فيمن يكون هذا الأمر فإن كان فينا الخ...".

وتحدث القرآن عن "ملك يأخذ كل سفينة غصبا" وعن ملك يقول "أنا أحيى وأميت" وتحدث عن "فرعون وهامان" وقارون وندد بهم بأقسى العبارات ثم وصم الملك بحكم أظهر خصيصة فيه.. ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾. {الآية 34 النمل}..

من هنا يتضح أن مدح القرآن الكريم لطالوت، وملكة سبأ هو استثناء مما يكون عليه الملوك من بغى وظلم مما يعد طبيعة فيهم..

لقد قيل إن الآيات التى تجعل الرسول مبلغا، ومبشراً، ونذيراً، وليس حاكماً أو ملكا آيات مكية، ولكن الحقيقة أن فيها آيات مدنية فى سورة آل عمران والمائدة والنساء والرعد والنور والتغابن وبعضها مما أنزل فى آخر العهد المدنى، فضلاً عن آيات مدنية فى سورة الأعراف وهود على أنه لو كانت الآيات مكية فهل معنى هذا أن تتحول إلى نقيضها ؟!.

والقضية ليست قضية آيات قدر ما هى طبائع الأمور. فطبيعة النبى لابد وأن تختلف عن طبيعة الملك. ولقد كان المُلك سُبّة لدى الصحابة، ونددوا بمعاوية عندما أخلف ابنه يزيد لأنه جعلها كسروية وقيصرية.. وقال معاوية نفسه "تعيرونى بالمُلك فقد قبلته.. والنبى أسمى بمراحل عن المُلك وهل يعقل أن يتحدث القرآن الكريم عن نبى بمثل ما تحدث عن المُلوك ؟ فشتان ما بين من يهدى النفوس ويخرجها من الظلمات إلى النور وبين الذين يفسدون فى الأرض ويجعلون أعزة أهلها أذلة، ويخرجونهم من نور الحرية إلى ظلمات السجون.

وكيف يمكن أن يقارن الرسول الذى كانت الأيام تمر دون أن يوقد فى بيته نار، وما شبع من خبز الشعير يومين متتابعين وكان فراشه وساده من أدم حشوها الليف.. بالملوك الذين لا تهدأ مطابخهم ليل نهار وتمتلئ بكل ما يصل إليه فنون الطهى من لحوم وحلوى وشراب..؟ لقد كانت حياة العرب بسيطة وكان هو أشدهم بساطة وقد رأى بعين النبوة عهد الثراء الذى سيأتى وتصور "عهداً" إذا غدا أحدكم فى حلة وراح فى حلة ووضعت بين يديه صحفة ورفعت أخرى وسترتم بيوتكم كما تستر الكعبة..

* * *

هذا هو موقف القرآن الكريم، فما هو موقف السُنة ؟

لقد رأينا إن الرســول يتفق مع القــرآن تمامــاً فى رفضه الملــك، والحكم والسلطة، ولعلنا نذكر أنه رفض كل ما عرضه عليه كبار قريش وثراتها من مال أو جاه أو ملـك، وأنه فى حياته فى المدينـة، وقد كـان سـيدها المطـاع والمحبـوب لم يتكلف شيئاً، وعاش كما كان دائماً، متقشفاً متواضعاً.

ويتفق ما جاء عن الرسول مع ما جاء فى القرآن الكريم، ففى كثـير من أحاديثه ندد بالحكم، والولاية فقال "ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يـوم القيامة مغلـولاً لا يفكه إلا العـدل أو يوبقه الجـور" وتحـدث عن الولاية "أولها ملامة وأوسـطها ندامة وآخرها خزى يوم القيامة"، "إنها أمانة وخزى وندامة يوم القيامة إلا من أخذ بحقها وأدى الـذى عليه فيهـا" "نعمت المرضـعة، وبئست الفاطمـة" وقـال "ليس من والى أمه قلّت أو كثرت لا يعدل فيها إلا كبّه الله تبـارك وتعـالى فى النـار، وقـال لا يسـترعى الله تبـارك وتعالى عبداً رعية فيموت يوم يموت وهو لها غاش إلا حرم الله عليه الجنـة. وقـال "يا عبد الرحمن (ابن سمرة) لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها وإن أعطيتها عن غـير مسـألة أعنت عليهـا" وقـال "ويل للأمـراء، ويل للعرفـاء ويل للأمنـاء ليتمنين أقوام يوم القيامة أن ذوائبهم كانت معلقة بالثريا يتذبذبون بين السماء والأرض ولم يكونوا عملوا على شئ.. وقال "تجدونه من خير الناس أشدهم كراهية لهذا الشأن حـتى يقع فيـه" وقـال "شر الرعـاة الحطمـة" ووضع مبـدءاً عامـاً بالنسـبة للطاعة "لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق"، ومبدءاً بالنسبة للولاية "لا يولى من يطلبها"، وتبرأ ممن يدخلون على الأمراء فيصدقونهم بكذبهم "الفتح الربانى – مسند الإمـام أحمد بن حنبل الشيبانى – من ص 20 – 22 الجزء 23".

حقا هنـاك أحـاديث تحض على الالـتزام بالبيعة وتنـدد بالـذين يرفضـونها، وهنـاك أحـاديث تحـذر من النكث بهـا.. وهـذه لا تخـالف تلك (أى الأحـاديث الـتى تعـزف عن الولاية) ولكنها تصور الطبيعة المعقدة للمجتمـع، الـتى تتطلب نوعـاً من التنظيم. وفى الوقت نفسه فإنها تحذر من أن يتورط الدعاة فى هذا التنظيم. لأن هـذا التنظيم الـذى ينتهى عند درجة معينة إلى السلطة لابد وأن يفسد الدعاة...

* * *

من هذه الآيات العديدة نلمس عزوف القرآن الكريم عن فكرة الحكم، والملـك، والسلطة، وتأكيده أن الرسول ليس إلا مبلغاً ومبشـراً ونـذيراً وليس له من مهمـة، أو سـلطة، إلا "البلاغ" وإن القـرآن الكـريم لم يسـتخدم تعبـير "دولـة" ولكن "أمـة" ولم يسـتخدم تعبـير حـاكم أو ملك ولكن إمـام وجعل الحكم أشـبه بالقضـاء، وأن الرسـول نفسه لم يدع لنفسه ملكا – ولم يسير سيرة ملك أو حاكم، وأنه عنـدما خـير اختـار أن يكون عبداً نبياً، وليس ملكاً..

* * *

- 3 -

دولة المدينة أيام الرسول

رغم كل ما أوردناه فى الفصل السابق من آيات قرآنية تحصر دور الرسـول فى البلاغ وتجرده من أى سلطة، ورغم الأحاديث النبوية التى تندد بالحكم والـولاة، فهنـاك واقعة تاريخية ثابتة هى أن الرسول مـارس فى السـنوات العشر له فى المدينة كثـيراً من سلطات الحكم، وأقام نموذجـاً فريـداً لدولة تفـوق ما قدمته أثينا فى القـديم، وما حاولته النظم السياسية حتى الآن...

ونحن لا نجادل فى هذه الواقعة، ولكننا نقول باختصار. إن "دولة المدينة" – وإن كنا نتحفظ على تعبـير "دولة المدينـة" – ونضـعه بين قوسـين، وإن تـوفر لها بعض مقومات الدولة، فإن البعض الآخر لم يتوفر لها، وأن الرسول فى قيامه بمهام الحكم فإنه كان يقوم بها – لا كحاكم – بل كرسول. **فضلاً عن أن كافة الملابسات التى تكتنفها تجعلها تجربة فريدة لا تتكـرر، ولا يمكن القيـاس عليهـا، وأقصى**

ما يمكن أن تقدمه هى أن تكـون مصـدراً لاسـتلهام القيم الـتى قـامت عليها والتقاليد التى وضعتها..

إن خصوصية دولة المدينة تضم جانبين الأول الملابسات الـتى ظهـرت فيها هـذه "الدولة". والثانى طبيعة المُنشى والمؤسس لهذه الدولة.

أولا: الملابسات التى أدت إلى ظهور دولة المدينة :

لنبدأ من البداية...

استجاب لدعوة الرسـول فريق من الأوس والخـزرج كـانوا يـزورون مكة موسم الحج وطلبوا أن يرسل معهم إلى المدينة من "يعلمهم القـرآن" فأرسل معهم مصـعب بن عمير الذى تـولى الـدعوة للإسلام وتلاوة القـرآن الكـريم : حـتى جـاء فى الموسم الثانى وفد كبير (73 رجلاً وامرأتان) أسلموا وبايعوا الرسول على حمايته، كما يحمـون نساءهم..

وتطورت الأحداث. فقد ترامى إلى سمع قريش إسـلام الأنصـار وانتشـار الـدين الجديـد، وكـانوا قد يأسـوا من اسـتمالة الرسـول.. فبـدؤوا فى رسم الخطط لاغتياله بطريقة لا تجعل له سبيلاً للثأر. وتوصـلوا إلى ذلك عنـدما أوكلـوا عملية الاغتيـال لعـدد من شباب قبائل قريش حتى "يضيع دمه بين القبائل"..

وتعيّن على الرسول أن يهاجر إلى المدينة...

وهاجر الرسـول فى الـوقت المناسب تمامـاً بعد أن حبكت قـريش مؤامرتهـا، بحيث أنه لو تأخر لتحقق ما رسموه..

هاجر النبى ومعه أبو بكر، بينما كان المؤمنون فى المدينة ينتظرون مقدمه ثلاثة أيام، فلما وصل استقبلوه بالنشيد المعروف...

طلع البـدر.. علينا — من ثنيات الـوداع
أيها المبعوث فينـا — جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة — مرحباً يا خير داع.

إننا نرى هنا بداية تختلف عن البدايات المألوفة فى النظم السياسـية الـتى تـأتى المبادأة فيها من الحاكم الـذى يحـاول أن يكسب الشـعب لصـفه بمختلف الطـرق من ترغيب أو ترهيب. ويقف الشعب منه موقف الشاك الـذى يطالبه بالـدليل والضـمانات. وقد يتعرض لمنافسة أنداد له ويصيبه كل ما يصيب المتنافسين من ادعاءات. إن شـيئاً من هذا لم يحدث فى دولة المدينة، وبدلاً منه نـرى شـعباً يسـتقدم قائـده ليسـلم إليه الأمر ويلزم نفسه بالطاعة له.

كـان المقتضى الطـبيعى لهـذا أن يؤسس الرسـول فى المدينة "أمة جديـدة" ومجتمعاً جديداً يؤمن بالإسـلام ويطبق تعاليمـه، بوجه خـاص ما يتعلق بنظـام المجتمع كطريقة إدارته، وطريقة تمويله، والوشائج والروابط التى تربط بين أفراده..

لم يكن مناص من هذا، فهو أمر فرضه الواقع، ولا يتصور غيره..

لم يكن متصوراً مثلاً أن يشغل الرسول منصب مصعب بن عمير ويكون رئيسـاً دينيا بحتا، ويدع الأنصار من خزرج وأوس ويهود على ما كانوا عليه. لأن هـذا كـان يمثل إزدواجية فى السـلطة ما بين الـرئيس الـدينى والـرئيس القبلى.. ولم يكن الأنصـار أنفسهم يقبلونه لأنهم أسلموا نفوسهم لله وللرسول الذى جاء "بالأمر المطاع".

كـان لابد من إقامة "أمـة" متمـيزة فى المدينة ومجتمعـاً إسـلاميا يطبق شـعائر الإسلام التى كان منها الزكاة، وكان أيضا من الضـرورى حماية هـذه الأمة الناشـئة من ملاحقات قريش..

فلننظر ماذا فعل الرسول بالترتيب بمجرد نزوله المدينة..

إنه أولا: بـنى المسـجد، واشـترك فى بنائه مع الصـحابة من مهـاجرين وأنصـار فرمز بذلك إلى الطابع الإيمانى لهذه الأمـة.. الـذى يجعل من المسـجد المنتـدى العـام الذى يأوي إليه المؤمنـون ليس فحسب لأداء الصـلوات، ولكن للمشـاركة فى القضـايا العامة..

ثم ثانيا: قام بعملية تآخى ما بين المهاجرين والأنصار بحيث يكـون لكل مهـاجر أخ أنصارى وبالتـالى ينصـهر الجميع فى أخـوة الإيمـان وتتقلص التفرقة والتميـيز بينهم كمهاجرين وأنصار..

ويعرض ابن هشام لهذه العملية.. "تآخوا فى الله أخوين أخوين، ثم أخذ بيد على بن أبى طالب فقـال: هـذا أخى فكـان رسـول الله سـيد المرسـلين، وإمـام المتقين، ورسول رب العالمين الـذى ليس له خطـير ولا نظـير من العبـاد، وعلى بن أبى طـالب رضى الله عنه أخوين، وكان حمـزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسـوله وزيد بن حارثة، مولى رسول الله أخوين، وإليه أوصى حمزة يـوم أحد حين حضـره القتـال إن حدث به حادث الموت، وجعفر بن أبى طالب ذو الجناحين الطيار فى الجنة، ومعـاذ بن جبل أخو بنى سلمة، أخوين".

قال ابن هشام :

وكان جعفر بن أبى طالب يومئذ غائباً بأرض الحبشة.

قال ابن إسحاق :

وكـان أبو بكر الصـديق رضى الله عنـه، بن أبى ُقحافـة، وخارجة بن زهـير، أخو بلحارث بن الخزرج أخوين، وعمر بن الخطـاب رضي الله عنـه، وعتبـان بن مالـك، أخو بنى سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج أخـوين. وأبو عبُيـدة بن عبد الله بن الجراح، واسمه عامر بن عبد الله، وسعد بن معاذ ابن النعمـان أخو بـنى عبد الأشـهل، أخوين وعبد الرحمن بن عـوف، وسـعد ابن الربيـع، أخو بلحـارث بن الخـزرج، أخـوين، والزبير بن العوام، وسلمة ابن سلامة بن وقش، أخو بنى عبد الأشـهل، أخـوين ويقـال: بل الزبير وعبد الله بن مسعود، حليف بـنى زهـرة، أخـوين، وعثمـان بن عفـان، وأوس ابن ثابت بن المنذر، أخو بنى النجـار، أخـوين، وطلحة بن عبيد اللـه، وكعب ابن مالـك، أخو بـنى سـلمة، أخـوين، وسـعد بن زيد بن عمـرو بن نفيـل، وأبى ابن كعب، أخو بـنى النجار أخوين، ومصعب بن عمير بن هاشم، وأبو أيـوب خالد بن زيـد، أخو بـنى النجـار، أخوين، وأبو حذيفة بن عُتبة بن ربيعة، وعباد بن بشر بن وقش، أخو بـنى عبد الأشـهل، أخوين، وعمار بن ياسر، حليف بـنى مخـزوم، وحذيفة بن اليمـان، أخو بـنى عبد عبس، حليف بنى عبد الأشهل، أخوين، ويقـال ثـابت بن قيس بن الشـماس، أخو بلحـارث ابن الخـزرج، خطيب رسـول الله وعمـار بن ياسـر، أخـوين وأبو ذر، وهو بُرير بن جنـادة الغفارى، والمنذر بن عمرو أخو بنى ساعدة بن كعب بن الخزرج، أخوين.

قال ابن هشام : وسمعت غير واحد من العلماء يقول: أبو ذر: جُندب ابن جُنادة.

قال ابن إسحاق :

وكان حاطب بن أبي بلتعة، حليف بنى أسد، بن عبد العزى، وعـويم بن سـاعدة، أخو بنى عمرو بن عوف، أخوين، وسـلمان الفارسـى، وأبو الـدرداء، عُـويمر بن عـامر، ويقال عُويمر بن زيد..." انتهى الاستشهاد من ابن اسحق.

ثم ثالثاً قام بوضع وثيقة هامة هى التى تطلق عليها بعض المراجع القديمة "صـحيفة الموادعـة" وما أطلقت عليها المراجع الحديثة دسـتور المدينة.

وتبدأ الوثيقة..

هذا كتاب محمد النبى رسـول الله بين المؤمـنين والمسـلمين من قـريش وأهل يثرب ومن تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم..

" أنهم أمة واحدة من دون الناس "..

وتسرد الوثيقة بعد ذلك أسماء فصائل الأنصار "بُنو عوف، وبنو الحارث، وبنو ساعدة، وبنو جشم، وبنو النجار، وبنو عمرو بن عوف، وبنو النبيت، وبنو الأوس.. ويذكر أمام كل فصيل من هذه الفصائل أنهم يتعاقلون[1] بينهم ويفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

ثم هناك عدة مواد تقضى على المؤمنين بأن لا يتركوا محتاجاً دون سد حاجته، وأن تكون أيديهم على كل باغ "ولو كان ولد أحدهم" وأن ذمة الله واحدة ويجير عليهم أدناهم وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس ثم يتعرض لليهود فيقول :

وإن من تبعنا من يهود، فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم. وأن اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين. لليهود دينهم وللمسلمين دينهم

ثم تسرد الوثيقة أسماء كل اليهود الحلفاء لفصائل الأنصار وتعطيهم مثل ما ليهود بنى عوف.

وأن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب هذه الصحيفة وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الآثم.

وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

وتحيل الصحيفة التحاكم فيما إذا وقع حدث أو اشتجار يخاف فساده إلى الله، وإلى محمد رسول الله.

هذا ملخص موجز لنص هذه الوثيقة الهامة التى تثير العجب لأكثر من داع.

1. هناك أولا الحرص على جعلها مكتوبة، مع أن العرب كانوا كما قال الرسول "أمة أمية" وأن المسلمين ما كانوا يكتبون إلا القرآن فالحرص على كتابتها إشارة إلى كونها "دستور" لكل الذين يسكنون المدينة...
2. إن صيغتها المحدودة تشبه صيغة القوانين والمعاهدات التى يلحظ فيها الدقة والوضوح وأنها تضع منذ ألف وأربعمائة سنة مبدأ <u>الأمة الواحدة</u> المختلفة الأديان والمختلفة الأعراق وتحتفظ لكل مجموعة بخصائصها داخل إطار الأمة، <u>وتعطى كل فرد حق "المواطنة"</u>.

وهذا شئ لم تحققه معظم دول العالم حتى اليوم..

3. إبراز مضمون التكافل، سواء كان فى التعامل أو سد حاجة المحتاج "بالمعروف والقسط" وبروز "البر دون الآثم"..
4. أعطت "المواطنة" لجميع الذين يقطنون المدينة بلا استثناء ودون اشتراط دين فجمعت ما بين اليهود والمسلمين وبذلك جعلت الوثيقة المكان هو مبرر المواطنة، كما فى النظم الحديثة.

وأخيراً، فإن طبيعة هذه الوثيقة وروحها تمت إلى "الأمة" التى كررتها أكثر من مرة – قدر ما تبعد من الدولة. لأن طابعها الإنسانى يهدم السدود بين الأجناس أو التجزءات والمحرمات التى تفرضها الدولة على غير مواطنيها.

وهكذا فإن الرسول عنى بإقامة المسجد وآخى بين المهاجرين والأنصار ثم وضع دستور الأمة.. ولم يفعل كما يفعل كل من يلى الحكم فيستأثر بقيادة الجيش ويقصى أعداءه عن مراكز النفوذ الخ.. ويتولى السيطرة على أجهزة الأمن الخ... إن شيئاً من هذا لم يخطر ببال

---

[1] **(1) إى يواصلوا ممارساتهم الخاصة بالديات، والإضافة الإسلامية هى " بالمعروف والقسط بين المؤمنين ".**

الرسول ﷺ لأنه كان مستبعداً بحكم القيم الإيمانية.. وبحكم الواقع الساذج الذى كان يجعل "المجتمع" قبيلة، وبالأكثر أمة ولكن دون أن يصل بها إلى "الدولة" وأجهزتها وسلطانها..

وما من مثل يوضح خصوصية العلاقات التى ربطت بين عناصر هذه الأمة التى تقوم على إيمان عميق كالذى فعله أحد الأنصار عندما عرض على أخيه المهاجر ليس فحسب شطر أرضه وماله، بل أن يتنازل عن إحدى زوجتيه ليتزوج بها المهاجر، الذى بدوره شكر أخاه الأنصارى وقال له "دلنى على السوق" واستطاع بعمله أن يستغنى عن كل ما عرضه الأنصارى عليه. فهذه الروح الواحدة بين الاثنين كانت فى أنسجة البناء العظيم الذى أقامه الرسول فى المدينة والذى أسقط كل المحددات والمقومات باستثناء الإيمان والعمل الصالح.

* * *

وقد يكون أهم من هذا أن **أبرز ما يميز الدولة هى "الحكومة" وأبرز ما فى الحكومة هى السلطة. وما عدا هذين يغلب أن يكون مشتركا ما بين الدولة.. والمجتمع.** أو الأمة كالمعيشة على أرض واحدة أو التحدث بلغة واحدة.. أو توفر مصلحة واحدة إلخ.. فهذا كله يمكن أن يوجد فى مجتمع دون أن يكون "دولة" وإنما تكون الدولة فعلاً عندماً تظهر الحكومة، ولا معنى للحكومة إلا عندما تتوفر لها السلطة التى تتمثل فى الجيش المحترف الذى يفرض الطاعة للحكومة فى الداخل ويحميها من العدوان عليها من الخارج والسجون التى يحبس فيها المخالفون والعقوبات التى توقع على الذين يقترفون الجرائم وبقدر بروز الحكومة وسلطتها بقدر بروز معنى "الدولة".

وكان الجيش والبوليس فى "دولة المدينة" أوهى مقومات الدولة، ويمكن القول إنه لم يكن لهما وجود. وعندما بدت بوادر حرب بدر ودعا الرسول المهاجرين للحرب استفهم عن مدى استعداد الأنصار الذين استجابوا له ومع أن استجابتهم كانت حماسية فقد سألهم الرسول عن رأيهم، ولم يصدر إليهم الأوامر، لأن البيعة التى هاجر الرسول على أساسها لم تكن تتضمن حرباً هجومية، ولكن دفاعية..

على أن موافقتهم ومشاركتهم لا تعنى وجود جيش محترف، ولكنها القبيلة التى يشترك رجالها فى القتال عندما تتطلب الظروف ذلك سواء كان دفاعاً عن حوزتها أو كان طلبا للمغنم. وكانت تحارب بطريقتها الخاصة من كر وفر دون أن يكون لها نظام وتقسيم من جنود وضباط وألقاب عسكرية إلى آخر هذا التقسيم الفنى الذى وصل إلى أوجه فى الجيش الرومانى حيث نجد الجيش المحترف والحرس البريتورى والضباط والجنود الخ...

ولم يكن فى دولة المدينة سجن، وعندما أسر المسلمون ثمامه بن أثال من بنى حنيفه ربطوه فى سارية المسجد، حتى أطلقه الرسول وحلت "المقاطعة" محل السجون. كما فى حالة الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك وأمر الرسول بمقاطعتهم. فكانوا فى سجن "هذه المقاطعة" التى عزلتهم عن أقرب الناس إليهم، كما تعزل السجون نزلاءها.

وأدى عدم وجود الجيش المحترف، أو السجن أو الأغلال التى تبلور معنى السلطة وإرهابها ما بين بريق السيوف وظلام السجون ما يتعلق بشخصية المنشئ لهذه الدولة – أى الرسول – فضلاً عما يبعد عن الرهبة والسلطة قدر ما يرتكز على الإيمان الطوعى.

حقاً إن الرسول ﷺ خاصة فى المرحلة الأخيرة، وبعد أن حصل على الاستجابة المبدئية من الأنصار فى معركة بدر كان يتصرف تصرف قادة الجيوش، وأظهر حنكة سياسية نادرة واستخدم الضغوط آونة والاستئلاف آونة أخرى بحيث دانت له العرب ولكن الجيش الذى استخدمه كان هو الجيش البدائى القبلى الذى يجتمع عندما يحدث قتال ويتفرق بعده.. ثم طاعة الرسول لم تكن مفروضة منه عليهم، ولكنها كانت قبولا

طوعياً لإيمانهم بأنه "رسول الله" الذى اصطفاه اللـه، وأرسـله، وأيـده، فكيف يتصـور مخالفته...

ومن الخصائص التى تميز الدولة فرض ضرائب وتحصيلها بالقوة.. ولم يأخذ هـذا الحق فى المدينة صـورة الضـرائب المألوفـة. وإنما تمثل فى الزكـاة الـتى "تؤخذ من غنيهم لترد على فقيرهم" كما لم تكن هـذه الضـريبة تـودع فى الميزانية العامة للدولة "الـتى لم تظهر حـتى خلافة عمر فى شـكل "بيت المـال" وإنما كـانت تـوزع على المحتـاجين والفقـراء فى المجموعة الـتى أخـذت منهم ولأن الزكـاة حق مفـروض لمسـتحقيها وليست منة أو إحسـانا ولهـذا كـان من حق – أو من واجب – الدولة تحصـيلها، فـإن هـذا لم يكن يتم غصـبا، وإنما برضـى وقبـول من تؤخذ منهم، ووجه الرسول عماله لأن لا يأخذوا "كرائم أموالهم" وعنـدما ما لم يتـبين أحد العـرب حكمتها فقال "ما هـذه إلا جزيـة. ما هـذه إلا أخت الجزيـة" وأرجأ تسـليم زكاتـه، ثم فطن إلى خطئه فجاء بها، فإن الرواية تقول إن الرسول رفض أخذها حتى تـوفى.. فلما جـاء بها لأبى بكر رفض أخذها حتى توفى أبو بكر وجـاء بها إلى عمر الـذى رفض أخـذها ومـات الرجل فى خلافة عمر. وإن كان قد روى عن الرسـول ما يختلف عن هـذا فى إجبـار من يرفض، بل وأخذ ضعف ما يكون عليه. كما أن أبا بكر شن حربه للرفض الجمـاعى من بعض قبائل العرب لـدفع الزكـاة ويحتمل أن يوجد فـرق ضـئيل بين أن تكـون حالة فردية وتمرد جماعى.

ثانيا: طبيعة مُنْشئ – دولة المدينة – الرسول

وما يميزه عن الحاكم/الملك...

إذا انتقلنا من الملابسات التى أدت إلى ظهور دولة المدينة بالصورة التى أخذتها بالفعل، والتى وإن شـابهت الدولة فى بعض الوظـائف، فـإن طريقة ممارسـتها تختلف كثيراً عن مألوف ممارسات الدول لهـا، نقـول إذا انتقلنا من هـذا الجـانب إلى الجـانب الآخر الذى أعطى "دولة" المدينة طابعها الخاص. ألا وهو الصفة الممـيزة لمنشئ دولة المدينة وقطب الـرحى فيها وهو الرسـول، فإننا سـنجد ما يتفق مع الطـابع العـام للملابسات التى أحاطت بتكوين هذه الدولة التى أعطتها طابعها الخاص..

فلم يدخل الرسول المدينة دخول فـاتح غـاز، ولم يـرث الملك كـابراً عن كـابر.. ولكنه دخلها من باب النبوة واكتسب طاعة أهلها بحكم الإيمـان الطـوعى ولم يكن فى هذا، ما يتطلب سطوة، أو رهبة، أو سلطة، وما كـان يتفق معه أن يكـون للرسـول زى الملوك وسـمتهم وأن يقف على رأسه الحـراس وعلى بابه الحجـاب فهـذا كله يخـالف طبيعة الرسل والأنبيـاء وإن كـان يعد من برتوكـول الدولة ومراسـيمها، وكـانت طبيعة الرسـول تسـتبعد كل هـذا بل وتناقضـها بحيث أمر الرسـول أن لا يطـروه كما أطـرت النصارى عيسى بن مريم، وأوصاهم أن يقولوا عنه "عبد الله ورسوله" وكره المداحين وقال "إذا لاقيتم المداحين فاحثوا فى وجوههم التراب" وأعلن أن الله تعالى يكـره من يحب أن يتمثل له الرجال وقوفاً، وقال حسب المرء من الشر أن يشـار إليه بالأصـابع، وعندما تملكت الرهبة فى مجلسه امرأة خفـض روعها وقال لها "هـونى عليك فإنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد **...**

لم يكن له قصر أو بيت، ولم يكن له حـرس، وكـان قصر الرسـول حجـرات فى المسجد لم يكن لها أبواب، وكان بعض الأعراب يتطفلون عليها حتى نزلت آية الحجاب حاميه له ولزوجاته من هذا التطفل.

وهم يقولون إن الرسول مارس – كأى حاكم – سلطة تطـبيق القـانون للقـانون وتنفيذ العقوبات..

وقد كان من الممكن أن نقول إن من يقوم بذلك لا يقال له حـاكم، ولكن قاض..

ولكننا لا نزج بهذا الدفع رغم وجاهته، لأن الطريقة التى مارس بها الرسول هـذه الوظيفة تختلف جذريا عن الطريقة التى يمارس بها الحكام العاديون هذه الوظائف.

إن الرسـول لم يكن ليطبق الحد إلا بعد أن يحـاول درء الحد بكل الطـرق الـتى تصل إلى حد تلقين المتهم الإنكـار فـأين هـذه الطريقة من الطـرق المقـررة عنـدما تنصب الشباك للمتهم وتستخدم وسائل التجسس حتى يضبط "متلبساً بالجريمة".

من هنا فــإن المهم ليس ممارسة الرســول لبعض الوظــائف الــتى يمارســها الحكام، ولكن طريقة الممارسة التى تختلف مخالفة جذرية عن الطريقة التى تمارسها الدول.

* * *

وهناك شئ أهم من هذا كله..

ذلك أن هذا المؤسس للدولة كان يتلقى توجيهات وحى ليست فحسب ترسم له الطريــق، ولكن أيضا تؤدبه وتلزمه الجــادة، وتحــول بينه وبين الاستســلام للضــعف البشرى. وهذه التوجيهات ليست "سرية" أو لا يعلم بها إلا الرسول، ولكنها علنية، لأنها آيـات من القـرآن يتلوها جمهـور المسـلمين ليل نهـار، وهـذا شئ لا يمكن أن يحـدث بالنســبة لملك وهو ما يجعل رأس هــذه "الدولــة" نمطا فريــداً بين الرؤســاء، ولعلها المقصودة بما يروى عن النبى ﷺ "أدبنى ربى فأحسن تأديبى"..

وأى "ملك" تصدر إليه الأوامر "بأن يخفض جناحه للمؤمنين.."

- ﴿لا تَمُـدَّنَّ عَيْنَيْـكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِـهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلا تَحْـزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَـكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ {88 الحجر}.
- ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ﴾ {215 الشعراء}.

لقد استخدم القرآن الكريم تعبير "خفض الجناح" ليصف مسلك الأبناء نحو الآباء. فــأن يستخدم التعبير نفسه ليصف مسلك الرسـول نحو أتباعـه، فإنه فى هـذا يحـدد العلاقة بين حاكم ومحكوم بما لم تصل إليه أى ديمقراطية.

واقـرأ أيضا ...

- ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الـدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. لَوْلا كِتَابٌ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. {68 – 67 الأنفال}.
- ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَـكَ مَـعَ الَّذِينَ يَـدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَـدَاةِ وَالْعَشِـيِّ يُرِيـدُونَ وَجْهَـهُ وَلا تَعْـدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَـهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَـعَ هَـوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ {الكهف 28}.
- ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْــكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَــكَ الَّذِينَ صَــدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَــاذِبِينَ﴾ {43التوبة}..
- ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْـتَغْفِرْ لَهُمْ سَـبْعِينَ مَـرَّةً فَلَنْ يَغْفِـرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾. {80 التوبة}..
- ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى. أَنْ جَاءَهُ الأعْمَى. وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى. أَوْ يَـذَّكَّرُ فَتَنْفَعَـهُ الـذِّكْرَى. أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى. فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى. وَمَا عَلَيْكَ أَلا يَزَّكَّى. وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى. وَهُـوَ يَخْشَى. فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ {10 – 1 عبس}
- ﴿وَلَوْ شَـاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَـأَنْتَ تُكْـرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُـوا مُؤْمِنِينَ﴾ {99 يونس}..
- ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَـإِنْ اسْـتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأرْضِ أَوْ سُـلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلا تَكُونَنَّ مِنْ الْجَاهِلِينَ﴾ {35 الأنعام}..

وحتى فى سلوكه مع زوجاته..

▪ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ {1 التحريم}..

انظر إلى هذا الملام، أو قل الوعيد...

▪ ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاتَّخَذُوكَ خَلِيلا. وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً. إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾. {75 – 73 الإسراء}.

▪ ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ(44) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ(45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾. {46 الحاقة}..

لا يتصور فى نظم الحكم أن تصدر إلى الملك توجيهات من مصدر أعلى (وأين هذا المصدر الأعلى من الملك) – بمثل هذه الصراحة والصرامة – تلزم الحاكم أو الملك حدوداً وتوجه إليه الملام على بعض تصرفاته، وتكون هذه التوجيهات علنية يقرأها الشعب ليل نهار ويرددونها فى صلواتهم

وكان الوحى يصحح للرسول بعض تصرفاته، كما فى حالة أسرى بدر، وفى صلاته على جسد كبير المنافقين بن ُأبى فلم يكن الرسول حراً حرية مطلقة فى إصدار القرارات والأحكام، كما لم يكن الأمر أمر المسلمين أنفسهم وإنما كان الرسول والمسلمون لهما نصيبهما، ولكن الوحى، ويمكن أن نقول "القرآن" كان دعام النظام الذى قام فى المدينة، وكان الحكم فيها هو حكم القرآن أو كما يمكن أن نقول حكم القانون.

من ناحية أخرى، فإن القرآن أثنى على الرسول وامتدحه بما لم يمتدح فرداً آخر فقال ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ وقال: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين، وقال: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾..

واعتبر اصطفاءه وإرساله منة كبرى على المؤمنين ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ {164 آل عمران}

وأوجب على المؤمنين طاعته والالتزام بشيء من الأدب تجاهه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ {2 الحجرات}.

وقال ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا مُبِينًا﴾. {36 الأحزاب}.

وقال ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ {65 النساء}.

وهذه الآيات جعلت طاعة الرسول فرضاً دينيا وواجباً على المؤمنين بنص القرآن، بحيث لم يعد شائبة خلاف فى هذه الناحية..

وهكذا نرى أن وضع الرسول وضع خاص جداً وفريد، ولا يمكن القياس عليه وقد أخطأ بعض الدعاة عندما لم يلحظوا الصفة الاستثنائية للرسول، واستشهدوا بواجبات الطاعة للرسل كمثال لما يجب أن تكون عليه طاعة الأعضاء لقائد الجماعة أو "الخليفة" أو "الإمام" أو "رئيس الجماعة" فهؤلاء جميعا لا يستحقون على جماهيرهم الطاعة التى استحقها الرسول على المؤمنين باختصاص الله له. وقد كان لهذا المزلق الذى وقعت فيه معظم الدعوات الإسلامية المعاصرة آثار وخيمة على ديمقراطية الأداء فيها.

* * *

هناك جانب لا يجوز إغفاله، ويغلب أن يساء فهمه خاصة من المستشرقين، ألا وهو الغزوات التى شغلت الكثير من اهتمامات الرسول والمسلمين، ولا يمكن فهم هذا

الجانب إلا فى ضوء الظروف والملابسات التى حكمت الدعوة نتيجة لاضطهاد ومقاومة قريش. هذا الاضطهاد الذى أدى بالمسلمين لترك دورهم وأموالهم والهجرة إلى المدينة دون أن تقف هذه العداوة، بل لاحقتهم وحالت دون أن يتمتعوا بأمن وسلام، ولهذا كانت المجابهة أمراً مقضيا ولا مناص منه. ولم تقف هذه المجابهة إلا بفتح مكة التى كانت بدورها ثمرة للسياق التاريخى..

هذا الجانب من النشاط الذى هو أقرب إلى الدولة منه إلى الأمة كان بأسره نتيجة للظروف والملابسات التاريخية التى فرضت نفسها على الدعوة ولم تكن أصلاً فيها، وضرورة للدفاع عن الدعوة وليس عن الدولة. وقد أزعج بعض الكتاب المعاصرين أن يجدوا أن كتب السيرة لا تكاد تتضمن شيئاً خلاف الغزوات أو لا تذكر موضوعاً يماثل موضوع الغزوات والحق إن هذا لم يزعجهم وحدهم، فقد أزعج المسلمين الأوائل الذين لم يكونوا بوجه خاص يحبون القتال، بل كان بتعبير القرآن الكريم "كرها لهم" ولكن القرآن وضع التكييف الكامل للقتال، فمع أنه كان كرها للمسلمين الأول إلا أن طبائع الأشياء ومقتضيات المجتمع جعلت منه "خيراً كثيراً" وهذا الخير هو أنه ما لم يجابه الطغاة والمستبدون بالحرب فإن طغيانهم لابد وأن يستشرى حتى يستعبد الناس ولا يعد لهم حرية، ولما كان الظلم من شيم النفوس التى تتبدى ما لم تقفها قوة، فإن هذا يعنى القتال، والقتال هنا يعنى حماية للحرية وهو ما يعبر عنه القرآن "لكى لا تكون فتنة" أى لكى لا يفتن أناس عن عقيدتهم بالقوة. فالإسلام لم يمجد الحرب للحرب، ولكنه رأى فيها ضرورة، إذا كانت كريهة، فإنها تحمى الحقوق والحريات.

وقد ظهر الإسلام فى قوم كان النهب والسلب والغارة على الآخرين أحد موارد رزقهم فحرمها وحسم شأفة ذلك وأحل السلام والأمن بين الناس، كما أنه عندما سمح بالحرب للأسباب التى سبق ذكرها فإنه هبط بسوءاتها إلى أقصى ما يمكن، وتقبل أشد الأعداء – عندما آمنوا – كأخوة متحابين وقضى على العداوة القديمة كأن لم تكن لأن الإسلام يَجُبُ ما قبله ولم يكن هذا هو شأن "الثأر" فى الجاهلية أو الدول عادة مع أعدائها.

هذه الجوانب كلها لقضية القتال الإسلامية، لم يكن مناص من مجابهتها، وما كان يمكن لهذه المجابهة أن تتم إلا بالسيف، وإلا بمعنوية عالية، فجاءت الآيات القرآنية تستحث المسلمين للدفاع وتثير فيهم الحمية والقوة حتى لا يستسلموا أو يضعفوا. والتقصى الدقيق لكل آيات القتال بدءًا من السورة التى أذنت بالقتال ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم قد ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾ {39 الحج}. حتى سورة التوبة كلها نصوص دفاعية حتى ما يبدو منها متشدداً للحيلولة دون "الفتنة" أى فتنة المسلمين عن دينهم.

وعندما تفرض الظروف المبررة للحرب من دفاع عن النفس، والمال، والعقيدة على طرفِ الحربَ فلابد من رفع الروح – المعنوية ومن الاستعداد للقتال ومن إحساسه بما يكفل الإنتصار، فالحرب جد لا هزل فيه، لأن الهزل يعنى الهزيمة والعار والنهاية، وهى قطعاً أسوأ مما تحدثه الحرب من مآسى..

ويجب أن يلحظ أن القتال ليس إلا جزءاً من "الجهاد" الأكثر شمولاً وأعم معنى، والذى جاءت بصدده وحثت عليه الآيات، وهو يعطى أعلى معنى للإيجابية والفعالية فى الحياة بحيث لا تكون الحياة سلبية، وبهذا المعنى فإن كل ما جاء عن الجهاد فى الإسلام إنما ينصب فى خانة الحياة ويثريها[2]

***

وفى النهاية نجد أن دولة المدينة رزقت ملابسات فى التأسيس لا تتأتى لغيرها، وانسحبت آثارها عليها بحيث كانت سياقاً تاريخيا جمع بين الرسول وضرورة الحكم وانتهت بموت الرسول، لأنه لا رسول بعده.

---

[2] **(2) لقد عالجنا هذا الموضوع بإفاضة فى كتابنا "الجهاد" دار الفكر الإسلامى – القاهرة.**

وأن رأس هذه "الدولة" الفريدة كان رسولاً يستلهم الوحى الذى يوجهه ويؤدبه ويعاتبه، بقدر ما كان يوجب على المؤمنين طاعته. وهذا بالطبع ما لا يتأتى لأى دولة أخرى.

ومع هذا فلم تكن دولة المدينة دولة بالمعنى السائد الذى نجده فى معظم النظم السياسة، فليس لها جيش محترف ولا سجون مشيدة ولا بوليس ولا تفرض ضرائب. وليس هناك دولة متكاملة المقومات لا توجد فيها هذه.

وهذه الطبيعة الفريدة هى التى أمكن بفضلها الجمع ما بين النصوص التى تندد بالحكم والمُلك، وبين قيام الرسول بمسئولية الحكم. لأنه لم يكن حاكماً بقدر ما كان قاضياً، وداعيا إلى الله بأذنه ولأن دولة المدينة لم تكن كبقية الدول.

وهذا لا يمنع من أن الرسول خلال تجربته وضع مبادئ وأصول تعد أثمن ما تعتز به دولة. ويمكن أن تكون من أسس نظام الحكم الإسلامى مثل الشورى. ومحاسبة الحكام واستهداف العدل والعفو عن المخالفين والحرص على كرامة الإنسان الخ...

وكان واجباً على الهيئات الإسلامية أن تضع هذه الاعتبارات ُنصب عينيها عندما تقول إن الإسلام دين ودولة قياساً على دولة المدينة، كان يجب عليها أن تقول إن دولة الإسلام دولة رحمة وعدل ونور، دولة ليس فيها أجهزة قمع من سجون وبوليس ولا لها جيش محترف ولا تفرض ضرائب حتى لا تحدث المهازل التى حدثت باسم الإسلام فى تجارب لإقامة دولة لا تختلف فى شئ عن الدولة الرأسمالية أو الشيوعية. ففيها سجون، وفيها تعذيب، وفيها تكميم الأفواه وضرب المعارضة.. ولا تنفق معظم أموالها لرعاية الشعب ولكن لشراء الأسلحة وبناء السجون.. فأى دولة إسلامية هذه.

* * *

الفصل الثانى
الخلافة الراشدة
برزخ بين رحمة الحكم النبوى وغشومة المُلك العضوض

- 1 -

المسلمون يواجهن المستقبل

وصف أحد الصحابة اللحظة المقبضة التى حرم فيها المسلمون من رؤية الرسول والحديث معه والاستماع إليه عندما صعدت روحه إلى باريها وقارن بينها وبين اللحظة المبهجة عندما دخل المدينة فقال "لما كان اليوم الذى دخل فيه رسول الله المدينة أضاء فيها كل شئ. فلما كان اليوم الذى مات فيه أظلم فيها كل شئ.. وما نفضنا أيدينا من التراب وأنا لفى دفنه حتى أنكرنا قلوبنا ".

ولم يكن فى هذا مبالغة. فعندما كان الرسول بينهم فإنهم أمنوا العذاب.. وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم. وآمنوا الضلال لأن الوحى كان يتنزل عليه ويرسم له الطريق ويضع القواعد، وكانوا جميعاً يؤمنون كل الإيمان بالوحى ويسعدون كل السعادة بالرسول ويحبونه كأنفسهم أو أكثر ويفدونه بالآباء والأبناء، وكان هو كما قال الله تعالى عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ. {128 التوبة}..

فى وجود الرسول لم يكن الحكم مشكلة لأن وجوده كان يحلها أفضل حل.. ولكن الرسول انتقل إلى ربه، وهكذا جوبه المسلمون مرة واحدة، وبصورة مفاجئة بقضية الحكم.

لقد روى أن الرسول أراد أن يكتب لهم كتابا لا يضلون بعده، ولكنهم اختلفوا، فصرفهم الرسول وهى رواية لا تقدم ولا تؤخر لأنه لو كان فى هذا الموضوع وحى لما وسع النبى أن يكتمه. ولو لم يكن فيه وحى فقد يثير من الخلاف أكثر مما يؤدى إلى الاتفاق.

<u>والشيء المحقق أن الرسول لم يعالج مع صحابته قضية الحكم بشيء من التفصيل الذى أبان به أركان الإسلام من صلاة أو صوم أو حج الخ... ودل ذلك على أن أمر الحكم، أو الخلافة. هو ما ينتهى إليه المسلمون فى ظل الظروف الخاصة بهم، وليس هو بأصل من أصول العقيدة.</u> وإن كان من الممكن أن يدخل فى الشريعة التى مناطها العقل وهدفها العدل.. كما انتهى إليه تحقيقنا لها[3]..

وقيل إن هناك أحاديث تشير إلى "الخلافة" ونحن ننظر إليها بحذر ونعتقد أن معظمها منحول وضع بعد حياة الرسول لخدمة أغراض سياسية. وعندما نقرأ حديثا "عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى" فنحن نقطع بأن الجزء الأخير منه موضوع وأن آثار الوضع ظاهرة "بالعين المجردة" دون تدقيق وتحقيق لأن طابع التحريض على اتباع "الخلفاء الراشدين المهديين" مما لا يمكن أن يقوله الرسول. فتعبير الخلفاء الراشدين تعبير متخلف عن عهد الرسول. وأقوى أحاديث الرسول عما يتبعه المسلمون هو ما جاء عن القرآن. ويقل عنه شيئاً ما أضيف إلى القرآن من سُنة النبى.." أما أن يضيف إلى إطار الالتزام سُنة الخلفاء الراشدين المهديين فهذا ما لا يمكن أن يقوله – حتى وإن زعموا أن الحديث حسن صحيح..

---

[3] (3) انظر هذا التحقيق فى كتاب استراتيجية الدعوة الإسلامية فى القرن الواحد والعشرين" ونتيجة له يكون الحكم فى الإسلام إحدى قضايا المجتمع التى تعالج معالجة عقلية موضوعية مع استلهام القيم الإسلامية.

وما يرويه الشيعة عنه أنه عهد إلى على فإنه لا يثبت حتى لو صدقت الأحاديث التي تعطى علياً فضلاً خاصاً كما فى حديث غدير خم والثقلين وغيرهما. ومن المسلم به أن عليا كرم الله وجهه كان أثيراً لدى الرسول، وكانت شجاعته ومواهبه محل تسليم من الجميع وحسبه أن الرسول عندما آخى ما بين المهاجرين والأنصار جعله أخاه.. وأنه عندما ولاه المدينة عندما خرج فى إحدى الغزوات وأراد على المشاركة فى الغزوة "قال له "أما ترضى أن تكون منى كما كان هارون من موسى غير أنه لا نبى بعدى" فالفضل الخاص لعلى لم يكن منكورا، ولكنه لا يعطى له حق الخلافة لأن الأحاديث لم تصرح بهذا، ولأن من المبادئ الرئيسية المقررة فى الإسلام أن النسب وحده لا يصلح مبرراً لتولية المناصب أو تقلد المسئوليات. وهو مبدأ نجده مكرراً فى القرآن وفى حديث الرسول[4].

المشكلة ليست فحسب أن الصحابة وجدوا أمامهم مستقبلاً مجهولاً عليهم أن يستكشفوه. المشكلة أن حكم الرسول كان حكماً استثنائيا. فالرسول كان أصلاً رسولاً ونبياً، مهمته الدعوة إلى الإسلام والتعريف به، ووسيلته إلى ذلك هى أساساً الحكمة والموعظة الحسنة. ولكن التطورات فرضت عليه أن يلى الأمر وأن يصبح رأساً لتجربة فى الدولة فريدة[5] ولا تتكرر ولا يمكن لأحد بعده أن يقوم بها كما قام بها.

هذا المأزق كان أول ما فرضه عليهم موت الرسول.. وما كان بالنسبة لبعضهم – كالأنصار – ذو أهمية خاصة. لأن الرسول كان محباً للأنصار، مقدراً الدور العظيم الذى قاموا به، ولأن وضعهم كان آمناً ما ظل الرسول.. أما الآن...

وعندما علموا بمرضه الأخير، جلسوا ببابه يبكون حتى خرج إليهم متوكئاً على على والعباس فدخل إلى المسجد واجتمع الناس وقال إنه لم يمت نبى قط إلا خلف وراءه تركة وإن تركتى فيكم الأنصار.. أوصيكم بتقوى الله والإحسان إليهم فقد علمتم أنهم شاطروكم وواسوكم فى العسر واليسر ونصروكم فى المنشط والمكره فاعرفوا لهم حقهم واقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم".

والآن وقد لحق الرسول بربه. فلا عجب إذا اجتمعوا ليدرسوا الموقف فى سقيفة بنى ساعدة، وهى دار ندوة الأنصار ...

* * *

- 2 -
سقيفة بنى ساعدة
السجال الذى حدد مستقبل وطبيعة الدولة الإسلامية

اجتمع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة التى كانت بمثابة دار الشورى للخزرج كبرى قبائل الأنصار ليتدارسوا الموقف وفى ذهنهم أن يولوا سعد بن عبادة – كبير الخزرج الأمر ...

وتروى المصادر قصة هذا الاجتماع فتقول :

---

4 **(4) سنعالج تلك النقطة فى أحد الفصول التالية فى الكتاب.**

5 **(5) من هذا نعلم أن الشيخ على عبد الرازق لم يكن دقيقاً عندما قال فى "الإسلام وأصول الحكم" "أن محمدا" ﷺ ما كان إلا رسولا لدعوة دينية خالصة للدين لا تشوبها نزعة ملك ولا حكومة، وأنه لم يقم بتأسيس مملكة بالمعنى الذى يفهم من هذه الكلمة ومرادفاتها. وما كان إلا رسولاً كإخوانه من الرسل. وما كان ملكاً ولا مؤسس دولة ولا داعيا إلى مُلك. إن ظواهر القرآن المجيد تؤيد أن النبى ﷺ لم يكن له شأن فى الملك السياسى وآياته متضافرة على أن عمله السماوى لم يتجاوز حدود البلاغ المجرد من كل معانى السلطان". إذ كان واجباً عليه أن يقول إن هذا وإن كان الأصل. فإن السياق جعله رأساً لدولة، وإن اختلفت عن سائر الدول بحيث تكون كما ذكرنا تجربة فريدة لا تتكرر.**

إن النبى لما قبض اجتمعت الأنصار رضى الله عنهم إلى سعد بن عبادة فقالوا له إن رسول الله قد قبض فقال سعد لابنه قيس رضى الله عنهما إنى لا أستطيع أن أسـمع النـاس كلامـاً لمرضى ولكن تلقى مـنى قـولى فأسـمعهم. فكـان سـعد يتكلم ويحفظ ابنه رضى الله عنهما قوله فـيرفع صـوته لكى يسـمع قومـه. فكـان مما قـال رضى الله عنه بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه: يا معشر الأنصار إن لكم سابقة فى الـدين وفضـيلة فى الإسـلام ليست لقبيلة من العـرب إن رسـول الله لبث فى قومه بضع عشر سنة يدعوهم إلى عبـادة الـرحمن وخلع الأوثـان فما آمن إلا القليل والله ما كانوا يقدرون أن يمنعوا رسول الله ولا يعرفوا دينه ولا يدفعوا عن أنفسهم حـتى أراد الله تعـالى لكم الفضـيلة وسـاق إليكم الكرامة وخصـكم بالنعمة ورزقكم الإيمـان به وبرسوله والمنع له ولأصحابه والإعزاز لدينه والجهـاد لأعدائه فكنتم أشد النـاس على من تخلف عنه وأثقله على عدوكم من غـيركم حـتى إسـتقاموا لأمر الله تعـالى طوعـاً وكرها وأعطى البعيد المقـادة صـاغراً داحـراً حـتى أثخن الله تعـالى لنبيه بكم الأرض ودانت بأسيافكم له العرب توفاه الله تعالى وهو راض عنكم قرير العين فشدوا أيديكم بهـذا الأمر فـإنكم أحق النـاس وأولاوهم به فأجـابوه جميعـاً أن قد وفقت فى الـرأى وأصـبت فى القــول وكفى بعد ذلك ما رأيت بتوليتك هــذا الأمر فــأنت مقنع ولصــالح المؤمنين رضى[6].

فى هـذه اللحظة الحاسـمة فـوجئ الأنصـار بـدخول أبى بكر وعمر بن الخطـاب وأبى عبيده بن الجراح.

لو لم يــدخل أبو بكر فى هــذه اللحظة بالــذات، أو لو أنه تــأخر بعض الشىء.. لقضى الأمر وتغير مستقبل الدولة الإسلامية تماماً..

ولكن أبا بكر كان مسيراً إلى قدره.. كانت يد الله وراء دخوله ...

دخل أبو بكر فتغير الموقف تماماً..

تقول المصادر :

"أراد عمر رضى الله عنه أن يبدأ بالكلام وقـال: خشـيت أن يقصر أبو بكر رضى الله عنه عن بعض الكلام فلما تيسر عمر للكلام تجهز أبو بكر رضى الله عنه وقــال له على رسلك فستكفى الكلام فتشهد أبو بكر رضى الله عنه وانتصب له الناس فقال إن الله جل ثنـاؤه بعث محمـداً بالهـدى ودين الحق فـدعا إلى الإسـلام فأخذ الله تعـالى بنواصينا وقلوبنا إلى ما دعا إليه فكنا معشر المهاجرين أول النـاس إسـلاما والنـاس لنا فيه تبع ونحن عشيرة رسول الله ونحن مع ذلك أوسط العرب أنسـاباً ليست قبيلة من قبائل العرب إلا ولقريش فيها ولادة وأنتم أيضاً والله الـذين آووا ونصـروا وأنتم وزراؤنا فى الدين ووزراء رسول الله وأنتم إخواننا فى كتاب الله تعالى وشركاؤنا فى دين الله عز وجل وفيما كنا فيه من ســراء وضــراء والله ما كنا فى خــير قط إلا كنتم معنا فيه فــأنتم أحب النــاس إلينا وأكــرمهم علينــا. وأحق النــاس بالرضى بقضــاء الله تعــالى والتسليم لأمر الله عز وجل لما ساق لكم ولإخوانكم المهاجرين رضى الله عنهم وأحق النــاس فلا تحســدوهم وأنتم المــؤثرون على أنفســهم حين الخصاصة والله ما زلتم تؤثرون إخوانكم من المهاجرين وأنتم أحق الناس أن لا يكـون هـذا الأمر واختلافه على أيديكم وأبعد أن لا تحسدوا إخوانكم على خير ساقه الله تعالى إليهم وإنما أدعوكم إلى أبى عبيدة أو عمر وكلاهما قد رضيت لكم ولهذا الأمر وكلاهما له أهل. فقـال عمر وأبو عبيدة رضى الله عنهما ما ينبغى لأحد من الناس أن يكون فوقك يا أبا بكر أنت صاحب الغار ثانى أثنين وأمرك رسول الله بالصلاة فأنت أحق الناس بهذا الأمر فقال الأنصار والله ما نحسدكم على خير ساقه الله إليكم وإنا لكم كما وصفت يا أبا بكر والحمد الله ولا أحد من خلق الله أحب ألينا منكم ولا أرضى عنــدنا ولا أيمن ولكننا نشــفق مما بعد اليوم ونحذر أن يغلب هذا الأمر من ليس منا ولا منكم فلو جعلتم اليوم رجلاً منا ورجلا

6 **(6) تـاريخ الخلفـاء الراشـدين المعـروف بالإمامة والسياسة لأبن قتيبة – للإمـام المؤرخ أبى محمد عبد الله بن مسلم ج1 ص5.**

منكم بايعنا ورضينا علي أنه إذا هلك إخترنا آخر من المهاجرين أبداً ما بقيت من هذه الأمة كان ذلك أجدر أن يعدل فى أمة محمد وأن يكون بعضنا يتبع بعض فيشفق القرشى أن يرفع فينقض عليه الأنصارى ويشفق الأنصارى أن يرفع فينقض عليه القرشى فقام أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه وقال: أنتم يا معشر الأنصار من لا ينكر فضلهم ولا النعمة العظيمة لهم فى الإسلام. رضيكم الله تعالى أنصاراً لدينه ولرسوله وجعل إليكم مهاجرته فليس بعد المهاجرين الأولين أحد عندنا بمنزلتكم فنحن الأمراء وأنتم الوزراء لانفتات دونكم بمشورة ولا تنقضى دونكم الأمور. فقام الحباب بن المنذر بن زيد بن حرام رضى الله عنه فقال: يا معشر الأنصار املكوا على أيديكم فإنما الناس فى فيئكم وظلالكم ولن يجبر مجبر على خلافكم ولن يصدر الناس إلا عن رأيكم. أنتم أهل العزو والثروة وأولوا العدد والنجدة وإنما ينظر الناس ما تصنعون فلا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم وتقطعوا أموركم أنتم أهل الإيواء وإليكم كانت الهجرة ولكم فى السابقين الأولين مثل ما لهم وأنتم أصحاب الدار والإيمان من قبلهم والله ما عبدوا الله علانية إلا فى بلادكم ولا جمعت الصلاة إلا فى مساجدكم ولا دانت العرب للإسلام إلا بأسيافكم فأنتم أعظم الناس نصيباً فى هذا الأمر وإن أبى القوم فمنا أمير ومنهم أمير. فقام عمر رضى الله عنه فقال: هيهات لا يجمع سيفان فى غمد واحد إنه والله لا ترضى العرب أن تؤمركم ونبيها من غيركم ولكن العرب لا ينبغى أن تولى هذا الأمر إلا من كانت النبوة فيهم وأولى الأمر منهم. لنا بذلك على من خلفنا من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين من ينازعنا سلطان محمد وميراثه ونحن أولياؤه وعشيرته إلا معتمد بباطل أو متجانف لأثم أو متورط فى هلكة. فقام الحباب بن المنذر رضى الله عنه فقال يا معشر الأنصار املكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر فإن أبوا عليكم ما سألتم فأجلوهم عن بلادكم وولوا عليكم وعليهم من أردتم فأنتم والله أولى بهذا الأمر منهم فإنه دان لهذا الأمر من لم يكن يدين له بأسيافنا. أما والله إن شئتم لنعيدنها جذعة والله لا يرد على أحد ما أقول إلا حطمت أنفه بالسيف قال عمر بن الخطاب: فلما كان الحباب هو الذى يجيبنى لم يكن لى معه كلام لأنه كان بينى وبينه منازعة فى حياة رسول الله فنهانى عنه فحلفت أن لا أكلمه كلمة تسوؤه أبداً. ثم قام أبو عبيده فقال: يا معشر الأنصار أنتم أول من نصر وآوى فلا تكونوا أول من يبدل ويغير.

ثم إن أبا بكر قام على الأنصار فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم دعاهم إلى الجماعة ونهاهم عن الفرقة وقال إنى ناصح لكم فى هذين الرجلين أبى عبيدة بن الجراح أو عمر فبايعوا من شئتم منهما. فقال عمر: معاذ الله أن يكون ذلك وأنت بين أظهرنا أنت أحقنا بهذا الأمر وأقدمنا صحبة لرسول الله وأفضل منا فى المال وأنت أفضل المهاجرين وثانى أثنين وخليفته عليه السلام والصلاة أفضل دين الإسلام فمن ذا ينبغى أن يتقدمك ويتولى هذا الأمر عليك ابسط يدك أبايعك فلما ذهبا يبايعانه سبقهما إليه قيس الأنصارى فبايعه فناداه الحباب بن المنذر: يا قيس بن سعد عاقك عائق ما اضطرك إلى ما صنعت حسدت ابن عمك على الإمارة قال لا والله لكنى كرهت أن أنازع قوماً حقاً لهم فلما رأت الأوس ما صنع قيس بن سعد وهو من سادات الخزرج وما دعوا إليه من المهاجرين من قريش وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة قال بعضهم لبعض وفيهم أسيد بن حضير رضى الله عنه لئن وليتموها سعداً عليكم مرة واحدة لازالت لهم بذلك عليكم الفضيلة ولا جعلوا لكم نصيباً فيها أبداً فقوموا فبايعوا أبا بكر رضى الله عنه فقاموا إليه فبايعوه فقام الحباب بن المنذر إلى سيفه فأخذه فبادروا إليه فأخذوا سيفه منه فجعل يضرب بثوبه وجوههم حتى فرغوا من البيعة فقال: فعلتموها يا معشر الأنصار أما والله لكأنى بأبنائكم على أبواب أبنائهم قد وقفوا يسألونهم بأكفهم ولا يسقون الماء. قال أبو بكر: أمنا تخاف يا حباب قال ليس منك أخاف لكن ممن يجئ بعدك، قال أبو بكر: فإذا كان ذلك كذلك فالأمر إليك وإلى

أصحابك ليس لنا عليكم طاعة. قال الحباب: هيهــات يا أبا بكر إذا ذهبت أنا وأنت جاءنا بعدك من يسومنا الضيم[7].

وهكـذا انتهى سـجال السـقيفة. هـذا السـجال الـذى وضع صـورة مستقبل الدولة الإسلامية. فقد أخذ بمبدأ البيعة الـتى لم يكن لها معـنى إلا سيادة الشـعب، وأن الحـاكم لا يكـون حاكمـاً إلا عنـدما يقبله الشـعب ويبايعه، وبذلك استبعد مبـدأ الوراثـة، ومع أن المبـدأ لم يجر أصـلاً فـإن تجاهل سجال السقيفة له أثبت أنه غير مطروح للمناقشة لأن الجميع فهمـوا تمامـاً أن المبـدأ يخالف روح وأساسيات الإسلام. وفى الـوقت نفسه اسـتبعدت فكـرة منا أمـير، ومنكم أمير.. لأنها تمثل ازدواجية وانقساما، بل حتى الفكرة الـتى عرضـها أبو بكر نفسه نحن الأمراء.. وأنتم الـوزراء.. لم يتمسك بها الأنصـار أو يعرضـونها للمناقشة – وهو تقصـير منهم لعله لو استدرك لحال دون انفراد المهاجرين بالسلطة ولكن يبدو أنه – فى غياب التنهيج – لم يكن له محل كما يــذكر أن أبا بكر لم يحتج بالحــديث الــذائع "الأئمة من قريش" لأنه كان أذكى من أن يدفع به – وأغلب الظن أن الحـديث موضـوع أو أنه إنما يعـنى "أنهم أوسط العـرب أنسـاباً" وليست قبيلة من قبائل العـرب إلا ولقـريش فيها ولاده" وهو ما أبرزه بعد ذلك بوقت طويل ابن خلدون فى مناقشته لهذا الحديث.

كما يظهر السـجال الصـفتين البـارزتين فى أبى بكر ألا وهما الكياسة والحـزم، فإنه نوه بالأنصار أكثر من مرة واعترف لهم بسابقتهم وفضلهم وذكرهم بإيثارهم الذى شهد لهم به القـرآن الكـريم دون أن يزحزحه هـذا عن موقفـه. وكـان هـذا المسـلك – بالإضافة إلى الخطوة الحاسمة التى قام بها عمر بن الخطـاب عنـدما قـال امـدد يـدك أبايعك.. وأنهى بذلك السجال القـولى إلى الممارسة العمليـة.. هو الـذى كسب الجولة فى النهاية.

إن من النادر أن نرى مثيلاً لسجال سـقيفة بـنى سـاعدة فى طابعه المباشر والمركز الـذى لم يسـتمر سـوى سـاعات وكــان له مع هــذا آثــار بعيــدة المــدى على تــاريخ الإســلام ومقومــات الدولة الإســلامية. وهو بهــذا يختلف تمامــاً عن "الجمعيــات التأسيســيه" الــتى تتكــون لوضع دســتور ونظـام الدولة، ويستمر عملها شهوراً ويسـتطيل فيها القيل والقـال ثم لا تخرج بنتيجة حاسمة كالتى انتهت إليها السقيفة.

ويستشعر الإنسان الأسى لأن الأنصـار ظلمـوا حقهم مع أن السـقيفة سـقيفتهم والكثرة والمنعة فيهم، وقد اجتمعوا أساساً لتولية سعد بن عبادة، فأفقدهم حضور أبى بكر وعمر وأبى عبيدة كل شئ. وعنـدما كشف لهم أبو بكر حقيقة أن العـرب لا تسـلم أمرها إلا لقريش، فـإنهم عرضـوا عرضـاً وجيها كـان جـديراً بـالنظر لأنه يحقق العدالة والإنصـاف ويحقق توازنا كـان كفيلاً بـأن يكبح جمـاح الأرسـتقراطية القرشـية الـتى استأثرت وأفسدت على الدول الإسلامية أثرها، وقد تحققت مخاوف الحباب بن المنذر التى أبداها لأبى بكر بصورة أسوأ مما كـان يتخيل فى أحـداث وقعة الحـرة المشـئومة التى استبيحت فيها المدينة وقتل رجالها وانتهك نساؤها وأجبر البـاقون على أن يبـايعوا "على أنهم خول يزيد"..

ويحز فى النفس أن ذلك فات أبا بكر، وأنه وعمر أيضاً عنــدما انتهى إليهم الأمر لم يشركا الأنصار كوزراء أو مستشارين أو أعوانا، ويدل هذا على أن الحاكم مهما كان عبقريا ومخلصــاً، فإنه يعجز عن أن يلم بكافة أبعــاد وأقطــار العملية السياســية لأن مشاغل الحكم العديدة لا تجعل يومه يتسع لكل المطالب، والشىء الوحيد الذى يعـالج هذا النقص أن تكون بيئة الحكم حرة بحيث يمكن للآخـرين أن يعرضـوا وجهـات النظر والجوانب التى شغل عنها الحاكم بالعديد من شواغله..

---

[7] (7) المرجع السابق ص7، 8، 9.

وإذا جاز لنا أن نعتب على الشيخين، فإن الأنصار أولى بالعتاب لأنهم قصروا فى حق أنفسهم ولم تكن تنقصهم القوة والمنعة ويبدو أن ما أشرنا إليه من تقصير فى حق الأنصار لم يفت تماماً الشيخين وإن شغلاً عنه، ولكنه فيما يبدو - كان هما من همومهم. وقد تمنى أبو بكر وهو يجود بنفسه لو أنه سأل الرسول عن الأنصار وهل لهم فى هذا الأمر نصيب فلا يظلمون نصيبهم. كما أن عمر قال فى آخر وصية له عندما طعنه أبو لؤلؤة للخليفة من بعده "وأوصيه بالأنصار خيراً - الذين تبوءا الدار والإيمان من قبلهم، وأن يقبُل من محسنهم وأن يعفى عن مسيئتهم"..

ولعل الله تعالى أراد للأنصار أن يكونوا فى سقيفة بنى ساعدة ما كانوه عندما استقبلوا المهاجرين وآثروهم على أنفسهم فاستحقوا مدح الله لهم ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾. {9 الحشر}..

* * *

- 3 -

انتهى الوحى وبدأ التاريخ

أبو بكر - المتبع الآمين - يسير فى أثر الرسول

من سعد الهيئات والدول أن يكون الرجل الذى يبدؤها رجلاً نابغاً توافرت فيه صفات "بناة الإمبراطوريات" كأفضل ما تكون. ومن نحسها أن يكون هذا الرجل هزيلاً اختير لجاه أو بفضل نسب أو لعصبية حمقاء جعلته مثل عيينة بن حصن سيد قومه.. لأن فترة التشكيل الأولى لها أهميتها الكبرى - وعلى حسنها أو سوئها تنعكس الآثار على الأجيال.

كان أبو بكر بلا جدال أفضل صحابة محمد، وأكفأ من يختار لشغل هذا المنصب الهام وتقلد تلك المسئولية الخطيرة، وقد أثرت فيه طول صحبته للرسول تأثيراً عميقاً، وطبعته بطابعها وجعلته يعلن أنه "متبع لا مبتدع" لأنه آمن أن اتباعه للرسول سيكفل له الهدى وسيؤمنه من الضلال، وكان هو نفسه ممتازاً توفرت له أهم صفتين لازمتين لمن يؤسس دولة، هما الكياسة والحزم. وقد توفرتا له بفضل الطبيعة التى جبله الله عليها وبفضل صحبته الطويلة للرسول عندما كان الإسلام بين أيدى ثلاثة هم محمد، وخديجة وأبو بكر. فكل واحد من الثلاثة كان له دور كبير فى نجاح دعوة الإسلام. للرسول لأنه ثبت على المبدأ ورفض المغريات وقال كلمته التاريخية "والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الدين ما تركته". وخديجة التى جعلت بيت الرسول بيت الدعوة ووفرت له الأمن والآمان والسكينة والحب الذى يغسل عن نفسه اضطهادات أعدائه. بينما يقوم أبو بكر باكتشاف العناصر الصالحة ويضم للدعوة الناشئة زهرة رجالاتها من مختلف القبائل، ومن العبيد والمستضعفين على سواء، ولو تقصينا لوجدنا أن أهم الشخصيات التى أدت أدواراً بارزة فى تاريخ الإسلام هم ممن كسبهم أبو بكر للإيمان بالإسلام "فقد كان منهم عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبد الله وسعد بن أبى وقاص وأبو عبيده بن الجراح، وغيرهم وكان معظمهم شباباً فى مقتبل العمر وأتاح هذا لهم الفرصة ليؤدوا دوراً كبيراً فى مستقبل الدولة الإسلامية.

المسئولية الثقيلة التى كان على أبى بكر أن ينهض بها هى أنه كان الأول الذى وقع عليه أن يقيم "دولة إسلامية" بعد انقطاع الوحى الذى كان من أكبر عوامل نجاح تجربة "دولة المدينة" كان عليه أن يبدأ التاريخ، وما يعنيه هذا من احتمال الخطأ والقصور ومن حسن الحظ أنه هو الذى قام بهذه المهمة لأن صفاته الفريدة كانت كفيلة بنجاح تجربة تناقض مبدءاً أثبتت تجارب التاريخ كله صدقه وهو أن السلطة تفسد الأيدلوجيا. بمعنى أن من المستحيل أن يقيم دولة على أساس أيدلوجى أو

قيمى – أى تكون القيم من خير، وحرية، وعدل ومساواة هى الأساس فيها. وقد قلنا إن تجربة المدينة قد نجحت لأن الذى قام بها رسول يوحى إليه من الله. ففرض ذلك على مبادئ الاجتماع السياسى. أو التفّ حول مبادئ الاجتماع السياسى بأن أوجد دولة تتجرد من أخص مقومات الدولة بالمعنى الاصطلاحى المعروف – ألا وهو جهاز القمع من جيش وبوليس الخ... بحيث يتضاءل مقوم السلطة أمام مقوم الإيمان المعزز بالوحى.

واستطاع أبو بكر أن يواصل قيام هذه المعادلة الصعبة – أو المستحيلة أولاً بفضل صفاته وخصائصه البارزة التي كانت تجعله من بناة الدول دون أن يتضمن ذلك عنصر السلطة والقمع الذي هو سوأة الدولة، وثانيا باتباعه الدقيق ومواصلته لسياسة الرسول، ودَعَمَهُ فى هذا أن أصداء الوحى كانت لا تزال تتردد حتى بعد أن انقطع الوحى نفسه، وكان القرآن الكريم غضا طريا لم تبتذله الأفواه ولم تشوهه التفسيرات، وصورة الرسول لا تزال ماثلة أمام المؤمنين. وبفضل هذه العوامل الاستثنائية استطاع أبو بكر أن يواصل "تجربة المدينة" كما استطاع ذلك عمر من بعده لتوافر العوامل نفسها، وإن كان بدرجة أقل، ولكن الأمر وقف عند هذا.إن أصداء الوحى قد خفتت بقدر ما تصاعدت نوازع السلطة، فضلاً عن أن الذى اختير للخلافة بعد عمر كان آخر واحد يصلح لها: عثمان، ولهذا فإن تجربة "دولة المدينة" التى أقامها الرسول واستطاع أبو بكر وعمر أن يمدا فيها وأن يعطياها ثلاثة عشر عاماً بعد وفاة الرسول.. إنتهت، ولم تتكرر أبداً، ولا يمكن أن تتكرر حتى الآن لأنه مع عدم وجود العوامل الاستثنائية التى أشرنا إليها فلابد أن تفسد السلطة الأيدلوجيا، لابد أن يفترس المُلك العقيدة..

عندما نذكر إنجازات أبى بكر وهى عديدة رغم قصر مدة خلافته التى لم تستكمل سنوات ثلاث. فقد يكون أبرزها هو الخطاب الذى افتتح به عهده وأعلن فيه قواعد ومبادئ الحكم الإسلامى وواجبات وحقوق الحاكم وعلاقته بالشعب. وقد ألقى هذا الخطاب بعد أن أنتهى يوم السقيفة المشحون

والخطاب موجز مركز..

أيها الناس :

قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى، وإن أسأت فقومونى. الصدق أمانة. والكذب خيانة والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له حقه. والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. لا يدع أحد منكم الجهاد فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل. أطيعونى ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله فلا طاعة لى عليكم قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله...

إن هذا الخطاب الذى يقرر صراحة حق المحكومين فى أن "يقوّمَوا" الحاكم، وأنه لا يكون له طاعة إذا خالف الدستور الذى انتخب على أساسه "وهو طاعة الله والرسول" كان جديراً بأن يحفظه عن ظهر قلب طلبة المدارس وأن يكتب بالذهب ويعلق فى البرلمان ورئاسة الجمهورية ومجلس الوزراء، وأن يفاخر به المشرعون الإسلاميون كل فلاسفة النظم السياسية فى العالم..

ومما يزيد فى أهمية هذا الخطاب أن عمر بن الخطاب كاد أن يكرره فى خطابه الأول، وكذلك على ابن أبى طالب. وظلت فكرة مراقبة الحاكم وحق تقويمه، وأنه يفقد حقه فى طاعة الناس له إذا لم يحكم بالشرع من الأصول المقررة فى فقه الحكم الإسلامى حتى وإن طمستها الوقائع والأحداث العملية، وأهالت عليها الغبار، وجعلت كل التجارب التى خالفتها – من معاوية بن أبى سفيان حتى السلطان عبد الحميد – فاقدة للشرعية التى تقوم عليها خلافة، وأصبحت مُلكا عضوضا يعامل كما يعامل الملك ...

* * *

كـان أمـام أبى بكر مشـكلتان لم تـدعا له وقتا يلتقط فيه أنفاسـه... الأولى ما عـرف باسم "حرب الردة" والثانية ابتداء الفتوح الإسلامية..

لقد ظهرت المشكلة الأولى فى الأيام الأخيرة من حيـاة الرسـول عنـدما تصـور بعض المغامرين الطامحين من قادة قبائل عربية أنهم يمكن أن يـدعوا النبـوة فيصـلوا إلى ما وصل إليه محمد وإذا كـانت دعـواهم زائفة وبضـاعتهم خسيسة فـإن العصـبية القبلية تعـوض ذلـك، وعن هـذا المنطلق أعلن مسـيلمة نبوته وأرسل رسـوله إلى الرسـول فى أيامه الأخـيرة. كما ثـار الأسـود العنسى فى اليمن، وادّعى طليحة النبـوة ولم تكد هذه القبائل تعلم بوفاة الرسول حتى ظنت أن الأمر سيصفو لهـا. وعـزز ذلك أن أبا بكر أرسل الجيش الذى كان الرسول قد عبـأه للانطلاق إلى الشـام ولم يسـتمع أبو بكر لرأى كل من نصحوه بالإبقاء على الجيش فى هذه الأيام العصيبة فقال لهم إنه لا يمكن أن يـؤخر أمـراً أمر به الرسـول، كما رفض بفظاظة أن يغـير أمـيره الشـاب أسامة بن زيـد. لأن الرسـول هو الـذى عينه وقصـارى ما حـدث هو أن أبا بكر اسـتأذن أسامة أن يترك له عمر بن الخطاب وقد كان فى الجيش لأنه يحتاجه..

وكان هناك فريق من العـرب لم يرتد صـراحة، أو يكفر بعد إسـلامه ولكنه رفض دفع الزكـاة.. الـتى كـانت أمـراً ثقيلاً على القبيلة العربية ليس فحسب لأنها تأخذ من مالها، ولكن أيضاً لأن العـرب اعتـبروا أن استقصـاء أى مـال منهم انتقاصـاً لسـيادتهم وإخضاعاً لهم، ونوعاً من "الإتاوة" وأرسل هؤلاء منـدوبين لأبى بكر يسـألونه إعفـاءهم من الزكاة وكـان من مهـام هـؤلاء اسـتطلاع الوضع الأمـنى ومـدى حصـانة المدينة من هجوم عليها إلخ... ورفض أبو بكر بقوة "أن يفرق بين الصلاة والزكـاة" وكـان فى هـذا يطبق مبـدءاً من مبـادئ الدولة من منطلق "الـدعوة" إذ الحقيقة أن هـذه القبائـل، والقبائل المرتدة ضاقت بحكم الإسلام ورفضت أن تذعن لقيمه وأن تنتظم فى وحدته، كانت تريد أن تعود إلى حكم القبيلة القديم الذى يعطيها حقها فى حكم نفسها بنفسـها وتطـبيق أعرافها الموروثـة. وعـاد هـؤلاء بـرفض أبى بكـر، وبـأن ليس فى المدينة من جيش يحميهـا. وفى الـوقت نفسه فـإن أبا بكر تنسم نيـاتهم فجمع البقية الباقية من المهـاجرين والأنصـار وجعلهم على "أنقـاب" المدينـة، وعبأ بقية النـاس فى المسـجد، وعندما هاجمت مقدمات القبائل الثائرة المدينة اصطدموا بحرسها الذى هزمهم فعادوا مدحورين إلى إخوانهم ...

وبعد أربعين يوماً عاد جيش إسامة بعد أن أدى مهمته. وهنا شمر أبو بكر ليؤدب هؤلاء الثوار، سـواء منهم من ارتـدّ صـراحة.. أو من رفض الزكـاة. خاصة وأن بعضـهم قتل المؤمـنين بينهم فعقد أحد عشر لـواء لأحد عشر أمـيراً وأمر كل واحد أن يسـير ليقاتل إحدى القبائل المتمردة..

وهؤلاء هم أمراء هذه الألوية :

1. خالد بن الوليد: وجهه إلى قتال طليحة بن خويلد الأسدى ببزاخة، فإذا فـرغ من أمره قصد مالك بن نويرة بالبطاح.
2. عكرمة بن أبى جهل: بعث به إلى مسيلمة الكذاب باليمامة.
3. شـرحبيل بن حسـنة وجهه فى أثر عكرمة بن أبى جهـل، فـإذا فـرغ من أمر مسيلمة قصد قضاعة.
4. المهاجر بن أبى أمية: وجه به إلى جنود الأسـود العنسى بصـنعاء اليمن ومعاونة الأبناء على قتالهم. والأبناء هم مولدة الفرس باليمن آمنـوا وثبتـوا على إيمـانهم وذريتهم بها إلى اليوم.
5. حذيفة بن محصن: وجهه إلى أهل دبا بعمان.
6. عرفجة بن هرثمـة: وجهه إلى أهل مهـرة. وأمـره هو وحذيفة أن يجتمعا وكل واحد منهما أمير على صاحبه فيما وجه إليه.

7. سويد بن مُقرن إلى تهامة اليمن.
8. العلاء بن الحضرمى ووجهه إلى البحرين.
9. طريفة بن حاجز ووجهه إلى بنى سليم ومن معهم من هوازن.
10. عمرو بن العاص ووجهه إلى قضاعة.
11. خالد بن سعيد ووجهه إلى مشارف الشام.

وأرسل مع كل واحد منهم نسخة من منشور جاء فيه :

"إنى بعثت إليكم فلانا فى جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان وأمرته أن لا يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحاً قبل منه وأعانه عليه، ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك ثم لا يبقى على أحد منهم قدر عليه وأن يحرقهم بالنار ويقتلهم كل قتله وأن يسبى النساء والذرارى ولا يقبل من أحد إلا الإسلام. فمن اتبعه فهو خير له ومن تركه فلن يعجز الله. وقد أمرت رسولى أن يقرأ كتابى فى كل مجمع لكم والداعية الآذان. فإذا أذن المسلمون فأذّنوا كف عنهم وأن أقروا قبل منهم وحملهم على ما ينبغى".

كما كتب إلى قواده عهداً من صورة واحدة وهى :

هذا عهد من أبى بكر خليفة رسول الله ﷺ لفلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام وعهد إليه أن يتق الله ما استطاع فى أمره كله سرّه وعلانيته وأمره بالجد فى أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الإسلام إلى أمانى الشيطان بعد أن يعذر إليهم فيدعوهم بداعية الإسلام فإن أجابوه أمسك عنهم وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقروا له ثم ينبئهم بالذى عليهم والذى لهم فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذى لهم لا ينظرهم ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم. فمن أجاب إلى أمر الله عز وجل وأقر له قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف. وإنما يقاتل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله فإذا أجاب إلى الدعوة لم يكن عليه سبيل، وكان الله حسيبه بعد فيما استسر به. ومن لم يجب داعية الله قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مراغمه لا يقبل من أحد شيئاً أعطاه إلا الإسلام فمن أجابه وأقر قبل منه وعلمه. ومن أبى قاتله فإن أظهره الله عليه قتل منهم كل قتلة بالسلاح والنيران ثم قسم ما أفاء الله عليه إلا الخمس فإنه يبلغناه وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد وأن لا يدخل فيهم حشوا حتى يعرفهم ويعلم ما هم لا يكونوا عيونا ولئلاً يؤتى المسلمون من قبلهم. وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم فى السير والمنزل ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ويستوصى بالمسلمين فى حسن الصحبة ولين القول[8].

وقد سارت هذه الجيوش وأدت مهمتها بنجاح وإن كان مسيلمة وقواته وقبيلته التى تعصبت إليه على أساس أن "كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر" هزموا جيش عكرمة وجيش شرحبيل بن حسنة – فوجه أبو بكر خالداً لحرب مسيلمة. واستطاع خالد الانتصار بعد معركة شديدة وقُتل مسيلمة – قتله وحشى الذى كان قد قتل حمزة فى أحد وشهدت أم عمارة – الصحابية الجليلة التى شهدت بدراً وأحداً – هذه الموقعة الحامية، وبترت فيها ذراعها.

ويوضح الصراع المرير ما بين الجيوش التى أرسلها أبو بكر إلى المرتدين أن معظم القبائل العربية كانت قد ارتدت أو على شفا الردة وأنه لولا عزيمة أبى بكر وتصميمه وعبقرية خالد واستماته القادة الآخرين لما استطاعوا الانتصار فى النهاية.

وهذا ما يلقى ضوءًا على السياسة التى اتبعها أبو بكر مع المرتدين واتسمت بقسوة غير عادية، وربما لم يكن لها ما يبررها إذا استلهمت قيم الدعوة، ولكن لها ما يبررها إذا استلهمت قيم الدولة، وقد كان أبو بكر محقاً فى حربهم جميعاً – سواء من ارتدّ، أو من رفض الزكاة لأنهم جميعاً ثاروا على الدولة. ولو لم يدفعوا بقوة لانتصروا

---

8 (8) تاريخ الإسلام – الخلفاء الراشدون – تأليف الأستاذ عبد الوهاب النجار ص44، 45، 64.

ولقضى على الإســـلام.. وقد أراد أبو بكر أن يلقنهم درســـاً يشـــفيهم من العصـــبية، والشرك وجذور الجاهلية، ويعيدهم إلى نطاق الطاعة، والجماعة وقيم الإسلام.

فحرب أبى بكر للردة مبررة على أساس الدولة، وعلى أساس الدعوة أيضاً لأن الـدعوة تعرضت لهجـوم عليها أريد به استئصـالها وكـان لابد أن تـرد عن نفسـها هـذا الهجوم، والوقوف غير ذلك يعد انتحاراً [9].

فى أسـلوب هـذه الحـروب، ارتفع صـوت الدولة على صـوت الـدعوة. وظهـرت أولى سـوءات السـلطة، وشـتان ما بين عنـف، وقسـوة، أبى بكر وبين "اذهبـوا فـأنتم الطلقاء" حتى وإن كـانت الظـروف مختلفـة... وعلى كل حـال فـالمفروض أن يختلف مسـلك رجل الدولة عن مسـلك رجل الـدعوة فى الحـرب وإلا فـأى فـرق بينهمـا، وأن يكون مسلك الخليفة دون مسلك الرسول..

* * *

والقضية الثانية التى كان على أبى بكر أن يحدد موقفه فيها هى قضية "الفتـوح" ومدى تبريرها من منطلق الدولـة، والـدعوة. أما من منطلق الدولة فهـذا ما لا يصـعب إيضـاحه. فمن طبـائع المجتمع البشـرى أن تأخذ العلاقـات ما بين الـدول الـتى تتلاقى حدودها إما طابع الحرب أو طابع السلم الذى تحدده معاهـدات قد تكـون نتيجة لحـرب سـابقة لأن الـذى يحكم العلاقـات ما بين الـدول هو صـراع البقـاء.. الـذى يـدفع الدولة القوية إلى حــرب الدولة الضــعيفة واســتلحاقها والــذى يــدفع الدولة الصــغيرة إلى إسترضاء جارتها القوية واكتساب أمنها منها لقـاء مبلغ من المـال أو إعطائها امتيـازات أو غير ذلك فإذا كـانت الـدولتان متقاربتـان فى الحجم والقـوة فقد تربط بينهما عهـود متكافئة حتى يظهر فى إحداها قائد طموح يعتدى على جارته المسالمة.

ومن ثم فـإن غــزو الدولة العربية الناشـئة الـتى كـانت تتمتع بطاقة كبـيرة من الحيوية الحضارية. كان أمراً طبيعياً للغاية خاصة وأن الفساد كان قد ضـرب الجـارتين الكبيرتين الفرس والروم ...

ولكن قد يختلف الأمر من منطق الدعوة..

فإن الله تعالى أمر رسله بالدعوة وأن يقفـوا عند البلاغ، ونهـاهم عن أى محاولة لإجبار، أو إكراه أو سيطرة، وأوضح لهم مغبات ما ينشأ فى نفس الداعية من رغبة فى كسب الجموع والاسـتكثار من الأتبـاع. لأن هـذا ينم عن عاطفة ذاتية (حـتى ولو كـانت لحساب الدعوة) فضلاً عن أنه يعرضها لمزالق التنازل والـترخص والمسـاومة.. بل إن القرآن كان صريحاً كل الصراحة فى أن الهداية إنما هى من الله وحـده. وأن الرسـول لا يهدى من أحب وغيرها من نصوص أوردناها فى مستهل هذا البحث..

وكان مما يتفق مع هذه الخطوط أن يرسل الرسول رسلاً ليبلغ الملوك والقـادة دعوتــه، ويــدعوهم إلى الإســلام ويحملهم مسـئولية من قبلهم، إذا رفضــوا، وقد فعل الرسول هذا، ولم يستوجب له أحد..

كما ظهر عامل جديد..

أن الـدعوة وإن لم يكن لها أن تقاتل فى سـبيل نشر دعوتها إلا أنها قد تتعـرض هى نفسـها لقتـال الـذين يريـدون استئصـالها.. ولابد عندئذ للـدعوة من أن تـدفع هـذا العدوان وأن تقاتل من يقاتلها. وهـذه هى الصـورة الـتى أخـذتها غـزوات الرسـول فى الجزيرة العربية، وكذلك حرب الردة التى اكسبت دولة "الدعوة" قدراً من القوة نتيجة لانتصارها على المرتـدين ثم رأت أن من واجبها أن تبلغ رسـالتها للـدول المجـاورة بعد أن فشلت محاولة الرسول تبليغهم عن طريق رسله..

---

[9] **(9) من هنا لا يجوز الاستشهاد بحرب الـردة فى شن عقوبة المـوت للمرتد ما لم تقـترن ردته بمحاربة الدولة فـإن لم تقـترن بها فإنه يـترك وشـأنه، أو يـرد عليه بالمنطق والبرهان لا بالسلطة والسنان.**

عندئذ ظهرت فكرة أن يصل جيش إسلامى إلى مشارف الحدود ليدعوا شعوب هذه الدول إلى الإسلام فإذا أسلموا عاد الجيش إلى قواعده.. بعد أن أصبحوا بإسلامهم جزءاً من دولة الدعوة ...

ولكن ظهر ان هذه فكرة غير عمليه..

فالجيش لا يمكن أن يتصل بالجماهير، لأن الجماهير فى قبضة قادته، والقادة رفضوا الإيمان بالدين الجديد الذى يدعو إلى مساواتهم بالجماهير، والحكم بالعدل..

عندئذ ماذا يكون الموقف..

هل ينسحب الجيش بعد أن رفض الحكام الدين الجديد. لما كان هذا أمراً شاذاً من كافة الوجوه، فقد اهتدى العرب إلى حل هو فرض الجزية عندما يرفض الدين.

وكانت مبررات ذلك عديدة..

منها أن هذه الفتوحات لم تستهدف فرض الإسلام على الشعوب والجماهير بقوة السيف، ولو كانت هذه الفكرة قائمة فى ذهن المسلمين لكان قبولهم جزية من جماهير الدول المفتوحة لقاء احتفاظهم بدينهم – رشوة. ومما يؤيد أن الفكرة من الفتوح لم تكن أسلمة البلاد المفتوحة وصية أبى بكر – وفيما بعد عمر للجيش بأن يحافظ على الكنائس والأديرة، وأن لا يهاجم رجال الدين، فهنا يحافظ الغزاة على معاقل المسيحية ويحمون رجالها..

مع هذا يمكن القول أن الجزية كانت تمثل عقوبة مادية ثقيلة على الذين يحتفظون بأديانهم.

ولكن هذا ليس إلا فرضاً نظرياً، لأنه لم يحدث وما كان ممكنا أن يقبل حكام بيزنطة والفرس أن يدفعوا جزية عن كل واحد من الشعب، ولهذا فلن يبق إلا البديل الثالث وهو الحرب. وهذا ما حدث بالفعل..

فهل تكون هذه الحرب مبررة من دولة الدعوة ؟ سواء كانت مبررة أو لم يكن لها تبرير نظرى. فالأمر المحقق أنها كانت تتفق مع طبائع الأشياء ومع القوانين التى تحكم أوضاع المجتمع البشرى، والتى كانت تقوم على ما يشبه قوانين صراع الأنواع والأحياء الذى يبقى على الأقوى ويستبعد الأضعف والطالح والذى انتظم تاريخ البشرية منذ أن ظهرت.

الإضافة التى أضافتها دولة الدعوة على هذا الإجراء هو الطابع الرحيم فما أن تنتهى المعركة حتى يسود "السلام الإسلامى" **وهو أرحم سلام عرفته البشرية لأنه لا يعطى الفاتح حقاً فى الأرض، أو الممتلكات ولا يجيز** للجيش أن ينهب أو يسلب أو يحرق زرعاً أو يهدم بيتا ويكون عليه أن يشترى كل حاجاته وأن يدفع ثمنها، كما يحمى حرية العقيدة لجميع الناس. وإذا قارنا توصية أبى بكر التالية بما كان يجبر عليه المغلوبون للرومان لظهر الفرق وفيما يلى وصية أبى بكر لجيش إسامة.

"لا تخونوا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخا كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكله، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له.."

أما ما كان يمليه الجيش الرومانى المنتصر على المهزومين فهو: "أنى أعطيت عن يد شخصى وطنى وأرضى والماء الذى يجرى خلالها وآلهة الحدود والمعابد وما ملكت يمينى، أعطيت ذلك كله للرومان" لأن القاعدة كانت أن الغالب له حق الحياة والموت على المغلوب.

بصفة عامة لا جدال أن حركة الفتوحات الإسلامية دفعت التقدم خطوات إلى الإمام. لأنها قضت على الحكم الطبقى الذى يقوم على الامتيازات والنبالة الموروثة التى حرمت جماهير الشعب من المشاركة فى السياسة العامة أو حرية العمل للانتصاف ونيل الحقوق إلى مجتمع تقوم مبادؤه على المساواة وأن لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح وحققت هذه الفتوح أكبر حركة انصهار ما بين الأجناس كان الإسلام هو المفاعل لها وحققت اللغة العربية – باعتبارها لغة القرآن – الوحدة بين الأجناس المختلفة. ولا يمكن أن تُعزى هذه المحاسن إلا لأن هذه الفتوح إنما تمت فى وقت كانت الدولة تعيش فى ظلال الوحى وبالذكرى القريبة من الرسول وسنرى بالطبع أن هذه المزايا ستتقلص مع تباعد الدولة الإسلامية من ذكرى رسولها.. ومع خفوت أصداء الوحى وتحول الخلافة الراشدة إلى مُلك عضوض.

ولكن يمكن القول بصفة عامة أن الدولة الإسلامية حتى فى عهد بنى أمية والعباسيين عندما تحولت تماماً إلى مُلك عضوض فإنها لم تتطور إلى ما تطورت إليه الإمبراطورية الرومانية بحيث لم تصل الدولة الإسلامية فى أسوأ حالاتها إلى ما وصلت إليه الإمبراطورية الرومانية فى أسوأ حالتها. وهذا بفضل الذكرى الوهنانة لدولة المدينة والخلفاء الراشدين. ولأن آيات القرآن الكريم الصادعة بالحرية والمساواة كانت على ما هى عندما نزل القرآن وكانت تلمع كالشهاب وسط الظلمات..

* * *

عندما أحس أبو بكر بدنو أجله فإنه ختم حياته بشىء أشبه ما يكون بما بدأ به حياته فى الخلافة..

إن يوم السقيفة كان ماثلاً فى مخيلة أبى بكر.. وكانت صورة هذا السجال الذى كاد أن يمزق الأمة حيا فى ذاكرته، وكان التوفيق فيه فلتة..

لهذا لم يرد لها أن تتكرر لأن من طبيعة الفلتة أن لا تتكرر، وكان الالتجاء إليها مرة أخرى لا يضمن النجاح فى اجتيازها وكان هذا يعنى تمزق الأمة.

قرر أبو بكر أن يختار من يراه أصلح من يقود السفينة فى الفترة الحرجة التى تلاحقت فيها الأمواج. ولكنه لم يشأ أن يستأثر بالأمر – وفى الوقت نفسه فإنه لم يعلن عن نيته لأن الإعلان عنها قد يؤدى إلى استثارات تعرقلها، وربما تحول دونها – فاستشار على حدة عدداً من كبار الصحابة.. وكلهم أجمع على أن أصلح مرشح هو عمر بن الخطاب.

وهكذا أرسل فى أيامه الأخيرة – إلى عثمان بن عفان ليكتب وصيته وأملى عليه ...

"بسم الله الرحمن الرحيم * هذا ما عهد أبو بكر بن أبى قحافه إلى المسلمين أما بعد" ثم أغمى عليه فكتب عثمان "فإنى أستخلف عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيراً" ثم أفاق أبو بكر فقال اقرأ على. فقرأ عليه فكبر أبو بكر وقال أراك خفت أن يختلف الناس أن افتلت فى غشيتى. قال نعم. قال جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله.

قال الطبرى ثم أشرف على الناس وزوجه أسماء بنت عميس ممسكته فقال لهم: أترضون بمن أستخلف عليكم؟ فإنى والله ما ألوت من جهد الرأى ولا وليت ذا قرابة. وإنى قد وليت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا. فقالوا: سمعنا وأطعنا[10] "..

ثم دعا أبو بكر عمر خاليا وأوصاه وأطال ولما خرج عمر من عنده. رفع يديه وقال "اللهم إنى لم أرد بذلك إلا صلاحهم وخفت عليهم الفتنة فعملت فيهم بما أنت

---

[10] **(10) المرجع السابق للأستاذ عبد الوهاب النجار. ص112.**

أعلم به واجتهدت لهم رأيا فوليت عليهم خيرهم وأحرصهم على ما أرشدهم وقد حضر بى من أمرك ما حضر، فأخلفنى فيهم فهم عبادك، ونواصيهم بيدك، أصلح اللهم لهم ولاتهم واجعله من خلفائك الراشدين وأصلح له رعيته ".

أحسن أبو بكر فى النهاية، كما أحسن فى البداية ووقى الأمة فتنة التمزق فى الحالين، وكان فى اختياره عمر كالزوج الذى أحسن إلى أبنائه مقدماً عندما اختار أما لهم سيدة رصينة ممتازة.

وفيما بين هذه البداية الموفقة والخاتمة الحسنة، فإنه أنقذ الدولة الإسلامية من هلاك محقق عندما كادت الردة أن تذهب بها أشلاء..

ولم يكن أبو بكر ملاكا، إن طبيعته التى تمتزج فيها الكياسة مع الحزم جعلته ينجو من كثير من المزالق. وصحبته الطويلة للرسول أعطته ملكة الهداية ولكنه كان بشراً دون وحى، وكان فيه من نقص البشر حدة تتملكه فى لحظات قليلة دعا المسلمين إلى تحملها منه.

* * *

- 4 -
المبتدع العظيم
عمر بن الخطاب يرسى دعائم الدولة الإسلامية

تولى عمر الأمر بتسليم من كل المسلمين ونجحت خطة أبى بكر في تجنيب المسلمين تجربة كانت ستضعف وحدتهم ثم لا يمكن أن تصل إلى شخص أفضل من عمر..

كان هناك على بن أبى طالب الذى فاته الدور والسياق، وكان هناك سعد بن عبادة كبير الأنصار الذى اعتزل المسلمين ولم يبايع أبا بكر، وكان هناك أبو عبيدة "أمين هذه الأمة" وكان لدى كل واحد من هؤلاء من المزايا والمؤهلات ما يجعله أهلاً.. ولكنهم ما كانوا ليصلوا إلى ما توافر لعمر من مزايا جعلته رجل الساعة الذى يقوم بدور "المبتدع" بعد أن قام أبو بكر بدور المتبع، وكان كل واحد منهما محقاً فى الدور الذى اختاره لنفسه. كان على أبى بكر أن يكون متبعاً لحداثة العهد بالرسول.. وليأمن الضلال أمام التجربة الجديدة، وكان على عمر أن يكون مبتدعاً بعد أن نجحت التجربة، وكبرت، وترامت حدودها ونشأت لها قضايا لم يكن للعرب عهد بها. فكان من الضرورى أن "يبدع" حلاً ...

والفقهاء يقولون إن البدعة السيئة إنما تكون فى مجال العبادات والشعائر وما تضمنه القرآن الكريم أما فى شئون الحياة الدنيا، فإن المضمون السيّء للبدعة لا يسرى عليها. وهذا كلام ما كان يمكن أن يقف عنده عمر، وسنرى أنه سيبتدع فى العبادات كما ابتدع فى الدنيويات. بحيث لا يقل ما ابتدعه فى مجال الأولى عما ابتدعه فى مجال الثانية، بل إنه أطلق "بدعة حسنة" على اجتهاده فى جمع الناس لصلاة التراويح، وكان كل ما ابتدعه فى المجالين أكبر وأعظم مما يطيق المسلمون بعده، وإن حضوره وشخصيته هو الذى كفل لهذه التجديدات الوجود، فلما استشهد أهال المسلمون عليها التراب وكأنهم دفنوها عندما دفنوا عمر ...

ولعل أول هذه التجديدات مما لا يبدو ذا خطر وإن كان له آثاره الخطيرة، فقد أطلق المسلمون على أبى بكر خليفة رسول الله بتأثير اللحظة التى تمت فيها بيعته وكأنهم لا يريدون أن يهجروا ذكرى رسول الله وأحبوا أن يكون حيا على الشفاه كما هو حى فى القلوب.

ولكن التعبـير لم يكن دقيقـاً ولعلنا لا نخـالف الحقيقة إذا قلنا إنه تعبـير خـاطئ. فقد كان الرسول خـاتم الرسل ولا رسـول ولا نـبى بعـده فكيف يمكن أن يقـال خليفة رسول الله ؟ وكان للرسول منزلة خاصة، وله على المؤمـنين طاعة وتسـليم، لا يجـوز أن يكونا لأحد، ولكن تعبير "خليفة رسول اللـه" قد يـوحى بـأن يكـون له الطاعة الـتى كانت لرسول الله. وعمليا فإن المعنى قد يسـمح بـأن يتطـور إلى "خليفة اللـه" وظل الله.. والحاكم الذى يحكم باسم الله. وفى هذا من الخطر ما فيه.

وكـان من حظ عمر أن يتخلّص من هـذا اللقب وأن يحمل لقبا عمليـاً وواقعيـاً "أمير المؤمنين" وكلمة أمير تقف ما بين "الإمـام" و "الحـاكم" ففيها نـبرة من الإمامة دون أن يكون فيها بعض التداعيات السيئة لكلمة الحاكم. وبهذا انتفت أى صفة "نبوية" لمن يتولى الأمر.

ولا يتسع المجـال للحـديث عن كل تجديـدات هـذا المبتـدع العظيم لأننا لا نقـدم تاريخاً وإنما نتحدث عن حظ الدولة الإسلامية من النجاح، وأنها لا تنجح إلا عندما تكـون عن كثب وقرب من الرسول. ثم ترزق شخصـيات موهوبة مؤمنة مثل أبى بكر وعمـر. أما إذا بعد العهد ولم ترزق هـؤلاء الموهـبين، أو حـتى لو رزقتهم (كما كـان الحـال فى على بن أبى طالب وعمر بن عبد العزيز) بعد أن طال العهد فإن الأمر لا يصفو لهم ولا يستمر معهم.. فإننا إنما أبحنا لأنفسنا الحـديث عن هـذه التجديـدات لا لعرضـها كسـرد تـاريخى وإنما لنثـير جـوانب فيها لم تحظ بعناية المـؤرخين، ومن الخـير ونحن نعـالج الموضوع أن يلم بها القارئ..

لقد كانت الصورة التى وضع بها عمر "الـديوان" تثـير الدهشة وتظفر بالإعجـاب والتقدير لأنها جاوزت أرقى ما ذهبت إليه "دولة الرعاية" فى العصر الحديث. وكان أبو بكر قد بدأ عملية "العطاء" عندما بدأت الفتوح وأرسـلت إلى المدينة "خمس الغنـائم" والجزية أو ما تبقى منهـا، وكـانت هـذه الأمـوال تحفظ فى المسـجد فلما جـاء عمر وتوالت الفتوح تضاعفت أضعافاً مضـاعفة حـتى أصبح من الضـرورى أن يكـون هنـاك "بيت مال" تـودع فيه بـدلاً من المسـجد ثم بـدأ عمر فى وضع الـديوان وانتـدب لـذلك الذين يلمـون بأنسـاب العـرب ووضع الـترتيب بادئـاً بالقرابة من رسـول الله – وأولهم زوجاته – ثم السـبق والبلاء حـتى يصل إلى عامة النـاس دون أن يـدع رجلاً أو امـرأة صغيراً أو كبـيراً. وكـان يعطى للأطفـال عند الفطـام حـتى علم بحالة أم تعلل أطفالها الذين لم يفطموا من الجوع. فأمر بأن يكون العطاء بمجرد الولادة ...

ولفتت الطريقة التى وضع بها الـديوان نظر طه حسـين فى كتابه عن الشـيخين فقال :

"ونظام العطاء هذا – كما فرضه عمر – جديد من جميع نواحيه، لا نعرف أن أمة من الأمم التى سبقت العـرب إلى الحضـارة عرفته أو عـرفت شـيئاً قريبـاً منـه، وإنما نعرف أن بعض الأمم القديمة كـانت تسـتأجر الجنـود للحـرب، ولا تحـرمهم نصـيباً من الغنائم قليلاً أو كثيراً، ونعرف أن بعض الحكومـات القديمة كـانت تقطع الجنـود أجـزاء من الأرض إذا تقـــدمت بهم السن يعيشــــون من غلاتهـــا، فأما أن تكفل الدولة رزق المسـلمين جميعـاً على هـذا النحـو، فلسـنا نعرفه فى التـاريخ القـديم، وما أظن أن الحضارة الحديثة، وفقت إليه".

وكل ما وصـلت إليه الحضـارة الحديثة فى بعض البلاد ووصـلت إليه بـآخرة، إنما هو التأمين الاجتماعى الذى تؤخذ نفقاته من الناس، فيرد عليهم بعد ذلك حين يحتاجون فى بعض الأمر إلى العلاج حين يمرضـــون، وإلى كفالة الحيـــاة للشـــيوخ، والضـــعفاء، والعاجزين عن العمل لكسب القوت، وإلى تـأمين العمـال من أخطـار العمـل، وتـأمين الـذين يخـدمون الدولـة، والهيئة الاجتماعية على رزقهم حين تنقضى خـدمتهم، فأما أن يكون لكل فرد من أفراد الأمة نصـيب مقسـوم من خزانة الدولـة. فشئ لم يعـرف إلا منذ عمر رحمه الله[11] " انتهى.

---

[11] (11) الشيخان "موجزة" طبعة 1977 للدكتور طه حسين ص 168.

وكانت سياسة عمر لعماله – أو بالتعبير الحديث – الولاة الذين يرسلهم لحكم الأمصار العظيمة مثل الشام والكوفة والبصرة ومصر واليمن الخ... سياسة رجل دولة يعلم حق العلم أثر ما فى الحكم والسلطان من مغريات تضعف أمامها النفس البشرية ولا يستقيم حالها إلا بالمتابعة اليقظة والموالاة المستمرة. وكأنى بعمر يفترض أن كل وال لابد وأن يخضع بدرجة أو بأخرى لإغراء السلطة.

وكان إذا استعمل عاملاً كتب له عهداً وأشهد عليه رهطا من المهاجرين يشترط فيه أن لا يركب برذونا، ولا يأكل نقياً ولا يلبس رقيقاً ولا يغلق بابه دون ذوى الحاجات، فإن فعل شيئاً من ذلك حلت عليه العقوبة، وبناء على هذا كان يرسل مفتشين للتثبت من تطبيق هذه الشروط وفى كثير من الحالات كان هؤلاء المفتشون يقاسمون الولاة أموالهم وعندما علم بأن سعد بن أبى وقاص بنى لبيته باباً أرسل مندوبه "محمد بن مسلمة" وأمره بأن يحرق الباب فوراً وقبل أن يتكلم مع سعد بكلمة لأنه يكره أن يكون بين الحاكم وشعبه باباً يحتجب وراءه فأين هذا مما انتهت إليه الأمور فى العهد العباسى.

له حاجب دونه حاجب وحاجب حاجبه يحتجب !!

وما كان يجوز عليه تعلات الحكام ولعل الوالى الوحيد الذى استطاع أن يخدعه بكياسة هو معاوية الذى عندما استقبله فى موكب يركب الجياد ويرتدى ثياباً قيمه وسأله عمر مستنكراً عن هذا قال له إننا فى بلد يوجد فيها جواسيس للعدو ولابد أن نظهر بمظهر القوة والبأس فقال عمر ما سألتك عن شئ إلا خرجت منه فإن كنت صادقاً فإنه رأى لبيب وإن كنت كاذبا فإنها خدعة أريب لا آمرك ولا أنهاك..

وكان يأمر ولاته جميعاً بالحضور فى موسم الحج مع حجاج ولاياتهم ويسأل الولاة ثم يسأل الناس عن الولاة ولم يكن يتردد فى أن يطبق القصاص إذا ثبتت مظلمة وما كان يمكن أن يفلت من رقابته أى وال مهما عظم قدره. وقد أرسل إلى خالد بن الوليد عندما علم أنه أعطى شاعراً مبلغاً جسيماً وأمر بلالاً وهو حبشى وقد كان عبداً إشتراه أبو بكر من سيده المشرك واعتقه ليعقله بعمامته فى المسجد ويسأله من أى مورد أعطى هذا المبلغ فإن كان من مال المسلمين فهى خيانة وإن كان من ماله فهو سرف..

وكان يعتبر الولاة "معلمين" يعلمون المسلمين شئون دينهم وما أكثر ما أعلن للناس من أهل الأمصار إنى لم أرسل عمالى ليضربوا أبشار الناس ولا ليظلموهم وإنما أرسلتهم ليعلموا الناس دينهم وسُنة نبيهم ويقسموا بينهم فيأهم ويقيموا أمرهم كله على العدل.

وكان عمر يخشى على قادته النابغين أن يفتنوا بالناس أو أن يفتن الناس بهم. وكان هذا هو سبب عزل خالد بن الوليد وتشديد المراقبة على سعد ابن أبى وقاص وليس هناك شك فى صحة نظر عمر فى هذا وأنه كان يقدم تبريراً مرضيا لهؤلاء الولاة "كرهت أن أحمل الناس على فضل عقله" وكان الوحيد الذى أفلت من ذاكرة عمر فى هذا هو معاوية الذى خدعه بإجابة لبقة رغم أنه يعلم بالطبع سرائر وطباع الأمويين. وكان ذلك خليقا أن لا يبقيه فى منصبه هذه المدة الطويلة وليس من حل لهذا التصرف إلا أن الإنسان لا يبلغ الكمال، وأن التطور يفرض نفسه ويستطيع أن يخدع أذكى العقول وكأن معاوية وتأسيسه "الشامى والبيزنطى" هو ممثل التطور.

* * *

وقد أراد أن يعلم عماله العفة عن المال العام، فأخذ نفسه بصور من التحوط. فقد أرسل أبو موسى الأشعرى واليه على البصرة إليه بمال مع أبنيه عبد الله وعبيد الله وصرح لهما بأن يشتريا من سلع البصرة ويبيعانها فى المدينة فيأخذا الربح ويؤديا المال. فلم يقبل عمر ذلك وطالب ولديه بما ربحاه فقال له ابنه عبيد الله "ما ينبغى لك يا أمير المؤمنين هذا. لو نقص هذا المال أو هلك لضمناه فأصر عمر حتى اقترح جلساؤه أن يأخذوا النصف ويضاف النصف الآخر لبيت المال. وهذا ما يسمونه قراضا

وهو أول قـراض فى الإسـلام". وأهـدت ملكة الـروم زوجته أم كلثـوم بهـدايا منها عقد ثمين. فما انتهى به البريد إليه حتى أمر بإمساكه ودعا الصلاة جامعة فـاجتمعوا فصـلى بهم ركعتين وقال: إنه لا خير فى أمر أبرم عن غير شورى من أمورى. قولـوا فى هدية أهدتها أم كلثوم لامرأة ملك الروم فأهدت لها امرأة ملك الروم. فقـال قـائلون: هو لها بالذى أهدته وليست امرأة الملك بذمة فتصانع به ولا تحت يدك فتتقيك. وقـال آخـرون قد كنا نهدى الثيـاب لنسـتثيب ونبعث بها لتبـاع ولنصـيب شـيئاً، فقـال: ولكن الرسـول رسول المسلمين والبريد بريـدهم والمسـلمون عظموها فى صـدرها فـأمر. بردها إلى بيت المال ورد عليها بقدر نفقتها.

وكان عمر إذا نهى الناس عن أمر من الأمـور جمع أهله فقـال إنى نهيت النـاس عن كذا وكذا وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم وأقسم بالله لا أجد أحداً منكم فعله إلا أضعفت له العقوبـة. ولعله فى هـذا كـان يتـأول الآية ﴿يَا نِسَـاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِـعْفَيْنِ وَكَـانَ ذَلِـكَ عَلَى اللَّهِ يَسِـيرًا﴾. { 30 الأحزاب}.

وكان عمر – كما يقول الشيخ عبد الوهاب النجار فى كتابه "الخلفاء الراشدون". "لا يستأثر بالأمر دون المسلمين ولا يستبد عليهم فى شـأن من الشـئون العامـة. فـإذا نزل به أمر لا يبرمه حتى يجمع المسلمين ويجيل الـرأى معهم فيه ويستشـيرهم. ومن مأثور قوله لا خير فى أمر أبرم من غير شورى. وكان مسلكه فى الشورى جميلاً. فإنه كـان يستشـير العامة أول أمـره فيسـمع منهم، ثم يجمع مشـايخ أصـحاب رسـول الله وأصحاب الرأى منهم ثم يفضى إليهم بالأمر ويسألهم أن يخلصوا فيه إلى رأى محمـود، فما استقر عليه رأيهم أمضاه وعمله".

كـان عمر يحب رعيته حبـاً جما ويحب ما يصـلحها ويكـره ما يفسـدها ساسـها بسياسة تقربه إلى القلوب فكان عفيفا عن أموالهم عادلاً بينهم مسـويا بين النـاس لم يكن قوى يطمع أن يأخذ أكثر مما له ولا ضـعيف يخـاف أن يضـيع منه ماله كـان حكيما يضع الشىء فى موضعه يشتد حينا ويلين حينا حسبما توحى إليه الأحوال التى هو فيها. عرف العرب معرفة تامة وعرف ما يصـلح أنفسـها فسـيرها فى الطريق الـذى لا تـألم فيه فصيرها أمة حرة لا تستطيع أن تنظر إلى خسف يلحقها من أى إنسان.

وكان وهو فى المدينة يعلم بما يحدث فى الأمصار من ولاته حتى ما صغر. فكتب إلى أحد ولاته أن لا يتكئ فى جلسته ! وبلغه أن حرقوصاً عامله على الأهواز نزل جبلاً كؤوداً يشق على من رامه والناس يختلفون إليه فكتب إليه "أما بعد، بلغنى أنك نزلت منزلاً كؤوداً لا تؤتى فيه إلا على مشقة. فأسهل ولا تشق على مسلم ولا معاهد".

وجعله ذكاؤه واستغراقه وتفانيه فى القيام بمسـوؤليته بصـدق وورع وإسـتهدافه الخـالص القـربى لله والرسـول يـرى ويحس بما لا يـراه أو يحسه الآخـرون وأعطته فراسة تجعله يتغلغل فى أعمـاق النفـوس – بل منحته قـوة أتصـال بما قد يحـدث بعد مئات الأميال – كما حدث عندما نـادى وهو يخطب بالمدينة "يا سـارية الجبـل" ودهش المسـلمون لهـذه الجملة ولكن عمر الـذى كـان فيما يبـدو مسـتغرقا فى شـأن معركة كانت تدور وقتئذ بين سارية بن حصن والفـرس فـرأى الفـرس وهم يهـاجمون سـارية بأعداد كثيفة ووراءه جبل فنادى بأعلى صوته "يا سارية الجبل" ليلفته للاعتصام بالجبل وسمع سارية الصوت واعتصم بالجبل حتى أنقذ من هجوم الفرس وهى حالة يسـمونها "التلبـاثى" بحيث ينفذ البصر عـبر الأجـواء، ولكن هـذه حالة خاصة بـالطبع، أما فراسة عمر الـتى تمـيز بها فهى الـتى كـانت تمكنه من أن يتنسم واقعة حـدثت بحكم نفسـية صـاحبها الـتى كـان عمر يفهم دخائلها تمامـاً. وهنـاك حالتـان تمثلان ذلـك. فقد زار أبو سفيان ابنه معاوية وعندما عاد وقع فى ذهن عمر أن ابنه معاوية وصله فقال "اجزنا يا أبا سفيان" فقال ما أصبنا شـيئاً فنجزيـك" فمد عمر يـده فأخذ خائمـاً بيد أبى سـفيان وبعثه مع رسـول إلى هند زوجة أبى سـفيان وقـال قل لها ابعـثى الخـرجين فبعثتهمـا. ووجد عمر فيهما عشـــرة آلاف درهم فطرحها فى بيت المـــال. أما الواقعة الثانية فقد هم عمر بعـزل عامله على العـراق المغـيرة بن شـعبة وتولية جبـير بن مطعم مكانـه.

وشعر المغيرة بحاسته المرهفة بذلك فطلب من جليس له أن يدس امرأته وكانت معروفة بالتقاط الأخبار حتى سميت "لقاطة الحصى" لتعرف الحقيقة من زوجة جبير، فذهبت إليها وسألتها عن المكان الذى يقصده جبير فى سفره فأخبرتها أنه ينوى العمرة فقالت لقاطة الحصى إنه كتم عليك أمره ولو كانت لك منزلة عنده لأخبرك بالحقيقة فغضبت امرأة جبير ودخل عليها وهى مغضبة فلم تزل به حتى عرفت سر سفره وأخبرت به لقاطة الحصى وعرف المغيرة فذهب إلى عمر وفاتحه بما علم فقال له "كأنى بك يا مغيرة قد فعلت كيت وكيت، وأنشدك الله هل كان كذلك فقال المغيرة اللهم نعم. (عبقرية عمر للعقاد)..

فهذه الحوادث وأمثالها تظهر لنا أنه قد صفت طبيعته وطهرت سريرته حتى أصبح يرى ما لا يراه الآخرون، كما أنها تبرز لنا جانبا من جوانب اهتماماته هو حرصه على الرجال الأكفاء الذين يجتمع لهم القوة والأمانة وعندما كان فى مجلس يذكر فيه كل واحد ما يتمنون قال عمر "ولكنى أتمنى بيتا مملوءاً بأمثال أبى عبيدة بن الجراح. وسألهم يوماً عمن مرشح يوليه فقالوا كيف تريده فقال "إذا كان فى القوم وليس أميرهم كان كأنه أميرهم وإذا كان أميرهم كان كأنه رجل منهم" ولعمرى إن هذا لخير ما يوصف به مرشح لولاية، وما ينم عن معرفة دقيقة بأقدار الرجال.

* * *

أما ابتداعاته فى المجال الدينى الخالص وبالذات طريقته فى فهم النصوص واستخلاص الحكم، فإنها كانت سابقة لوضع أصول الفقه الذى ظهر بعده بقرابة مائة عام، وكان أعمق فهما له، وقد شرح ذلك بإفاضة الدكتور محمد بلتاجى فى كتابه القيم "منهج عمر بن الخطاب فى التشريع" وقال إن الذى لفت نظره أول مرة إلى ذلك هو الشيخ على حسب الله وهو أحد الأساتذة الكبار فى أصول الفقه. إذ قال إن عمر – وإن سبق زمانه نشأة علم أصول الفقه بأكثر من قرن من الزمان – فإنه بصورة عملية عبقرية لا مثيل لها قد تجاوز مقولات هذا العلم ومقرراته التى انتهى إليها علماء الأصول بعده، لأن فهمه وتطبيقه لروح النصوص الشرعية ومقاصدها المبتغاة كان ذا طابع منفرد بحق. يحسبه الجاهل خروجاً على مضمون النص ومخالفتة له وإنما هو عند التحقيق الفهم العبقرى الذى يجمع بين المفهوم الصحيح للنصوص وتحقيق مقاصدها المبتغاة وتحقيق مصالح الناس المعتبرة فى الوقت نفسه. أو باختصار العمل بروح الشريعة لا بمنطوقها قط.. ولو أن أئمة الفقه الشافعى وأبو حنيفة الخ... بدءوا حيث انتهى عمر، وقد سبقهم بالطبع لأتجهوا بالفقه الوجهة المثلى. ولكن الذى حدث هو أنهم نكصوا على أعقابهم وشغلوا بقيل وقال واستعبدتهم النصوص آونة والسند آونة أخرى.

وكان عمر لا يقبل حديثاً إلا بشاهدين – باستثناء بعض كبار الصحابة الذين يوثق بهم كعبد الرحمن بن عوف أو أبو عبيدة الجراح أو سعد بن أبى وقاص، ولو أن علماء الحديث أخذوا بما كان عمر يأخذ به ولهم فيه أسوة حسنة – لخلصنا من مشكلة أحاديث الآحاد، وكان لهم سند قوى فى أن الإسلام لا يقبل إثبات واقعة إلا بشاهدين عدلين. وقد تكون بضعة جنيهات فكيف إذا كان الحديث يتضمن مبدءاً تقطع به أعناق وتطلق به نساء ويلزم الناس الطاعة للحكام الخ ...

على أن عمر ما كان يتخذ قراراً إلا بعد الاطمئنان القلبى والتثبت العقلى. وما لم يتحقق فيه هذان فما كان يبت فيه وقد أشهد الناس بعد أن طعن أنه لم يقل فى الكلالة شيئاً. وهو ما يمثل تقديره لمسئوليته.

ولكن هذا لا ينفى أن عمر فى ثقته بنفسه وفى ملاحظته للظروف وتوخيه المصالح وبعد أن توفر له الاطمئنان القلبى والتثبت العقلى، لم يكن يلتزم دائماً بالنص فقد قال القرآن الكريم بصريح العبارة "الطلاق مرتان" فجاء هو وجعله مرة واحدة عندما رأى أن الناس قد أساءوا استخدام السعة والحرية التى أباحها لهم الشارع. وحرم المتعتين متعة الحج، ومتعة النساء ولا جدال أنه بنى هذا على مبررات وجيهة، ولكن هذا لا ينفى أنه قد تكون لهما مبررات – حتى متعة النساء التى تثير ليس

فحسب الاستياء، بل الغثيان عند البعض – وعند التدقيق والتحقيق نجد أن الزواج المؤقت قد يكون له ضرورة بالنسبة للطلبة أو الجاليات الإسلامية فى الدول الأوربية، وفى قضية المؤلفة بين قلوبهم فإذا لم تكن هناك حاجة لإعطائهم وقت عمر، فقد يكون هناك حاجة بعده.. أما اعتباره الطلاق مرة واحدة. فحتى لو أنه جازى به سرف الرجال وإساءة استخدامهم للحق فما ذنب النساء ؟

على أن هذه الجرأة التى جعلت اجتهادات عمر شجا فى حلق الفقهاء هى التى تثير فينا الإعجاب وتدفعنا إلى الإقدام. وأن نقتدى به فى الإقدام والاجتهاد لا أن نقلده فيما انتهى إليه بالفعل...

* * *

كان كل شئ يسير بالتوازن ما بين قطبى الدعوة والدولة، وفى إطار التوجيهات الإسلامية فالجيوش الإسلامية تنطلق كل يوم لتكسب أرضاً جديدة ولتنتصر فى موقعة جديدة، وعمر بن الخطاب يسير فى طرقات المدينة "بمرقعته ودرته" ويجلس مع كبار الصحابة ويضع النظم والترتيبات التى تكفل النظام لهذا التضخم الكبير والسياق الحثيث للأحداث..

ولكن كان هناك شئ ما يحيك فى نفس عمر.. شئ يثير فيه التوجس والخوف من المستقبل. فحتى هذه الفتوحات مع كل ما تعنيه من إعلاء لكلمة الإسلام، وإنقاذ الجماهير المستعبدة فى إسار الحكم الطبقى والإمبراطورى.. كانت لها مضاعفاتها. فقد جاءت بأفواج تلو أفواج من "الموالى" حتى سدت طرقات المدينة، وجعلته يستعيذ من سبى "جلولاء" كما كان خمس الغنائم يتكدس فى بيت المال. وقد جاءت الفتوح بسوارى كسرى. وألبسهما عمر بن الخطاب بنفسه فى يدى سراقه تحقيقا لوعد الرسول ﷺ وحصل "شويل[12]" على أسيرته التى كانت عندما رآها غادة فاتنة.. وكان عمر يتساءل فى نفسه إلى أين ستنتهى هذه التطورات التى فتحت أمام الناس أبواباً مغلقة وعوالم مجهولة..

كان عمر قد أرسل الجنود ليكونوا رسل هداية وتعريف بالدين وإنقاذ للشعوب من الحكم الطبقى الجائر، ولكنه رأى هؤلاء الجنود وقد أتخموا بالغنائم.. فهل هذا نعمة أو هو نذير بخطر محيق... فى فترات كان يتمنى لو أن بينه وبين فارس سداً. ولم يكن يسعد بتوالى الفتوح. وقد رفض رفضاً باتا أن يركب العرب البحر وينطلقوا عبر أمواجه بعد أن وصف عمرو بن العاص البحر له وأن الناس فيه "دود على عود".

ولم يسعد بانهمار الأموال على المدينة. بل إنه بكى عندما رأى أكداساً منها تلمع وتبرق ولما سئل كيف يبكى والمناسبة مناسبة شكر وسرور قال "والله ما أعطى الله هذا أقواما إلا ألقى بأسهم بينهم" وجعلته هذه الثروات، وامتداد الفتوح يشك هل هو خليفة أم ملك – رغم كل ما كان يحذره وما كان يحرص عليه من اتّباع العدالة بين الناس وأخذه نفسه وأهله بصور بالغة من التقشف فكان يقول "والله لا أدرى أخليفة أنا أم ملك، فإن كنت ملكا فإن هذا أمر عظيم.. فقال قائل يا أمير المؤمنين إن بينهما فرقا قال ما هو قال الخليفة لا يأخذ إلا حقا ولا يضعه إلا فى حق وأنت بحمد الله كذلك والملك يعسف الناس بالناس فيأخذ من هذا ويعطى هذا فسكت عمر ولم يكن فى هذا ما يطمئن هواجسه ومخاوفه. وحكم بأن الدولة قد وصلت إلى أحد مفاصل التطور، أو كما قال هو "كالجمل البازل الذى لا يكون بعده إلا الضعف والتدهور".

---

12 **(12) يقولون إن رسول الله عندما ذكر أن المسلمين سيفتتحون الحيرة سأله أحد الجالسين ويدعى "شويل" أن يعطيه المسلمون كرامة بنت عبد المسيح وكان قد رآها فمال إليها فوعده الرسول بذلك فلما فتحت الحيرة على يد خالد بن الوليد، وكان شويل فى الفتح وشهد له شهود بوعد الرسول فتمسك خالد بتسليم كرامة فرفضوا، ولكنها قالت لهم "هونوا عليكم وأسلمونى فإنى سأفتدى نفسى فأخذها شويل، وكانت قد أصبحت عجوزا فزهد فيها وعندما عرضت عليه ألف درهم سر وأطلقها وأخذ الألف. فقالوا له لو طلبت أكثر لأجابتك فقال والله ما كنت أظن أن هناك عدداً أكثر من الألف !!**

كان يحس أن هناك أزمة تتجمع غيومها فى الأفق القريب وكان يقف بكل جهـده حـتى لا تتفـاقم. ولكن لما كـانت تعبـيراً عن وصـول المجتمع العـربى إلى درجة من التطور لا تصلح معها سياسة "دولة المدينة" فقد ظل هاجس هذا التطور يقلقه، وكـان يعلم أن كل ما يقـوم به من متابعة ورقابة وملاحقة لعماله لا يكفى واعـتزم أن يـزور الأمصـار مصـراً مصـراً ويقضى فى كل منها شـهراً حـتى يطمئن بنفسه على تحقيق العدالة "على الطبيعة" كما تـبين أن طريقة أبى بكر فى تقسـيم العطـاء على أسـاس المساواة أفضل من تقسيمه على أساس الاستحقاق لأن الأخيرة أسـفرت عن تضـخم الثروات لدى البعض..

وكان من الإجراءات الحاسمة التى أراد بها أن يحول دون حدوث الفتنة احتجازه لسـروات قـريش ومشـيخة الصـحابة ووجـوه النـاس بالمدينـة. وعـدم السـماح لهم بالانسياب إلى الأمصار لأنه كان متأكـداً أن ذلك سـيحدث فتنة هـؤلاء بما فى الأمصـار من مَدنيّة ومتاع الخ... وفتنة أهل الأمصار بلقـاء صـحابة الرسـول.. وقـال "إن قـريش يريـدون أن يجعلـوا مـال الله دولة بينهم أما وابن الخطـاب حى فلا. ألا وأنى قـائم لهم بحرة المدينة فآخذ بحجزهم أن يتهافتوا فى النار..".

* * *

الفصل الثالث

- 1 -

أول الوهن

كيف تحولت الأمور إلى النهاية التى بلغتها، وكيف وصل بـرزخ الخلافة الراشـدة إلى النقطة الفاصلة التى خلف فيها وراءه رحمة الحكم النبـوى ليـدخل فى نفق المُلك العضوض ومقدماته..

لقد قلنا إن دولة المدينة كـانت اسـتثناءً من طبـائع الأمـور. وأنها ما قـامت وازدهرت إلا بفضل العوامل الاستثنائية التى أشـرنا إليها أكـثر من مـرة من التأسـيس النبوى الذى كان النبى فيه رسولاً و "حكما" بين النـاس فيما شـجر بينهم سـواء كـانوا مؤمنين أو مشركين أرادوا استئصال الإسلام وجر المؤمنين إلى القتال الذى كان كرها لهم، ولكن ليس منه مناص، بل إن التملص منه لا يعنى سوى سيادة الاستبداد وانتفـاء حرية العقيدة.. ولا خير فى مثل هذه الحياة.

وقاد الرسول هـذه المعـارك على غـير طريقة القـادة والملـوك، فبعد أن فتحت المدينة بـالقرآن – فتحت مكة بـأهون الأسـباب – ودخلها الرسـول سـاجداً على قتب بعـيره شـكراً لله وأعلن أنها أحلت سـاعة من نهـار وآمن أهلها جميعـاً ثم أعلن أنهم طلقاء..

وهذه "سياسة" ليست من سياسة الملـوك فى شـئ.. وتتنـاقض تناقضـاً بينا مع مـوكب النصر الرومـانى الـذى يحتشد فيه الأسـرى مكبلين بـالأغلال وغنـائم وأعلام المهزومين بينما يعتلى المنتصر مركبته ليرد على تحية الألوف.

ثم جاء أبو بكر وعمر ولم يكن أحدهما رسـولاً نبيـاً يـرزق هداية الـوحى ولكنهما سـاراً فى ظل الرسـول واقتفيا أثـره.. وكل ما ابتدعه عمر كـان من روح الإسـلام وما يتفق معه. وكانا نابغين من طينة العظماء الـذين يرفضـون المـديح والثنـاء ويسـقطون عرض الدنيا من متاع أو لباس.. أو ثـراء لأنهم سـمعوا الرسـول وهو يقـول "تعس عبد الدينار.. تعس عبد القطيفة"..

وعندما يشرف على الأمر هـؤلاء العبـاقرة المؤمنـون فـإن إيمـان النـاس يصـفو وتتملكهم قـوة الأسـوة فيـؤثرون الآخـرة على الـدنيا ويعفـون عن المغـانم وتسـتقيم طبيعتهم ويتغلبون بقوة الإيمان – على الضعف البشـرى.. وعلى "الفجـور" المغـروس فى النفس البشرية.

ولكن إلى متى ...

إن محمـداً بعد ليس إلا "رسـولاً قد خلت من قبله الرسـل" فكتب عليه المـوت كما كتب على الناس جميعا "إنك ميت وإنهم ميتون"..

ولحق به أبو بكر كما لحق به عمر ...

وكـــان من الطـــبيعى أن ينحسر مد الإيمـــان "وأن تنتهى قوته الدافعة ومناعته الحصينة عند الناس"...

إن السؤال الهام الذى يفوت الكتـاب الإسـلاميين الـذين يتحدثون عن القوة الخارقة للإيمان هـو: إلى أى وقت يسـتمر هذا الإيمان. وتستمر وقدته ودفعته ؟ ففى التجربة التى نحن بصددها ظل هذا الإيمان ثلاثين عامـاً ثم أخـذت وقدته ودفعته تفقدان قوتهما شيئاً فشيئاً.

والقضـية ليست هى أهمية الإيمـان، فلا جـدال فى أنه القوة التى تدفع الجماهير لعظائم الأعمال، كما يرفع الوقـود الطـائرة من الأرض إلى عنـان السـماء.. ونحن نـؤمن بهـذا

ولكننا – بحكم الخبرة ومعرفة الطبيعة البشرية والسوابق التاريخية – نجزم أن الإيمان العظيم الذى يمثل القوة الدافعة ليس هو الدأب المستمر ولا هو الحال الطبيعى، ولابد أن يأتى وقت – طال أو قصر – تنفد فيه القوة الدافعة وتنطفئ فيه الوقدة المشتعلة..

هذا ما يوجب علينا أن نضع هذا العامل فى حسابنا فنعمل على تجديد الإيمان وتزويده بوقود جديد. وفى الوقت نفسه فلابد أن تكون توقعاتنا – فى المدى البعيد – فى حدود الإطار الطبيعى للنفس الإنسانية ولأصول المجتمع البشرى وما يحفل به من تعدديات وتيارات بحيث نستبعد الصورة الملائكية أو المثالية التى تقترن بالإيمان. إن هذه الصورة وإن كانت حقيقية ويمكن أن تظهر فى فترة ما، فإنها لا تستمر طويلاً، ولابد أن تعود الأمور إلى سياقها الطبيعى..

* * *

ومن المحتمل أن لو كان عثمان فى مثل عبقرية عمر لمد في عمر الخلافة الراشدة سنين عدداً. ولكن الذى حدث وجعل الانحسار حتما مقضيا، هو أن عثمان كان نقيضاً لعمر فى كل شئ تقريبا. ومن ثم فإن سياساته أدت إلى انحسار الإيمان، وانحسار الإيمان أدى إلى اغتياله واغتياله فاقم الأمور وبدأت "الفتنة الكبرى"..

والحقيقة أن عثمان لم يكن فحسب نقيضاً لعمر. بل إنه كان <u>إيذانا بالانتقال من "الموضوعية" التى كانت طابع الخلافة إلى الذاتية التى هى طابع الملك..</u> والتى كانت متأصلة فى بنى أمية كما سيلى. لأن عثمان رغم سابقته ومزاياه كان يحمل وراثة تجعل الذاتية فيه تغلب الموضوعية.

لإيضاح هذا نقول إن عامة الناس عندما يتركون لأنفسهم فإنهم يتصرفون تبعاً لما تهوى الأنفس. فيحبون الثراء والرغبة فى الامتلاك إلى درجة القناطير المقنطرة من الذهب والفضة" ويؤثرون الاستمتاع ليس فحسب بطيبات الحياة الدنيا، بل بكل ما يمكن أن تأتى به الدنيا من فنون وصور الاستمتاع إلى آخر مدى.. كذلك فإن النفس تهوى السيادة. وأن تُأمر فتطاع وأن يتملقها الناس بالمديح والإطراء وأن تكون لها حرية فى العطاء والمنع والأخذ والرد. وعندما ترد أخيلة المجد على فرد ما فلكى تحمل اسمه أو أن يفتح من البلاد، ويقهر من العباد أكثر مما فعل غيره الخ ...

وما تركت النفس البشرية لطبعها فإنها تسلك هذا السبيل لأن الإنسان ضعيف أمام الإغراء خاصة وأن هناك شيطاناً مريداً يسرى من الإنسان مسرى الدم يدفع به إلى منازع الغواية ويزين له الشهوات.. فإذا كان تاجراً اشترى بأرخص الأسعار وباع بأغلاها. وإذا كان صانعاً استغل عرق العمال فأطال فى ساعات العمل وبخس الأجور. وإذا كان حاكماً استبد بالناس ونكل بالمعارضين واستحوز على الثروات، بل إنه كرجل يستغل قوته فى إخضاع زوجته وأولاده، وهو لا يرفض أن يستثمر أمواله فى معاملات مشبوهة أو صناعات أسلحة مدمرة، أو مشروبات مسكرة. أو إشاعة لشهوات الجنس بالأفلام العارية الخ... ولا يمكن أن يغير هذا المسلك وأن يتجاوز ذاته إلا بفضل قوة خارج الذات الإنسانية، وأعظم من الذات الإنسانية وتتبلور فيها القيم والموضوعية وهى ما يقدمه الإيمان بالله تعالى. خالق هذا الكون وأصل القيم والإطلاق والتجريد الخ... ولما كان العقل البشرى أعجز من أن يأخذ عن الألوهية فكرة دقيقة، فإن الله تعالى أرسل رسله ليعرفوا البشر عليه بفضل شعاع يبدد الظلمات، وبذلك يمكن أن يتغير المسلك الذاتى بسوءاته إلى مسلك موضوعى يلحظ القيم ويتجاوز الذات ...

وحدث هذا بالنسبة للعرب بفضل الرسالة النبوية التى انتشلتهم من تقاليد الجاهلية الذاتية إلى آفاق الموضوعية الربانية وقيمها وبفضل هذا قامت ثورة الإسلام.. وظهرت دولة المدينة – تجربة فريدة فى التاريخ الإنسانى.

كان أمر قريش قبل بعثة الرسول ردحاً من الدهر يعود إلى قصى بن كلاب الذى هيمن على مكة والبيت وكانت إليه الحجابة "أن تكون مفاتيح البيت عنده،

والسقاية (يعنى سقاية زمزم وكانوا يصنعون منها شرابا فى موسم الحج بعسل أو لبن) والرفادة "الطعام الذى يصنع لأهل الموسم) والندوة "دار الشورى" واللواء "أى القيادة فى الحرب" وعندما مات قصى برز من أبنائه عبد مناف. وولد لعبد مناف عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل. فولى السقاية والرفادة هاشم دون أخويه عبد شمس والمطلب وروى أن عبد شمس وهاشم كانا تؤمين ملتصقين فصل بينهما بسلاح فقال العرافون إنه سيكون بينهما دم إلى الأبد! وقامت منافسة ما بين هاشم وعبد شمس رجحت فيها كفة هاشم من كافة الوجوه بحيث خصوا هاشم بالسقاية والرفادة دون عبد شمس.

ويموت هاشم فيرث ابنه عبد المطلب مناصبة دون عبد شمس. ويموت عبد شمس ليخلفه ابنه أمية..

وقامت منافسة حادة ما بين عبد المطلب وأمية لأن الخلاف فى الطبائع جعل عبد المطلب يمثل "الموضوعية" وأمية يمثل "الذاتية"..

ومع أن الصورة المثلى للموضوعية هى ما تأتى به الأديان عن الله تعالى فإن طبيعة عبد المطلب كان فيها كل خلائق وصفات "الموضوعية" الدينية ألا وهى قيم الخير والحب والسلام والإيثار والانطلاق من هذه القيم والعمل بها، وكأنما أراد الله تعالى لنبيه أن يرث هذه الطبيعة حتى يكللها الوحى عند محمد – حفيد عبد المطلب بحيث يصادف هذا الوحى الطبيعة المهيئة له.

وعلى نقيض هذه الطبيعة كانت طبيعة أمية – الذاتية تمثل الأثرة وحب النفس والكسب والحرص على الدنيا والحكم على الأمور من هذه المنطلقات. ولهذا فلم يكن غريبا أن يشتغل معظمهم بالتجارة وأن يحصلوا على ثروات طائلة..

وحاول أمية أن يفعل مثلما كان يفعل هاشم من إطعام بكرم وسخاء، وطيبة نفس، وكان هاشم يقدم الخبز واللحم والسمن والسويق والتمر.. وعجز أمية عن أن يماثل هاشم فى ضيافته لأنه كان يتكلفها وقامت "منافرة" بينهما أيهما أفضل يكون على الخاسر فيها أن يدفع خمسين ناقة سود الحدق لتنحر، وأن يجلو عن مكة عشر سنين وكان الحكم بينهما فى هذه المتنافرة هو الكاهن الخزاعى بعسفان فحكم لهاشم على أمية. فأخذ هاشم الإبل فنحرها وأطعم لحمها وخرج أمية إلى الشام..

هل كان خروج أمية إلى الشام حدثا عارضاً. أو كان إيماء لما سيحدث لحفيده "معاوية" فيما بعد؟ أقام أمية بالشام عشر سنوات يغلب أنها دعمت طبيعته الذاتية وخلائقه المادية، والتجارية. وكانت الشام وقتئذ تحت حكم البيزنطيين.

وتكررت القصة مرة أخرى. فقد نافر حرب بين أمية عبد المطلب بن هاشم من أجل يهودى كان فى جوار عبد المطلب فما زال أمية يغرى به حتى قتل وأخذ ماله..

وظهر جليا أن هذين الفرعين من عبد مناف يختلفان اختلافا جذريا فأمية يمثل الاتجاه الذاتى وهاشم يمثل الاتجاه الموضوعى.

فلما أعلن الرسول بعثته اشتدت عداوة أمية لبنى هاشم لأنهم جاءوا بما لا يمكن أن يأتوا به وأغلق الطريق أمام أى احتمال لكى يلحق بنو أمية ببنى هاشم فأحجج هذا العداوة القديمة، وقد كان من أبرز الأمويين المعادين للرسول أبو أحيحة سعيد بن العاص الذى هلك على شركه فى السنة الأولى للهجرة وعقبة بن أبى معيط الذى قتل فى بدر ومنهم الحكم بن أبى العاص بن أمية الذى أسلم تقية – وسيكون له دور مشئوم فى أزمة عثمان وما تلاها – وطرده الرسول من المدينة فأطلق عليه "طريد رسول الله" ومنهم عتبة بن ربيعه بن عبد شمس الذى قتل ببدر وعتبة هذا هو أبو هند التى تزوجت أبا سفيان بن حرب. والتى مثلت بجسد حمزة فى أحد. إذ كان هو الذى قتل أباها فى بدر، وقد أمر الرسول بقتلها ولكنها أسلمت وبايعت الرسول متنكرة. ومنهم الوليد بن عتبة بن ربيعه الذى قتل فى بدر قتله على بن أبى طالب وهو خال معاوية، ومنهم شيبة بن ربيعة بن عبد شمس عم هند وقتل ببدر، ومنهم أم جميل بنت حرب بن أمية التى أطلق عليها القرآن الكريم "حمالة الحطب" التى كانت

تنشد الشـعر فى ذم الرسـول ومنهم معاوية بن المغـيرة بن أبى العـاص بن أمية وهو الـذى جـدع أنف حمـزة ثم لاذ بعثمـان ليحميه من رسـول الله فوهبه لعثمـان على أن يغـادر المدينة بعد ثلاث. ولكنه لم يخـرج منها إلا رابع يـوم فأدركه أسـامة بن حارثه وعمار بن ياسر فقتلاه، ومنهم أبو سفيان صخر بن حرب بن أمية قائد الأحـزاب وأحـد. ولم يزل يجادل الرسول ويحاربه حتى أخذ الرسول يستعد لفتح مكة فجـاء أبو سـفيان ليتعرف الأخبار وكاد المسلمون أن يوقعوا به لـولا أن حمـاه العبـاس لأنه كـان صـديقه وزميله فى الجاهلية. وعندما شـاهد أبو سـفيان الجيش الإسـلامى وهو يسـير إلى مكة قال للعباس لقد أصبح مُلك ابن أخيك عظيماً فقال له العبـاس. إنها النبـوة... ولكن أبا سفيان كان يعود فيتحدث عن مُلك ابن أخيه". وعرض عليه أن يسـلم فشـهد أن لا إله إلا الله.. ولما طلب منه أن يتم "محمداً رسـول اللـه" قـال أما هـذه ففى النفس منها شئ فقيل له آمن ويلك قبل أن تقتل.. فآمن..

من هنا يتضح أن عـداوة بـنى أمية لبـنى هاشم عريقة وأنها امتـدت إلى عـداوة الإسلام بحيث أصبح بنو هاشم يمثلون الإسلام وما فيه من موضوعية وبنو أمية يمثلون الدنيا وما فيها من ذاتية وأن هذا كان فى أصل العداوة التى عبر عنها الشاعر :

عبد شمس قـد أضرمت لبنـــى هاشم ناراً يشـــيب منها الوليد

فابن حرب للمصطفى، وابن هند[13] لعلى، وللحســين يزيــد

* * *

من هذه الشجرة الدنيويـة، الذاتية نشأ عثمـان بن عفـان لأنه بن أبى العـاص بن أمية بن عبد شمس ولكنه كان الاستثناء فى حدود ما يمكن للاستثناء أن يسمح به فقد أسـلم عن صـدق وحب، وإن لم يـنزع هـذا الإيمـان من نفسه حب الـدنيا والاسـتمتاع بالحيـاة، واقتصـرت مسـاهمته فى نصر الإسـلام على التـبرع بالمـال دون الجهـاد، أو المشاركة فى بناء الـدعوة، والجهـاد بالمـال قد لا يقل عن الجهـاد بـالنفس وقد كـانت الـدعوة الناشـئة فى حاجة ماسة إلى الـدعم المـادى، وقد يلحظ أن القـرآن الكـريم كثيراً ما يقدم "الذين يجاهـدون بـأموالهم" على الـذين "يجاهـدون بأنفسـهم". ومن ثم فإن الدعم المادى من عثمان كان له أثره وكان الرسول يعز عثمان معزة خاصـة. وقد زوجه ابنته رقية فلما ماتت زوجه أختها أم كلثوم ومن ثم فقد يطلق عليه ذو النـورين، وكان عثمان وديعاً، حييـا، ولعله ورث بعض خلائقه الأريحية والكـرم من جدته – أم أمه وهى أروى البيضاء بنت عبد المطلب.

لهذا كله كان عثمان شخصية محببة بين الصحابة ...

عندما طعن عمر بن الخطاب وهو يتهيأ لصـلاة الفجـر، كـان أول ما حـرص عليه المسلمون هو أن تقام الصلاة. فـأقيمت الصـلاة وأديت بأقصر آيـتين فى القـرآن بينما كان الخليفة المطعون ينزف دما وكـان الشـىء الثـانى عنـدما اسـتبان للجميع أن عمر سيترك هذه الحياة الدنيا هى الاسـتخلاف. فقـالوا له اسـتخلف ونصـحته عائشة عنـدما أرسل إليها ليسـتأذنها فى أن يـدفن بجـوار صـاحبيه فى حجرتها فـأذنت له وقـالت لرسـوله، قل له أن يسـتخلف ولا يـدع أمة محمد ضـياعاً ولما أكـثر النـاس قـال إن أسـتخلف فقد اسـتخلف من هو خـير مـنى أى أبو بكر الصـديق وإن لم أسـتخلف فلم يستخلف من هو أفضل منى (أى الرسول) ورأى أن يخرج من هذه المسئولية الضخمة وحتى لا تتكرر محنة سقيفة بنى ساعدة التى عاشها وقال عنها إنها كانت فلتـه. ارتـأى وهو يجود بنفسه أن يدع الأمر بين يدى سـتة من الصـحابة تـركهم الرسـول وهو راض عنهم هم على وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وطلحة والزبير..

---

[13] **(13) ابن حرب هو أبو سفيان وابن هند هو معاوية.**

قد لا يكون هذا الـرأى أفضل الآراء. ولكن علينا أن نلحظ أن عمر أتخـذه بعد أن طعن ودمه ينزف ولم يكن هنـاك وقت لاتخـاذ إجـراء آخـر. ولعله فى ظرفه هـذا كـان أفضل ما يتصور، وقد وضع تعليماته فى هذا الوقت الحرج كأفضل ما تكـون.. فـأمرهم بالتشاور ثلاثة أيام. وأمر أبا طلحة أن يجلس مع خمسـين من الأنصـار لمراقبة العملية وقال إذا ارتضى الخمسة شخصاً ورفضه السـادس فـاقتلوه.. فـإذا تقاسـمت الآراء ما بين ثلاثة وثلاثة فيؤخذ رأى عبد الله بن عمر وليس له من الأمر غير ذلك..

واتضح أن كل واحد من الخمسة (لم يكن طلحة موجـوداً وقتئـذ) كـان حريصـاً على أن تكـون له الولايـة. وعجب أبو طلحة الـذى أمـره عمر بحراسة المجموعة لأنه كـان يتصـور أنهم سـيتدافعونها – أى سـيدفع كل واحد منهم بالولاية إلى الآخر ورعـاً وإيثاراً.. فإذا بهم يتدافعون عليها أى يريدها كل واحد لنفسه. ودرءاً لهـذا الخلاف أعلن عبد الرحمن بن عوف أنه يعزل نفسه عنها إذا ترك له الباقون القيام بالمهمـة. فقبلـوا فقـال لهم عبد الـرحمن اجعلـوا أمـركم إلى ثلاث منكم فجعل الزبـير أمـره إلى على وجعل طلحة أمـره إلى عثمـان وجعل سـعد أمـره إلى عبد الـرحمن بن عـوف. قـال المسـور بن مخرمة فقـال لهم عبد الـرحمن كونـوا مكـانكم حـتى آتيكم وخـرج يتلقى الناس فى أنقاب المدينة متلثما لا يعرفه أحد فما تـرك أحـداً من المهـاجرين والأنصـار وغـيرهم من ضـعفاء النـاس ورعـاتهم إلا سـألهم واستشـارهم أما أهل الـرأى فأتـاهم مستشـيراً وتلقى غـيرهم سـائلاً يقـول: من تـرى الخليفة بعد عمـر؟ فلم يبق أحـداً يستشيره ولا يسأله إلا ويقول عثمان فلما رأى اتفـاق النـاس واجتمـاعهم على عثمـان قال المسور جاءنى عثمان رضى الله عنه عشاء فوجدنى نائماً فخـرجت إليه فقـال: لا أراك نائما فوالله ما اكتحلت عينى بنـوم منذ هـذه الثلاثة ادع لى فلانا وفلانا (نفـراً من المهاجرين) فدعوتهم فناجاهم فى المسجد طويلاً ثم قاموا من عنـده فخرجـوا ثم دعا عليا فناجاه طويلاً ثم قام من عنده على طمع ثم قـال ادع لى عثمـان فدعوته فناجـاه طويلا حـتى فـرق بينهما أن أتت صـلاة الصـبح فلما صـلوا جميعهم فأخذ على كل واحد منهم العهد والميثاق لئن بايعتك لتقيمن كتـاب الله وسُـنة رسـوله وسُـنة صـاحبيك من قبلك فأعطاه كل واحد منهم العهد والميثاق على ذلك وأيضاً لئن بايعت غيرك لترضين ولتسـلمن وليكـونن سـيفك معى على من أبى فـأعطوه ذلك من عهـودهم ومـواثيقهم فلما تم ذلك أخذ بيد عثمــــان فقــــال له عليك عهد الله وميثاقه لئن بايعتك لتقيمن لنا كتاب الله وسُنة رسـوله وسُـنة صـاحبيك وشـرط عمر أن لا تجعل أحـداً من بـنى أمية على رقاب الناس فقال عثمان نعم ثم أخذ بيد على فقال لـه: أبايعك على شـرط عمر أن لا تحمل أحداً من بنى هاشم على رقاب الناس. فقال على عند ذلك مالك ولهذا إذا جعلتها فى عنقى فإن الاجتهاد لأمة محمد حيث علمت القوة والأمانة استعنت بها كـان فى بنى هاشم أو غيرهم. قال عبد الـرحمن: لا والله حـتى تعطيـنى هـذا الشـرط قـال على والله لا أعطيكه أبـداً فتركه فقـاموا من عنـده فخـرج عبد الـرحمن إلى المسـجد فجمع النــاس فحمد الله وأثــنى عليه ثم قــال: إنى نظـرت فى أمر النــاس فلم أرهم يعـدلون بعثمـان فلا تجعل يا على سـبيلاً إلى نفسك فإنه السـيف لا غـير. ثم أخذ بيد عثمان فبايعه وبايع الناس جميعا.

وتورد بعض المصادر – كالبداية والنهاية – القصة فتقول :

ثم نهض عبد الـرحمن بن عـوف رضى الله عنه يستشـير النـاس فيهما (أى فى على وعثمـان) ويجمع رأى المسـلمين بـرأى رؤوس النـاس وأقيـادهم جميعا وأشـتاتا، مثنى وفرادى، ومجتمعين سراً وجهراً حتى خلص إلى النساء المخـدرات فى حجـابهن، وحـتى سـأل الولـدان فى المكـاتب وحـتى سـأل من يـرد من الركبـان والأعـراب إلى المدينة، فى مدة ثلاثة أيام بلياليها فلم يجد اثنين يختلفان فى تقـدم عثمـان بن عفـان، إلا ما ينقل عن عمار والمقداد أنهما أشاراً بعلى بن أبى طالب، ثم بايعا مع الناس على ما سنذكره، فسعى فى ذلك عبد الرحمن ثلاثة أيام بلياليها لا يغتمض بكثير من نـوم إلا صلاة ودعاءاً واستخارة، وسؤالاً من ذوى الرأى عنهم، فلم يجد أحداً يعدل بعثمــان بن عفان رضى الله عنه، فلما كانت الليلة يسفر صـباحها عن اليـوم الرابع من مـوت عمر بن الخطاب جاء إلى منزل ابن أخته المسور بن مخرمة فقـال: أنـائم يا مسـور؟ والله

لم أغتمض بكثـير نـوم منذ ثلاث، اذهب فـادع لى علياً وعثمـان قـال المسـور: فقلت بأيهما أبداً ؟ فقال بأيهما شئت، قال فـذهبت إلى على فقلت أجب خـالى فقـال أمـرك أن تدعو معى أحداً ؟ قلت: نعم! قال: من ؟ قلت: عثمـان بن عفـان، قـال: بأينا بـدأ ؟ قلت لم يأمرنى بذلك، بل قال أدعو لى أيهما شئت أولا، فجئت إليك قـال فخـرج معى فلما مررنا بدار عثمان بن عفان جلس على حتى دخلت فوجدته يوتر مع الفجر، فقـال لى كما قال لى على سواء، ثم خـرج فـدخلت بهما على خـالى وهو قـائم يصـلى، فلما انصرف أقبل على علىَّ وعثمان فقال إنى قد سألت الناس عنكما فلم أجد أحداً يعـدل بكما أحداً ثم أخذ العهد على كل منهما أيضاً لئن ولاه ليعدلن ولئن ولى عليه ليسـمعن وليطيعن، ثم خرج بهما إلى المسجد وقد لبس عبد الرحمن العمامة التى عممه رسول الله وتقلد سيفاً، وبعث إلى وجوه الناس من المهاجرين والأنصار، ونـودى فى النـاس عامة الصلاة جامعة، فامتلأ المسجد حتى غص بالناس، وتراص الناس وتراصوا حتى لم يبق لعثمان موضع يجلس إلا فى أخريات الناس – وكان رجلاً حيياً رضى الله عنه – ثم صعد عبد الرحمن بن عوف منبر رسول الله فوقف وقوفاً طويلاً، ودعا دعـاء طـويلاً، لم يسمعه الناس ثم تكلم فقـال: أيها النـاس إنى سـألتكم سـراً وجهـراً بأمـانيكم فلم أجدكم تعـدلون بأحد هـذين الـرجلين إما على وإما عثمـان فقم إلى يا على، فقـام إليه فوقف تحت المنـبر فأخذ عبد الـرحمن بيـده فقـال: هل أنت مبـايعى على كتـاب الله وسُنة نبيه وفعل أبى بكر وعمر؟ قـال: اللهم لا ولكن على جهـدى من ذلك وطـاقتى، قال فأرسل يده وقال: قم إلى يا عثمان فأخذ بيده فقال: هل أنت مبـايعى على كتـاب الله وسُنة نبيه وفعل أبى بكر وعمر؟ قـال: اللهم نعم! قـال: فرفع رأسه إلى سـقف المسجد ويده فى يد عثمان فقال اللهم اسمع واشهد، اللهم اسمع واشهد، اللهم اسمع واشـهد، اللهم أنى قد خلعت ما فى رقبـتى من ذلك فى رقبة عثمــان. قــال وازدحم الناس يبايعون عثمان حتى غشوه تحت المنـبر، قـال فقعد عبد الـرحمن مقعد النـبى وأجلس عثمان تحته على الدرجة الثانية، وجاء إليه الناس يبايعونـه، وبايعه على بن أبى طالب أولاً " انتهى.

هل كان هذا الإطناب فى إظهار الإجمـاع على عثمـان إبـرازاً لحقيقة أن قـريش كانت قد ملت صرامة عمر وتاقت لسماحة عثمان.. أو أريد به إخفاء حقيقة أن الأنصار كـانوا فى مجمـوعهم يـؤثرون عليا وهل تملكت عبد الـرحمن بن عـوف نزعة نفسـية كامنة لم يتبينها دفعته لأن يبايع عثمان. وهل كان الاشتراط بعمل الشيخين تحوطاً أدى إلى عكسه.. فالذى تعهد به ولم يعمل به والذى رفضه طبقه عندما وسد الأمر إليـه، لا يمكن أن نقحم أنفسـنا فى السـرائر، ولكننا نـرى أن الفرسـان الثلاثة الـذين آل إليهم الأمد فى هذا المنعطف الخطير من تطور الأحداث قد اخطأوا.

أخطأ عبد الرحمن بن عوف لأنه وهو التـاجر المرهف الحس الـذى يتعـرف على أعماق شخصيات الناس بحاسته التجارية عندما قبل من عثمان التعهد بـالحكم بسـيرة الشـيخين. كـان لابد أن ينتهى إلى أنه إذا كـانت القضـية – كما عرضـها الحكم بسـيرة الشيخين – فإن عثمان لا يستطيع الحكم وكان يجب أن يُستبعد.

وأخطأ عثمان حين قبل وتعهد بالعمل بسيرة الشيخين وهو يعلم من نفسه أنه لا يطيق سيرة عمر وكان يجب أن يكون أمينا مع الحقيقة.

وأخطأ على حين جعل هــذه النقطة مناطــاً للقبــول أو الــرفض لأنه يعلم أنه سيسير بسيرة عمر، وربما يفوقه، وكان عليه أن يقبل لأنه الأحق...

ولكن ليقضى الله أمراً كان مفعولاً.

تلك كـانت "فلتـه" أخـرى بعد "فلتـه" السـقيفة. ولم يخلص منها المسـلمون بالتوفيق كما خلصوا من الأولى لأن الإمام على كان بكل المقاييس أصـلح من عثمـان. وقد تعللوا عندما جاوزه أبو بكر أن أبا بكر يمثل مشـيخة قـريش، أما هو فشـاب "وإن يطل بك عمر فلن تفوتـــك" وقد طـــال به العمر واكتسب خـــبرة وحنكة وكـــان نعم المستشـار للشـيخين فكـان بها جـديراً وهو ما اعـترف به عمر نفسه وقـال "لو ولـوا

الأجلح لسار بهم على الجادة" وعندما سئل وما يمنعك من استخلافه قال كرهت أن أحمل هذا الأمر ...

كان خطأً تاريخيا، وإليه تعود كل الخلافات والانشقاقات والحروب.. وهو مثال نادر يوضح لنا كيف أن الخطأ فى قرار يمكن أن يغير مصاير أمة

* * *

كانت السنوات الست الأولى من خلافة عثمان كما يقول ابن قتيبه فى الإمامة والخلافة من أسعد السنوات التى عرفها المسلمون الذين أخذهم عمر بالشدة حتى ملوه وملهم فجاء عثمان ليبدأ عهد "الاسترخاء" والراحة ...

روى بن قتيبه عن الحسن البصرى قال شهدت عثمان وهو يخطب وأنا يومئذ قد راهقت الحلم فما رأيت قط ذكراً ولا أنثى أصبح وجها ولا أحسن نضرة منه فسمعته يقول أيها الناس اغدوا على أعطياتكم فيأخذونها وافية، أيها الناس اغدوا على كسوتكم فيغدون فيجاء بالحلل فتقسم بينهم حتى والله سمعت أذناى يا معشر المسلمين اغدوا على السمن والعسل فيغدون فيقسم بينهم السمن والعسل ثم يقول يا معشر المسلمين اغدوا على الطيب فيغدون فيقسم بينهم الطيب من المسك والعنبر وغيره والعدوان والله منفى والأعطيات دارة والخير كثير وما على الأرض مؤمن يخاف مؤمنا من لقى فى أى البلدان فهو أخوه وأليفه وناصره ومؤدبه فلم يزل المال متوافراً حتى لقد بيعت الجارية بوزنها ورقا وبيع الفرس بعشرة آلاف دينار وبيع البعير بألف والنخلة الواحدة بألف ثم أنكر الناس على عثمان أشياء شراً وبطراً. قال ابن عمر لقد عيبت عليه أشياء لو فعلها عمر ما عيبت عليه.

الحقيقة أن عثمان رحمه الله غّير وبدل، وسلك مسلكاً يختلف عن مسلك الشيخين، وقد كان الخوف الذى يملك عمر إزاء تولية عثمان أو على أن يحمل أحدهما الناس على رقاب شيعته. بمعنى أن يخص عثمان المناصب ببنى أمية، وأن يخص بها على بنى هاشم. وهذا ما وقع بالفعل من عثمان، بل ومن على أيضا فى إحدى فترات حكمه.

وكان عثمان بطبيعته وديعاً سمحاً سهلاً وعندما ولى الخلافة كان قد بلغ من العمر عتيا وعجز عن أن يقوم بنفسه بمسئوليات هذه الخلافة المتشعبة فاستعان بلفيف من آله مثلوا "الحاشية" وكانوا جميعاً من بنى أمية، ومن أسوأ عناصرها. وكان أبرزهم مروان بن الحكم وأفسد مروان على عثمان أمره واستبد بالأمر دونه[14].

ولكن أهم من هذا أن دفعة الإيمان كانت قد انحسرت وعادت النفوس إلى طبائعها دون أن تجد تلك القوة التى تكبح التطلعات. وكانت الجماهير فى عهد أبى بكر وعمر حديثة عهد بالرسول وكانت الأسوة به تدرأ عنهم كثيراً من الشرور، وكان أبو بكر وعمر نابغين.. فلما أتى عثمان وقد بعُد العهد عن الرسول ولم يكن فيه شئ من نبوغ الشيخين كان لابد أن تبدأ غمرات الدنيا. وفاقم فى تطور الأمور واقعة تثير الذهول فالدولة التى كانت جيوشها تحارب فى فارس وأفريقيا وتكتسب انتصارات مدوية، لم يكن لها جيش فى المدينة – العاصمة – يشبه الحرس الجمهورى، أو الحرس الملكى فى مختلف الدول أو الحرس البريتورى فى روما، ولو كان هذا

---

[14] **(14) إنصافاً لعثمان رضى الله عنه نقول إنه وإن لم يسر على سُنة الشيخين، فإن الله تعالى رعاية لسبقه فى الإسلام وما قدمه فى أيامه الأولى أدّخر له مأثرة عظيمة وفريدة قدم بها للإسلام خدمة جلى لم يقم بها أبو بكر أو عمر تلك هى أنه جمع القرآن مما كان قد دون عليه من عظم، أو رق، أو خشب، أو صدور الرجال، ووحد القراءة ووضعه فى ترتيبه المألوف بحيث ظهر المصحف المعتمد المقرر الذى استبعد ما كان بعض الصحابة قد ضمنوه – من قبيل الشرح – أو كتبوه بلهجة قبائلهم – وبهذا العمل العظيم وقى المسلمين فتنة من أعظم الفتن التى حاقت بالأديان السابقة. وكفل للمسلمين ظهور القرآن كما أنزل الله – رغم الأقاويل والتخرصات.**

وتلك لعمرى، مأثرة تجعل منزلة عثمان لا تقل عن صاحبيه، حتى وإن قصر عنهما فى ممارسة فنون الحكم.

الحرس موجوداً لما جرؤت فلول من النـاس على مقـام الخلافة وقد رفض عثمـان ما عرضه عليه معاوية من أن يرسل له أربعة آلاف من جند الشــام لحمايته قــائلاً "أرزق أربعة آلاف من بيت مـال المسـلمين لحـرز دمى". وهـذه الواقعة لفتة تـبرز أن دولة المدينة لم تكن نمطاً فريداً أيام الرسول فحسب، بل إنها احتفظت ببعض خصوصياتها طوال الخلفاء الأربعة.

إن افتقاد التنهيج الذى أغفل أن يكـون لعاصـمة الدولة حرسـها أغفل أيضا وضع أية صـورة من صـور الشـورى المنظمة ولو وجـدت لما أخـذت أزمة عثمـان شـكلها العشـوائى ولما تطـورت إلى ما انتهت إليـه، وهو نقص لا يمكن أن يُفهم من شخصـية إدارية مثل عمر بن الخطــاب إلا بغلبة وهيمنة فكــرة دولة الــدعوة على فكــرة دولة السياسة، وكان كافيا فى دولة الدعوة أسلوب الشورى الـذى اتبعه أبو بكر وعمـر. لأن التركيز لم يكن على الدولة ككيان خاص له وجوده المسـتقل، وما يتطلبه هـذا الوجـود المستقل من آليـات وضـوابط وأجهـزة الخ... قـدر ما كـان على قيـام الدولة بالـدعوة سـواء فى الخــارج أو الــداخل، ويحتمل وجــود عــزوف لا شـعورى فى نفس عمر بن الخطـاب عن إقامة دولة "كسـروية" أو "قيصـرية" تكتسب قوتها على حسـاب تلقائية الشعب، وهو النمط الذى كانت الجيوش الإسلامية تحاربه وتسقطه. وليس هذا تــبريراً لأنه يعد من وجــوه النقص الــتى فــاتت على عبــاقرة الدولة الإسـلامية، ولكنه تصـوير للحالة النفســية لهــؤلاء العبــاقرة. وكيف أنها جعلتهم رســلاً لــدعوة وليســوا بنــاة لإمبراطورية.. ولو وضع عمر مجلسـاً استشـارياً يلحظ فيه المهـاجرين والأنصـار وبقية العرب لتغير الحال بالطبع.

ومما يثير الدهشة هو تشرذم كبار الصحابة إزاء هـذه التطـورات الخطـيرة الـتى جعلت مجموعات الثوار تحاصر بيت عثمان وتمنع عنه الماء وكان يمكن لو انتظموا أن يقهروا المتآمرين.. وأن يلزموا عثمان تصحيح أخطاءه بصورة حاسـمة، خاصة وأنه إنما اكتسب البيعة على أساس العمل بسُنة الشـيخين. ولو دعـاهم عبد الـرحمن بن عـوف لما تخاذلوا. ولكن يبدو أن وهن الإيمان الذى تطرق إلى نفوس هـؤلاء القـادة عجز عن صهر الطبيعة الفردية كما حدث أيام الرسول، فعادت مرة أخرى.

***

- 2 -
الفتنة الكبرى

نتيجة لهـذه العوامل كلهـا، أعـنى.. أخطـاء عثمـان الفادحة وضـعفه واستسـلامه لحاشـية السـوء. وتشـرذم كبـار الصـحابة ومشـيختهم وانتشـار الفتن والدسـائس بين الدهماء والغوغـاء.. كل هـذا سـمح بحصـار عثمـان، ومنع المـاء عنـه، ثم التسـور على المنزل وقتل عثمان وهو جالس يقرأ فى مصحفه تحـوط به نسـاؤه وتـدفع عنه زوجته نائلة بنت الفرافصة حـتى قطعت أصـابعها.. ثم لا يقف الأمر عند هـذا الحـد، بل تمنع الصلاة عليه ودفنه فى البقيع، حتى حمله بعضهم على لوح خشبى وساروا فى ظلمات الليل، ومعهم ابنته عائشة تحمل مصباحاً فى حق حتى أتـوا به جسر كـوكب حفـروا له حفره فدفنوه ولم يلحدوا وحفوا عليه التراب وكان بعض الخوارج يريـدون رجمه ودفنه فى مقابر اليهود بدير سلع.

هـذا المشـهد المـروع الـذى ما كـان يخطر بالبـال كشف عن هشاشه بنـاء دولة المدينة قدر ما كشف عن استشراء الفوضى، وانطلاق الأهـواء وفسـاد النفـوس وبـدء الفتن التى وصفها حديث نبوى "كقطع الليل المظلم مشتبهات لا تعرف أيا من أى".

فلم يسبق أن سـاقتهم الأحـداث إلى هـذه النهايـة، ولا يقـاس بها ما تعرضت له وحدة المسلمين فى سجال سقيفة بنى ساعدة، ولم يقتل عمر مسلم يمكن أن يحاجه أمام الله بكلمة لا إله إلا الله أو بصلوات أداها، كما كان عمر يقول، فقد قتله مجوسى من الموالى. أما قتل عثمـان فشـىء شـنيع، فظيع إنها الفتنة الـتى تفتح بـاب الفتن لا تعرف أيا من أين. إنها الفتنة الكبرى.. أو هى الباب الذى انفتح لهذه الفتنة.

وجد الجميع أنفسهم فى خضم هذه الفتن لا يعلمون كيف يخلصون وبوجه خاص الذين أرادوا الخلاص من ورطتهم بقتل عثمان إلا مبايعة الإمام على. فهو الوحيد الـذى يتمتع بثقة الجميع، ولكن الإمام على لم يكن بالغفلة الـتى يقبل فيها بيعة هـؤلاء وقـال لهم إن الأمر ليس لهم ولكنه للمهــاجرين والأنصــار. ولابد أن يتم فى المســجد وبعد إجماع الناس.

وتمت بيعة على فى هذا الجو المضطرب. وقد تغيب بعض الصحابة كما لم تصل بعد بيعة الأمصار. الكوفة والبصرة ومصر والشام الخ ...

هل كان من الممكن أن يتنحى الإمام على ويـرفض البيعة كما نصـحه بـذلك فى بعض الروايـات ابنه الحســن؟ إنه ما كـان يسـتطيع، لأن هـذا وإن كـان سـينقذه فإنه سيشيع الفوضى. فلم يكن مناص من أن يتقدم حتى ولو اعتبروه كبش الفداء..

وما إن تقبل البيعة حتى ظهرت القضية الشـاغلة قضـية دم عثمـان والاقتصـاص من قتلته. وكيف يمكن الاقتصاص من القتله وهم يحكمون المدينــة. وقد ظلت المدينة خمسة أيام وأميرها الغـافقى بن حـرب وهو من الـذين اشـتركوا فى قتل عثمـان.. لم يكن من الممكن ولا المعقول إثارة هذه القضية. وكانت إثارتها لا تعنى سوى إثارة فتنة أعظم.

ولكن الشـيطان كـان قد اسـتحوز على النـاس ونسـوا الله فأنسـاهم أنفسـهم. وذهبت بشاشة الإيمان وحل محلها لدد الخصومة..

وتطورت الأمـور، فقد رفض معاوية البيعة لعلى وحـانت له أخـيراً الفرصة الـتى طال ترقبه لها بعد أن خدع عمر بن الخطاب "خدعة أريب" وترك عثمان يلقى مصيره ثم انــبرى يطــالب بدمه والقصــاص من قتلتــه. ووضع قميص عثمــان المخضب بالــدم وأنامل نائلة زوجته التى قطعت وهى تدافع عنه" على منبر دمشق فعـزم على بن أبى طالب أن يقاتل بمن أطاعوه من عصوه، وأولهم معاوية وجهز الجيش واستعد للخروج إلى الشام وعندما علم بخروج طلحة والزبير ومعهم أم المؤمنين عائشة إلى البصــرة، غـيرّ اتجاهه وفى الـوقت نفسه فـإن عامل على على البصـرة عثمـان بن حـنيف اتخذ أهبته لمقاومة عائشة ومن معها حــتى يأتيه أمر على، وقد اســتنكر كثــيرون خــروج عائشة، ولكن عائشة "أم المؤمنين" وعثمـان وعلى أبنـاء لها وقد رأت أن من حقها أن لا يضيع دم أحد أبنائها هدراً وإن كنا نتصور أنها أرادت الإصلاح بين الفـريقين وأنها وهى من أكبر رواه الحديث لابد أن سمعت الرسول وهو يتحدث عن "إصلاح ذات البين وأنه أفضل من الصلاة والزكاة لأن فسـاد ذات الـبين هى الحالقـة. ويـروى لنا بن كثـير فى البداية والنهاية أن الحسن تقـدم إلى أبيه بنصـيحة رفضـها، كما كـان قد تقـدم إليه من قبل فرفضها أيضاً فقد نصحه عندما حوصر عثمان أن يـترك المدينة حـتى لا يقتل وهو بهـا. وأن لا يبـايع بعد قتله حـتى يبعث إليه أهل كل مصر بــبيعهم، وأن يجلس فى بيته عندما خرجت عائشة وطلحة والزبير حتى يصطلحوا ورد عليه أبوه "أما قولك أن أخرج قبل مقتل عثمـان فقد أحيط بنا كما أحيط بـه. وأما مبـايعتى قبل مجىء بيعة الأمصـار فكـرهت أن يضـيع هـذا الأمر وأما أن أجلس وقد ذهب هـؤلاء إلى ما ذهبـوا إليه فتريد مـنى أن أكـون كالضـبع الـتى يحـاط بها ويقـال ليست ها هنا حـتى يشق من عرقوبها فتخرج فإذا لم أنظر فيما يلزمنى فى هذا الأمر ويعنينى فمن ينظر منـه. فكف عـنى يا بنى" ولم يكن من السهل أن تتلاقى سيوف المسـلمين ويضـرب بعضـهم رقـاب بعض فكثرت الرسل وأرسل على القعقاع بن عمـرو فى سـفارة ناجحة اتفق فيها مع طلحة والزبـير وعائشة على تسـكين الأمر والمصـالحة فاطمـأنت النفـوس واجتمع كل فريق بأصحابه من الجيشين وبات النـاس بخـير ليلة وبـات قتلة عثمـان بشر ليلة يتشـاورون وأجمعوا أن يثيروا الحـرب من الغلس. فنهضـوا من قبل طلـوع الفجر وهم قـريب من ألفى رجل فهجمــوا على جيش على فقــام النــاس من منــامهم إلى الســلاح كل يظن الآخر قد غدر به وقامت الحرب على قـدم وسـاق وكـان مع على قرابة عشـرين ألفـا. ومع طلحة والزبـير وعائشة قرابة ثلاثة ألفا (البداية والنهاية ص 239 ج7) وجـاء كعب بن ثور قاضى البصرة فقال "يا أم المؤمـنين أدركى النـاس لعل الله أن يصـلح بك بين الناس. فجلست فى هودجها وناولته مصحفاً وقالت ادعهم إليه فلما تقـدم به اسـتقبله

قتلة عثمان فى جيش الكوفة بالنبال فقتلوه واجتدم القتال حول هودج عائشة.. وما أكثر الأيدى التى قطعت وهى تمسك بذمامه أو تدفع عنه.. وعندما أخذ بزمامه عبد الله بن الزبير، وهو ابن أخت عائشة قالت عائشة "واثكل أسماء! حتى ارتفعت الصيحة "اعقروا الجمل" فعقروه فخر وسمع له عجيج "ما سمع أشد وأنفذ منه".

هذه موقعة الجمل لم تفارق ذكراها الحزينة الممضة عائشة فكانت تبكى حتى يبتل خمارها وضمت الأتقياء البررة مثل محمد بن طلحة المعروف بالسجاد الذى انخرط فى الجيش دفاعاً عن أم المؤمنين وكان يتقدم الصفوف وهو يقرأ "حم لا ينصرون" فطعنه بعضهم بحربة فأرداه.. وقال :

وأشعث قوام بآيات ربه   قليل الأذى فيما ترى العين مسلم

هتكت له بالرمح جيب قميصه   فخر صريعاً لليدين وللفم

يذكرنى حم والرمح شاجر   فهلا تلا حم قبل التقدم

على غير شئ غير أن ليس تابعاً   علياً ومن لا يتْبع الحق يندم

كما ضمت قرما الفروسية والسلطة.. عبد الله بن الزبير ومالك الأشتر اللذين تبارزا كفحلين – وتبادلا الطعنات ثم اعتنقا وسقطا على الأرض فصاح عبد الله بن الزبير.

اقتلونى ومالكاً   واقتلوا مالكا معى ...

وفى ساحة المعركة كان طلحة – طلحة الطلحات – معفراً فى التراب.. وغير بعيد عنه الزبير بن العوام مسجى على الثرى..

ضمت معركة الجمل الأباء والأبناء كما فى طلحة وابنه والزبير وابنه كما ضمت أم المؤمنين، وابن عم الرسول على بن أبى طالب... الجميع يقاتل بعضهم بعضاً..

وضمت عمار بن ياسر بن أول شهيد وشهيدة فى الإسلام وهو وقتئذ فى التسعين من عمره يخز الزبير بن العوام بالرمح والزبير لا يفعل شيئاً له فقد كان من المعروف أن الرسول قال لعمار "تقتلك الفئة الباغية" وما كان الزبير يقبل أن يكون من الفئة الباغية. وأجل قتل عمار إلى صفين وعندما قتل وارتاع عمرو بن العاص نفسه وهو يسوق النبأ إلى معاوية قال هذا بهدوء "أنحن قتلناه.. إنما قتله من أخرجه!!"..

هذا هو منطق السياسة وتحريفها للأمور ...

ومع كل ما حفلت به معركة الجمل من هول، وما أدت إليه من مقتل مشيخة المهاجرين، فإنها لم تكن إلا "بروفة" أو مناورة إذا قيست بمعركة صفين الرهيبة عندما نهد الجيشان العظيمان اللذان هما كل جند الإسلام كأنهما بحرين متلاطمين اصطبغت مياههما بحمرة الدماء.

وكادت الهزيمة تلحق بمعاوية ولكن عمرو بن العاص أنقذه بمشورته البارعة أن يرفع المصاحف على الرماح ويصيحون "تعالوا إلى كتاب الله" "بيننا وبينكم كتاب الله".

كانت خدعة بارعة. وكان أول من فطن لها على بن أبى طالب لأنه عرف أمية أطفالاً ورجالاً فكانوا شر أطفال وكانوا شر رجال وما كانوا بالذين يريدون النزول على ما أمر الله وإنما أن يضيعوا عليه النصر الوشيك

ومع هذا.. فإن نجاح مكيدة رفع المصاحف على الرماح فى إيقاف المعركة وإنقاذها ولو جنديا واحداً من معسكر معاوية أو معسكر على أفلا يكون ذلك أفضل من مواصلة القتال ؟.

* * *

كان التحكيم هو بداية النهاية لعهد على بن أبى طالب.

فقد آمن على بــأن الحل الحاسم هو القضــاء على الفتنة ولو أدى إلى القتــل.. وكان له شاهد من القرآن الكريم "والفتنة أشد من القتل"..

ولكن أى قتل يا ربى؟ قتل أهل بـدر الـذين قـال فيهم الرسـول "إن تهلك هـذه العصــابة لا تعبد بعد اليــوم" و "وما أدراك لعل الله أطلع على أفئـدة أهل بــدر فقــال افعلوا ما شئتم". قتل فرسان المسلمين وذخيرة المجتمع الإسلامى فى مواجهة أعــداء الإسلام.

كان بين حق على.. وباطل معاوية نهر من الدماء.. فهل كان عليه أن يـدفع هـذا الثمن الباهظ..

هل الوصول إلى الحق بقتل الآخر هو الطريقة الأمثل لتحقيق الحـق.. ؟.

هل كـان الحسن بن على أدق فهما وأبعد نظـراً من أبيه عنـدما رفض مواصـلة حرب معاوية، رغم استفزاز اتباعه له إلى حد طعنه، وأنه كان لديه جيشـاً جـراراً على رأسهم القائد الصلب قيس بن سعد بن عبادة، ورغم تعيير أصحابه له "قائلاً العار خـير من النار، لست بمذل المؤمنين، **ولكنى كرهت أن أقتلكم على الملك**[15].

لقد رأى الحسن القتل لقاء الملك فعزف عنه ولكن أباه رأى الشهادة فى سبيل الخلافة فخاض فيها.

تلك قضية تفاوتت فيها الاجتهادات والتأويلات...

* * *

واجتمع الحكمان.. كما اجتمع المسلمون وكفار قريش فى الحديبية..

وواصل عمرو بن العاص خداعه.. فادعى الاتفاق مع أبى موسى الأشعرى وقـدم أبا موسى ليعلن خلع على ومعاوية، وعندما جـاء الـدور على عمـرو قـال إنه يخلع عليا ويثبت معاوية..

قال أبو موسى لعمـرو.. مالك عليك لعنة الله ما أنت إلا كمثل الكلب تلهث فـرد عمرو بن العاص ولكنك مثل الحمار يحمل أسفاراً (الإمامة والسياسة لابن قتيبة)..

هذان صاحبا رسول الله وقد اضطرهما الخلاف إلى مثل هذا الموقف

لقد وصف الموقف شاعرنا العظيم شـوقى الـذى ابتـدع تعبـير "الفتنة الكـبرى" قبل طه حسين بوقت طويل ...

أسمعت بالحكمين فى الإسلام يوم الجندل؟
فى الفتنة الكبـرى ولولا حكمة لم تشعل
رضى الصحابة يوم ذلك بالكتاب المنزل
وهم المصابيح الرواة عن النبى المرسل
قالـوا الكتـاب وقام كل مفسر ومؤول
حتى إذا وسعت معاوية.. وضاق بها على
رجعوا لظلم كالطبائع فى النفوس مؤصل
نزلوا على حكم القوى وعند رأى الأحيل

كانت النهاية تقترب بسرعة ...

من ناحية كـــان على بن أبى طـــالب يـــؤمن بضـــرورة حسم فتنة معاوية وفتنة الخوارج ولو بالسيف..

---

15 **(15) ابن حجر الهيثمى: الصـواعق المحرقة فى الـرد على أهل البـدع والزندقة – تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف – ط القاهرة 1955 ص135.**

ولم يكن سعيداً بهذا الحل. وقد تملكه الأسى وهو يشهد طلحة معفراً بالتراب وقال "رحمة الله عليك أبا محمد، يعز عليَّ أن أراك مجندلاً تحت نجوم السماء إلى الله أشكو عجرى وبجرى والله لوددت أنى كنت مت قبل هذا اليوم بعشرين عاماً" وتملكه الحزن الممض لما يسيل من الدماء ولكنه مع هذا كله لم يجد مناصاً من مقاتلتهم للعودة إلى الجماعة... كان يقاتلهم.. ثم يصلى على القتلى ويدعو لهم!.

كان يريد – بجدع الأنف – إعادة الخلافة الراشدة وظل مصراً على هذا متمسكا به.

وأمضى الجزء الآخر من حياته معذباً، فلا أصحابه يستجيبون له ولا هو يقبل الدنية..وتمنى الموت.. وما أكثر ما كان يقول "ما يحبس أشقاها" فقد تنبأ الرسول بأن سينبعث أشقاها فيخضب لحيته بدماء رأسه..

من ناحية ثانية كان التطور قد قال كلمته.. لقد فسد الناس ونفدت دفعة الإيمان.. ووهنت قوته بحيث انتصرت عليه الأطماع والأهواء والذاتية فى أسوأ صورها..

كان لابد من حل.. لابد من أن يوجد من يضع النهاية ويسدل الستار ويثبت استحالة عودة الخلافة الراشدة ...

وكان الرجل الذى ادّخره القدر لهذه المهمة الحزينة هو عبد الرحمن بن ملجم..

فقد اجتمع ثلاثة من الخوارج وتواعدوا على قتل الثلاثة الذين رأوا أنهم سبب كل هذه الكوارث. فتعهد عبد الرحمن بن ملجم بقتل على. وتعهد البرك بقتل معاوية وتعهد عمرو بن بكر بقتل عمرو بن العاص واتعدوا فجر يوم السابع عشر من رمضان من عام 39 هجرية

لم تكن مصادفة أن لم يقتل من هؤلاء الثلاثة إلا على بن أبى طالب.

فقد جرح معاوية جرحاً طفيفاً ولم يصب عمرو بسوء لأنه لم يخرج للصلاة هذا اليوم وأناب عنه خارجه فقتل. وذهبت أدراج الرياح أمنية الشاعر.

فليتها إذ فدت عمراً بخارجة فدت علياً بمن شاءت من البشر

إن هذا لم يكن ممكنا ...

كان لابد من أن يموت على ابن أبى طالب حتى تنتهى محاولة استعادة نمط من الحكم لا يطيقه التطور ...

لقد انتهت الخلافة الراشدة مع مقتل عمر بن الخطاب ودفنت مع مقتل على وإنفسح المجال للمُلك العضوض ...

ولكن هذا لا يعنى أن الخلافة الراشدة لم تخلف أثراً.

إنها – والحكم النبوى قبلها – وضعت الأسس الجوهرية فى كل حكم رشيد: انتخاب الحاكم من قبل الشعب. أن يكون الحكم بالقرآن أن يكون للشعب حق مراقبة الحاكم ومساءلته وإقالته..

إن دولة تحقق هذا، تطبق الأصول الإسلامية فى الحكم...

وليس من المفارقة أن لا تحمل هذه الدولة مع هذا اللافتة الإسلامية، أو تدعى أنها تطبق حكم الله..

إنها – ببساطة تطبق أمراً نبوياً أوصى به الرسول حد ولاته. إذا حاصروا حصنا وأرادوه أن يعطيهم ذمة الله وذمة رسوله أن لا يفعل. وإنما يعطيهم ذمته وذمة أصحابه لأن من المحتمل أن يخطئ فيحمل ذمة الله ورسوله ما ليس فيها...

* * *

- 3 -
نهاية الخلافة الراشدة

لم تقتل طعنـات هـذا الأسـير المجوسي أبو لؤلـؤة شـخص عمر بن الخطـاب فحسـب، ولكنها فى الحقيقة أنهت حقبة بـاهرة من أكـثر حقب التـاريخ الاجتمـاعى والسياسى إشراقاً وقرباً إلى الكمال. وما كـان أحق مصـرع عمر بن الخطـاب بأبيـات الشاعر :

وما كان قيس هلكه هلك واحد.. ولكنه بنيـان قــوم تهدما

وفى المرويـات الـتى تنسب إلى الرسـول أو إلى الصـحابة أحـاديث تصـور هـذا المعنى، أو تتحدث عن الخلافة الراشدة ونهايتها ونحن نتقبل هذه المرويات لا باعتبارها أحاديث قالها الرسول بالفعل حتى لو كان سـندها قويا ويصـعد بها إلى درجة الصـحيح، لأننا نعلم أنه ليس هناك أهون من "فبركة" سند يدق على دهـاقين "الجـرح والتعـديل" لأن قواعدهم نفسها تكاد تجيزه أو تسمح به، ولأن نزعة التسامح خاصة فى الرقائق أو المعجزات الخ... جعلتهم يتقبلون الكثير مما جاء فى هذا الصدد دون تدقيق لأنه – فيما رأوا – يرهف القلب ويهيئ الحواس.. وإنما نتقبل هذه المرويات باعتبارها ممثلة لحاجة ما فى المجتمـع، أو لسد نقص منه أو لتحقيق غاية سياسـية أو دينيـة، أو "حسـبة" كما قال الذين ادّعو أنهم يكذبون لحساب الرسول وليس على حساب الرسول أو كيداً فى الإسـلام من فريق لم يسـتطع أن يجابهـه، وهو فى عنفوانه فلجأ إلى دس مفتريـات تسىء إلى العقيدة وتهيئ العقل لقبول الخرافة.. من هنا فنحن نحتفل بكل ما تتضـمنه موسوعات الحديث من روايات ونرى أن وراء كل حـديث موضـوع سـبب ما قد يكـون من الخير التعرف عليه..

فى هذا الصدد نجد مرويات عن الفتن والخلافـة، منها ما جـاء فى مسـند الإمـام أحمد بن حنبل مرويا عن حذيفة بن اليمــان الــذى قــال عن نفسه إن النـاس كـانوا يسألون الرسول عن الخـير وكنت أسـاله عن الشـر ! يـروى عنه أنه كـان مع عمر بن الخطاب عندما قال أيكم يحفظ قول رسول الله ﷺ فى الفتنة ؟ قلت أنا كما قاله، قـال إنك لجزئ عليها أو عليه، قلت فتنة الرجل فى أهله وماله وولده وجاره يكفرها الصـلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكـر، قـال ليس هـذا أريد ولكن الفتنة الـتى تموج كمـوج البحـر، قلت ليس عليك منها بـأس يا أمـير المؤمـنين، إن بينك وبينها بابـاً مغلقاً، قال أيكسر أو يفتح ؟ قلت بل يكسر، قال إذا لا يغلق أبـداً، قلنا أكـان عمر يعلم من البــاب ؟ قــال نعم كما يعلم أن دون غد ليلــةُ، قــال وكيع فى حديثه قــال فقــال مســروق لحذيفة يا أبا عبد الله كــان عمر يعلم ما حدثته به قلنا أكــان عمر يعلم من الباب قال نعم كما يعلم أن دون غدٍ ليلةُ، إنى حدثته حـديثاً ليس بالأغاليظ فهبنا حذيفة أن نسأله من الباب فأمرنا مسروقاً فسأله فقال الباب عمر".

نعم كان عمر هذا الباب. وكان واقفا وراء هذا البـاب يمنع قـريش من الانسـياب إلى الأمصـار والانـزلاق والافتتـان فتنة النـاس بهم وفتنتهم بالنـاس. وكـان وراءه وهو يحاسب نفسه وآله أكـثر مما يحاسب النـاس، وكـان وراءه وهو يرسل رسـله لمتابعة الولاة أولاً بأول، ثم مقاسمتهم أموالهم... وكـان يـرى أن المسـلمين أصـبحوا كالجمل "البـازل" أى الـذى بلغ الـذروة من السن الـتى لا يكـون وراءها إلا التـدهور.. فجـاءت طعنات هذا المجوسى فأزالت الباب ...

وتوالت الفتن التى وصفها حديث "كقطع الليل المظلم يتبع بعضها بعضـاً تـأتيكم متشابهة كوجوه البقر لا تدرون أيا من أى" ...

حقا لقد وجـدت أحـاديث تحـدد الخلافة الراشـدة بحيث تسـتغرق مـدة الخلفـاء الأربعة.. وهى مشهورة فى كتب الحـديث "وبعضـها مـروى عن حذيفة أيضـاً مثل هـذا

الحديث "عن النعمان بن بشير قال كنا قعوداً فى المسجد مع رسول الله وكان بشير رجلاً يكف حديثه، فجاء أبو ثعلبة الخشنى فقال: يا بشير بن سعد: أتحفظ حديث رسول الله فى الأمراء، فقال حذيفة أنا أحفظ خطبته، فجلس أبو ثعلبة، فقال حذيفة قال رسول الله : تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون الخلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكا عاضا فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكا جبرية فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ثم سكت..

قال حبيب: فلما قام عمر بن عبد العزيز وكان يزيد بن النعمان بن بشير فى صحابته فكتبت إليه بهذا الحديث أذكره أباه فقلت له: إنى أرجو أن يكون أمير المؤمنين يعنى عمر (بن عبد العزيز) بعد الملك العاض والجبرية، فأدخل كتابى على عمر بن عبد العزيز فسر به وأعجبه ...

وهذا الحديث عن سفينة "قال سمعت رسول الله يقول: الخلافة ثلاثون عاماً ثم يكون بعد ذلك الملك. قال سفينة: أمسك، خلافة أبى بكر رضى الله تعالى عنه سنتين، وخلافة عمر رضى الله عنه عشر سنين، وخلافة عثمان رضى الله عنه اثنى عشر سنة، وخلافة على رضى الله عنه ست سنين. رضى الله عنهما..

وقد حرر بعضهم هذه المدة فوجد مدة خلافة أبى بكر سنتان وثلاثة شهور وعشرة أيام ومدة عمر عشر سنين وستة أشهر وثمانية أيام ومدة عثمان أحد عشر سنة وأحد عشر شهراً وستة أيام وخلافة على أربع سنين وتسعة أشهر وسبعة أيام. وقال إن من ذكر الثلاثين أضاف خلافة الحسن وأغفل الشهور والأيام..

ولكننا نرى أن الحديث الذى يجعل الخلافة الراشدة ثلاثين، عاماً إنما أريد به التصديق على الخلفاء الأربعة، والحسن أيضاً..

وهذا على كل حال أمر مقبول ما دمنا أخذنا هذه المرويات مأخذاً عاماً. ونرى أن فى الحديث الذى سبقه شبهاً قويا بما حدث بالفعل..

ويلحظ بالطبع أننا عندما جعلنا الخلافة الراشدة تنتهى مع نهاية عمر خالفنا الأمر المقرر والشائع الذى يجعل الخلفاء أربعة.. ويمد الخلافة الراشدة لقرابة ثلاثين عاماً، ونعتقد أن كثيراً من القراء سيذهبون إلى ما ذهبنا إليه عندما يقاربون ما بين "دولة المدينة" التى أسسها الرسول ووصلها أبو بكر وعمر بالفترة اللاحقة التى شهدت الفتن وسالت فيها الدماء وخولف ما وضعته دولة المدينة من مبادئ وأصول. ولم تكن محاولات الإمام على لإصلاح الحال والعودة بها إلى عهد الشيخين إلا محاولات متعثرة، أوقعته هو نفسه فيما لم يحب، ثم انتهت بمقتله، وأثبتت أنه لا يمكن إعادة الخلافة الراشدة مرة أخرى كما كانت عهد الشيخين..

لقد رزقت دولة المدينة التى وضع الرسول قواعدها عوامل استثنائية خاصة هى التى مكنتها أن تقوم وأن تتصف بالروعة والجمال والقرب من الكمال.. أولها أن صاحبها وواضع أساسها كان رسولاً نبياً يهتدى بوحى سماوى يهديه سبل الرشاد ويجنبه مكامن الزلل، كما كان بالطبع عبقرياً موهوبا. وإلا لما اصطنعه الله تعالى لرسالته وليكون خاتم الرسل ...

أمره الله تعالى أن يخفض جناحه للمؤمنين، وأن يشاورهم فى الأمر، وعاتبه لأنه انصرف عن ضرير من عامة الناس وهو فى غمرة اهتمامه باكتساب لفيف من الكبراء للإيمان، وأمره بالعدل بينهم وأن يحكم بينهم بما أنزل الله لا يزيد عليه ولا ينقص منه، فكان حكمه حكم القانون – حكم القرآن الكريم – وكان شخصه شخص الداعية.. الذى يبدأ بنفسه ليكون أسوة.. فلم يستهوه الثراء والمتاع والمأكل والمشرب.. ولم يتأثل مالاً ووضع مبدءً أن الأنبياء لا تورث، وآل إلى بيت المال كل ما آل إليه من مال خديجة أو ما أهدى إليه أو غير ذلك وتحرر كل مواليه..

كان الرسول عبقريا فى شخصه.. ومهـديا فى رسـالته ولهـذا نجحت تجربة دولة المدينة تحت قيادته. واكتسبت مناعة من أن تفسدها السلطة ...

وكان من يمن طالع المسلمين أن خلفه فى قيادته أبو بكر الـذى كـان "متبعـاً لا مبتدعاً"..

وبفضل الاتباع الأمين هُدى أبو بكر فى قيادته.

إنه بطل سجال السقيفة الذى كاد لولاه أن يمزق وحدة المسلمين ...

وهو الـذى وضع فى خطابه الافتتـاحى الأصـول الرئيسـية والدسـتورية للدولة الإسلامية. ألا وهى إقرار العـدل وأن تتم التولية ببيعـة، وأن يكـون الحكم بـالقرآن وأن يكون من حق الناس متابعة الحاكم وتقويمه فإن أحسن أطاعوه وأن أسـاء فليس لهم عليه طاعة.. وهى المبادئ التى سبق بها الرسول ثم جـاء عمـر، فكـرر عمل الرسـول السابق وعمل أبى بكر اللاحق..

ثم ظهر أن هـذا الرجل الوديع البكَّاء والمشـفق الـرحيم يضم بين جنبيه أسـداً هصوراً فما أن قبض الرسول حتى اشتعلت جزيرة العرب ناراً.

قال الطبرى "كـادت مكة أن ترتد وتـوارى عاملها عتـاب بن أسـيد وارتجت مكة وكاد أهلها يرتدون فقـام سـهيل بن عمـرو على بـاب الكعبة وصـاح بهم فـاجتمعوا إليه فقال يا أهل مكة لا تكونوا آخر من أسلم وأول من أرتد. فأمتنع الناس عن الردة، وهذا الرجل سهيل بن عمرو هو الذى قال للرسول عندما أرسلته قريش ليفـاوض الرسـول فى صلح الحديبية، وأمر الرسـول بكتابة الصـلح هـذا ما صـالح عليه محمد رسـول الله فقال لو كنا نؤمن أنك رسول الله ما حاربنـاك. ولكن أكتب إسـمك واسم أبيـك، وكـان قد حـارب الرسـول فى بـدر وأسر وهمّ به عمر بن الخطـاب فقـال له دعه يا عمر فسيقوم مقاماً تحمده عليه. فكان هذا المقام..

وقـال عبد الله بن عمر "لما قبض النـبى □ اشـرأب النفـاق فى المدينة وارتد العرب والعجم وأبرقت وتواعدوا نهاوند وقـالوا لقد مـات الرجل الـذى كـانت تنتصر به العرب.. وقالت عائشة "لما تـوفى رسـول الله □ اشـرأب النفـاق فى المدينة وارتـدت العرب قاطبة وانحازت الأنصار وصـار المسـلمون كـالغنم السـائبة فى الليلة المطـيرة وأخذ المرتدون يستعدون للهجوم على المدينة فجهز أبو بكر الجيـوش ووضع الحـراس على الأنقاب.

وعندما قرر محاربة المرتدين بعد أن أنفذ جيش أسـامة تحقيقـاً لأمر الرسـول.. وقف المسلمون جميعـاً ضد هـذا الـرأى عمر بن الخطـاب وعلى بن أبى طـالب وجلة الصحابة والمهاجرون كما وقف الأنصـار الموقف نفسه فقـام أبو بكر وقـال: "أما بعـد. فإن الله بعث محمداً □ والحق قل شـريد. والإسـلام غـريب طريـد. قد رث حبلـه. وقل أهله. فجمعهم الله بمحمد □ وجعلهم الأمة الباقية الوسـطى. والله لا أبـرح أقـوم بـأمر الله وأجاهد فى سبيل الله حتى ينجز الله لنا ويفى لنا عهده. فيقتل من قتل منا شهيداً فى الجنـة. ويبقى من بقى منا خليفة الله فى أرضه ووارث عبـاده الحـق. فـإن الله تعـالى قـال: - وليس لقوله خلف – "وعد الله الـذين آمنـوا منكم وعملـوا الصـالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما اسـتخلف الـذين من قبلهم" واللـه: لو منعـونى عقـالاً مما كانوا يعطون رسول الله □ ثم أقبل معهم الشجر والمدر والجن والأنس لجاهدتهم حتى تلحق روحى بالله. إن الله لم يفرق بين الصلاة والزكاة.

فكبر عمر وقال: والله لقد علمت. والله حين عزم الله لأبى بكر على قتالهم أنه الحق.

مع هـذه الوقفة البطولية الـتى تحـدى بها أبو بكر العـرب جميعـاً وخـالف فيها المسـلمين جميعـاً فإنه احتفظ بوداعته وتواضـعه وكـان قبل الخلافة يحلب للحى أغنـامهم، فلما بويع له بالخلافة قـالت جارية من الحى: الآن لا تُحلب لنا منـائح دارنا فسـمعها أبو بكر فقـال: بل لعمـرى لأحلبنها لكم، وإنى لأرجو أن لا يغيرنى ما دخلت فيه عن خلق كنت عليه.

فكان يحلب لهم. فربما قال للجارية من الحى يا جاريـة، أتحـبين أن أرغى لك أو أصرح؟ فربما قالت: أرغ. وربما قالت: صرح. فأى ذلك قالت فعل"..

بل أنظر إلى تواضعه، وهو يودع جيش أسامة راجلاً وأسامة راكب وعنـدما قـال أسامة يا خليفة رسول الله لتركبن أو لأنـزلن. فقـال: والله لا تـنزل. والله لا أركب وما علىّ أن أغبر قدمى ساعة فى سبيل الله. فـإن للغـازى بكل خطـوة يخطوها سـبعمائة حسنة تكتب له. وسبعمائة درجة ترفع له. وتمحى عنه سبعمائة خطيئة. حـتى إذا انتهى قال له: إن رأيت أن تعيننى بعمر بن الخطاب فأفعل. فأذن له.

وخصص المسـلمون لأبى بكر رزقـاً كرجل من المسـلمين ليس بـأفقرهم ولا أغناهم وكان من قبل يتكسب بالتجارة، فلم يكن يكفيه ما خصصوه له، ومع هـذا فقبل أن يموت أوصى عائشة "إذا أنا مت فردى إليهم صـحفتهم ولقحتهم وعبـدهم ورحـاهم ووثارة (أشبه ببطانية) اتقيت بها أذى البرد ووثارة اتقيت بها أذى الأرض كان حشـوهما من ليف.

وزاره عبد الرحمن بن عوف فى مرضه الذى تـوفى فيـه. فأصـابه مفيقا "فقـال أصبحت بحمد الله بارئا. قـال أبو بكر أتـراه ؟ قـال نعم قـال أما أنى على ذلك لشـديد الوجــع. ولما لقيت منكم يا معشر المهــاجرين أشد على من وجعى أنى وليت أمــركم خـيركم فى نفسـى. فكلكم ورم من ذلك أنفـه. يريد أن يكـون له الأمـر. ورأيتم الـدنيا مقبلة ولما تقبل وهى مقبلة حـتى تتخــذوا سـتور الحرير ونضـائد الــديباج. وتـألمون الاضـطجاع على الصـوف الأذربى كما يـألم أحـدكم الاضـطجاع على شـوك السـعدان. والله لأن يقـدم أحـدكم فيضـرب عنقه فى غـير حد خـير له من أن يخـوض فى غمـرة الدنيا. ألا وإنكم أول ضال بالنـاس غـدا فتصـدونهم عن الطريق يمينا وشـمالاً يا هـادى الطريق جرت إنما هو الفجر أو البجر.

فى هذه الجلسة اعـترف أبو بكر لعبد الـرحمن بن عـوف إنى لا آسى على شئ من الـدنيا إلا على ثلاث فعلتهن. وددت أنى تـركتهن وثلاث تـركتهن وددت أنى فعلتهن. وثلاث وددت أنى سألت رسول الله عنهن :

أما الثلاث التى فعلتهن ووددت أنى تركتهن: فـوددت أنى لم أكشف بيت فاطمة عن شئ. وإن كانوا أغلقوه على الحرب. ووددت أنى لم أكن حرقت الفجاءة السـلمى وأنى قتلته سريحا أو خليته بخيحا. ووددت أنى يـوم سـقيفة بـنى سـاعدة قـذفت الأمر فى عنق أحد الرجلين. فكان أحـدهما أمـيراً وكنت له وزيـراً (يعـنى بـالرجلين عمر بن الخطاب، وأبا عبيدة بن الجراح).

وأما الثلاث التى تركتهن ووددت أنى فعلتهن: فـوددت أنى يـوم أوتيت بالأشـعث بن قيس أسيراً ضربت عنقـه. فإنه يخيل إلى أنه لا يـرى شـرا إلا أعـان عليـه. ووددت أنى يوم سيرت خالد بن الوليد إلى أهل الردة أقمت بذى القصة. فإن ظفر المسلمون ظفروا. وإن انهزموا كنت بصدد لقاء أو مدد. ووددت أنى كنت إذ وجهت خالد بن الوليد إلى الشـام وجهت عمر بن الخطـاب إلى العـراق فـأكون قد بسـطت يـدى كليهما فى سبيل الله.

وأما الثلاث التى وددت أنى سألت رسول الله عنهن: فـإنى وددت أنى سـألته: لمن هذا الأمر من بعده ؟ فلا ينازعه أحد. وأنى سألته هل للأنصار فى هذا الأمر نصيب ؟ فلا يظلمـوا نصـيبهم منـه. ووددت أنى سـألته عن مـيراث بنت الأخ والعمة فـإن فى نفسى منهما شيئاً.

هـذه هو أبو بكر الجـرأة والشـجاعة المتناهية والحـزم الـذى لا يتثـنى، ومع هـذا فهناك رقة لا حد لها، وتواضع لا تصنع فيه..

هذا هو أبو بكر الذى بدء حياته بـدرء فتنـة، وختمها بـدرء فتنة أخـرى كـان يمكن لكل واحــدة أن تمــزق المسـلمين، وفيما بينهما قضى على فتنة الـردة الـتى كـادت تستأصل الـدين، وخلف لهم أفضل ما يمكن أن يخلفه رجل دولة من أصـول دسـتورية لممارسة السلطة أو سلوك عفيف فى خاصة نفسه.

فهل ثمة مثيل له ؟

بلى.. لقد جاء بعده، وبتوصـية منه عمر بن الخطـاب لم يقصر عنـه، ومد الله له فى الأجـل، وكما وقف أبو بكر فى وجه العـرب المرتـدة، وقف عمر فى وجه قـريش الثربة التى تريد أن تتضخم ثرواتها وتهيمن بفضل نسبها وحسـبها وقربها من الرسـول. ودعم فى خطبته الأوامر الدسـتورية الـتى أرسـاها أبو بكر فى أن الحـاكم إنما يحكم بـالقرآن وأن ليس له من طاعة إذا خالفهـا. كما سـار على هديه فى التقشف وربما فـاق.. وأوصى – كما فعل أبو بكر – للمسـلمين بكل ما ناله خلال ولايته وكـان فى تواضـعه مثل أبى بكـر. فهو يتفقد النسـاء اللائى ذهب رجـالهن فى الغـزو ويأخذ خطابـاتهن إلى أزواجهن، أو ليكتب لهن. ويأخذ غلمـانهن معه إلى السـوق ليشـاركهم الشراء حتى لا يخدعوا، ويمشى فى الليل ليتفقد أحوال الناس على الطبيعة. وخذ مثلاً هذه الواقعة، فقد وجد إياس بن سلمة فى عرض الطريق، فخفقه بالـدرة وأمـره بـأن يفسح الطريق. وبعد مـدة طويلة رآه فقـال له أنـويت الحج فى عامك هـذا فقـال نعم فأخذ بيده حتى أدخله داره ثم خرج وفى يده كيس فيه ستمائة درهم وقال له "استعن بها على حاجتـك، واعلم أنها بتلك الخفقـة" فقـال له الرجل والله ما ذكرتها حـتى ذكرتنيها فقـال عمر ولكـنى ما نسـيتها.. فـذهب عمر ومرقعته ودرته مثلاً فى التـاريخ وسجل له هذه المـآثر شـاعر من أعظم شـعراء العربية هو حافظ إبـراهيم فيما أطلق عليه "عمرية حافظ" التى أثبت فيها معظم مواقفه.. ومن قبله قال الشاعر :

جزى الله خيراً من إمام وباركت ... يـد الله فى ذاك الأديـم الممزق
فمن يجرِ أو يركب جناحىَّ نعامة ... ليدرك ما أدركت بالأمس، يسبق

هـذه هى حـال دولة المدينة عهد الرسـول، ثم عهد المتبع الأمين ثم المبتـدع العظيم هل نجدها على هذا الحال بعد عمر؟ هل نجد فى عثمان ما نجده – أو بعض ما نجده – فى عمر وأبى بكر من حزم وعزم وذكاء وإقدام على عظـائم الأمـور وإسـقاط لصغائرها؟ وعزوف عن طيبـات الحيـاة؟ إننا لا نجد شـيئاً، بل نجد ما يخالفهـا.. ثم نجد بعد عثمان عليا وهو يحاول أن يعيد الأمور إلى نصابها، وأن يحمل النـاس على ما كـان عليه الشيخان، ولكن هيهات. لقد اتسع الخرق على الراتق.. وتوالت الفتن حتى سالت الدماء. فقتل عثمان قتلة منكرة. ثم تلاقت سيوف المسلمين يقتل بعضهم بعضاً. وهل هناك ما هو أكثر مأساوية من مشهد أم المؤمنين عائشة يحارب دونها الألوف.. وتقطع الأيـدى بالمئـات دون هودجها حـتى يعقر الجمل فيسـقط بهـا، ويتلو ذلك صـفين، وما أدراك ما صـفين ثم تختم المأسـاة بمقتل الإمـام على وهو يـؤذن لصـلاة الفجر فى رمضان ...

هل يمكن أن يقال إن هذه خلافة راشدة ؟

كلاً... إن الخلافة الراشدة وقفت عند مقتل عمر بيد مجوسى فارسـى.. وكل ما حدث بعده لم يكن استمراراً لها، ولكن دليلاً على أنها لا يمكن أن تعود..

* * *

الباب الثانى
السلطة تفسد العقيدة
(الأيديولوجيا)

رأينا فى الباب الأول كيف أن الأحداث التاريخية قد أدت إلى هجرة الرسول إلى المدينة، وكيف أن الهجرة أدت إلى تكوين "دولة" ذات طبيعة خاصة فهى بنت التاريخ من ناحية الحدوث، وبنت الدعوة من ناحية الطبيعة وكانت نتيجة ذلك دولة يرأسها رسول يوحى إليه، ثم شاهدنا مسلسل الأحداث التى أخذت بعضها برقاب بعض بصورة سريعة متلاحقة بحيث لم تدع للمسلمين وقتئذ متنفساً، أو تصرفاً آخر، وهذه السرعة والتلاحق مع أنها لم تدع للمسلمين سلوكاً آخر فإنها ربطت ما بين عهد الرسول والخلافة التى أعقبته، وقد ولدت الخلافة والرسول مسجى فى بيته، قبل أن يودع مثواه الأخير، وفى ظل هذا الحكم عاشت وكأنما أنفاس الرسول تتردد حولها وتحفظها وكان من توفيق الله أن ولى أمرها "المتبع الأمين" أبو بكر الذى أظهرت الحوادث أنه رجل دولة من الطراز الأول وأعقبه عمر بن الخطاب "المبتدع العظيم" الذى أرسى أسس الدولة الإسلامية.

ولكن لما كانت الدولة تقوم على ساقين هما الإيمان من ناحية والضرورات الاجتماعية من ناحية أخرى. ولما كان الإيمان يزيد وينقص، أو لنقل ينقص أكثر مما يزيد فقد انحسر الإيمان، وانحسر معه المقوم الإيمانى لدولة الخلافة الراشدة. وبدأ الإيمان يتقلص وينحسر مع طعن عمر بن الخطاب، وأخذ هذا الانحسار يزداد شيئاً فشيئاً حتى بلغ الفتنة الكبرى التى كانت إيذانا بنهاية الخلافة الراشدة.

ومن هذا نعلم أن الخلافة الراشدة تدين بظهورها إلى أنها ارتبطت بالرسول، ولم يحدث انفصام (باستثناء انقطاع الوحى طبعا) بحيث أمكنها أن تُسِّير الأحداث فى ظل الرسول وأثرة، وأن تتغلب بهذه الصفة على ما جابهها من صعاب، لعل أوقعها أثراً كان حروب الردة. وهو ما يشير إلى توفيق الخلافة الراشدة فى قائديها الأوّلين أبو بكر وعمر ثم تعثرها فى قائديها الآخرين عثمان وعلى مما أدى إلى انحسار الإيمان وإلى النهاية المحتومة.

ومع طى صفحة الخلافة الراشدة يبدأ الباب الثانى بفتح صفحة جديدة تقوم على فكرة محورية هى أن السلطة تفسد العقيدة (الأيدلوجيا) وأن هذا أمر محتم لا مفر منه بحكم طبيعتها والسلطة فى الوقت نفسه هى الخصيصة التى تميز الدولة، ومعنى هذا أن الدولة لا يمكن أن تكون راعية لعقيدة أو فكرة لأن السلطة الكامنة فيها لابد وأن تفسد العقيدة، ويثبت الباب ذلك بشواهد من التاريخ الإسلامى والمسيحى واليهودى والأوربى مما يوضح أن إفساد السلطة ليس مقصوراً على العقيدة الإسلامية، ولكنه يمحق ويفسد كل عقيدة لها طابع القيم والمثل العليا. وتنوع الأمثلة التى أوردناها أكبر دليل على صدق الفكرة المحورية فيه، إلا وهى أن السلطة تفسد العقيدة.

الفصل الرابع
الأمة – الدولة – السلطة

فى الجزء الأول من هذا البحث عالجنا دولة المدينة فى عهد الرسـول والخلفـاء الراشدين لأنها أول ما يرتكز عليه دعاة الدولة الإسـلامية وأثبتنا أن دولة المدينة تجربة فريـدة لا تتكـرر، ولكن تسـتلهم وأن الخلافة الراشـدة كـانت برزخا بين رحمة الحكم النبـوى وغشـومة المُلك العضـوض. وأن عامل نجاحها كـان هو قـرب العهد بالرسـول، وأنها كانت امتداداً له، ورأينا أنها انتهت مع طعن عمر بن الخطاب، وتوقفت فـترة فى عهد عثمــان وأراد على بن أبى طـالب إعادتهـا. فلم يسـتطع لأن القـوة المحركة لها وهنت وتلاشت دفعتها مع بعُد العهد بالرسول.

وننتقل فى البــاب الثــانى الــذى يحمل عنــوان "السـلطة تفسد العقيــدة (أو الأيدلوجيا) إلى دراسة السـلطة وأنها مفسـدة بطبيعتهـا. وأنها تفسد كل ما يتصل بهـا. ولما كانت السلطة هى الخصيصة المميزة للدولة، ولما كانت السلطة مفسدة، فمعنى هذا أن لابد وأنه يفسد الحكم الإسلامى إذا جاء عن طريق الدولة وانبثق من سلطتها.

وقد كان هذا أقوى عامل دفعنا لرفض أن يكون الإسلام دولة، كما كان هناك من الناحية الإيجابية عوامل أخـرى تـدفعنا للتركـيز على الأمــة.. **وبهـذا يكـون هنـاك مبررات إيجابية وسلبية ترفض الدولة وتفرض الأمة.**

ومن الضرورى أن نقدم لهذا الحكم بتعريف موجز للأمة، والدولة، والسلطة.

الأمــة..

لا نريد أن نعذب القارئ ونضيع وقته فى مباحثـات أكاديمية حـول تعريف الأمـة، خاصة وأن لنا فكرنا الخاص الـذى قد يختلف عن علمـاء القـانون الدسـتورى أو النظم السياسية أو علماء الاجتماع. من هنا فإننا نقول باختصار ووضـوح إن ما نعنيه فى بحثنا هـذا بالأمة الإسـلامية هو الشعب والجمـاهير الـتى تـؤمن بالإسـلام بصـرف النظر عن لغاتهم وأجناسهم وألوانهم وتباعد بلادهم واختلاف نظمهم السياسية.. ذلك أن الإسـلام بحكم قوته الذاتية الخاصة يمكن أن يكـون عـاملاً موحـداً لهـذه الجمـوع أو على الأقل يؤثر تأثيراً فعالاً فيها..

فى هـذه الأمة نجد أن العنصر البـارز الـذى يجمعها ويوحـدها ويميزها عن غيرها هو العقيدة.. كما نجد عنصراً آخر هو الإرادة. فمع أن المسلمين يولـدون مسـلمين ولا يكون لهم إرادة فى هذا، إلا أنهم لا يحملون هـذه الصـفة كعبـاً، ولكن ككسـب. وهم لا يضيقون بها بل هم يعتزون بها وقد يهمل الكثير منهم فى أداء التزاماته العبادية، ولكنه يظل متمسـكا بالإسـلام، معتـذراً عن تقصـيره وهنا يظهر جـانب الإرادة إلى جـانب العقيدة.

وهذه الأمة ليست من صنع التاريخ أو الجغرافيا أو عمل ملك أو حاكم كالفرعون مينا مثلاً الــذى وحد الوجه البحــرى والوجه القبلى مكونا الأمة المصــرية من أقــدم العصور. ولكنها من صنع الإسلام فقد بدأت عندما بدأ الرسول دعوته بعشيرته الأقربين ثم اتسعت حتى شملت المدينة، وجزيرة العرب.. ثم انتشرت حينما انتشر الإسلام.

هـذه هى أمة الإسـلام الـتى أرادها الله تعـالى فى قرآنه عنـدما قـال ﴿وأن هـذه أمتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فاتقون﴾. فإنه وحَّدها.. ووحد عقيدتها، ولعل هذا أن يكـون إبـرز الظـواهر الاجتماعية للتوحيد الـدينى، وكـانت هـذه الأمة فى ذهن الفقهـاء الـذين أبدعوا تعبير "دار الإسلام" وكانت هى التى أوحت إلى الشاعر :

بك اتصلت أسبابنا بعد فرقـة   فنحن بنو الإسلام نُدعى ونُنسب

أو الآخر..

الدولــة :

إن العنصر الهام الذى يميز الدولة عن الأمة هو وجود الحكومــة. فقد توجد الأمة دون أن توجد الحكومة، ولكن لا يتصور قيـام دولة دون حكومة أى الجهـاز الـذى يقـوم بعملية الحكم، وهو أمر لا يتحقق إلا بالســـلطة. فالســـلطة هى خصيصة الحكم فى الدولة. والسلطة معناها وجود جهاز للقمع يلزم المخالفين الطاعة.

وعندما نقول إن الإسلام دين وأمة، وليس دينا ودولـة، فإننا نلحظ أن الدولة هى فى حقيقتها السلطة – ومن الناحية المبدئية والتاريخية والواقعية. فـإن السـلطة تفسد الأيــدلوجيا (أو العقيــدة) فما أن يحــدث خلط بينهما فلابــد، ولا منــاص من أن تفسد السلطة العقيدة، لأن السلطة بطبيعتها، ليست فحسب فاسـدة بل هى مفسـدة أيضـا، وليس من الطبيعى إصلاحها.

وقد يوضح لنا شيئاً ما هذه الحقيقـة. الطريقة الـتى ظهـرت بها الدولـة، وهنـاك ثلاث رؤى عن هذا...

الرؤية الأولى: رؤية علماء الاجتماع ويقول هؤلاء – كما صور ذلك الدكتور محمد معروف الدواليبى فى كتابه "الدولة والسلطة فى الإسلام" (من ص24 – 28)..

"مضى على المجتمعات البشرية الأولى حين من الدهر لم يكن فيها (للمجتمــع) الواحد من كيان ومفهوم حينذاك غير كيان (الأسرة) الواحــدة ومفهومهـا، سـواء ضـاق نطاق هـذه الأسـرة فى التبعية لأب واحد حى، أو اتسع نطاقها لتشـمل أسـراً متعـددة تحت اسم (القبيلة) الواحدة التى ترجع فى أصولها البعيدة إلى جد أعلى واحد.

وكذلك لم يكن لمفهوم (السلطة) فى المجتمع والأسرة من مفهوم غير مفهــوم (السلطة الأبوية المطلقة) والمحصورة فعلاً بأبى الأسرة وكبيرها. وكـان هـذا الأب هو فى آن واحد سيد الأسرة وملكها، وحاكمها وكاهنها فى شؤونها الدينيــة، وبالجملة فـإن أبا الأسرة كان وحده الآمر الناهى من غير منازع، وله بموجب سـلطته الأبوية المطلقة حق الموت والحياة على جميع أفراد الأسـرة على نحو ما هو ثـابت ومعـروف مثلاً فى تاريخ روما القديمة.

ولما تطـور المجتمع وظهـرت فيه (الدولـة) انتقلت جميع خصـائص (السـلطة الأبوية المطلقـة) إلى (رئيس الدولـة) فكـان هو أيضـاً الحـاكم المطلق فيها، وكان الويل كل الويل عندئذ للمجتمع من نزواته المطلقة.

وفى ظل ذلك الحكم المطلق ظهـرت فئة المقـربين الأشـراف، ثم من عـداهم من عامة النــاس، وانتهت بتقســيم المجتمع إلى طبقـــات متفاوتة فى الحقــوق وفى الكرامة. وهكذا كان هنـاك امتيـاز للبراهمة على المنبـوذين فى شـرائع الهنـد، وامتيـاز لأعيـان الدولة على فلاحيها فى الصـين، وامتيـاز للأشـراف على العامة لـدى اليونـان والرومان، بل وامتياز لجنس الرجل على جنس المرأة لدى الجميع.

وهكذا فإن ذلك الحكم المطلق، وذلك التفاوت فى طبقات الشعب وفى حقـوق الأفراد، قد جعل (مفاهيم الدولة وسلطاتها) فيما يتعلق بالسلطة وبالشعب وبالقـانون، لا تظهر إلا :

- **من خلال (الســلطة المطلقة للحــاكم) على الشــعب من جهــة، وذلك بما يشــبه (الســلطة الأبويــة) فى حق الحيـاة والمـوت على أفراد أسرتها كما كانت من قبل.**
- **من خلال (التبعية المطلقـــة) المفروضة على (الشــعب) تجـــاه الحاكم دون أن يكون للشعب أية شخصية حقوقية، أو أى اعتبـار له أمام سلطة الحاكم المطلقة.**

وأما القانون – إن وجد فى مراحل وجوده – فما هو إلا تلك الأحكام الصادرة عن إرادة ذلك الحاكم المطلق إن شاء. وذلك من دون أن يكـون فى تلك الأحكـام ما يعـبر عن شئ من القيم الاجتماعية السامية أو المصالح الإنسانية غير تثبيت الأمر الواقع فى تلك السـلطة المطلقة للحـاكم، وتبعية الشـعب له كشىء من أشـيائه، مع تمـايز فئاته وطبقاته فى الحقـوق والاعتبـار فضـلاً عن التمـايز بين شـعوب الإمبراطوريـات فى الأعراق، والأوطان، والأجناس.

ففى ظل تلك المفاهيم تظهر الدولة فى :

- **سلطات الحاكم المطلقة على شعبه.**
- تبعية الشـعوب لقادتها بـدون (أية شخصـية حقوقيـة) أو أى اعتبـار لهم أمـام حكامهم.
- التمـايز بمقتضى العـرف أو القـانون بين فئـات شـعوبهم تبعـاً لأصـولهم وأعراقهم وأجناسهم" انتهى الاقتباس من كتاب الدكتور معروف الدواليبى.

ولم ينفـرد علمـاء الاجتمـاع فى الرجـوع بالدولة إلى الأسـرة وأن هـذا هو أصل الاستبداد فيها. فإن من علماء السياسة من ذهب إلى هـذا المـذهب وأشـهرهم بـودان الذى نشر فى عام 1576 كتابه "الجمهورية" الذى ذهب فيه إلى أن الاستبداد الفـردى المطلق هو النظام الـذى يتفق مع القـانون الطـبيعى ذلك لأن الطبيعة قد شـكلت أول مجتمع فى صـورة الأسـرة. والأسـرة هى مجتمع صـغير متعـدد الأفـراد وذو مصـالح مشـتركة لابد من أن يقـوم فيها واحد من أفرادها لتكل إليه الأسـرة إدارة شـئونها، هو رب الأسـرة. ولم يكن من الممكن أن يقـوم فيها "ربـان" وإلا تمـزقت، لأن الأمر فى الأسرة كالأمر فى السفينة أن تعدد فيها الربابنة غرقت. والأسرة هى النموذج المصغر للدولة. ومن هنا فإن الدولة "الطبيعية" هى التى يكل أفرادها سيادتهم إلى واحد منهم ليمارسها. وهم لا يستطيعون إلا أن يكلوها إليه كاملة لأن السلطة لا تتجـزأ ولا يمكنهم أن يسحبوها بعد أن يكلوها إليه لأن مـبررات التخلى عنها إليه مـبررات دائمة ولا يجـوز أن تنقطع.

وكان يشفع له أن الوحدة الاجتماعية الأولى فى تـاريخ الأجنـاس البشـرية كـانت هى الأسرة. وكان لرب الأسرة السلطة الكاملة فهو صـاحب ومالك وسـيد النـاس وما يحوزون. وما تزال مفردات اللغة تحمل آثاراً من ذلك الاستبداد البائد. فقد كانت كلمة أسرة عند الرومان (فاميلوس وفاميليا) تعـنى العبيـد. وحـتى أيـام المشـرع الرومـانى جايوس (القرن الثانى قبل الميلاد) كانت كلمة "أسـرة" تعـنى المـيراث (أنجلز – أصل العائلة – 1820) ولم يكن الأمر مختلفـاً عن هـذا فى المجتمع الأنجلو سكسـونى قبيل الفتح النورماندى لانجلترا إلا فى أمرين. الأول هو أن الولد كان يتحول من عبد مملوك لأبيه إلى حر ببلوغه سن الرجولة. والثانى أن الأسـرة كـانت تضم قرابة من الأبـوين لا من الأب وحده كما كـان الشـأن عند الرومـان. وتنـبئ بعض الآثـار المنقولة عن نظـام الأسرة فى الجاهلية العربية، مثل وأد البنات وزواج المقت، والعضال، بأن رب الأسـرة كان السيد المطلق على أفـراد أسـرته إلى حد التصـرف فى حيـاتهم. وهو ما أدى إلى القول بأن قد كـان لـرب الأسـرة عند العـرب فى أيـام الجاهليـة، سـلطة على أفرادها مماثلة لما كان لرب الأسرة عند الرومان من سيادة مطلقة على أفراد أسـرته تشـمل أشخاصهم وأموالهم (دارست: أبحاث تاريخية) [16].

الرؤية الثانية: هى رؤيتنا الخاصـة. وهى ببسـاطة أن الدولة نشـأت عندما نشأ الجيش المحترف.

ذلك أن وجـود تجمع من النـاس وحـده لا يوجد دولـة، ولكن يوجد "شـعباً" ولا يتطور هذا الشعب فى دولة إلا عندما تنشأ له "حكومة" أى نظـام يفصل فى العلاقـات

---

16 **(16) الاستبداد الديمقراطى. د عصمت سيف الدولة – دار المستقبل العربى ص 25.**

التى يثمرها تجمع الناس والتى لا يمكن أن تترك لهوى كل واحد وإرادة كل واحد، ولابد أن تحدد الحقوق والواجبات وتنظم شئون هذا المجتمع.

هذا الدور الهام هو ما تقوم به الحكومة، وهو فى حقيقة الحال ما يمثل وظيفتها ولكن كيف تتوصل الحكومة إلى القيام بهذه الوظيفة؟ إنها لا يمكن أن تقوم بذلك بدعوة فلاسفة يوضحون للجماهير الخطأ والصواب، الحكمة والضلال، المفيد النافع والضار السئ لأن فى النفس الإنسانية غرائز أقوى لتعزيز ذاتها على حساب غيرها. وإرواء شهواتها والتكاثر والإستعلاء الخ... ووجود أفراد ضعفاء جنباً إلى جنب أفراد أقوياء فى حد ذاته يغرى الأقوياء بالسيطرة على الضعفاء.

فى النهاية نجد أنه لابد من **"سلطة"** أى قوة تلزم وتخضع الأفراد لطاعتها والالتزام بأوامرها، ولابد من أداة أو تنظيم يستخدم القوة لإرغام الناس على الطاعة والالتزام بها، وقد تكون هذه القوى هى القوة الجسدية والعضلية فى المرحلة البدائية كسيطرة الرجل على المرأة والأب على الأبناء ثم بطريق السلاح فى المراحل التالية، وما يتميز به من تنظيم وضبط وربط واحتراف.

ومنذ أن توصل حاكم ذكى إلى تفريغ عدد من الرجال، وتنظيمهم وتدريبهم ووضع فى أيديهم السلاح وفرغهم لهذا ظهرت الصورة الأولى للجيش، وبفضل هذه الأداة استطاع الحاكم أن يلزم إلزاماً، ويكره إكراهاً، المجموعات التى تحاول التمرد عليه بينما كان مجرد وجود هذا الجيش كافيا لأن يحمل الآخرين على الطاعة، حتى لا يتعرضوا لما يمكن أن يقوم به الجيش من غارة عليهم..

ويلحق بالجيش عادة البوليس. وهو تنظيم مخفف نشأ فى فترة لاحقة عندما ظهر أن إخضاع الجمهور قد لا يتطلب تحرك الجيش بسلاحه الثقيل، ولكن يكفى "البوليس بسلاحه الخفيف" وتكون مهمة البوليس تطبيق إرادة الحكومة فى الداخل بينما تكون مهمة الجيش تطبيق إرادتها فى الخارج أو صد أى هجوم على الدولة.. ولا يمنع هذا من تدخل الجيش عندما تحتدم صراعات فى الداخل.

ويلحق بالجيش أو البوليس "السجون" التى هى إحدى وسائل العقوبة لمن يرفض تطبيق الأوامر أو يتمرد على الطاعة.. ويقترن بالسجون القيود والإصفاد الحديدية والاحتباس فى زنزانات ضيقه رطبة والاقتصار على أسوأ أنواع التغذية وكثيراً ما يتعدى الأمر إلى التعذيب.

هذه هى فكرتنا عن نشأة الدولة..

فلا يمكن لمجموعات من الناس تقطن إقليما واحداً وتتكلم لغة واحدة، ولها مصالح واحدة أن تكون دولة.

إنها يمكن أن تكون أمه، وليس دولة..

الدولة لا تنشأ إلا عندما توجد فى هذه الأمة الحكومة أى الجهاز المسئول عن تنظيم العلاقات بين أفراد هذه المجموعة.

ولا تستطيع الحكومة القيام بذلك إلا بالسلطة..

ولا سلطة إلا بجيش يملك القوة الجبرية التى تلزم الناس الطاعة وتحول بينهم وبين التمرد فالأمر فى النهاية إلى الجيش.

وقلما يذكر علماء النظم السياسية كلمة الجيش كما نصرح بها وعادة ما يكنون عنها بكلمة "القوة".

وقد قال بعض النقاد إن نظرية القوة.. لا يمكن التسليم بها على طول الخط لأنه "ما من سلطة تستطيع أن تحقق لنفسها الاستقرار والدوام مستندة إلى القوة وحدها، بل يلزم أن تكسب رضاء الأفراد وقبولهم لها، وإلا كان من الضرورى تخصيص

جندى لكل مـواطن ووراء كل جنـدى يجب وضع جنـدى آخر لحراسـته... وهكـذا "انظر النظم السياسية للدكتور ثروت بدوى – دار النهضة العربية – ص 131".

وهــذا كلام سـليم نظريـا، ولكنه بعيد عن منطق الواقــع. إذ الواقع أنه لابد أولاً وقبل كل شئ من القوة (الجيش) لتقلد السلطة وعندما يتم هذا فـإن الحـاكم لا يعجز عن استخدام وسائل التزييف والاصـطناع والضـغوط الخ... ليتوصل إلى تعزيز سـلطته بحيث لا تكون قائمة على وجود الجيش ولكن بفضل وجود الجيش.

وذهب بعض المفكرين إلى أن العلاقة ما بين القوة والقـانون الـذى يفـترض أنه العمود الفقرى للدولة أو إطارها العام ليست كما ذهب البعض علاقة السـيد بالعبـد، أو العبد بالسيد ولكنها علاقة تزاوج، ولكن هؤلاء المفكـرين لم يوضـحوا لنا من هو الـزوج ومن هى الزوجة فى هــذه العلاقــة، لأن الحقــوق والواجبــات ليست متكافئــة. ولأن المساواة تحول دون الحسم بينما ذهب مفكرون آخرون إلى أن عنصر القوة هو الأكثر تأثيراً فى ظهور القانون فيقول :

" يبدو لنا مما سبق أن جانباً كبيراً من فلسفة القانون تعترف بصراحة أن القوة هى التى تنشئ القانون وتحميه، فالقوة تخلق القانون وفى الغالب لمصالحها الخاصـة، وهى أيضاً التى تحمى تطبيقه وتحل محله فى أوقات الأزمات.

ويبدو لنا أيضاً مما تقدم أن فكرة القوة تنشئ الحق وتحميه ترتبط فى الغـالب من الأحيان ببداية تكوين المجتمعات الإنسـانية، ففى بداية أى مجتمع إنسـانى لابد من استعمال القـوة لتنظيم المجتمع ولتحديد النظم القانونية وفرضـها، فغالبا يكـون هنـاك انقلاب أو ثورة أو صراع اجتماعى يتولد منه القانون [17] ".

وقد يدل على هذا التعبير المشهور **might is right** وأن يطلق أيضاً تعبـير "الإمبراطور" وهو أصـلاً قائد الجيش على رئيس الدولة فى التـاريخ الرومـانى الأوربى وأن يطلق لقب "قاضى عسكر" فى الدولة العثمانية على قاضى القضاة.

وأقسى ما يمكن أن يوجه من نقد لنظرية الجيش أنها لا تكفى وحـدها لظهـور الدولة ولكن – فى مقابل هـذا – لا يمكن أن تظهر الدولة بـــدونها. فهى العامل الحاســم، وإن لم تكن كل العوامل أو هى العامل الذى يمكن عن طريقه التوصل إلى بقية العوامل..

ولو راجعنا التـاريخ فى الشـرق والغـرب لوجـدنا أن العامل الحاسم فى ظهـور الـدول والإمبراطوريـات كـان هو الجيش. ففى العهد القـديم كـان السـيف الرومـانى العـريض والتنظيم الـدقيق للجيش هو الـذى جعل "كل الطـرق تـؤدى إلى رومـا" وهو الذى مكن روما من السـيطرة على العـالم القـديم وكـان السـيف الرومـانى هو الـذى حقق "السلام الرومانى" المزعوم وفى مسـتهل العصر الحـديث كـان نـابليون وقنابله هى التى هزمت المماليك وفرسانهم وجعلت المصـريين يصـيحون "يا خفى الألطـاف.. نجنا مما نخـاف" وهى الصـيحة نفسـها الـتى قالها قبل خمسة قـرون القـديس لـويس التاسع عندما فوجئ "بالنار اليونانية" التى استخدمها المصريون ضده.

وكانت مـدافع الأسـطول البريطـانى هى الـتى مكنت بريطانيا من أن تتوغل فى أعماق آسيا وأفريقيا وتدك الحصون والقلاع وتمهد الطريق أمام الجيش.

وقبل هذا طبقت مصر تجربة فريدة فى الحكم عندما اسـتقدم – أو بمعـنى أصح استورد – حكامها جموعا من المماليك الذين كان يأتى بهم النخاسون أطفـالاً – لـيربوا ويـدربوا على المهـام القتاليـة، واسـتطاع هـؤلاء المماليك أن يحكمـوا مصر قرابة ثلاثة قرون. وكانت سيوفهم هى التى هزمت لويس التاسع فى المنصـورة. وهى الـتى ردت التتار فى عين جالوت كما كان هؤلاء المماليك هم الذين شيدوا من المساجد ما يوازى المعابد الفرعونية القديمة، وأدى المماليك هـذا كله بينما كـان شـعب مصر عاكفا على زراعة الأرض محافظاً على روح الحضارة التى حماها المماليك بسيوفهم.

---

[17] **(17) كتـاب "الأصـول التاريخية للقـانون" ج1 ص155 تـأليف الـدكتور/ حسن عبد الحميد.**

وهذا ما يمكن أن يقال – إلى حد ما – على الفرقة العسكرية الـتى كـانت زهـرة الجيش العثمانى وكفلت للترك الانتصار فى كثير من المعارك – فرقة الانكشارية الـتى كانت تتكـون من صـبيان صـغار من البلاد المفتوحة يـؤتى بهم إلى تركيا فـيربون تربية عسكرية خالصة، ويعتزلون المجتمع بحيث يكون العالم الوحيد الـذى يعرفونه هو عـالم القتال.

وفى الحقبة المعاصرة، فـإن ما مكن أمريكا من السـيطرة والقـوة هو أنها بـدءًا من الحرب العالمية الأولى 14 – 18 جعلت نفسـها مصـنع سـلاح العـالم وتعـزز هـذا بحرب 39 – 45 فمع أن أرضها لم تتعرض لحرب، ولم تنزل قوات عليها، فإنها صنعت السـلاح الـذى مكن الحلفـاء فى الحـربين العـالميتين من الانتصـار وأصـبحت حـاملات الطـائرات أشـبه بقلاع متحركة لا يمكن أن يحملها إلا المحيطـات الـتى تمخرهـا. ومن هــذه القلاع السـابحة يمكن أن تنطلق طائرتها فتصـيب الأهـداف فى أى مكــان من العالم..

وقد فرضت الضــرورات التســليح على الأديــان نفســها، وهى دعــوات الحب والسـلام والضـمير – عنـدما هـدد الطغـاة الـدعوات الدينيـة، واضـطر دعاتها إلى حمل السلاح دفاعاً عن أنفسهم وحـتى لا يفتنـون عن دينهم، كما لم يكن بد من الجيش فى العهد الإسلامى الأول. لتفويض نظم إمبراطوريات طبقيه وعنصرية جائرة وإحلال نظم تقوم على المساواة وعدم التميـيز. وهكـذا نـرى جانبا من جـوانب التعقيد الاجتمـاعى. ولكن هناك فرق بالطبع بين الحرب الدفاعية، والحرب الهجوميـة. بين جيش كـالجيش الإسلامى يرفع الكتاب والميزان وجيش كجيش روما يتبعه البغايا والنخاسون.

فـالقوة العسـكرية الـتى يحملها الجيش هى لحمة وسـدى تـاريخ ظهـور الـدول والإمبراطوريـات ونحن نسـلم بـأن وراء السـيف والمـدفع والطـائرة كـان هنـاك عامل نفسى من زهو قومى. أو تفوق حضارى أو وجود نظام اجتماعى رصـين أو الـدفاع عن العقيــدة الخ... ولكن فى نهاية الملاذ يكــون الجيش هو الــذى يقــوم عمليا بالمهمة ويصدق كلام الشاعر :

"تكلم السيف. فاسكت أيها القلم".

وهنـاك دول عديـدة ظهـرت إلى الوجـود وأخـذت شـهادة ميلادها من "توحيـد" مناطق ودمجها بعضـها فى بعض لتكـون دولـة. وهـذا بـالطبع ما لا يتـأتى لـولا الجيش، ويمكن أن يقـال إن هـذا ظهر مع ظهـور أول دولة قومية فى التـاريخ – مصر – عنـدما وحد مينا الوجه الشمالى والوجه الجنوبى فى دولة واحدة.

ثالثا: الرؤية اللينينية : النظريات الاشتراكية على اختلافها تـؤمن بـأن الدولة جهاز قمع طبقى تحكم به القلة المنظمة المسلحة الكثرة المفرقة العـزلاء. ولا يختلف عن نظرية الجيش إلا فى الوسيلة، وليس الطبيعة لأنها جهـاز قمـع، ولكن جهـاز القمع هذا له طبيعة خاصة.

ولما ظهر لينين قـدم إضـافته الـتى تتمثل فى نظرية الحـزب باعتبـاره "جيشـاً مدنيا" فهو يقوم على ثوريين محترفين يعملون تحت قيـادة منظـرين اشـتراكيين. وأن هذا الحـزب الـذى يمكن أن يتحـول إلى جيش – كما حـدث فى الاتحـاد السـوفيتى فى الأيــام الأولى لظهــور ثــورة 17 عنــدما تحلل الجيش القيصــرى ولم يتيسر للســلطة الجديدة تكوين جيش، فقدمت النقابات عمالها كجنود وقدم الحزب الضباط وبذلك نشأ الجيش البلشفى الذى تصدى لقوات الحلفاء الذين أرادوا وأد الاتحاد الســوفيتى. ولكن مع أن الحـزب يمكن أن يتميـز عن الجيش فى أنه يلـوذ بنظرية لا بسـلاح ويعتمد على الإقناع والدعوة وليس الضرب والأسر وأن هذا سيقدم الغطاء الأيدلوجى لقمع الجيش مع هذا كله فمن الغريب أننا لا نجد فى التنظـيرات ما يماثل صـراحة التنظـير اللينيـنى فى أن الدولة هى جهاز "إرهاب" وأن هذا الإرهاب لا يستخدم ضد الذين يهددون الأمن الخارجى للبلاد فحسب، ولكن ضد الذين يهددون الأمن الداخلى. وقد كتب تروتسكى – منظر الحزب والرجل الثـانى بعد لينين كتابـاً كبـيراً عن الإرهـاب والشـيوعية (ترجمه الأستاذ جورج طرابيشى وطبع فى دمشق) دافع فيه دفاعاً حاراً عن الإرهاب كجــزء لا

يتجزأ من نظام وقوام الدولة الشيوعية ليس فحسب لإرهاب الأعداء فى الخارج، أو حتى مخلفات وسلالات الإقطاعيين والرأسماليين. ولكن بالنسبة للعمال أنفسهم وهم الذين من أجلهم قامت الثورة، فإن الشعارات ما كانت لتجوز على تروتسكى ولا تحمله على إغفال الحقائق الصعبة التى تسيطر على الطبيعة البشرية. فقال بدون مواربة إن العمال – بدون دفع الإرهاب – سيستسلمون للكسل الفطرى، وأنه لابد من إكراههم إكراها على العمل جميعا لما تتطلبه الدول الشيوعية، ووصل فى هذا إلى درجة "عسكرة العمل" التى لا تختلف عن "السخرة". فأظهر إلى أى مدى يمكن للسلطة أن تفسد الأيدلوجيا.

خصائص أخرى للدولة :

قدمنا أن العامل الأعظم الذى جعلنا نرفض الدولة هو أن الدولة ترتبط ارتباطاً لا مناص منه بالسلطة المفسدة بطبيعتها، ولكن هناك عوامل أخرى تجعلنا نرفض فكرة الدولة.. يجمعها أنها عوامل محددة ومفرقة تبرأ منها الأمة التى لا يوجد فيها إلا عامل واحد مجمع وموحد.. وهو العقيدة الإسلامية..

من عوامل التفرقة والتمييز فى الدولة أنها :

أولاً: تختص الدولة بإقليم واحد لا تتعداه. فالحدود الجغرافية هى إحدى محددات الدولة.. وعندما نقول إن الإسلام دين ودولة.. فأى دولة.. وقد قسمتها الجغرافيا إلى عشرات الدول لكل منها نظمها وطبيعتها..

لقد زرع الاستعمار بذرة صراعات الحدود لتشتعل بعده الحروب بين الدول الإسلامية بعضها بعضاً حرصاً على عدة أمتار من الكيلو مترات من الأرض.. كل دولة تدعى أنها جزء لا يتجزأ من تربة الوطن المقدس التى يفتدونها بالدم..

ثانياً: أن الدولة تفرض "جنسية" فأبناء الدولة المصرية يكتسبون جنسية مصرية. ولا يمكن لغيرهم أن يحملوا هذه الجنسية ويتبع الجنسية أن تكون حقوق المواطن الدستورية والاجتماعية والاقتصادية مقصورة على من يحملون جنسية الدولة. بما فى ذلك الدخول أو الخروج منها عن طريق "جوازات سفر" ولا يمكن لغير صاحب الجنسية أن يدخل ويخرج من دولة لا يحمل جنسيتها إلا وفق ضوابط خاصة وما أكثر الفروق بين السكان الأصليين، ومن يطرأ عليهم أو يعيش معهم عشرات السنين، ولكنه لا يحصل على الجنسية، بل هناك فروق بين من يحصل على هذه الجنسية دون أن يكون أصلاً منها وبين صاحب الجنسية الأصلى، فيطلقون على الأول "متجنس".

وبتأثير الحدود الجغرافية وقيود الجنسيات تنشأ النزعة القومية ولا يعد الاستسلام لها أو التشدد فيها مأخذاً بل إنها توجب على المصرى القومى أن يحارب حتى لا تضم جغبوب إلى ليبيا أو حلايب إلى السودان. فى حين أن المصرى المسلم لا يرى فرقاً كبيراً فليبيا دولة إسلامية جارة، والسودان دولة إسلامية جارة، وهما مع مصر فى إطار دار الإسلام الواحدة، فلا داعى للتشنج أو سفك الدماء مقابل حفنة رمال، ما أكثرها فى الدول الثلاث.

ثالثا: أن الدولة لا تتضمن قيما معنوية ولا إرادة شخصية فقد كونها أصحابها لأنهم يعيشون على هذه القطعة من الأرض التى هى مصر أو السودان أو فرنسا الخ... ورثوا ذلك عن أجدادهم وليس لهم من إرادة فى هذا، كما أن قيام الدولة لا يرتبط بقيم معينة. وهى فى هذا تختلف عن الأمة الإسلامية التى يكون الرابط فيها هو الإسلام، وبالطبع فإن شعوب كل دولة توصلوا إلى عالم القيم، ولكن هذا لم يكن فى أصل تكوين الدولة أو يعد خصيصة مميزة لها.

رابعا: أن مصالح الدولة متعارضة، وقد لا توجد دولتان متفقتان تماماً، لأن الأوضاع الدولية تجعل شبكة العلاقات تتلاقى وتتقاطع طبقا للسياسات والمصالح بحيث لا تكون هناك صداقة دائمة ولا عداوة دائمة، ولكن مصالح دائمة، ومصلحة هذه غير مصلحة تلك.

وأخيراً فيمكن القول إن تعبير الدولة – كما نفهمه الآن كان غريباً على المجتمع القديم، فنحن لا نجد له تعريفاً فى معاجم اللغة ففى المصباح المنير "تداول القوم الشىء تداولا وهو حصوله فى يد هذا تارة وفى يد هذا تارة أخرى والاسم الدولة بفتح الدال وضمها، وجمع المفتوح دول بالكسر مثل قصعة وقصع وجمع المضموم دُول بالضم مثل غُرفة وغُرف، ومنهم من يقول الدولة بالضم فى المال وبالفتح فى الحرب. ودالت الأيام تدول مثل دارت تدور وزنا ومعنى"[18].

وفى مختار الصحاح "الدولة فى الحرب أن تدول إحدى الفئتين على الأخرى يقال كانت لنا عليهم الدولة والجمع الدّول بكسر الدال. والدولة بالضم فى المال يقال صار الفىء دولة بينهم يتداولونه يكون مرة لهذا ومرة لهذا والجمع دولات ودول. وقال أبو عبيد" الدولة بالضم اسم الذى يتداول به بعينه والدولة بالفتح الفعل. وقال بعضهم: هما لغتان بمعنى واحد... وأدالنا الله من عدونا من الدولة. والأدالة الغلبة يقال اللهم أدلنى على فلان وأنصرنى عليه. ودالت الأيام أى دارت والله يداولها بين الناس. وتداولته الأيدى أخذته هذه مرة وهذه مرة"[19].

فهذه كلها عوامل تدفع المفكر المسلم لأن يقول الإسلام دين وأمة وليس ديناً ودولة.. ولا يخالجنا شك فى أن مقولة "الإسلام دين ودولة" إنما قيلت لقلة الدراية السياسية للدعاة المسلمين، ولأن الجوانب التى كشفنا عنها أى ارتباطها المحتوم بالسلطة المفسدة لم تكن واضحة لديهم، أو لأنهم أرادوا إعادة نموذج دولة المدينة التى قلنا أنها تجربة لا تتكرر ويغلب أنهم أرادوا بالدولة، الدولة الإسلامية بمعنى الخلافة التى تضم كل المسلمين، قبل أن يحدث التطور الذى أدى إلى ظهور القوميات والدول التى استقلت بوجودها عن الخلافة، وظهرت الأسوار والحواجز بينها وكأنهم أرادوا الأمة فأخطأهم التعبير.

لماذا تكون السلطة – ولابد – مفسدة :

لم نوضح فى الكلمات السابقة لماذا تكون السلطة ولابد مفسدة. وقد آن الأوان لإيضاح ذلك، فالسلطة هى أعظم الإغراءات. فإذا كان إغراء المال والثروات والاستمتاع بالترف بحمل الألوف المؤلفة على العمل لكسب الثروات، فإن كل الثروات تحت رحمة السلطة، ويمكن للسلطة أن تصادر الأثرياء بعد أن يكونوا قد أمضوا حياتهم فى الكد لتحصيلها فيأتى قرار المصادرة بكلمة يكتبها الحاكم.. فتنقل هذه الثروات من بيت صاحبها إلى بيت الحاكم، كما كان الشأن قديماً عندما كان كل وزير عباسى، لابد وأن يصادر فى النهاية..

وإذا كان الجمال والجنس هو الذى يستأثر بأفئدة مجموعات عديدة من الناس، فإن الجمال والجنس – كالمال – تحت رحمة السلطة.. وما أكثر ما حفل به حريم السلطان من جوارى لا يقف العدد عند المئات.. بل يتعداه للألوف فأى "روميو" أو "دون جوان" يمكن أن يصل إلى هذا..

وإذا كان الإغراء الأعظم عند أناس ترفعوا عن الثراء أو شهوات الجنس ولكن استأثرت بهم إرادة الرئاسة والهيمنة والأمر والنهى، فهذا ما تقدمه السلطة أكثر من أى هيئة أخرى.. لأنه جوهر وطبيعة السلطة...

السلطة إذن هى مجمع الإغراءات وإليها تنتهى ومعها تلتقى كل الإغراءات وخمر إغراءات السلطة مما لا يمكن أن يقف أمامه أحد أنه يسكر أعتى الأجسام وأذكى العقول.

من أجل هذا كانت مقصد الجبارين والطغاة والذين يفوق ذكاؤهم ضمائرهم والنرجسيين الذى تتغلب عليهم الأنانية وحب النفس فهؤلاء جميعاً يجدون فى السلطة

---

18 **(18) المصباح المنير – الجزء الأول ص313 المطبعة الأميرية بمصر سنة 1909م.**

19 **(19) مختار الصحاح ص215 – 216 المطبعة الأميرية سنة 1953م.**

ما يروى غلتهم ويشبعها، ولم يكن عبثا أن يسمى مقعد الملك – عندما كان صاحب الأمر والنهى بالعرش.

من ذا يستطيع أن يصمد ؟.

لقد قال يوسف عندما تعرض لإغراء الجمال ﴿وَإِلا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنْ الْجَاهِلِينَ﴾. {33 يوسف}..

من أجل هذا فإن السلطة لا تقبل شريكاً لها في نفس صاحبها لأن "المُلك عقيم" كما قال عبد المُلك بن مروان – أى لا يقبل شريكاً من أخ أو ابن، ومن هنا أجاز بعض الفقهاء لسلاطين الترك أن يقتلوا إخوانهم عندما تكررت ثورات هؤلاء الأخوة ومطالبتهم بالعرش على أساس أن الفتنة أشد من القتل. وعندما تتملك السلطة فرداً ما، فإنها تمحق ما عداها ويصل لدد خصومتها إلى مثل ما قاله الشاعر :

لو يشربون دمى لم يرو شاربهم   ولا دماؤهم جمعاً تروِّينى

وعندما يهدد الحاكم بفقد السلطة، فإنه يؤثر الموت ولكنه عادة لا يموت وحيداً إنه يأخذ معه أعداءه "علىَّ وعلى أعدائى" كما قال شمشون. أو عليه وعلى خصمه كما قال عبد الله بن الزبير.

اقتلونى ومالكا[20]   واقتلوا مالكا معى

وشهوة التسلط والزهو بطاعات الجموع وأنه مالك الحياة والموت على الناس وأنه يرفع من يشاء ويذل من يشاء أقوى من أى شهوة أخرى. أقوى من شهوة الجنس أو المال وما أكثر ما يخطر على الذهن لو أن هتلر أو موسولينى أو لينين أو ستالين أو غيرهم من الطغاة ابتلوا بحب المأكل والمشرب والاستمتاع بالحياة لكان هذا أفضل للبشرية آلاف المرات من تحكم شهوة السلطة. فلم يكن هتلر يذوق اللحم، ولكنه أوقد أكبر محرقة "شوى" فيها الملايين من الرجال والنساء.

ووسائل السلطة – كسلطة – للتعامل محدودة، فقد تكون الإرهاب والبطش والجبروت واستخدام القوة.. لإخراس الخصوم والتخلص من الأعداء وقد تكون الاصطناع والإرشاء والإغراء بالمال أو المناصب، وقد تكون الخداع والدهاء ونصب المكائد وتزييف الحقائق.

أى خير يرجى من رجل يقول لحاكمه..

إملأ وطابى فضة وذهباً   قتلت خير الناس أماً وأباً

فهذا التعس تملكه حب المال وجعله يقتل – أو يشارك فى قتل الحسين – وهو يعلم أنه خير الناس أماً وأباً حتى يظفر بما يملأ رداءه فضة وذهباً، فهل يرجى منه وأمثاله خير ؟.

أى خير يأتى من حاكم يقول إن لله جنوداً من عسل! متباهياً بنجاحه فى تسميم خصم سياسى بالعسل.

وأى خير يمكن أن يأتى من هذه كلها..

إنها أسوأ الشرور فهل يمكن أن يتمخض عنها خير ؟.

ولو تصفحت دفاتر السلطة – أى سلطة – فلن تجد إلا هذه الصفحات: صفحات القتل وصفحات الارتشاء وصفحات الخداع والدهاء..

إن قصارى ما تصل إليه السلطات أن تثير الخوف فى نفوس الناس حتى يصبح كل واحد "عبد المأمور" (لاحظ المفارقة أنه عبد المأمور وليس الآمر!) أو أن يصطنع بعضهم بالرشا والمناصب والمال ليعملوا له.. أو أن يخدع بعضهم ويكيد له المكائد.

---

[20] **(20) هو الأشتر وكان قد دخل فى مبارزة مع عبد الله بن الزبير فى صفين.**

فأين هذا الإرهاب والإغراء والإفساد من الإسلام الذى كره نبيه أن يتمثل له الرجال وقوفا وقال "حسب المرء من الشر أن يشار إليه بالأصابع" وأمر "إذا قابلتم المداحين فاحثوا فى وجوههم التراب"..

ان السلطة تمسخ الإنسان السوى الذى خلقه الله فى أحسن تقويم وجعل له القلب والوجدان وملكة التمييز بين الخير والشر إلى كائن منحط لا يلحظ إلا ولا ذمة، يستحل قتل الابن والزوجة – بل وحتى الأم كما فعل نيرون – فى سبيل السلطة ثم لا يقنع بما قد يكون ضروريا لإخضاع الناس وضمان استسلامهم، بل ينحط إلى صنوف من الخسة والدناءة يعف عنها الوحش المفترس الذى لا يهاجم غيره إلا عندما يعضه الجوع. وما ظل شبعانا فإنه يظل مسالماً وديعاً.. وليس فى هذا أى مبالغة فإن سيرة نيرون وكاليجولا فى روما وسيرة أبى مسلم الخرسانى والسفاح. وما سلكه يزيد تجاه "الأنصار" الأتقياء البررة الذين رفعوا لواء الإسلام فأجبرهم قائده الأثيم على أن يكونوا "خول يزيد" ثم الجرائم التى اقترفها التتار فى اكتساحهم بغداد وخراسان. والجرائم التى اقترفها الأمريكيون فى إبادة الهنود الحمر وتفريغ القارة الإفريقية من رجالها ونسائها لاستعبادهم فى مزارع القطن والدخان وقصب السكر الخ... وأنواع التعذيب التى مارستها محاكم التفتيش فى إسبانيا ضد بقايا المسلمين، أو بالنسبة لمن رأت أنهم هراطقه ثم جرائم الاستعمار الأوربى فى العصر الحديث بدء من الهند وإندونيسيا حتى شمال أفريقيا وجنوبها وما بين ذلك مصر.

لا ريب أن الملائكة كان لهم حق عندما تساءلوا ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾. {30 البقرة}..

لقد قيل إن المبرر الأول لإقامة الخلافة هى حماية الدين وإقامة الشعائر الخ... **ولكن الدولة – حتى لو كانت خلافة – هى أعجز الهيئات عن أن تقوم بهذا، لأن أى عمل تقوم الدولة به يحمل طبيعة السلطة من إرهاب** أو اصطناع. وقد تستطيع أن تقيم المساجد، ولكنها تعجز عن تعمير هذه المساجد بالمصلين، والصلاة، بعد تجوز فى الفلاة. ويمكن أن توظف عشرات الألوف من الوعاظ الذين يعظون الناس بحكم المنصب ولأنهم يتقاضون مرتباتهم لهذا، فيغلب أن تكون كلماتهم من طرف اللسان ولا تصل إلى القلب ويمكن أن تطبع مئات الألوف من كتب التراث فلا يفيد هذا بل قد يضر.. والدور الحقيقى للدولة هو إقامة العدل الذى يأخذ الاسم الإسلامى "الشريعة" ولكن هذا هو آخر ما تفكر فيه الدول الإسلامية، وما نفتقده فيها ونجده فى الدول التى ترفع راية الصليب.. لأن إقامة العدل هى الوظيفة المنشودة من الدولة إسلامية أو غير إسلامية.

باختصار فإن كل تدخل من الدولة فى شئون الدين يسئ إلى الدين ويشوهه ويوظفه لخدمتها. وهذا هو أسوأ صور الاستغلال.

كيف نتعامل مع السلطة :

مع كل سوءات السلطة، وإنها مفسدة بطبيعتها فالحقيقة المرة هى أن السلطة لازمة، وأنه لا يمكن تصور المجتمع البشرى فى أحكم تنظيماته بدون السلطة. لأن الإرادات البشرية لابد وأن تتضارب، وأن المصالح لابد وأن تتعارض وأن هوى النفوس لا يقف عند حد إلا عندما يوجد ما يلزمه الوقوف وما يكبح جماحه..

والأفراد عندما يجتمعون فإن مجرد هذا الاجتماع يجعل من هذا الاجتماع ما هو أكثر من مجموع أفراد وهو يولد قضايا ذات طابع اجتماعى تتطلب الحسم الذى لا يتحقق إلا بقدر من السلطة.

السلطة إذن أمر واقع، ولا يقودنا التنديد بها إلى أن نتصور إمكان التخلص منها نهائيا كما تصور أبو حاتم الأصم، أو كما أراد العدميون **anarchists** الذين جعلوا شعارهم "لا إله.. ولا سيد" ولا حتى الشيوعيين فى أحلامهم الخيالية عن "ذبول الدولة"..

فلا مناص عن الدولة.. ولا مناص عن السلطة ولابد أن نجد معادلة للتعامل معها نحيِّد أو نضائل بها شرورها. وقد نصل إلى مزايا تفوق شرورها.

السلطة نار حامية، جحيم يحترق فيه كل من يحتك بها احتكاكاً مباشراً.

ولا حل إلا أن نحيط هـذا الجحيم ببحر من مـاء. تتلاطم أمواجه وتستطيع أن تطفئ النيران المشتعلة للسلطة أو تحدها فى نطاق ضيق..

هذا البحر هو الحرية ...

ومن الجلى بالطبع أن هـذا البحر لا يمكن أن يكـون داخل السـلطة لأنه لو كـان بداخلها لبخـرت الحـرارة العالية لجحيم السـلطة سيولته، وإنما يحيط بها بحيث تكـون الدولة جزيرة وسطه..

بهذه الحالة لا يكون البحر - داخل الجحيم ولكن الجحيم يكون محاصراً ومحاطاً بالبحر

ولن نجد هـذا البحر إلا فى الأمـة، وفى تنظيماتها الطوعيـه، وفى دعواتها الإصلاحية، وفى رجالها ونسائها المؤمنين ...

وقد يسأل سائل..

".. الحـرية فقط.."

فنقول إن الحرية لا يمكن أن تكون "فقط"..

إن لها توابعها التى توجد فيها بحكم طبيعتها..

فلا يُتصـور وجـود الحرية - دون أن يوجد العـدل لأنه عنـدما تغـرى الحرية فريقـاً بـالظلم والاسـتغلال فـإن الحرية نفسـها سـتدفع فريقـاً للمطالبة بالعدل والإنصاف. إن اللواذ بالظلم هو إساءة اسـتخدام الحرية أو تجاوزها لها. لأن الحرية والعدل وجهان لعملة واحدة..

بهـذه الطريقة وحـدها يمكن أن نحـول نـار السـلطة الحامية الحارقـة.. إلى نـار هادئة لا تحرق الطبخة ولكن تمكنها من النضج المطلوب..

كيف تجسد الأمة الحرية..

وكيف تتحقق عملياً هذه الحرية ...

إنها يمكن أن تتحقق بفضل الأمة وما تمثله من هيئـات تطوعيه حـرة تعمل فى مختلف المجـالات. فـالأحزاب تسـتهدف الحرية السياسـية ومشـاركة الشـعب وصد الطغيان والنقابات تحمى العمـال وتصد جائحة الاسـتغلال الاقتصـادى وهيئـات الإصـلاح الاجتماعى تحارب وجوه النقص فى المجتمع كالجهل والمرض والهيئات النسـائية ترفع صوت المرأة وتعمل لمساواتها بالرجال ونيلها حقوقها.. بل إن الأفراد كأفراد يمكن أن يقومـوا كل على حـده - يـدور فى هـذا وهو ما أطلق عليه القـرآن الأمر بـالمعروف والنهى عن المنكر وهو ما أوجبه الحديث على كل واحد بيده، فإن لم يستطع فبلسـانه فـإن لم يسـتطع فبقلبه وهو الحـديث الـذى يحـاول البعض أن يحيف عليه فى حين أنه يمثل أحد وسائل تطبيق التكافل الاجتماعى. وقد أسـاء البعض تطبيقـه، ولكن المبـادئ كلها معرضه لإساءة التطبيق.

لعل هذا يجعل القارئ أخيراً يعرف لماذا قلنا إن الإسـلام دين وأمة وليس دينـاً ودولـة. إننا نعيد الأمـور إلى نصـابها. ونبـدأ مع الجمـاهير والقاعـدة ونجعل غرسـنا من الأسـفل للأعلى كما هى طبيعة كل نمو ونتخلص من مضـاعفات وتعقيـدات الدولة ونغسل أيـدينا من أقـذار السـلطة عليها اللعنـة! ونقصر أسـلوبنا على ما أراده الله للمؤمـنين: الحكمة والموعظة الحسنة".

الفصل الخامس

السلطة تفسد الخلافة الراشدة وتحولها إلى مُلك عضوض

تحولت الخلافة الراشدة إلى مُلك عضوض على يدىّ معاوية بن أبى سفيان..

وكان هذا أبـرز دليل على جريمة السـلطة، وأنها لابد وأن تفسد أى نظـام يعتمد عليها.

فالجديد فى حكم معاوية الـذى اختلف عن حكم أبى بكر وعمر أن معاوية اعتمد على هذه الوسيلة الجديدة التى لم تكن موجـودة فى الخلافة الراشـدة – أى السـلطة فى رمزيها السيف.. والمال..

وكـانوا قد اعتـبروا أن من التحـول السـيئ الـذى حـدث فى الخلافة أن عثمـان "جاوز الخيزران إلى السـوط ـ وأنه أول من ضـرب بالسـياط ظهـور النـاس وإنما كـان ضرب الخليفتين قبله بالدرة والخيزران" كما أنه تصرف فى أموال بيت المال فى غـير ما خصصت له، فجاء معاوية فتمادى فى استخدام السلطة فقتل صبراً حُجر بن عـدى (له صحبه) وزملاءه وتوسع فى الاصطناع كأن يعطى عمرو بن العـاص "مصر طعمـة" وأن يعطى سعيد بن عثمان بن عفان خراسان "طعمة" ولجأ إلى الخـداع الـذميم مثل أن يغرى بعض الأعـوان باسـتخدام السم ويقـول "إن لله جنـوداً من عسـل" ومع هـذا فسنرى أن عهد معاوية رغم تجاوزاته لا يعد شيئاً مذكوراً أمام تجـاوزات يزيد ابنـه، ثم مَنْ خلفـه. ثم يطـرَّد الأمر فى الخلافة العباسـية وما بعـدها حـتى إنهـاء الخلافة سـنة 1924 لا يشذ الأمر فيها إلا ما كان من خلافة عمر بن عبد العزيز الـذى أطلق عليه أبو جعفر المنصور "أعور بين عميان" والذى اسُتخدم معه السم للقضاء عليه.

وقد حلل بن خلدون ببصيرته الثاقبة هذا التحـول، وإن كـان قد أبـرزه بصـورة لا يصدم فيها أفكار الناس. فبعد أن ذكر ذم الإسلام للملـك، والعصـبية، قـال إن الإسـلام إنما ذم السيئ فى هـذين. على أنه بعد أن قـدم هـذا التقريـر، قـدم ما يشـبه المهادنة عندما تحدث عن الثروات التى انهالت على العرب نتيجة الفتوح وأن تصـرفهم لم يكن قادحا فيهم وإن كان الاستكثار من الدنيا مذموماً" ثم يستطرد..

".. ثم اقتضت طبيعة المُلك الانفراد بالمجد وإستئثار الواحد به ولم يكن لمعاوية أن يـدفع ذلك عن نفسه وقومه فهو أمر طـبيعى سـاقته العصبية بطبيعتها ".

ولكن هذه العصبية وإن تحولت إلى مُلك فإنها – فيما رأى ابن خلدون "احتفظت بمعانى الخلافة من تحرى الدين ومذاهبه والجرى على منهـاج الحـق، ولم يظهر التغير إلا فى الوازع الذى كان دينا، ثم انقلب عصـبية وسـيفا. وهكـذا كـان الأمر لعهد معاوية ومـروان وابنه عبد الملـك، والصـدر الأول من خلفـاء بـنى العبـاس إلى الرشـيد وبعض ولـده **ثم ذهبت معـانى الخلافة ولم يبق إلا اسـمها وصـار الأمر ملكا بحتا وجـرت طبيعة التغلب إلى غايتهـا، واسـتعملت فى أغراضـها من القهر والتقلب فى الشهوات والملاذ. وهكـذا كـان الأمر لولد عبد الملـك، ولمن جاء بعد الرشيد من بنى العباس،** واسم الخلافة باقيا فيهم لبقاء عصـبية العـرب، والخلافة والمُلك فى الطـورين مُلتبسـين بعضـهما ببعض. **ثم ذهب رسم الخلافة وأثرها بذهاب عصبية العرب وفنـاء جيلهم وتلاشى أحـوالهم، وبقى الأمر ملكا بحتا كما كـان الشـأن في ملـوك العجم بالمشـرق يـدينون، بطاعة الخليفة تبركا، والملك بجميع ألقابه ومناحيه لهم ".**

وما نختلف فيه عن ابن خلـــدون هو أنه أبقى لبـــنى أمية وصــــدر من الخلافة العباسية بعضاً من "معانى الخلافة" إذ نحن نرى أن هذه المعانى قد قضى عليها تماماً مع هيمنة معاوية.

وقد عرف معاوية الرسـول واختـاره الرسـول تقريبا لأبيه – أبو سـفيان – كاتبا له، ولكن هذا كان نوعاً من تأليف القلوب.. وكانت هذه الصفة ذات طـابع رمـزى على أننا نرى فى معاوية فى فترات حلمه وعفوه أثراً من تلك العلاقة بالرسول – حتى وإن كانت وهنانة – ثم نرى السلطة وهى تدفعه لأعمال وسياسات تناقض مناقضة صـريحة أصـول الحكم الإسـلامى. ثم لا يكـون لها داع إلا تلـويث سـمعة خصـومه كتلك الفعلة القميئة الـتى أقــدم عليها وهى لعن علىَّ بن أبى طـالب على المنــابر. فهــذا إجــراء سلطوى خالص ينضح بأثر السلطة وينم عن شنآن الخصومة وقد كان من بين الأمويين من يلعن عليا فى اليـوم 140 مـرة "فقط كما علق على ذلك مؤلف "قـراءة فى كتب العقائد" الأسـتاذ حسن بن فرحـان المـالكى" وقـرأت وأنا أتصـفح كتب الحـديث رواية "عن أبى زينب". فعجبت فإن الإرهاب الأموى جعل هذا المحدث يلتجئ إلى هذا التعبير لأنه لا يسـتطيع أن يقـول عن على بن أبى طـالب ولا يمكن أن يقـول عن أبى الحسن لأنه معروف أو الحسـين.. فاضـطر لأن يقـول عن أبى زينب. وليس هنـاك ما هو أكـثر دلالة على جريرة السلطة من أن يصل إرهابها إلى هذا المدى ...

على أن السوءة الكبرى لمعاوية، والـتى تكشف لنا كيف أن حب السـلطة يمكن أن يغلب الحلم، والحكمــــة، والأسس المتبعة والمتفق عليهـــا. **هى أنه قضى على مبدأ اختيار الخليفة وأخذ بمبدأ الوراثة وكان من سوء حظـه، وحـتى تبلغ المفارقة أوجهـا، أن ابنه يزيد الـذى رشـحه لوراثته كـان أبعد النـاس عن التمسك بالـدين أو الالـتزام بآدابه** كما لم تـذكر له سـابقة تكشف عن موهبة أو مقدرة، وحتى لو استبعدنا ما أحاطته الشائعات عن "يزيد القرود، ويزيد القيــان، ويزيد الخمـور" فـإن المبـدأ فى حد ذاته فى منتهى الخطـورة، إذ **بهـذا الإجـراء أصـبحت الخلافة – كما قـــال الجاحظ فى رســالته عن بـــنى أمية "مُلكا كســـرويا وغصبا قيصريا"..**

وهو ما أعلنه سـعد بن أبى وقــاص وصــارح معاوية به عنـدما دخل عليه فقــال "السلام عليك أيها الملك" فضحك معاوية وقال ما كان عليك يا أبا إسـحاق رحمك الله لو قلت "يا أمير المؤمنين فقال سـعد أتقولها جـذلان ضـاحكا. والله ما أحب أنى وليتها بما وليتها به".

والاعتـذار الـذى قدمه بن خلـدون من أن بـنى أمية ما كـانوا يقبلـون أحـداً من غيرهم ليلى الخلافة. وأن هذا كان يمكن أن يفتح باب فتنة اعتذار كسيح بادى الركاكة، فضـلاً عن أن بيعة يزيد هى الـتى فتحت الفتن بالفعـل. وكـانت سـببا فيما اقـترف من المنكرات التى كان أولها الهجوم على المدينة وقتل الأنصار واستباحة أموالهم وانتهاك نسائهم. قيل قتل فى موقعة الحرة ألف وسبعمائة من وجـوه النـاس من قـريش ومن الأنصار وعشرة آلاف من عامتهم سوى النساء والصـبيان، وقتل من أصـحاب الرسـول ثمــانون ولم يبق بــدرى بعد ذلــك. ثم أخذ قائد هــذا الجيش البيعة على من بقى على أموالهم وأنفسهم على أنهم خَول يزيد يقضى فيهم ما يشاء فأى مهانة يمكن أن تماثل هذه، وكان أهل المدينة أعز الناس حتى كانت موقعة الحرة فهانوا.

ثم كـانت الكارثة المدلهمة كارثة كـربلاء وقتل الحسـين وكل من كـان معه من رجال، وكانوا قرابة سبعين، ولم يتركوا رجلاً واحداً بينما حزت رأس الحسين وأرسلت إلى يزيد وقيل إن عمر بن سعد أمر أن تطأ الخيل أجساد القتلى، وإن استبعد بن كثير ذلك. وعمر هذا هو ابن سعد بن أبى وقاص الذى اعتزل الفتنة أيـام عثمـان فما أعظم الفرق بين الأب الذى يعتزل الفتن والابن الذى يتولى أشنع فتنة ويقوم بأسوأ فعله. لم تبق كـربلاء من نسل الحسـين إلا على الصـغير والمـريض الـذى لم يكن قد بلغ الحلم، واحتضـنته أخته زينب ودافعت عنه بينما كـان عبيد الله بن زيـاد يقـول "دعـونى أقتلـه، فإنه بقية هذا النسل، فأحسم به هذا القرن، وأميت به هذا الداء وأقطع به هذه المـادة ".

إن كـربلاء قد أوجـدت شـقاً فى وحـدة الأمة الإسـلامية لم يسد حـتى الآن. وقد كانت هى التى أوقدت نار الشيعة وأعطتها إرثها التاريخى، ولم تصـلح أمية بعـدها. فقد تتبع المختـار قتلة الحسـين واحـداً واحـداً فقتلهم، وأرسل إبـراهيم بن الأشـتر إلى ابن زياد فهزمه وقتله ومع أن انتصارات وجبروت عبد المُلك بن مـروان مكن لخلافة أميـة، فإن ثأر الحسين كان وراء هزيمتها والقضاء عليها.

وجاء دور عبد الله بن الزبير، وكأنما عز على يزيد أن لا ينتهك حرمة مكة بعد أن انتهك حرمة المدينة. وتحصن بها عبد الله فنصب الجيش الأمـوى المنجـنيق الـذى أخذ يرمى الكعبة حتى احترقت ولولا أن جـاء النـذير بمـوت يزيد وعـودة الجيش لكـان من المحتمل أن تحدث فى مكة "حرة" أخرى تشبه حرة المدينة.

فهـذه الأفعـال تنفى عن أصـحابها أية إثـارة من دين أو إسـلام وتثبت أن خمر السلطة قد أذهبت العقول والأحلام وأن الخلافة أصبحت مُلكاً كأسوأ ما يكون المُلك.

ولقد وضح لنا زيـاد بن أبيه – رجل معاوية ويزيد – قسـمات وطرائق هـذا الحكم الجـبرى فى خطبته البـتراء الـتى لم تبـدأ ببسـملة أو بحمدالله – وأنى لها ذلك – وجـاء فيها..

- "حرام علىّ الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً وإحراقاً"..
- ".. وإنى أقسم بالله لآخـــذن الـــولى بـــالمولى والمقيم بالظـــاعن والمقبل بالمدبر والمطيع بالعاصى والصحيح منكم بالسقيم حتى يلقى منكم الرجل أخاه فيقول "أنج سعد فقد هلك سعيد"..
- "... إياى ودلج الليل، فإنى لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه"..
- وقد أحــدثتم أحــداثاً لم تكن، وقد أحــدثنا لكل ذنب عقوبة فمن غــرَّق قوما غرقناه. ومن أحرق قوما حرقنـاه. ومن ثقب بيتا ثقبنا عن قلبه ومن نبش قـبراً دفناه فيه. فكفوا عنى أيديكم وألسنتكم أكفف عنكم يدى ولسانى ولا تظهر من أحد منكم ريبه بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه..
- أيها الناس

إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم زاده نسوسـكم بسـلطان الله الـذى أعطانا ونـذود عنكم بفىء الله الذى خولنا فلنا عليكم السمع والطاعة الخ ...

- وأيم الله إن لى فيكم لصرعى كثيرة فليحـذر كل امـرئ منكم أن يكـون من صرعاى".

هذه خطبة يمكن أن تكون "مانيفستو إرهاب" لأى حكم ديكتاتورى ليس فحسب لأنها عددت عقوبات رادعة، ولكن لروحها العامة التى تستهدف إشاعة الإرهاب وإيقـاع الخوف فى القلوب وإيثار السلبية والتسليم "أنج سعد فقد هلك سعيد" وإلـزام النـاس بيـوتهم بالليل الـذى عـادة ما يكـون وقت النشـاط العـام.. ثم تحـذير كل واحد من أن يكون من ضحايا هذا الحكم.

أما مخالفة ما جاء بها من عقوبات لنص القـرآن الكـريم وروح التشـريع فمما لا نرى أنفسنا فى حاجة لإيضاحه.

ومع أن معاوية بذل جهداً واستخدم الإرهـاب والاصـطناع والرشـوة والسم لكى يمكن لابنه فإن مبدأ الوراثة فشل بعد موت يزيد وأثبت المجتمع الإسلامى أنه لا يمكن أن يقبله لأن العهد كان لا يـزال قريبـاً بالخلافة الراشـدة، مما جعل معاوية الثـانى ابن يزيد يعتزل ويدع الأمر لبنى أمية.

كان لابد من جبروت عبد الملك بن مروان حتى يمكن غرس تلك النبتة الخبيثة – فى تربة الحكم الإسلامى.

وجاء عبد الملك جبار بنى أمية والرجل الذى قـال "من قـال لى اتق الله قطعت عنقه"..

جاء ومعه الحجاج كما جاء يزيد ومعه زياد ...

وكما عبر زياد عن حكم ديكتاتورية أمية فى خطبته، فإن الحجاج قدم خطبة لا تقل عن خطبة زياد، وتؤدى المعنى نفسه بأسلوب مختلف. ويكفى فحسب أن يسمع الناس مستهلها "إنى لأرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها وأنى لصاحبها" ولم يتردد فى أن يطبق هذا للتو واللحظة لأنه كان قد فرق جنده بين المصلين يحملون سيوفهم تحت أرديتهم وجعل لهم إشارة أن يضع عمامته (أى يخلعها) وعندما بدأ المصلون يحتجون على هذا المطلع ويحصبونه وضع عمامته. فأعمل الجنود سيوفهم فى الناس وقطفوا تلك الرؤوس اليانعة ...

ظهر عبد الملك بن مروان – جبار بنى أمية والمؤسس الثانى للخلافة الأموية بعد معاوية والذى مات سنة 65 هجرية (685 ميلادية) وهشام ابنه الذى مات سنة 105 (743 ميلادية) الذى يعد المجدد الثالث للدولة.. وحاول عمر بن عبد العزيز آخر محاولات العودة إلى الخلافة الراشدة ولكن هيهات، فأين تذهب تلك الدماء والحروب والصراعات لم يستطع عمر بن عبد العزيز أن يعيد الخلافة الراشدة، وكان لابد من إزاحته، وقد أزيح بالسم بعد عامين من خلافته. كما كانت تلك أيضاً نهاية يزيد الثالث بن الوليد الذى نادى بالإصلاح، فلم يطل به الحال. لأن جرائم وأوزار حكم بنى أمية كان لابد أن تأتى عليها وكان لابد أن يأتى يوم يؤخذ فيه بثأر الحسين، وبثأر زيد بن على الذى قتله هشام وصلبه..

وانتهى مُلك بنى أمية عندما قتل مروان الثانى فى مصر.. وظهرت الخلافة العباسية..

هل كانت الخلافة العباسية أفضل من الخلافة الأموية ؟ على العكس لقد بدأت بخليفة حمل اسم السفاح! أعلن فى أولى خطبه له "أنا السفاح المبيح والثائر المنيح" فأى شئ يرجى من مثل هذا ...

إن مأساة بنى العباس أو قل مأساة السلطة، أن انتقامهم لم يقف عند بنى أمية الذين أعلنوا عليهم الحرب، ولكنها شملت بعد الانتهاء من الأمويين الهاشميين – سلالة الإمام على بن أبى طالب، وكان المفروض أن تؤول إليهم الخلافة ولكنها انحرفت من الفرع العلوى إلى الفرع العباسى وفعل العباسيون الأفاعيل ببنى هاشم حتى تمنى بعضهم أن يعود "جور بنى مروان"

وإذا احتجنا إلى دليل على أن هذه الخلافة قامت على أساس استخلاص المُلك العضوض بأى طريقة بل وبكل طريقة فتكفى توصيه إبراهيم الإمام "لأبى مسلم الخراسانى".. إنك رجل منا أهل البيت احفظ وصيتى انظر هذا الحى من اليمن فأكرمهم واسكن بين أظهرهم فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم واتهم ربيعه فى أمرهم وأما مضر فإنهم العدو القريب الدار فاقتل من شككت فيه وأن استطعت أن لا تدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل وأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله ".

وعلق المقريزى فى رسالته النزاع والتخاصم ما بين أميه وهاشم "فأين أعزك الله هذه الوصية من وصايا الخلفاء الراشدين لعمالهم وتالله لو توجه أبو مسلم إلى أرض الحرب ليغزو أهل الشرك بالله لما جاز أن يوصى بهذا فكيف وإنما توجه إلى دار الإسلام وقتال أبناء المهاجرين والأنصار وغيرهم من العرب لينزع من أيديهم ما فتحه آباؤهم من أرض الشرك ليتخذ مال الله دولا وعبيده خولا فعمل أبو مسلم بوصية إبراهيم الإمام حتى غلب على ممالك خراسان وتخطت عساكره إلى العراق فيقال إنه قتل ستمائة ألف إنسان وسار فى الناس بالعسف والجبرية ".

وكان المؤسس الحقيقى لدولة بنى العباس هو أبو جعفر المنصور وهو لا يقل جبروتا ودموية عن عبد الملك بن مروان وقد جرت فى عهده دماء الطالبين أنهاراً.

وعاشت دولة بنى العباس قرابة خمسة قرون قبل أن يأتى "هولاكو" ليقضى عليها ويخرب بغداد.. وإن كانت قد استطالت فى مصر، ثم انتقلت إلى آل عثمان... وسيطر عليها بدءاً من خلافة المعتصم الأتراك وغيرهم من أجناس الدولة الإسلامية

من ديلم أو فرس أو غيرهم من ذوى الرطانات غير العربيـة، فاسـتحال عليهم التفاعل مع القرآن الكريم وصعب عليهم فهم السُـنة حـتى انتهت الخلافة إلى الـزوال النهـائى عام 1924 على يد مصطفى كمال أتاتورك.

ونحن بالطبع لا نؤرخ للحكم الذى ادعى الإسـلام وتقمص بقميصه وهو بـرئ منه غريب عنه مضاد له.. وإنما نريد هنا – بمنطق الوقـائع والأحـداث أن نثبت أن السـلطة الـتى كـانت هى السـبب الأول فى ثـورة معاوية على علىَّ أفسـدت هـذا النظـام من الحكم الـذى حمل اسم الخلافـة. وقد بـدء ذلك من عهد معاوية بن أبى سـفيان سـنة أربعين من الهجـرة حـتى القضـاء عليها فى تركيا عـام 1924 وقد ركزنا الحـديث على الخلافة الأموية لأنها هى الـتى تحملت وزر تحويل الخلافة الراشـدة إلى مُلك عضـوض متحدية بـــذلك تقاليد الشـــيخين ومحاولة على بن أبى طـــالب العـــودة إلى الخلافة الراشدة، وكان رمزاً للحكم الإسلامى النقى النبيل وكان الصحابة متـوافرين.. وذكـرى النبوة لم تبعد... ثم سارت الأمور بعدها من سيئ إلى أسوأ ...

وطوال هذه المـدة – أى قرابة ألف وثلاثمائـة سـنة لم تكن الخلافة خلافة حقاً ولكن صور متفاوتة من الحكم العضوض بكل سوآته..

الفصل السادس
السلطة تفسد التشيع العلوى وتحوله إلى تشيع صفوى

هناك حساسية خاصة فى الحديث عن الشيعة..

من ناحية، فإن الفكر الشيعى هو أشد الأفكار الإسلامية تمسكاً بالدولة، ويجعل هذه الدولة "ثيولوجية" يحكمها أئمة معصومون كما أننا لا نعدم فى ثنايا هذا الفكر آراء بعيدة كل البعد عن العقلانية مثل العصمة، والشفاعة والتقية والإمام الغائب الخ ...

ومن ناحية ثانية فإن الشيعة هى الفرقة الإسلامية التى تمكنت من إقامة دولة فى منطقة فسيحة من العالم، غنية بالثروات الطبيعية وفيها من المؤهلات ما يجعلها تدخل فى إطار الدول المتقدمة ...

وفى التعامل مع الشيعة، كما فى التعامل مع السُنة، نحن نتخذ منطلقنا من القرآن الكريم نفسه ووحده دون تفسيرات كانت ثمرة ثقافات وميول أصحابها وتحكم فيها روح العصر كما نرفض مع هذه التفسيرات ما جاءت به من أسباب نزول أو نسخ أو غير ذلك مما انتهت إليه هذه الاجتهادات..

كما أننا نضبط السُنة بمعايير من القرآن الكريم، فما اتفق معها أخذنا به وما اختلف معها توقفنا فيه.

وهذا المنهج قد يقربنا من الشيعة فى بعض القضايا، كما قد يجعلنا نختلف معها – كما اختلفنا من قبل مع المنهج السلفى التقليدى السنى..

ولكننا نؤمن أن الشيعة تمثل إضافة هامة وأصيلة فى الفكر الإسلامى تثرى المجتمع وتقوم بدور مطلوب فيه، ونحن أبعد الناس عن تعميق الخلاف ما بين الشيعة والسُنة واعتبار الشيعة فرقة مارقة أو خارجة، لأن الاختلافات كلها تدور حول الخلافة أو الإمامة وليست هى من أمور العقيدة التى تؤثر على الإيمان الإسلامى. فالشيعة أخوة لنا فى الإسلام، ولهم معزتهم الخاصة.. وإن كنا نؤمن – فى الوقت نفسه – أن الشيعة تعرضت لمؤثرات خارجية عنها أثرت عليها. ثم عندما أصبحت مذهبا لدولة، فإنها – بتأثير السلطة – انحرفت تماماً عن مسارها.

ونحن نفرق بين ثلاثة أنماط تحمل اسم الشيعة:

النمط الأول: التشيع العلوى/ الحسينى. وهو الذى نراه التشيع الحقيقى الذى يمثل إضافة أصلية وله دور مطلوب.

النمط الثانى: ما أضيف إلى هذا التشيع عندما ارتؤى اعطاؤه مضمونا سياسياً يجعله أساساً للحكم..

وهذا النمط – فيما نرى – مستحدث بحكم الملابسات والاجتهاد، وفرض فرضاً على التشيع الأول وشوهه حتى كاد أن يصل به إلى حد الخرافة ...

النمط الثالث: التشيع عندما أصبح حكماً ودولة باستيلاء الصفويين على الحكم وعندئذ فإن السلطة أفسدته إفسادا جعله لا يمت فى الحقيقة إلى التشيع العلوى / الحسينى رغم أن كل شاراته وشعاراته ودعاياته تدور حول الإمام على والإمام الحسين.

أولاً: التشيع العلوى/ الحسينى:

لعل مفتاح هذا التشيع هو الخصوصية التى تكتسبها شخصية الإمام على بن أبى طالب. وقلنا "الخصوصية" حتى لا نقع فى "الأفضلية" فنصدر أحكاما بأن هذا أفضل من ذاك على غير أساس إلا الاجتهاد الذاتى الذى قد يخطئ ويصيب علماً بأننا لا نرى حرجاً فى أن يكون على بن أبى طالب أفضل من أبى بكر وعمر فهذه مسألة تقدير ذاتى. وقد يكون حكم التاريخ أكثر سلامة من تقديرات تقوم على أقوال. **فالأفضلية قضية جدلية، أما الخصوصية فهى صفة ثابتة مقررة للإمام على** فالإمام

من صميم البيت النبوى وصفوة الهاشميين وقد أراد الله له أن ينشأ فى بيت الرسول، وأن يقضى طفولته بين خديجة ومحمد وأنعم بهما وأن يكـــــون أول من يســــلم من الصبيان.

وكـان الرسـول يـؤثره بمحبة خاصـة، وزوّجه ابنته الأثـيرة فاطمة فـأنجبت منه الحسن والحسين اللذين كانا قرة عين الرسول.

وعرف على بشجاعته الباهرة الـتى أبـداها فى بـدر وخيـبر وغيرها من الغـزوات التى جعلته فارس الإسلام.

كما عرف بزهده وتعاليه عن الحرص على الثراء أو الاستمتاع بالحياة الدنيا. وقد أراد الله له أن يعيش متقشفاً فقيراً.

وأورثه ذلك نوعـاً من النفـور من الـثراء، وظل يعيش طـوال حياته معيشة آحـاد النـاس وعـامتهم. وعنـدما ولى الخلافة لم يكن ليـدخل بيت المـال شـيئاً من الأمـوال والثروات حتى يقسـمه فـوراً، ثم يـأمر بكنس بيت المـال ويصـلى فيه ركعـتين "وكـأن الأموال قد قذرت أرضه فكنسها لتصح صلاته عليها"..

وهو تصرف يماثل تصرف الرسول الذى انزعج عنـدما وجد تحت وسـادته دراهم معدودة وخشى أن يسائله الله عنها..

وهذا إعـداد إلهى لتخليص القـادة الـذين يصـطفيهم الله من أدران الـثروة الـتى تعزل صاحبها عن عامة النـاس وتجعله ممـيزاً له أرسـتقراطيةٍ تعـود إلى هـذه الـثروة التى هى عـرض ومتـاع من متـاع الحيـاة الـدنيا وليجعله قريبـاً من عامة النـاس بحيث يتفاعل معهم ويتفاعلون معه، وهى صفة لم تتوفر بهذه الدرجة لأبى بكر أو عمر.

وعبر الرسول عن إعزازه لعلى وعن خصوصيته له فى مناسبتين: الأولى عنــدما اسـتخلفه على المدينة لما خـرج لغـزوة تبـوك، وأراد على أن يصـحب الرسـول، ولكن الرسول قال له "أما ترضى بأن تكون منى كهارون من موسى..غير أن لا نبى بعد".

وجاءت المناسبة الأخرى فى حادثة غدير خم – فى السنة الحادية عشر للهجـرة "من كنت مولاه – فعلى مـولاه. اللهم وأول من والاه وعـادى من عـاداه.." ونحن نأخذ بهذا الحديث، ولا نرى داعياً للتشـكيك فيه لأنه روى عن كثـير من الصـحابة لأن معظم ما أوردوه بسند حسن، ولأنه ليس فيه من المعانى ما يثير اعتراضا..

ووَلاية على (بفتح الـواو) هى الإرث الأول والإضـافة الـتى يفـترض أن تقـدمها الشيعة..

الوَلاية (بفتح الواو) هى الإرشاد الروحى، هى إشـاعة الإيمـان الـذى تطمئن إليه النفوس وتقر به القلوب ويشيع السلام بين النـاس.. والـولى يقـوم بهـذه المهمة الـتى يقوم بها الأنبياء عادة. وما يميز الأنبياء هو أنهم يقومـون بها بـوحى من الله تعـالى، أما الأولياء فيقومون بها بأسوة من الأنبياء..

أراد الرســـول أن يكــــون عليا خليفته فى الوَلاية بــــالفتح.. وليس فى الوِلاية (بالكسر)..

وهذا هو ما فهمه بعض أحفاده. فقد قيل للحسن بن الحسن بن على الذى كـان كبير الطالبيين فى عهده، وكان وصى أبيه. وولى صدقة جده ألم يقل رسـول الله "من كنت مولاه فعلى مولاه فقـال بلى ولكن لم يَعْنِ رسـول الله بـذلك الإمامة والسـلطان ولو أراد لأفصح لهم به"[(21)]

يضاف إلى الخصوصية الـتى منحها الرسـول للإمـام على وتمثلت فى الولايـة، طريقة حكم علىَّ عندما آلت إليه الخلافة، وكيف حاول أن يعيدها خلافة راشدة، وكيف قاوم كل دعاة السلطة، وكيف تعذب وعانى طيلة خلافته ثم استشهد فى النهاية.

وتـأتى الإضـافة الثانية الـتى قـدمها الإمـام الحسـين، وهى الشـهادة الـتى تمثل التضـحية بـالنفس فى سـبيل الكرامـة، وهـذه قيمة عظمى لو اسـتظهرها المسـلمون

---

[21] **(21) ابن عساكر، التهذيب ج4 ص162.**

واستوعبوها لاختلف التاريخ الإسلامى لأنها حدثت بطريقة "مأساوية دراماتيكية" عميقة التأثير.

وتختلف شهادة الحسين عن شهادة الذين يقتلون فى حرب مشروعة وفى سبيل الله فى أنها شهادة مقصودة، فلم يكن هناك أى احتمال لنجاة 72 رجلاً أمام بضعة آلاف وكان هناك منأى عنها فى الإستجابة لمطلب زياد. ولكن الحسين رفض بإباء وأصر على أن يقتل أمام عينيه كل أفراد أسرته ثم يقتل هو نفسه فى النهاية فى مشهد يثير الحزن والأسى حتى بالنسبة لأقسى الناس ...

فى نظرنا إذن، أن ما يحق للشيعة أن تفخر به، وأن تقدمه فى التاريخ الإسلامى، وأن تعتبره الأساس الفكرى لها هو ولاية على.. وشهادة الحسين.

ولكن للأسف الشديد أن هاتين القيمتين فقدا طبيعتهما عندما أدمجا فى مضمون سياسى يستهدف الحكم.

فحدث التشويه الأول للفكر الشيعى الذى أقحمته دعوى الحكم وأبعدت الولاية (بكسر الواو) المدعاة الولاية (بفتح الواو) المقررة لعلى بن أبى طالب بحديث الرسول .

نحن نأخذ بالحذر والشك كل ما نسجه الدعاة الشيعيون من أحاديث عن الوصاية لعلى بالخلافة. ونحن نستبعده لعدم ثبوته أولا. إذ لو كان له أصل لأعلنه الرسول. وقد ولى الرسول زيد بن حارثة على أحد الجيوش وولى أبنه الشاب أسامة على جيش فى جلة الصحابة – بما فيهم عمر بن الخطاب. فلو كان الرسول يريد توصيه لأعلنها ولنفذها.

ونحن نستبعدها لأنها تخالف طبيعة الإسلام كدين هداية ولأن مباده المقدسة عن المساواة تفرض ألا يكون لأحد فخر أو صفة خاصة بحكم النسب أو الدم أو الجاه الخ... ولأن الوصية تجعل من الإسلام حكماً ثيولوجيا وراثيا محصوراً فى فرع واحد من الأسرة النبوية، والقرآن الكريم يقول إن أكرمكم عند الله أتقاكم.

ونحن نستبعدها لأن أقوال الرسول تخالفها فالرسول يقول "يا فاطمة.. يا صفية.. اعملى فإنى لا أغنى عنكم من الله شيئاً، ويقول "لا يأتونى الناس بالأعمال.. وتأتونى بالأنساب" فالعمل والتقوى هو معيار الصلاحية والأفضلية وليس الحسب والنسب.

ونحن نستبعدها لأنها تخالف أعمال الرسول.

وقد عالج هذه النقطة أحد المؤرخين القدامى الذين أزعجه طموح بنى أمية، ثم توليهم بالفعل الخلافة.. دون على بن أبى طالب هو المقريزى فى رسالته النزاع والتخاصم فيما بين أمية وهاشم فقال "فإنى كثيراً ما كنت أتعجب من تطاول بنى أمية إلى الخلافة مع بعدهم من جذم رسول الله وقرب بنى هاشم – وأقول كيف حدثتهم أنفسهم بذلك وأين بنو أمية وبنو مروان بن الحكم طريد رسول الله ولعينه من هذا الحديث مع تحكم العداوة بين بنى أمية وبنى هاشم فى أيام جاهليتها ثم شدة عداوة بنى أمية لرسول الله ومبالغتهم فى أذاه وتماديهم على تكذيبه.

ويستطرد ...

وما زلت طول الأعوام الكثيرة أعمل فكرى فى هذا وأشباهه التى يطول ذكرها وأذاكر به من أدركت من مشيخة العلم ومن لقيت من حملة الآثار ونقلة الأخبار فلا أجد فى طول عمرى سوى رجلين إما رجل عراه ماعرانى وساءه ما قد دهانى فهو يحذو فى المقال حذوى ويشكو من الألم شكوى وإما رجل يرتع فى ميدان تقليده ويجول فى عرصات تهوره وتفنيده فلا يزيدنى على التهويل والهذر الطويل إلى أن اتضح لى والحمد الله وحده سبب أخذ بنى أمية الخلافة ومنعها بنى هاشم، وذلك أنه لا خلاف بين أئمة الحديث ونقاد الأخبار وعلماء السير والآثار أن رسول الله توفى وعامله على مكة أبو عبد الرحمن عتاب بن أسيد ابن أبى العيص بن أمية بن عبد شمس القرشى الأموى أحد من أسلم يوم فتح مكة وأنه لم يزل على مكة منذ فتحها الله على رسول الله عام ثمان من الهجرة إلى أن توفاه الله عز وجل فاقر أبو بكر

الصـديق رضى الله عنه عتابا حـتى ماتا فى يـوم واحد وكـان النـبى قسم اليمن بين خمسة رجال خالد بن سـعيد على صـنعاء والمهـاجر ابن أبى أمية على كنـدة وزيـاد بن لبيد على حضـرموت ومعـاذ بن جبل على الجند وأبا موسى الأشـعرى على زبيد ورمع وعدن فكان عامل رسول الله على صنعاء اليمن كما تقـدم خالد بن سـعيد بن العاصى بن أمية بن عبد شمس بعثه إليها سنة عشر من الهجـرة فتـوفى رسـول الله وخالد على اليمن وكـان أبـان بن سـعيد بن العاصى بن أمية على البحـرين برها وبحرها منذ عـزل العلاء بن الحضـرمى حليف بـنى أمية وقيل بل مـات رسـول الله والعلاء على البحرين وكان عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية على تيماء وخيبر تبوك وفدك.

فإذا كـان رسـول الله قد أسس هـذا الأسـاس وأظهر بـنى أمية لجميع النـاس بتـوليتهم أعماله فيما فتح الله عليه من البلاد كيف لا يقـوى ظنهم ولا ينبسط رجـاؤهم ولا يحتد فى الولاية أملهم أم كيف لا يضـعف أمل بـنى هاشم وينقبض رجـاؤهم ويقصر أملهم.

فانظر كيف لم يكن فى عمال رسـول الله ولا فى عمـال أبى بكر وعمر رضى الله عنهما أحد من بنى هاشم فهذا وشبهه هو الذى حدد أنياب بـنى أمية وفتح أبـوابهم وأترع كأسهم وفتل أمراسهم.

لما كانت بنو هاشم من بنى قريش اختصها الله سبحانه بهذا الأمر أعنى الـدعوة إلى الله تعالى والنبوة والكتاب فحازت بذلك الشرف الباقى وكـانت أحـوال الـدنيا من الخلافة والملك ونحـــوه زائلة لهـــذا أزواها الله تعـــالى عنهم تنبيها على شـــرفهم وعلو مقدارهم فإن ذلك هو خـيرة الله لنبيه محمد كما ثبت أنه لما خـير اختـار أن يكـون نبيا عبداً ولم يختر أن يكون نبيا ملكا وسأل مثل ذلك لآله".

وقطع المقريزى بـأن على بن أبى طـالب كـان يعلم أن رسـول الله يربأ ببـنى هاشم عن ولاية الأعمال وقال "وقد كان غير واحد من فضلاء الصحابة رضى الله عنهم يعلم أن آل الـبيت أرفع قـدراً من أن يبتليهم بأعمـال الـدنيا مثل عبد الله بن عمر بن الخطاب الذى سأل الحسين أين تريد قال العراق قال لا تأتهم قال هذه كتبهم وبيعتهم فقال إن الله عز وجل خير نبيه بين الآخرة والدنيا فاختار الآخرة ولم يـرد الـدنيا وإنك بضعة من رسول الله والله لا يليها أحد منكم وما صرفها الله عنكم إلا للـذى هو خـير لكم فـارجع فـأبى الحسـين وقـال هـذه كتبهم وبيعتهم فاعتنقه عبد الله بن عمر وقـال استودعك الله من قتيل فكان كما قال ابن عمر وكذلك قـال عبد الله بن عبـاس رضى الله عنهما للحسين والله يا ابن أخى ما كان الله ليجمع لكم بين النبـوة والخلافة وهـذا من فقههما.".

ونحن نستبعد الوصاية على أساس موضوعى. لأن الأساس الـذى قدمه الشـيعة هو أن العدالة الإلهية ولطف الله بعبيده يستلزمان ألا تترك مسألة الإمامة دون حسـم، وكما أوجب العقل إرسال الأنبياء والرسل، فإنه يوجب أيضاً تعيين أئمة معصـومين فى غيـابهم من أجل رعاية أتبـاعهم أو اصـطلاحاً "ولايتهم". وعلاوة على هـذا فـإن النتيجة المنطقية لقبول تعاليم الرسول هو التعهد بالقيام بهـا، والفهم الصـحيح النقى للمعـانى الحقيقية للقرآن والأحاديث النبوية هو الذى كان يستطيع أن يتقدم بالمجتمع الإسـلامى فى هـذا الاتجـاه، وهـذا العلم كـان فى حـوزة أشـخاص من خـواص الرسـول ومن المقربين إليه وبخاصة على رضى الله عنـه، وعن طريقه انتقل للأئمة الإحـدى عشر أو أعقابه من الذكور.. وهذا هو على الأقل رأى الشيعة الأثنى عشرية.

وهم يرون أن مبـدأ اختيـار خلفـاء الرسـول أو انتخـابهم، ليس هو الأمثـل، لأن "قيادة الأمة أكثر أهمية من أن تنـاط بـآراء أفـراد عـاديين وأنظـارهم بحيث يكـون من الممكن أن يختاروا لها شخصا غير صالح، وهذا مما يتعارض مع الهـدف الأصـلى الإلهى من تنزيل الكتاب وإرسال الرسل، والله سبحانه وتعالى وحده هو الذى يعلم مدى علم النـاس وعصـمتهم، ويسـتطيع عن طريق تعريف رسـله بأولئك الـذين يتمـيزون بـالعلم والعصمة أن يضمن انتصار وحيه وتنزيلـه. وهنا تطـرح قضـية الشخصـيات على بسـاط البحث إذ يعتقد الشيعة أن أولئك الـذين كـانوا على علاقة وثيقة بالرسـول هم الـذين كانوا يسـتطيعون التحلى بهـذه الصـفات ومن ثم فـإن هـذه الصـفات لم تجتمع إلا فى على وأعقابه من الذكور.

وهـذا الجـزء من الجدلية الشـيعية يكمل رأيهم الآخر الـذى يعد أهم عنصر فى نظرية الشيعة السياسية: أى الضرورة المطلقة القاطعة للعدل كشرط الإمامـة، وهـذا طبقـاً للآية الـواردة فى القـرآن الكـريم صـراحة ﴿لا يَنَـالُ عَهْـدِي الظَّالِمِينَ﴾. {124 البقرة} ويدور بقية جدل الشيعة عن الإمامة حول تفسـير مقـام العلمـاء والمجتهـدين فى المجتمع الإسلامى فى غيبة الأئمة، فالعلماء وهم جمع عـالم تعـنى به ذلك المحقق فى أمور الدين أو المعنى الخاص للكلمة عـالم الـدين أو الفقيـه، والمجتهد لغة هو كل من يبـذل كل جهـده فى اسـتخدام قـواه الذهنيـة، لكنه يعـنى اصـطلاحا العـالم الـذى يسـتنبط الأحكـام الفقهية ويسـتخرجها من منابعها الأصـلية، وإذا كـان الأئمة هم المسـئولين عن إرشـاد المسـلمين بعد غيـاب الـوحى، أى بعد وفـاة خـاتم الأنبيـاء والمرسلين محمد ﷺ فإن العلماء والمجتهدين مسئولون عن مهمة إرشاد المسلمين بعد انتهاء فترة الإمامة أى بعد غيبة الإمام، وهناك بلا شك فرق بين الفئتين وهو أن العلماء لا يشتركون مع الأئمة فى العصمة أو سائر صفاتهم غير العادية"[22].

ولكننا نرى أن تحرير القـول فى الشـيعة يتطلب الفصل بين مرحلـتين: المرحلة الشـيعية كفرقة مكافحة معارضة لممارسـات الدولة الأموية والعباسـية دون أن تلى حكما.. والمرحلة الثانية: عندما استطاع الفرع الأقوى من الشـيعة – الأثـنى عشـرية – تكـوين دولة الصـفويين فى إيـران فى القـرن الخـامس عشـر. ونـرى أن التكلف فى استخلاص النتائج هو من الوضوح بحيث لا تكون فى حاجة لرد بالتفصيل.

كما أن منهجنا فى معالجة الشـيعة فى المرحلـتين يختلف عن المعالجـات التقليدية خاصة فى العهـود المظلمة القديمة الـتى دفعت التعصـبات بكل من السُـنة والشـيعة لأن يكفر بعضـها بعضـاً.. وهو ما يعـود إلى أننا كما ذكرنا – لا نعتمد إلا على القرآن الكريم، وليس على أقوال أئمة يعدون خصوماً بعضهم لبعض فى هذه القضية..

وانطلاقـاً من هـذا المنهج فنحن لا نـرى أن الاختلافـات ما بين الفكر الشـيعى والفكر السنى – رغم أنها عميقة فإنها لا يمكن أن تزيل عن الشـيعة الالـتزام بالإيمـان الإسلامى الذى يبسط مظلته على كل من يقول "لا إله إلا الله محمد رسـول اللـه" بل إننا نرى أن هذه الاختلافات أمر طبيعى، وأنه يثرى الموضوع لأنه يعـبر عن آثـار العصر والملابسات على الفكر ويعين على استبعاد هذه الآثار متى انتهى دورهـا، والعـودة إلى العناصر الأساسية فى القضية. وقلنا أكثر من مرة إن "الغلو" نفسه ليس شراً خالصـاً لأنه فى عنفه قد يصل إلى مـدى يقصر عنه اللين والمعالجة المألوفة فيخـدم القضـية أيضاً..

ونحن نـرى أن فكـرة "الخلافـة" أو "الإمامـة" الـتى تعد أكـبر فـارق بين الفكر السنى والشيعى وأكـبر ممـيز للفكر الشـيعى، **وما يلحق بها مما جاءت الإشـارة إليه عنـدما عرضـنا للفكر الشـيعى لم تكن هى جـوهر الفكر الشـيعى ولكنها من عمل الملابسات والسياق التاريخى الذى فرضها على الشـيعة كما فرض على الفكر السنى فكرة الخلافة ...**

ومن المسلم به أن الشيعة تبدأ من على بن أبى طالب ويفترض أن تكـون أنقى صورها وأكثرها أصالة بلورة لشخصية هذا الرجل، وهناك عدد كبـير من العوامل أثـرت على شخصية على بن أبى طالب وساعدت على إبرازه فى صورة مميزة..

وعلى بن أبى طالب مع أنه فرع من الدوحة الهاشمية إلا أن أباه – أبو طـالب – لم يكن له حظ من ثراء – وقد رأى الرسول أن يضم إليه علياً تخفيفا عن أبيه.

وهكذا أراد الله تعالى لحكمة خفية سامية أن يبعده عن عالم الثراء الـذى كـانت تتصف به بنو أمية، وأن تقربه إلى بيت الدعوة ليعيش بين محمد وخديجة: وليكون أول من يسلم من الصبيان.

وعنـدما لحق الرسـول بربه وتطلبت الأمـور تعـيين خليفة أدت الملابسـات إلى اختيـار أبى بكـر، وبعد أبى بكر جـاء دور عمر بن الخطـاب ثم تولاها عثمـان. وأخـيراً انتهت إلى على.

---

22 **(22) الفكر الإسلامى المعاصر الدكتور حميد الله ترجمة الدكتور إبراهيم الدسوقى.**

ونحن نختلف مع الفكـرة الشـعبية المقـررة عن أن عليا ظلم حقه فى الخلافـة، سواء لأن الرسول أوصى له بها، أو لأنه كان أفضل المرشحين..

فليس من العسـير أن يتـبين أى دارس أنه لو أن الرسـول أوصى له بشـىء فى هذا الأمر الخطير لكـان قد أعلمه صـراحة حـتى لا يحـدث خلاف أو شـقاق أو يحيق به ظلم. وقد أمر الرسـول أسـامة بن زيـد، كما أمر أبـاه من قبل ولم يـرفض أحد من الصحابة، ولو أراد الرسول أن يخلفه على لما عارضه أحد ...

ولكن الرسول لم يفعل هـذا، وما يسـوقونه من أحـاديث لا تقتضى ذلك صـراحة وتحديداً فضلاً عما عرضه المقريزى، وأوردناه آنفا عن أن النبى كـان يربأ ببـنى هاشم عن الولاية.

ولم يكن من المعقول أن لا يدرك على بن أبى طـالب ذلـك. ولكن هـذا لم يكن ليحول دون أن يكون له حق بحكم سابقته وكفاحه فى الترشيح للخلافة

وقضية أفضـلية الإمـام على على أبى بكر وعمر قضـية لم يكن هنـاك ما يحـول دون أن تثار، سواء من ناحية على نفسـه، أو من بعض أصـحابه وليس الحكم فيها بـأن عليا أفضل مما يمس الإيمان فى شىء، لأنها قضية تقـدير مبـنى على اعتبـارات حـول الكفاءات لأفراد، وهى قضية بعيدة عن العقيدة والإيمان الخ.. وكـان يمكن أن تعد من القضايا الجدلية كقضية الفكر المعـتزلى مثلاً – لا تثـير حروبـاً أو دمـاء. ولكن ما جعلها كذلك هو ما ألصق بها من دعوى الوصاية وفكرة "الدولة" وفى النهاية السلطة..

ونحن نرى أن كل ما قيل عن الوصية لعلى إنما هى من الآثار الـتى أضـيفت فى مرحلة لاحقة إلى على لأنه هو نفسه لم يـدعيها ولأن ما سـيق من أحـاديث لا تقتضـيها فحـديث "أنت مـنى بمنزلة هـارون من موسـى" لا تجعل له خلافـة، فلم يـرث هـارون موسى، وكـان الـذى قـام بعد موسى بالقيـادة هو يوشـع، وليس هو من سـبط "لاوى" الذى يمت إليه موسى وهارون ولكن من سـبط أفـرائيم بن يوسـف. بينما خص سـلالة هـارون بنـوع من الكهانـة.. كما أن حـديث غـدير حم لا يتضـمن حقا ولكن وَلاية (بفتح الـواو) وهى منزلة دينية خالصة تجعل عليا "ولى" هـذه الأمـة. وما فى هـذا الـولى من صفات الإرشاد والتوجيه الدينى وليس الحكم السياسى..

وهذه الآثار كلها تفند دعوى الوصاية، وتثبت أنها إنما أضيفت إلى الفكر الشـيعى فيما أضيفت إليه من روايات فى مراحل لاحقة.

وقدم الحسين لأرث الشيعة فكرة "الشهادة" عندما آثر أن يقاتل جيش ابن زياد وهو فى اثنين وسبعين رجلاً وجيش زياد فى أكثر من ألفين. ولم يكن من معـنى لهـذا إلا إيثار الشهادة وجاءت نتيجة المعركة، أو المجزرة – مؤكدة هذا المعنى بحيث أصـبح من المأثورات فى الفكر الشيعى.

الولاية (بفتح الواو) الـتى أرادها الرسـول لعلى بن أبى طـالب فى حـديثى غـدير خم وأنت مـنى بمنزلة هـارون من موسى والشـهادة الـتى قـــدمها الحســـين هما فى الحقيقة الركيزتـــان الأساســـيتان للشـــيعة، والإضافة التى تقدمها للفكر السياسى الإسلامى.

ومن المؤسف أن لم تلحظ هاتين الركـيزتين لأن فكـرة السـلطة التصـقت بهما فأفسدتهما..

ويجب أن نفـــرق بين مقاومة ظلم الحكـــام واســـتبدادهم والرغبة فى تـــولى السلطة. والأول واجب نبيـل، مقـدس أوجبه القـرآن والرسـول على المسـلمين جميعا باعتباره أسمى درجة من درجات النهى عن المنكر...

وأما الرغبة فى السلطة فإنها – مهما كانت دعاويها – مذمومة. ولم يكن عبثا أن يُرسى الرسول نفسه مبدأ "طالب الولاية لا يولى" وإنا لا نولى هذا الأمر رجلاً طلبه.

الولاية (بفتح الـواو) نقيض الولاية بكسـرها هى كالحمـام (بفتح الحـاء) والحمـام بكسرها. وما أبعد الفرق بين المعنيين.

ولو تقصـينا مسـالك كبـار أئمة الشـيعة حـتى جعفر الصـادق لرأينا أنهم كـانوا عازفين عن الولاية، ولعل مسلك الحسن أصـدق مثـال لـذلك، يتلـوه مسـلك على زين

إلعابدين.. ومحمد الباقر.. وأخيراً جعفر الصادق الذى عندما جاءته إغراءات بالحكم أحرقها ...

المفارقة المذهلة أن الذين لم يفهموا هذا المسلك زيفوا على جعفر الصادق بالذات من الأحاديث والروايات ما تئن به الجبال من ادعاءات الحكم، ليس فحسب على هذه الأرض، ولكن على الكون بأسره..

أما قومات زيد بن على، وهو الذى يماثل جعفر الصادق فى منزلته، وابنه يحيى من بعده – فإنهما كانا يؤمنان كما هو معروف عند الزيدية – بضرورة مقاومة الباغى من الحكام وهو قريب مما فعله الحسين. وقد قتل زيد كما قتل ابنه يحيى وحملت رؤوسهما إلى الحكام الجناة.

وكما قلنا فإن مقاومة الحكام شئ – وطلب السلطة والولاية شئ آخر.. وقد نجد هذا فى الحركة الشيعية نفسها. فإن الفرع الإسماعيلى الذى انحرف عن الخط الجعفرى هو الذى استهدف الولاية وانتهى به الأمر إلى المؤامرات والباطنية وظهر منهم "الحشاشون" و "السفاحون" كما نشأت فيهم "القرامطة" الذين حكموا البحرين وعمان واستولوا على مكة. كما أقامت فرقة منهم حكماً فى تونس وهم الفاطميون الذين استولوا على مصر وأسسوا الأزهر وحكموا مصر حتى أعادها صلاح الدين إلى المذهب السنى.

وكان النشاط السياسى الذى قام به الفرع الإسماعيلى واستهدف مباشرة الحكم هو الصورة الأولى لإفساد السلطة للفكر الشيعى ...

أما الصورة الثانية، والتى لا تزال الحركة الشيعية تعانى منها حتى الآن فقد ظهرت عندما استولى الصفويون على الحكم فى إيران وجعل الشاه إسماعيل الصفوى المذهب الشيعى هو المذهب المقرر (من القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر) ووصل الهوس المذهبى إلى درجة لا يمكن تصورها. وفرض الشاه إسماعيل لعن أبى بكر وعمر وعائشة وقتل قرابة أربعين ألفاً ترددوا أو رفضوا ذلك وأقيمت احتفالات فى ذكرى "مصرع عمر" تحت اسم "عمر كشان" وفى الوقت نفسه فإن تقديس الإمام على وصل إلى درجة أن اللقب الرسمى للشاه عباس الكبير كان "كلب أستان على" أى كلب عتبة على.. ولم يكن لدى هذا الشاه ذرة إيمان حقيقى بالإسلام لأنه أفطر مع حاشيته علنا مع مسيحى أصفهان وأكل معهم لحم الخنزير ويذكر الكاتب الذى نقل لنا هذه الواقعة[23] وهو الدكتور الدسوقى شتا.

"أصبح التشيع مذهباً للدولة تفرضه كتائب الحكومة بقوة السلاح، ونوعاً من العقيدة الجبرية التى ينبغى على كل الأفكار والعقائد أن تتوارى أمامها، وبدأت التشكيلات الشيعية تظهر فى المراكز العلمية، ليست تلك التشكيلات الثورية ذات الفكر المتقدم، بل ساد نوع من الجمود الفكرى الدينى، لم يكن المذهب الشيعى الإثنى عشرى الحقيقى هو الذى ساد الدولة الصفوية، بل كان نوعاً من الالتزام المتعصب فى مواجهة أهل السُنة من العثمانيين، وبلغ بعض ملوك الصفوية حداً فى تقديس "مظاهر" المذهب يبلغ مبلغ الإسفاف، فلم يعد من المذهب إلا الاحتفال بشخصيات الأئمة، والمبالغة فى تزيين المساجد والمشاهد الإمامية بصحائف الذهب، كان المذهب على يد الصفويين صورة بدائية وقبلية، ونوعاً من العقيدة الجامدة، أو على حد تعبير أحد الباحثين المعاصرين "كان مهتماً بأن يجعل جميع المؤمنين كلاباً لعتبة الولاية " وشاع فى إيران أسماء مثل كلب حسين وكلب على[24].

وإلى هذا العهد – عهد التشيع الصفوى – تعود كل ما طفحت به كتب الشيعة من ادعاءات مثل مصحف فاطمة، والجفر، وكل التفسيرات الباطنية للقرآن وكلها مفتريات على الشيعة تعود إلى العداوة المريرة التى نشبت ما بين الدولة الصفوية والدولة العثمانية السنية وجعلت الدولة الصفوية تعتبر السُنة هى عدوتها الأولى ...

وقد عالج هذه النقطة بوضوح وقوة كاتب إيران البارز الدكتور على شريعتى وهو الكاتب الذى يمكن مقارنته بإقبال، ومحمد عبده، ومالك بن نبى ومحمد أسد،

---

[23] **(23) الثورة الإيرانية – الجذور – الأيدلوجية بقلم الدكتور إبراهيم الدسوقى شتا ص29 – 30 – دار الوطن العربى – بيروت.**

[24] **(24) المرجع السابق.**

وأبـرز كيف أفسد الحكم الصـفوى التشـيع العلـوى ورأى أنه "مـذهب المسـاجد ذات القبـاب الذهبية والـتى لا يـتردد عليها مصـلون، مـذهب تجليد القـرآن الكـريم وتذهيبه وتمجيده وليس البحث فيه وليس تفسيره، تقديس القرآن لا لفتحه ولا لقراءته مـذهب التوسل بكتب الأدعية لغلق القـرآن الكـريم، لأن القـرآن يعلم المسـئولية، والتشـيع الصـفوى هو الـذى أشـاع البكـاء وقـراءة الروضـة، وقـراءة دعـاء على الدرجة الرابعة للصفا والمروة يجلب الغنى، هو الذى أشـاع كل ما ظنه أعـداء التشـيع تشـيعاً حقيقيـاً وكل ما يزاوله الشـيعة على أنه التشـيع الحقيقى، وكل هـذا البكـاء والضـرب بالقمة (سيف قصير) ليست من الإسلام وليست من التشيع"[25].

وأجرى الدكتور شريعتى مقارنة ما بين التشيع العلـوى، والتشـيع الصـفوى نقلها الأستاذ فاضل رسول فى كتابه "هكذا تكلم على شريعتى"..

فى التشيع العلوى

الوصاية:

تعنى أن الرسـول/ طبقـاً لأوامر الله تعـالى، أوصى بأفضل الأشـخاص وأكـثرهم كفاءة فى أهل بيته، على أساس كونه أكثرهم علماً وتقوى واستحقاقاً.

الإمامة:

تعنى قيادة ثورية، تهدى النـاس فى الكفـاح من أجل بنـاء مجتمع سـليم، وتقـوم بتوعية الناس وحثهم على التفكير والاستقلال فى الرأى. إنها قيادة تتكون من أشخاص هم التجسيد العملى لمبادئ ورسـالة الإسـلام، ويمكن بالعمل تحت قيـادتهم أن نـتربى ونعى أكثر فأكثر..

العصمة:

تعـنى الاعتقـاد بـالتقوى الفكرية والاجتماعية للقـادة المؤمـنين، الشـاعرين بالمسئولية، والساعين من أجل العلم وحكم الشـعب. ويعـنى هـذا، رفض حكم الجـور، رفض طاعة العلماء المشكوك بـنزاهتهم ورجـال الـدين المـزيفين المـرتبطين بـأجهزة الخلافة.

الولاية:

تعنى القبول بحب على، والتصرف اقتداءً بسلوك على، باعتبـاره نموذجـاً راقيـاً لأحد عباد الله. كانت قيادته تهـدى النـاس كسـراج منـير، وحكمه كـان كتطلع الإنسـان نفسه عـبر التـاريخ: أمل فى العـدل والحرية والمسـاواة. فى سـنوات حكمه الخمس خير دليل، ينشدها الناس ولا زالوا كقدوة.

الشفاعة:

حافز على العمل من أجل اكتساب استحقاق النجاة فى الآخرة.

الاجتهاد:

عنصر الحركة والتطـور فى الـدين عـبر الـزمن، وخطـوة فخطـوة مع التـاريخ والثورة الدائمة للإنسان. إنه تطور فى نظرة الـدين يسـمح بتطـور منسـجم فى الفقه حسب التغييرات.

التقليد:

علاقة منطقية وعلمية ضـرورية بين عامة النـاس وعلمـاء الـدين المتخصصـين فى المسائل العملية والحقوق وقضايا أخرى ذات طابع فنى ومتخصص.

العدل:

الاعتقاد بوجود صفة العدالة فى الله، وبـأن الكـون قـائم على التـوازن والعـدل، فالنظـام الاجتمـاعى والحيـاة أيضـاً يجب أن ترسى على أسس العـدل. إن الظلم

---

[25] **(25) المرجع السابق ص31.**

واللامسـاواة هما نظـام غـير طـبيعى وغـير إلهى، بل إنه ضد اللـه. إن العـدل هو أحد ركنين أساسيين فى الدين، فالعدل هو هدف الرسالة والشعار العظيم للإسلام.

* * *

إن التشيع العلوى هو تشيع المعرفة والمحبة.

إن التشيع العلوى هو تشيع السُنة.

إن التشيع العلوى هو تشيع الوحدة.

إن التشيع العلوى هو تشيع العدل، (العدل فى العلم، فى المجتمع فى الحياة).

إن التشيع العلوى هو تشيع الممارسة.

إن التشيع العلوى هو تشيع الالتزام.

إن التشيع العلوى هو تشيع الاجتهاد.

إنه تشيع المسئولية.

تشيع الحرية.

تشيع ثورة كربلاء.

تشيع الشهادة.

تشيع السعى وراء التقدم والتطور.

فى التشيع الصفوى

الوصاية:

تعنى تعيين سلطة غير منتخبة، وراثية تستند إلى التسلسل الوراثى وعلاقة الدم والقرابة

الإمامة:

هى الاعتقاد بـ (12) إسماً، باعتبارهم معصـومين ومقدسـين عناصر فـوق البشر ومن ما وراء الطبيعة، وهم الوسيلة الوحيدة للتقرب والشـفاعة. إنهم 12 ملاكـاً يمكن عبـادتهم، فهم مخلوقـات غيبيـة، بل وآلهة صـغيرة تتحكم بالـدنيا وبمشـيئة النـاس إلى جانب الإله الأكبر فى السماء.

العصمة:

تعنى مفهومـاً ذاتيـاً، صـفة اسـتثنائية خارقة لمخلوقـات غيبيـة، ليست من طينة البشر، ولا يمكن أن يخطئوا فى شئ، ويعنى هـذا بـأن 12 شخصـاً فقط امتلكـوا هـذه الذات الخاصة وهذه الصفات.

هذا يعنى أيضاً، الاعتراف بأن انحـراف وعـدم نزاهة الحكومـات القائمة هى أمر طبيعى (لأنها ليست معصومة) والقبول بعلماء الدين غير الـنزيهين ورجـال الـدين غـير المتقين، بحجة أنهم غير معصومين ولا يمكن توقع الكمال منهم.

الولاية:

تعـنى حب على فقـط، والتنصل من كل مسـئولية عمليـة. تعـنى الأمل بالجنة فقط، بسبب الاعتقاد بولاية على. أى أن الولاية هى لضمان الآخرة، وليست شـيئاً يفيد المجتمع والشـعب. إنها مسـألة لا تهم النـاس بل تهم اللـه. إذ إنها تعـنى فى مفهـوم التشيع الصفوى التشارك مع الله فى إدارة الكون والعالم

الشفاعة:

وسيلة لنجاة من لا يستحق !

الاجتهاد:

عنصر الجمود والتحجر فى الدين، وعائق أمام التقدم والتجديد والتغيـير. وسـيلة لإدانة وتكفـير وتفسـيق كل عمل جديـد، كل كلمة جديـدة، وكل نهج جديد فى الـدين ونظام الحياة والعلم والفكر وفى المجتمع.

التقليد:

الطاعة العمياء لرجال الدين. التبعية المطلقة وغير القابلة للنقاش لرجل الدين، وذلك فى العقل والعقيدة والحكم. أى حسب تعبير القرآن، عبادة رجال الـدين "عبـادة الأحبار والرهبان من دون الله"..

العدل:

طرح إلهى، يتعلق بما بعد إلمـوت. أما كيف يحكم الله فى الآخـرة وكيف يقضى بين الناس، فلا علاقة له بالدنيا، لأن الدنيا هى من شـئون "الشـاه عبـاس!!" انسـجاماً مع القول: دع ما لقيصر لقيصر وما لله للـه. الـدنيا وما قبل المـوت هى من صـلاحيات الشاه عباس، والآخرة هى من صلاحيات الله !.

الدعاء:

تكـرار ممـل، مخـدر، يعد النـاس بآمـال واهيـة. يطمع البعض بثـواب عن حسـنات لم يعلموها، ويقدم بديلاً عن بذل الجهود وتحمل الشدائد والمخاطر فى الحياة.

الانتظار:

الاستسـلام الـروحى والعملى والعقائـدى للأمر الواقع والوضع السـائد. تـبرير الفساد فى الأرض، والنظر للأمر الواقع وكأنه قدر لا يمكن رده. إلغاء الدور المسـؤول للإنسـان. اليـأس من كل إصـلاح وتغيـير وإدانة أية محاولة فى هـذا المجـال، بـدعوى استحالتها قبل ظهور الإمام.

الغيبة:

سلب المسئولية من الجميع، تعطيل جميع الأحكام الاجتماعية للإسـلام. الاعتقـاد بعدم جدوى أى عمل، وبعدم مشروعية أية مسؤولية اجتماعية بحجة أن الإمام الغـائب وحده يمكن أن يقود، ووحده يستحق الطاعة. نحن مسؤولون أمام الإمام وحـده، لكنه غائب.. إذن فلا شئ يجدى!!.

التشيع الصفوى هو تشيع الجهل والمحبة.

التشيع الصفوى هو تشيع البدعة.

التشيع الصفوى هو تشيع التفرقة.

الفصل السابع
السلطة تفسد المسيحية وتحولها إلى محكمة تفتيش

—

من بين الأديان تميزت المسيحية بأنها ديانة الحب، والصفح، والخير والرحمة. وكما اتصف رسولها عيسى بن مريم – المسيح – بالبساطة والشعبية والبعد عما يحرص عليه الناس عادة من مال أو جاه أو قوة فكان رجلاً بسيطاً يمشى فى الأسواق ويستخلص دعاته من صيادى الأسماك والفقراء والمنبوذين والنساء والمرضى بالبرص أو الصرع الخ... وقد أجمل لنا فكرة المسيحية ورسالتها وقداستها فى الحياة فى موعظة الجبل التى يطلق عليها فى الكتابات المسيحية "التطويبات"..

ماذا جاء فى موعظة الجبل التى تعد دستور المسيحية؟؟.

إنها على ما رواه متى فى إنجيله.

الفصل الخامس:

1. فلما رأى يسوع الجموع صعد إلى الجبل. ولما جلس دنا إليه تلاميذه. 2. ففتح فاه يعلمهم قائلاً. 3. طوبى للمساكين بالروح فإن لهم ملكوت السماوات. 4. طوبى للودعاء فإنهم يرثون الأرض. 5. طوبى للحزان فإنهم يعزون. 6. طوبى للجياع والعطاش إلى البر فإنهم يشبعون. 7. طوبى للرحماء فإنهم يرحمون. 8. طوبى للأنقياء القلوب فإنهم يعاينون الله. 9. طوبى لفاعلى السلامة فإنهم بنى الله يدعون. 10. طوبى للمضطهدين من أجل البر فإن لهم ملكوت السماوات. 11. طوبى لكم إذا عيروكم واضطهدوكم وقالوا عليكم كل كلمة سوء من أجلى كاذبين. 12. افرحوا وابتهجوا فإن أجركم عظيم فى السماوات لأنهم هكذا اضطهدوا الأنبياء من قبلكم. 13. أنتم ملح الأرض فإذا فسد الملح فبماذا يُملح. إنه لا يصلح لشىء إلا لأن يطرح خارجاً وتدوسه الناس. 14. أنتم نور العالم. لا يمكن أن تخفى مدينة مبنية على جبل. 15. ولا يوقد سراج ويوضع تحت المكيال لكن على المنارة لينير على كل من فى البيت. 16. هكذا فليضئ نوركم قدام الناس ليروا أعمالكم الصالحة ويمجدوا أباكم الذى فى السماوات. 17. لا تظنوا أنى أتيت لأحل الناموس والأنبياء إنى لم آت لأحل لكن لأتمم. 18. الحق أقول لكم إنه إلى أن تزول السماء والأرض لا تزول ياء أو نقطة واحدة من الناموس حتى يتم الكل. 19. فكل من يحل واحدة من تلك الوصايا الصغار ويعلم الناس هكذا فإنه يدعى صغيراً فى ملكوت السماوات، وأما الذى يعمل ويعلم فهذا يدعى عظيماً فى ملكوت السماوات. 20. فإنى أقول لكم إن لم يزد بركم على الكتبة والفريسيين فلن تدخلوا ملكوت السماوات. 21. قد سمعتم أنه قيل للأولين لا تقتل فإن من قتل يستوجب الدينونة. 22. أما أنا فأقول لكم إن كل من غضب على أخيه يستوجب الدينونة. ومن قال لأخيه راقا يستوجب حكم المحفل. ومن قال يا أحمق يستوجب نار جهنم. 23. فإذا قدمت قربانك إلى المذبح وذكرت هناك أن لأخيك عليك شيئاً. 24. فدع قربانك هناك أمام المذبح وامض أولا فصالح أخاك وحينئذ أئت وقدم قربانك. 25. بادر إلى موافقة خصمك ما دمت معه فى الطريق لئلا يسلمك الخصم إلى القاضى ويسلمك القاضى إلى الشرطى فتلقى فى السجن. 26. الحق أقول لك إنك لا تخرج من هناك حتى توفى آخر فلس. 27. قد سمعتم أنه قيل للأولين لا تزن. 28. أما أنا فأقول لكم إن كل من نظر إلى امرأة لكى يشتهيها فقد زنى بها فى قلبه. 29. فإن شككتك عينك اليمنى فاقلعها وألقها عنك فإنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله فى جهنم. 30. وإن شككتك يدك اليمنى فاقطعها وألقها عنك فإنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يذهب جسدك كله إلى جهنم. 31. قد قيل من طلق امرأته فليدفع إليها كتاب طلاق. 32. أما أنا فأقول لكم من طلق إمرأته إلا لعلة زنى فقد جعلها زانية ومن تزوج مطلقة فقد زنى. 33. قد سمعتم أيضاً أنه قيل للأولين لا تحنث بل أوف للرب بأقسامك. 34. أما أنا فأقول لكم لا تحلفوا البتة لا بالسماء فإنها عرش الله. 35. ولا بالأرض فإنها موطئ قدميه. ولا بأورشليم فإنها

مدينة الملك الأعظم. 36. ولا تحلف برأسك لأنك لا تقدر أن تجعل شعرة منه بيضاء أو سوداء. 37. ولكن ليكن كلامكم نعم نعم ولا لا وما زاد على ذلك فهو من الشرير. 38. قد سـمعتم أنه قيل العين بـالعين والسن بالسـن. 39. أما أنا فـأقول لكم لا تقـاوموا الشرير بل من لطمك على خدك الأيمن فحـول له الآخـر. 40. ومن أراد أن يخاصـمك ويأخذ ثوبك فخل له رداءك أيضـا. 41. ومن سـخرك ميلا فـامش معه اثـنين. 42. من سـألك فأعطـه. ومن أراد أن يقـترض منك فلا تمنعـه. 43. قد سـمعتم أنه قيل أحبب قريبك وأبغض عدوك. 44. أما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم وأحسنوا إلى من يبغضكم وصلوا لأجل من يعنتكم ويضطهدكم. 25. لتكونوا بـنى أبيكم الـذى فى السـماوات لأنه يطلع شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظـالمين. 46. فـإنكم إن أحببتم من يحبكم فأى أجر لكم أليس العشارون يفعلـون ذلـك. 47. وإن سـلمتم على إخوانكم فقط فأى فضل عملتم أليس الوثنيون يفعلون ذلـك. 48. فكونـوا كـاملين كما أن أباكم السماوى هو كامل.

الفصل السادس:

1. احترزوا ألا تصنعوا بركم قدام الناس لكى ينظـروكم وإلا فليس لكم أجر عند أبيكم الذى فى السماوات. 2. فـإذا صـنعت صـدقة فلا تهتف قـدامك بـالبوق كما يفعل المراءون في المجـامع والأزقة لكى يمجـدهم النـاس. الحق أقـول لكم إنهم قد أخـذوا أجـرهم. 3. أما أنت فـإذا صـنعت صـدقة فلا تعلم شـمالك ما تصـنع يمينـك. 4. لتكـون صدقتك فى خفية وأبوك الذى يـرى فى الخفية هو يجازيـك. 5. وإذا صـليتم فلا تكونـوا كـالمرائين فـإنهم يحبـون القيـام فى المجـامع وفى زوايا الشـوارع يصـلون ليظهـروا للناس. الحق أقول لكم إنهم قد أخذوا أجرهم. 6. أما أنت فإذا صليت فأدخل مخـدعك وأغلق بابك وصل إلى أبيك فى الخفية وأبوك الذى يرى فى الخفية هو يجازيك. 7. وإذا صليتم فلا تكثروا الكلام مثل الوثنيين فإنهم يظنون أنه بكثرة كلامهم يسـتجاب لهم. 8. فلا تتشـبهوا بهم لأن أبـاكم عـالم بما تحتـاجون إليه قبل أن تسـألوه. 9. وأنتم فصـلوا هكذا. أبانا الذى فى السـماوات ليتقـدس اسـمك. 10. لتكن مشـيئتك كما فى السـماء كـذلك على الأرض. 11. خبزنا كفافنا أعطنا اليـوم. 12. واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن لمن أساء إلينا. 13. ولا تـدخلنا فى تجربة لكن نجنا من الشـرير. آمين. 14. فـإنكم إن غفـرتم للنـاس زلاتهم يغفر لكم أبـوكم السـماوى زلاتكم. 15. وإن لم تغفـروا للنـاس فأبوكم أيضاً لا يغفر لكم زلاتكم. 16. وإذا صمتم فلا تكونوا معبسين كـالمرائين فـإنهم ينكرون وجوههم ليظهروا للناس صائمين الحق أقول لكم إنهم قد أخـذوا أجـرهم. 17. أما أنت فـإذا صـمت فـأدهن رأسك واغسل وجهـك. 18. لئلا تظهر للنـاس صـائماً بل لأبيك الـذى فى الخفية وأبـوك الـذى ينظر فى الخفية هو يجازيـك. 19. لا تكـنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يفسد السوس والآكلة وينقب السارقون ويسـرقون. 20. لكن اكـنزوا لكم كنـوزاً فى السـماء حيث لا يفسد سـوس ولا آكلة ولا ينقب السـارقون ولا يسرقون. 21. لأنه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبـك. 22. سـراج الجسد العين فـإن كانت عينك بسيطة فجسدك كله يكون نيراً. 23. وإن كانت عينك شريرة فجسدك كله يكون مظلماً. وإذا كان النور الذى فيك ظلاماً فالظلام كيف يكون. 24. لا يستطيع أحد أن يعبد ربين لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر أو يلازم الواحد ويـــرذل الآخـــر. لا تقدرون أن تعبدوا الله والمال. 25. فلهذا أقول لكم لا تهتموا لأنفسـكم بما تـأكلون ولا لأجسادكم بما تلبسون. أليست النفس أفضل من الطعـام والجسد أفضل من اللبـاس. 26. انظـروا إلى طيـور السـماء فإنها لا تـزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخـازن وأبـوكم السماوى يقوتها. أفلسـتم أنتم أفضل منهـا. 27. ومن منكم إذا هم يقـدر أن يزيد على قامته ذراعاً واحدة. 28. ولماذا تهتمون باللباس. اعتبروا زنـابق الحقل كيف تنمـو. إنها لا تتعب ولا تغـزل. 29. وأنا أقـول لكم إن سـليمان فى كل مجـده لم يلبس كواحـدة منها. 30. فإذا كـان عشب الحقل الـذى يوجد اليـوم وفى غد يطـرح فى التنـور يلبسه الله هكذا أفلا يلبسكم بالأحرى أنتم يا قليلى الإيمان. 31. فلا تهتموا قـائلين مـاذا نأكل أو ماذا نشرب أو ماذا نلبس. 32. لأن هذا كله تطلبه الأمم وأبوكم السماوى يعلم أنكم تحتاجون إلى هذا كله. 33. فاطلبوا أولاً ملكوت الله وبره وهذا كله يـزاد لكم. 34. فلا تهتموا بشأن الغد فالغد يهتم بشأنه يكفى كل يوم شره.

الفصل السابع:

1. لا تدينوا لئلا تدانو. 2. فإنكم بالدينونة التى بها تدينون تدانون وبالكيل الذى به تكيلون يكال لكم. 3. ما بالك تنظر القذى الذى فى عين أخيك ولا تفطن للخشبة التى فى عينك. 4. أم كيف تقول لأخيك دعنى أخرج القذى من عينك وها إن الخشبة فى عينك. 5. يا مرائى أخرج أولاً الخشبة من عينك وحينئذ تنظر كيف تخرج القذى من عين أخيك. 6. لا تعطوا القدس للكلاب ولا تلقوا جواهركم قدام الخنازير لئلا تدوسها بأرجلها وترجع فتمزقكم. 7. اسالوا فتعطوا. اطلبوا فتجدوا. اقرعوا فيفتح لكم. 8. لأن كل من يسأل يعطى ومن يطلب يجد ومن يقرع يفتح له. 9. أى إنسان منكم يسأله ابنه خبزاً فيعطيه حجراً. 10. أو إذا سأله سمكة يعطيه حية. 11. فإذا كنتم أنتم الأشرار تعرفون أن تمنحوا العطايا الصالحة لأبنائكم فكم بالحرى أبوكم الذى فى السماوات يمنح الصالحات لمن يسأله. 12. فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم فافعلوه أنتم بهم. فإن هذا هو الناموس والأنبياء. 13. ادخلوا من الباب الضيق لأنه واسع الباب، ورحب الطريق الذى يؤدى إلى الهلاك والداخلون فيه كثيرون. 14. ما أضيق الباب وأحرج الطريق الذى يؤدى إلى الحياة وقليلون الذين يجدونه. 15. احذروا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بلباس الحملان وهم فى الباطن ذئاب خاطفة. 16. من ثمارهم تعرفونهم. هل يجتنى من الشوك عنب أو من العوسج تين. 17. هكذا كل شجرة صالحة تثمر ثمراً جيداً والشجرة الفاسدة تثمر ثمراً رديئاً. 18. لا تستطيع شجرة صالحة أن تثمر رديئاً ولا شجرة فاسدة أن تثمر ثمراً جيداً. 19. كل شجرة لا تثمر ثمراً جيداً تقطع وتلقى فى النار. 20. فمن ثمارهم تعرفونهم. 21. ليس كل من يقول لى يا رب يا رب يدخل ملكوت السماوات. 22. فإن كثيرين سيقولون لى فى ذلك اليوم يا رب يا رب ألم نكن باسمك تنبأنا وباسمك أخرجنا شياطين وباسمك صنعنا قوات كثيرة. 23. فحينئذ أعلن لهم أنا لم أعرفكم قط فأذهبوا عنى يا فاعلى الإثم. 24. فكل من يسمع كلامى هذا ويعمل به يشبه رجلاً حكيماً بنى بيته على الصخر. 25. فنزل المطر وجرت الأنهار وهبت الرياح واندفعت على ذلك البيت فلم يسقط لأن أساسه كان على الصخر. 26. وكل من يسمع كلامى هذا ولا يعمل به يشبه رجلا جاهلاً بنى بيته على الرمل. 27. فنزل المطر وجرت الأنهار وهبت الرياح وصدمت ذلك البيت فسقط وكان سقوطه عظيماً. 28. ولما أتم يسوع هذا الكلام كله بهت الجموع من تعليمه. 29. لأنه كان يعلمهم كمن له سلطان لا ككتبتهم والفريسيين" انتهى.

كان لابد أن ننقلها بطولها ما دمنا نتحدث عن المسيحية التى جاء بها رسول الناصرة لنعرف الحقيقة وليس ما تقدمه الكنائس أو الأحبار. لأنها هى التى تمثل روح المسيحية الحقة، والتى يكون علينا كمسلمين أن نؤمن بها تطبيقاً لتوجيهات القرآن المتكررة، ولأن عرضها بالكامل سيوضح – عند المقارنة بما آلت إليه المسيحية – جناية السلطة عليها.

وهى تمثل أسمى ما يمكن أن يصل إليه خلق أو سلوك أو تطيب عليه نفس أو تخلص به روح.

ولا يعاب عليها أنها "مثالية" كما يقولون لأن هذا بالذات – تقديم المثل والقيم – هى مهمة الأديان إن عليها أن تقدم هذه القيم والمثل التى تشبه النجوم فى السماء لا يلمسها أحد، ولكنه يسير فى ضوئها فيهتدى ويأمن الضلال.

ومن المسلم به أن التطبيق الحرفى والكامل لها هو ما يصعب على الناس، ولكن عدم التطبيق الحرفى لا يعنى إغفالها، ولا هو يعنى من باب أولى رفضها.

فما لا يمكن إدراكه كله. وما لا يمكن تطبيقه بالكامل لا يترك كله، ففيما يدرك مقنع خاصة إذا اقترن ذلك بشعور الإنسان بعجزه ورغبته فى المزيد..

وسيرة المسيحيين الأول هى مصداق ما ذهبنا إليه...

فقد كانوا فى السنوات الأولى لهم جماعات تؤلف بينها المحبة والرغبة المحرقة فى تطبيق هذه المثل، ومن أجل هذا لم يستهدفوا الثروات والمناصب والاستعلاء،

وشارك من كـان لديه حظ من مـال إخوانه ممن ليس معهم. كـانوا يشـتركون فى كل شـىء "سـوى زوجـاتهم" كما قـال ترتليـان. وكـانوا يمتنعـون عن دخـول الملاهى أو مشاهدة الألعاب أو سـماع الموسـيقى أو حلق اللحية أو الـتزى بأردية مزينة الخ... كما كان الكثير يعرض عن تناول اللحم أو يكثر من الصيام والتبتل ولا يقـرب النسـاء الخ... وكـان أفلـوطين. وهو الفيلسـوف القبطى المصـرى رغم تـأثره بالفلسـفة اليونانية "يستحى أن يكون لروحه جسم!".

وخلال الثلاثمائـة سـنة الأولى من تـاريخ المسـيحية انتشـرت فى عـدد كبـير من البلاد والدول فى أوربا وأفريقيا بفضل جهـود الحـواريين والرسل الـذين كـانوا يمثلـون "الصحابة" ومن جاء بعدهم من التابعين ومما يثـير الدهشة أن الحماسة للـدين الجديد انتصرت على الوحشية الرومانية، وصنوف التعذيب عندما كان المسيحيون يلقـون إلى الوحـوش المفترسة فى الأرينا من أيـام نـيرون حـتى بقية أبـاطرة الرومـان وكـانوا يجلدون. حـتى تنفصل لحـومهم عن عظـامهم، أو أن لحمهم كـان يقشر عن عظـامهم بالأصداف وكان الملح أو الخل يصب فى جروحهم، ويقطع لحمهم قطعة قطعة ويرمى للحيوانـات الواقفة فى انتظارهـا، أو يشـدون إلى الصـلبان فتنهش لحـومهم الوحـوش الجيــاع جــزءاً جــزءاً. ودقت عصى حـادة الأطـراف فى أصـابع بعض الضـحايا تحت أظـافرهم، وسـملت أعين بعضـهم، وعلق بعضـهم من يـده أو قدمـه، وصب الرصـاص المصهور فى حلوق البعض الآخر، وقطعت رؤوس بعضهم أو صلبوا، أو ضـربوا بالعصى الغليظة حتى فارقوا الحياة؛ ومزقت أشـلاء البعض بـأن شـدت أجسـامهم إلى غصـون أشجار ثنيت ثنياً مؤقتاً[26].

كان من الممكن أن تسير المسيحية فى مسالكها الشعبية لولا أن ظهر عــاملان غيرا اتجاهها تغييراً بعيداً..

العامل الأول: أن الطابع الحر والتلقائى للمسيحية أدى إلى ظهـور العشـرات من الشـيع والفـرق. والتكتلات والتجمعـات كل واحـدة على ناحية معينة من مجـالات العقيدة متـأثرة فى هـذا بظروفها الخاصـة. ويجب أن نـذكر أن المسـيحية ظهـرت فى قلب اليهودية. وأن أتباعها الأول – بما فيهم المسيح نفسه – كـانوا يهـوداً، وأن اليهودية هى أقـدم الأديـان وأكثرها تـأثراً بالمراحل العديـدة الـتى مـرت بها من ظهورها فى العـــراق ثم لواذها بمصر وبقائها بها قرابة أربعمائـــة ســـنة تـــأثرت ولا شك بالوثنية الفرعونية ثم خروجها إلى فلسـطين وتلاقيها بـالأقوام الـذين كـانوا فيها وما أثمر هـذا اللقاء من مسالمات وعلاقات أدت إلى تـأثر اليهـود. ثم طغيـان النفـوذ الرومـانى وأن ملوكها كانوا حلفاء للرومان فى حقب عديـدة من تاريخها ثم السبى البـابلى الـذى يعد نقطة تحـول وبداية لعهد جديد وما تـأثرت به اليهودية فـترة هـذا الأسـر. وأخـيراً تـأثر الفكر اليهـــودى بمدرسة الإســكندرية وفكرها اليونـــانى فى مرحلته المتـــأثرة بالديانة المصرية القديمة.. كل هذه المؤثرات كـانت تتفاعل فى اليهودية وتنعكس على الـذين آمنوا بالـدين الجديد من اليهـود. ثم لا يقف الأمر عند اليهـود فالمسـيحية انتشـرت فى مناطق أوربية كـانت وثنيـة، ولها عـادات وتقاليد بيئية لم يكن من السـهل دائما التخلى عنها. نتيجة لهذا كله اصـطحبت الزيـادة العددية بالخرافـات والخلافـات المذهبية الـتى أثرت على العلاقات بين الكنائس والتكتلات القائمة..

من هنا ظهـرت ضـرورة "التنظيم" ودخل التنظيم الحلبة بحيث أصـبحت هنـاك ثلاث كنـائس رئيسـية فى القسـطنطينية وفى روما وفى الإسـكندرية. ورزقت كنيسة روما عوامل مواتية منها ما أدعى أن المسيح أوحى إلى بطرس أن يقيم كنيســته على هذه الصخرة.. "الفاتيكان" فضلاً عما رزقته من شأن عظيم فى التاريخ.

وشـيئاً فشـيئاً أصـبح بابا روما هو سـيد المسـيحية فى أوربا وفى كثـير من دول العالم، ولم تؤثر فى سلطته كثيراً معارضة كنيسة الإسكندرية أو بيزنطة.

---

26 **(26) "قصة الحضارة" لويل دورانت ص380. وستدور الأيام ويعذب ديوان التفتيش المسيحى مسلمى الأندلس. واليهود والفرق التى لا تؤمن بالكاثوليكية إيمانا أعمى. بمثل هذه الأساليب الوحشية، كما سيلى.**

ويقـدم لنا التـاريخ درسـاً فى التنظيم لا يتغـير ولا يتبـدل فما أن يتحـول الـدين إلى كنيسة والإيمـان إلى كهنـوت حـتى يظهر السـدنة والأتباع. وحتى تتكون شيئاً فشـيئاً "للمؤسسة الدينيـة" الـتى هى ثمـرة التنظيم مصالح خاصة مستقلة عن مصـالح الـدين الـذى قـامت لـه، وفى بعض الحالات متعارضة مع الذى قامت له..

هذا درس لا خلاف عليه، ولا مناص منه، وهو يظهر عندما تتحول الـدعوة الدينية إلى مُلك. والرياضة من هواية إلى نـادى. كما ظهـرت فى كل المؤسسـات الـتى ترفع راية عقيدة، أو فكرة، أو طائفة، أو معرفة، ثم تكون لها بعد ذلك شخصـيتها ومصـلحتها على حساب الدعوة التى قامت لها.

أصبحت البابوية أقوى هيئة حاكمة فى أوربا، وأصبح من المألوف أن يطلق على كرسى القديس بطرس "العرش البـابوى" وكـان فى حقيقته عرشـاً أكـثر سـطوة من عرش أى ملك آخر، وضـمت سلسـلة البابـاوات عـدداً من أكـثر النـاس فسـقا وفحشا ومجونا وأشدهم عتوا واستعلاءً وأعظمهم خبثاً ودهاء وجـاء وقت أصـبح الملـوك بمثابة قطع شطرنج فى أيدى البابوات.

وقد يصور مدى ما وصل إليه استعلاء البابوية البيان الذى أصـدره البابا أنوسـنت الثالث فى أكتوبر سنة 1066.

- البابا هو الذى يضع القوانين الجديدة.
- كل أمراء الأرض يقبلون قدميه.
- البابا مقدس، إنه لا يذنب ولا يأثم.
- ليس لأحد أن يحاكم البابا.
- إن كل فرد يحتمى بالبابا لا يمكن الحكم عليه.
- البابا لا يخطئ ولا يمكن أن يخطئ.

فانظر إلى خليفة السيد المسـيح الـذى قـال "مملكـتى ليست فى هـذا العـالم" والذى أبى أن يتولى قسمة ميراث والذى غسل أقدام المصابين بالجـذام.. كيف أصـبح يحكم ممالك العالم ويرأس الملوك ويطالب الجميع بتقبيل قدميه !!.

وبعد إصدار هـذا القـرار بعشـرة أعـوام جـاءت واقعة كانوسا المشهورة عنـدما تمرد الإمبراطور هنرى الرابع على الكنيسة فأصدر البابا قراراً بحرمانه. فاضـطر سـنة 1077 أن يـذهب إلى البابا فى قرية كانوسا حيث كـان هنـاك وأن يقف على بابه ثلاثة أيام قبل أن يسمح له بالمثول بين يديه ويظفر بالصفح عنه.

وناصبت الكنيسة العلوم والفكر العـداء. وأقـامت وصـاية على نشر الكتب وذلك بإصدار ما يسمونه "الجدول **(INDEX LIBRORUM PROHIBTORUM)** الذى تعود فكرته وقراره الأول إلى مجمع نقيه سنة 325 عندما حرم كتاب الأسقف أريـوس المعنون **THALIA** ويعـود تـاريخ ظهـوره الفعلى مع تطبيقه على ما سـبق إلى مجمع ترينتى سنة 1564. وهذا الجدول يصدره البابا ويعـاد طبعه كل عـام، ويتضـمن أسـماء الكتب التى تحرم الكنيسة طباعتها وتداولها. ويدخل فيها بالإضافة إلى نصوص التـوراة والأناجيل غير المعتمدة لديها كتب كثيرة منها كتب لجـاليليو، وهـوبز، وديكـارت، وجـان جاك روسو، وفولتير، ومونتسكيو، وكـانت، وجوتـه، وسـبينوزا، وجـون سـتيورات ميـل، وفكتور هوجو، وفورييه، وماركس، وبرجسون الخ... وتمسكت الكنيسة بحماقة بفكـرة ثبات الأرض وأنها لا تدور، واعتبرتها قضية مقدسة ثلاثـاً وأنها أهم من أية قضـية تتعلق بالعقيدة المسيحية.

ووقفت الكنيسة دائمـاً فى صف النبلاء ضد الجمـاهير، وكـان للأسـاقفة تمثيل كبير خاص بهم فى مجلس اللوردات وقاوموا أولى الانتفاضات الجماهيرية فى بريطانيا الـــتى حملت اسم ثـــورة الفلاحين فى القـــرن الرابع عشـــر. كما قـــاومت الكنيسة

البروتستنتية وعلى رأسها وقتئذ مارتن لوثر نفسه قومة الفلاحين الألمان الـتى عـرفت باسم ثورة الفلاحين فى القرن السـادس عشـر، ودعا مـارتن لـوثر النبلاء إلى سـحقها بكل قوة.

وكـأن هـذه الضـرورة التنظيمية الـتى أدت إلى ظهـور الكنيسة واسـتئثارها بالمسيحية فى العالم الأوربى احتكارها لكل شئون الدين، وما يرتفق من شئون الـدين على الدنيا لم تكن كافية إذ اقترنت أيضا بالهيمنة على شـئون الحكم وإدارتها للسـلطة بحيث كان البابا هو الذى يتوج الملوك والأباطرة.

وألحقت السلطة بالمسـيحية وصـمتين كانتا أبعد ما تكـون عن روح المسـيحية الحقه الأولى الحـروب الصـليبية والثانية محـاكم (أو ديـوان) التفتيش.

بـدأت الحـروب الصـليبية باجتمـاع كلـيرمونت الـذى دعا إليه البابا أربـان الثـانى 1095 وطالب المجتمعين نائباً عن الرب قائلاً "لست أنا، ولكن الرب هو الـذى يحثكم باعتباركم وزراء المسيح أن تحضوا الناس من شتى الطبقات الخ...!! وبهـذه الكلمـات بـدأت الحـروب الصـليبية الـتى أعلنها البابا باسم الـرب، والـتى حمل فرسـانها علامة الصليب، والتى قاد الحملة الأولى فيها نـائب البابا وتـوالت الحملات حـتى بلغت سـبعاً كـانت أخراها حملة لـويس التاسع على مصر الـتى هـزم فيها وأخذ أسـيراً واسـتمرت طوال المدة منذ أن بـدأت سـنة 1095 حـتى اسـتعاد السـلطان قلاوون كل المنـاطق الإسـلامية الـتى كـان الصـليبيون قد فتحوها عـام 1291 وعنـدما فتح الصـليبيون فى حملتهم الأولى بيت المقـدس اقـترفوا المنكـرات ولجأ النـاس إلى المسـجد الجـامع فذبحوهم جميعـاً، ودام الـذبح فى كل أنحـاء المدينة حـتى بلغت الـدماء سـيقان خيلهم وغاصوا حتى الركب فى الدماء وقـدر أن سـبعين ألفا من الرجـال والنسـاء والأطفـال قتلوا..

كانت هذه الحروب أقوى دليل على استغلال السلطة للمسـيحية لتحقيق مـآرب سياسية دنيوية خالصة..

والوصـمة الثانية أشـنع من الأولى وهى محـاكم التفـتيش الـتى كونتها الكنيسة لمحاربة بعض الفئات التى لم تلـتزم بالخط الكـاثوليكى وأبـرزهم "الالـبين" نسـبة إلى "إلـبى" وهى مدينة صـغيرة فى جنـوب فرنسـا، ثم تقـرر تكوينها فى فرنسا وإيطاليـا، وألمانيا، ولكن أسوأ صورها كانت فى الأندلس "أسبانيا" حيث تـولت إبـادة المسـلمين بحيث ظهر الشـيطان فى شـكل أحد آبـاء الكنيسة وهو تريكويمـادا الـذى حمل الملكة إيـزابيلاً. وقد كـان كاهنها الخــاص. على أن تستصـدر من البابا سـكتوس الرابع أمـرا بتكوين ديوان التفتيش فى قشتاله سنة 1478 وديوان آخر فى أشبيليه سنة 1480م.

وقيل إن ضـحايا محـاكم التفـتيش منذ أن أسست سـنة 1333 لملاحقة الألبـيين حتى ألغيت نهائيا سنة 1835 وصل إلى تسعة ملايين[27].

وقد رأيت، وأنا أتصـفح كتابـاً عن تـاريخ أوربا فى القـرون الوسـطى صـورة أحد المخـالفين وقد ربطـوه من معصـميه ووضـعوا تحت إبطيه شـمعتين مشـتعلتين بينما جلس راهب يقرأ الإنجيل ليساعده على "خلاص" روحه !.

وهذه المحاكم هى التى حكمت على جوردانو برونو بالإعدام حرقـاً سـنة 1598 وهى أيضـاً الـتى تـولت تعـذيب جـاليليو رغم كـبر سـنه إذ "علق الحديد بعنقه وتـولى الجلادون تعذيبه ولما مثل أمام هيئة المحكمة جىء به عريانا حافى القدمين فربط إلى آلة خشبية وجلد وألبس فى رجله حذاء حديدياً محميا له مسامير" فإذا كانت هــذه هى طريقة تعذيب رجل مثل جاليليو، فلنا أن نتصـور تعـذيب المسـلمين الـذى عجـزوا عن مغادرة أسبانيا والنجاة بجلودهم

---

[27] **(27) محاكم التفتيش "تأليف الدكتور على مظهر" ص50. مطبعة أنصار السُنة المحمدية 1947 القاهرة.**

ولدينا أوصـاف لطـرق التعـذيب الـتى مارسـتها محـاكم التفـتيش يشـيب لهولها الولدان، ولا يتسع لها المجال، ولكن لإعطاء القارئ فكرة ننقل هذه السطور

"... كانت قاعة التعذيب مظلمة رطبة، جدرانها سـوداء. وقد ثبتت فيها مسـامير ناتئة قد صـدئت، يغلق عليها ببـاب من الحديد السـميك وفى أرضـها سلاسل ضـخمة مشدودة إلى حلقات الأرض. وكانت تلك السلاسل لربط المـذنبين حين تعـذيبهم. وإلى جـانب ذلك توجد مجالد من الجلد المعقـود على رصـاص ودواليب وسـحابات ذات مسـامير صـادئة حـادة لتمزيق الأجسـاد، وعضاضـات حديدية لعض اللحم، ثم أكاليل حديدية ذات مسامير حادة نائتة من الداخل تطوق بها جبهة المعـذَّب ثم يأخذ المعـذِب بتضييقها شيئاً فشيئاً بواسطة مفتاح يدور بلولب حتى تغرز المسـامير فى الـرأس. ثم هناك كلاليب ذات رءوس حادة لسحب أثداء النسـاء من الصـدور، وآلات لسل اللسـان من أصله، وأخـرى لتكسـير الأسـنان، وأحذية حديدية تحمى لدرجة الاحمـرار يلبسـونها لمن ساء حظه ووقع فى يد أولئك الوحوش، ثم أحذية أخرى حديدية ذات مسـامير من الداخل يضعونها فى رجل السجين ثم يأخذ الموكل بالتعذيب فى تضييقها شيئاً فشـيئاً، وسفافيد حديدية متباينة الأشكال لتحمى فى النار وتستعمل لكى المعـذب، ثم مشـنقة معلقة فى السقف لكى تشـنق المعـذب نصف شـنق، فلا هو حى فـيرجى ولا هو ميت فيوارى. ثم سلاسل ضخمة وأثقال حديدية معلقة أيضا فى نواحى مختلفة من السـقف ليربط فيها السجين وبينها، فتتجاذبه وتمزق أعضاءه تمزيقاً فى جهات عديدة، وتـابوت كان عبارة عن خزانة حديدية يقف فيها المعذب وفى بابها ست من الحـراب القصـيرة المثبتة. فإذا ما أغلق ذلك الباب بقـوة دخلت حربتـان فى عيـنى المعـذب فتنفـذان من مـؤخرة الجمجمـة، وتـدخل حربه فى قلبه وأخـرى فى معدته وأخريـان فى بطنـه. ثم كانت توجد آلات كثيرة لطى الأسنان وكسر عظام ظهره، ثم أخرى لإنـزال نقط المـاء البارد على رأسه بعد حلق شعره حـتى يجن المسـكين بعد سـاعات أو زمن قليـل. ثم إسفنج تغمس فى الماء المغلى لسلق المعـذب، ومطـارق ثقيلة لسـحق الـرؤوس، ثم صليب سمى (بصليب اندراوس) لصلب ضحايا التفـتيش، ثم مائـدة كبـيرة وضـعت فى جـانب البهو عليها ملاآت بيض وبجانبها برميل للمـاء. فـإذا ما أغمى على معـذب من شـدة الألم يضـعونه عليها ويلفونه بملاءة تبل بالمـاء البـارد لإنعاشه حـتى إذا ما أفـاق أعادوا تعذيبه.

وكـان يوجد فى وسط القاعة (الجحش الخشـبى) فكـان يربط السـجين إليه لإزهـاق روحه بواسـطة التضـييق على رئتيـه، فكـانوا يطوقـون صـدوه بآلة حديدية ثم يأخذون فى تضييقها بواسطة لوالب حتى تنقطع أنفاس المعذب المسكين.

وكـانت أرض قاعة العـذاب من خشب قـديم قد هـرأ ونخر السـوس فى أجزائه تتصـاعد منه رائحة كريهـة. أما المكـان الـذى كـان يجلس فيه رجـال التفـتيش فكـان مملوءاً بالصلبان وبالكتابة التى تشاهد عادة على القبور يقصد بذلك إلقـاء الـرعب فى قلوب المعذبين، وكانت تشـاهد دمـاء من عـذبوا من قبل عليها وكثـيراً ما تـركت جثث فى زوايا القاعة يقع عليها الذباب ويتصاعد منها كريه الروائح ليزيد كل ذلك فى خـوف المساكين الذين وقفوا أمام محاكم التفتيش. وقد أحـاط بهم رهبـان فى ثيـاب سـوداء وأغطية سـودا تغطى وجـوههم ورؤوسـهم لا تظهر منها إلا عيـونهم وقد وقفـوا وفى أيديهم كتب صلاة يرددون منها أنغام محزنة ومخيفة وبأصوات كلها الخشونة.

وكـان بعض هـؤلاء الرهبـان يجلس إلى جـوار رئيس المحكمة يمدونه بالنصـائح والإرشادات فى مسائل التعذيب والحكم على المضطهدين. وكان من بين هؤلاء القوم راهب يحمل بيده صليبا رسمت عليه صورة المسيح مصلوبا يأمر هذا الراهب المعذبين بإدامة النظر إليه.

وكـان يحضر التعـذيب طـبيب، عمله أن يفحص كل معـذب حـتى إذا أغمى عليه أمر بإيقاف التعـذيب وإنعـاش المسـكين بشـراب ما ليتحمل العـذاب فيعـاد تعذيبه من جديد.

وكان يحظر على المعذب إبـداء أى حركة أو صـراخ أو أنين. وكـان يكلف بـأن لا يرفع صوته.

وقد اخترعوا لذلك آلة حديدية كـانوا يضـعونها فى فم المعـذب المسـكين عوضا عن المناديل الـــتى توضع لمنع الصـــياح. وقد جعلـــوا فى تلك الآلة مربعا على هيئة الصليب ليتنفس منه المعذب ولا يمكنه الصراخ منه. ومن المستحيل عليه أن لا يصـرخ ولا يتألم وكيف يمكن ويتسنى أن يعـذب مسـكين مثل ذلك العـذاب ولا يبـدى حراكا أو يصيح من الألم الذى يمزق جـلده؟!"[28]

ما كان أغنى المسيحية السمحة عن أن تُرتكب تلك الموبقات باسـمها وبـدعوى حمايتها ولكنها السلطة التى تمسخ نفوس الذين يتلبسون بها.

كانت تلك هى بداية الانحـراف الـذى زج بالمسـيحية فى غمـار السـلطة والحكم والسياسـة.. الـتى أفسـدتها تمامـاً وحولتها إلى محكمة تفـتيش وجعلتها تـزجى وتعـبئ الجنود لإثـارة الحـروب.. ثم دخلت فى صـراع مع السـلطة هـزمت فيه لأنها خلطت ما بين الدين والسياسة وجعلها ذلك تعود لمهمتها الأصلية.

وكل واحد يقـرأ موعظة الجبـل، الـتى هى دسـتور الحيـاة المسـيحية ومنهجها لا يخالجه شك فى أن المسيح استبعد تماماً الحكم والسياسة وقال "مملكتى ليست فى هـذا العـالم" ورفض حـتى أن يقسم الإرث بين أفـراد عائلته وكـانت مهمته الوحيـدة تخليص الروح وإنقاذ النفس الإنسانية من الغوايات والشهوات والمآرب الـتى تسـتحوز عليها..

لابد أن تخلص المسيحية نفسها من هذا الوباء لتستطيع أن تخلص الناس..

لابد للكنيسة أن تغسل يديها من هذا الماضى وأن تعود إلى المسيحية التى جـاء بها المسيح وبلورها فى خطبة الجبل.

لابد أن تفهم أن السياسة والسلطة هى أسوأ ما يمكن أن تبلى به.

لقد تعلمت الكنــائس الأوربية هــذا الــدرس إلى حد مــا، ولكن بعض الكنــائس الشرقية فى حاجة لاستيعابه.

وقد يعيننا هنا، ويعين المسيحيين الغيـورين على المسـيحية، أن نعـرض رأيين لعـالمين من آباء المسيحية..

أول هـذين هو المونسـيور باسـيليوس موسى وكيل الأقبـاط الكاثوليك فى مصر سنة 1920 والثانى هو الأب متى المسكين وهو أحد آباء الكنيسة الأرثوذكسية فى تلك السـنوات الـتى ارتفعت فيها دعـوى "الفتنة الطائفيـة" وحـدث صـدام ما بين الكنيسة والسلطة.

قال المونسيور باسيليوس موسى[29] إن المسيحى عليه أن يخدم وطنه بإخلاص حتى لو لم يكن هذا الوطن مسـيحى ما دام لا يجـبره على تغـير عقيدته أو عبـادة آلهه أخرى لأن الوطنية شىء.. والـدين شـىء آخر واستشـهد بسـلوك المسـيحيين فى عهد الرومـــان، فـــإنهم قـــالوا " أيتها الدولة الرومانية إننا حقيقة لا نعبد آلهتك ولا يمكننا أن نعبـــدها، لكن أعلمى أننا رغما عن ذلك نحن أخلص النـــاس لك ولاء لأن الـــدين غـــير الدولة، الدين هو من اختصاصـات الضـمير، أما الدولة فإنها إما نتيجة ظـروف جغرافية طبيعية، وإما نتيجة الانتصارات، فلا دخل لها فيما يمس الضمير.

ويوجه المؤلف النظر إلى أنه رغم زيادة عدد المسيحيين وانتشار المسـيحية فى مختلف مستويات الناس ومسالك الحياة، فلم يخطر ببال هـذه الجمـوع، الـتى لا عـداد لها أن تثور يوما من الأيـام فى وجه الدولة أو وجه ملوكهـا، بل صـبر المسـيحيون على

[28] **(28) المرجع السابق ص79 إلى ص81.**

[29] **(29) انظر كتيب "الدين والوطنية" الذى ألفه المونسيور باسيليوس موسى سنة 1920 وأقر طبعه مكسيموس صدفاوى مدير رسولى بطريركية الأقباط الكاثوليك "لفائدة الشبيبة المسيحية".**

الاضطهاد وظلوا ثلاثة أجيال تُسفك دماؤهم عن طيب خاطر، وهذا دليل قطعى على أنهم مع تمسكهم الشديد بالنصرانية كانوا موالين لملوكهم فى نفس الوقت والزمن الذى كان هؤلاء الملوك يوقعون بهم كل أصناف الأذى والتعذيب.

وقد استشهد المؤلف بحقيقة أن التجنيد فى الجيش الرومانى لم يكن إجباريا ولكن عددا كبيراً من المسيحيين تطوعوا فى الجيش الرومانى وحاربوا تحت ألوية "النسر" ببسالة مع تمسكهم بدينهم، وأورد المؤلف حالات عديدة لفرق أو مجموعات من الجنود المسيحيين أراد الإمبراطور أو القادة إجبارهم على تقديم الذبائح للآلهة الرومانية ولكنهم رفضوا وتعرضوا للفناء وكان لسان حالهم كما ذكر أحد أفرادهم "حضرت سبع مواقع شهيرة لم أتقهقر فى واحدة منها وقت القتال بل كنت مثال الهمة والشجاعة كما يشهد رؤسائى فهل تظن أنى بعدما قمت بواجبى نحو الدولة بذمة وأمانة أخون واجبى الأسمى نحو الله".

وفى كل هذه الحالات لم يدفع المسيحيون محاولة الرومان بالقوة أو يدافعوا عن أنفسهم بحد السلاح، رغم أنهم كانوا مدججين به ومحنكين فى استعماله، ولكنهم آثروا أن يلقوا سلاحهم ويستسلموا لأعدائهم، وهذه الوقائع كلها تدل على أن "المسيحى خادم أمين لدولته كما أنه خادم أمين لربه، وأن الدين والوطن هما شيئان متمايزان من يقوم بفروضهما لا يقبل أن يخون أحدهما ولو اضطره الأمر أن يسفك دمه".

ويعيد المؤلف هذا الموقف على أساس مبدئى هو "اترك ما لقيصر لقيصر وما لله لله" وأن المسيح حقق فى حياته ذلك بدفعه الجباية عندما طولب بها، ودفع الجباية إقرار واعتراف بسلطان من يطلب الجباية، ولما سأله الفريسيون هل يلزم دفع الجزية أم لا؟ أجابهم بالإيجاب وأضاف إلى ذلك الآية الشهيرة التى تدل صراحة على التمييز بين السلطة الدينية والسلطة المدنية وهى "أوفوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله" ثم لما قصده أحد الناس وقال له يا معلم قل لأخى يقاسمنى الميراث "أجابه يسوع" قائلاً: "يا رجل من أقامنى عليكم قاضيا أو مقسما"؟ فصرح بكلامه هذا بأنه لم يأت إلى العالم ليكون ملكا أرضيا بل ملكا روحيا، وأن كل خلاف يدور حول الأرضيات يجب رفعه للسلطة المدنية.

وأن ما عمله المسيح قد عمله الحواريون.

قال ماربولس "لتخضع كل نفس للسلاطين العالية فإنه لا سلطان إلا من الله والسلاطين الكائنة إنما رتبها الله، فمن يقاوم السلطان فإنما يعاند ترتيب الله، والمعاندون يجلبون دينونة على أنفسهم، فلذلك يلزم الخضوع للسلطان".

إن هذا النص لا يحتاج إلى تأويل؛ لأن معناه واضح، وهو أنه يتحتم على المسيحى – من باب الذمة وتبعا لأوامر الضمير – أن يخضع للسلطة المدنية الشرعية، وقد جاءت هذه الآية فى رسالة ماربولس الموجهة إلى المسيحيين الرومانيين الذين كان يحكمهم فى ذلك العهد نيرون عدو النصارى والنصرانية، والذى طوح به الجنون إلى أن يحرق روما لينسب هذه الجريمة إلى المسيحيين حتى يهيج عليهم الرأى العام ويفتك بهم، فكان بولس يقول: "ليس لكم يا مسيحى روما عدو ألد من نيرون، ولكن بما أنه صاحب السلطة الشرعية فيلزمكم من باب الذمة والضمير أن تخضعوا له وقد أمر ماربولس الأسقف طيطس أن يذكر الشعب بوجوب الخضوع للرئاسات والسلاطين".

وما علمه بولس فقد علمه بطرس رأس الحواريين، إذ قال: "فأخضعوا إذن لكل خليفة لها عليكم سلطة شرعية، وأما للملك فكالأعلى (أى مثل الأعلى) وأما للولاة فكالمراسلين من قبله للانتقام من فاعلى الشر وللثناء على فاعلى الخير".

ويستطرد المؤلف:

"فهل يوجد شك بعد كل هذه البراهين الجلية والأدلة القطعية فى ان حقيقة التمييز بين الدين والوطن هى من أصول المسيحية؟ ".

وقد علم الرسل أنه يلزم الولاء الكلى للسلطة المدنية، وأمر بولس الرسول "أن تقام تضرعات وصلوات وتوسلات وتشـكرات من أجل جميع الناس، من أجل الملوك وكل ذى منصب، لنقضى حيـاة مطمئنة ذات دعة فى كل تقوى وعفاف فإن هذا حسن ومقبول لدى الله مخلصنا".

وعملاً بـأمر الرسـول لم تـزل الكنيسة منذ نشـأتها تطلب إلى الله فى صـلواتها الرسمية أن يحفظ الملوك فى سـلام، ويوطد بينهم الاتحـاد والائتلاف، ولو كـان هـؤلاء الملوك غربـاء عن النصـرانية أو أعـداء لهـا. ومن الجيل الأول إلى يومنا هـذا ما فـتئت الكنيسة القبطية مثلا تصلى كل يوم فى أثناء القـداس الإلهى (وهو أسـمى عمل ديـنى تعمله) من أجل الملوك والجنود والرؤساء والوزراء مع أنه منذ الجيل السـابع لم يحكم مصر إلا حكام غير مسيحيين والبعض منهم أساءوا إليهم وعـاملوهم بمعاملة لو ذكـرت لما شكرت".

والثـانى من هـذين هو الـراهب المتجـرد – مـتى المسـكين – كبـير رهبان دير وادى النطرون. الذى كان أشد صراحة ووضوحا فى إظهار أن الكنيسة المسيحية لها مهمة واضحة يجب ألا تتجاوزها أبـداً، وهـذه المهمة هى <u>تخليص النفـوس بالبشـارة المفرحة وكلمـات الـرب</u> عنـدما أجـرت معه جريـدة الأهـرام القاهرية حـديثا طويلاً عرض فيه هذه الفكرة[30].

وهو يرى أن تدخل الكنيسة حـتى فى الخـدمات الاجتماعية يخرجها عن مهمتهـا، ويوقعها فى متاهات، ويورطها فى مواقف تتعـارض مع دورهـا. وعنـدما سـأله المحـرر مـاذا عن علاقة الكنيسة بـالمجتمع؟ قـال: إن مهمة الكنيسة <u>ليست أن تخـدم المجتمع ولكن أن تخـدم الإيمـان وأن تخـدم المسـيح فى أشـخاص الخطـاة والعرايا والأذلاء والمشـردين</u> – وكلما خـرجت الكنيسة عن اختصاصـات مسـيحها وبـدأت تـنزع إلى السـلطان الزمـنى وتجيش العواطف والمشـاعر باسم الصـليب وزاغت وراء أمـوال الأغنيـاء وارتمت فى أحضـان أصـحاب النفـوذ <u>وحـاولت الجمع بين السـلطان الـدينى والسلطان الزمنى ودأبت على المطالبة بحقوق طائفية وعنصرية – فشلت المسـيحية فى تأدية رسالتها ودب فيها الخصام والنزاع والوهن وأقفل فى وجهها ملكوت السـماء</u> وصارت فى حاجة إلى من ينتشلها من ورطتها ويردها إلى حدود اختصاصاتها الأولى.

إن متى المسكين وهو يسـعى إلى إنقـاذ المسـيح فى إنقـاذ كنيسـته صـارم فى حـدوده. إنه يـرى حـتى فى ذلك الـدور الـذى تؤديه الكنيسة تحت عنـاوين من الخدمة الاجتماعية وغيرها خروجا عن دور الكنيسة.

لماذا؟

لأن الخدمة الاجتماعية – هكذا قول مـتى المسـكين – إذ تشـمل رعاية الشـباب اجتماعيا وتوجيههم وتثقيف العمال وفحص أحـوالهم ومطـالبهم والعناية بالطلبة وإقامة النوادى والمعسكرات وترتيب المؤتمرات لبحث المشاكل الداخلية والخارجية للشـباب بل وإقامة المستشفيات والملاجئ تدخل فى اختصاص نظام الحكم، فـإذا علمنا أن أى نظام للحكم لابد أن يكـون له اتجاهه الخـاص وخططه فى التوجيه والرعاية الاجتماعية لجميع ما عنـده من الفئـات فإنه يتحتم فى جميع الأحـوال أن تكـون الكنيسة دارسة لنظـام الحكم حـتى يكـون مخطط الكنيسة الاجتمـاعى موافقا ومطابقا لمخطط الحكومة، وإلا فالصدام بين الكنيسة والدولة أمر لا مفر منه.

إن أردنا الاستفاضة يجيبنا متى المسكين قائلاً:

إذا عجزت الكنيسة عن أن تضبط الإيمان بالإقناع والمحبة وهـرعت إلى الملـوك والرؤساء لتستصدر منشوراً بالإيمان تكـون قد أخطـأت الطريـق. إن الإيمـان لا يحميه السـيف ولا يحميه القـانون وإنما تحميه البشـارة المفرحة وكلمـات الـرب والإقنـاع بكلماته.

---

30 **(30) جريدة الأهرام فى 17/4/1980 ص3 "قراءة فى أوراق الأب متى المسكين" الأستاذ مكرم محمد أحمد.**

وعندما احتمت الكنيسة فى سيف قسطنطين الملك فى القرن الرابع ليتولى حماية الإيمان بالسيف ماذا حدث؟؟ قاد قسطنطين حربا صليبية فى العالم رافعا راية الصليب على سارى العداوة جاعلاً شعار الحياة هو نفسه شعار الموت، ربما لم يكن من العار أن يحارب أعداءه ولكن كان العار عليه – كل العار – أن يحارب أعداءه باسم الصليب.

إنه سيان أن تطلب الكنيسة القوة من السلطان الزمنى، أو تحض على الاستهتار بقوة السلطان الزمنى، لأن فى الأولى خروجا على اختصاص الكنيسة، وفى الثانية خروجا على منطق المسيح ووقوعا فى دينونة الله. إن الحض على الاستهتار بسلطة الدولة متمثلة فى السلطان الزمنى هو تشجيع للشر لأن الكنيسة لا ينبغى أبداً أن تأخذ موقف العداء من الدولة والوطنية، ومصدر الخطر أن الذين يلقنون الدين للجميع يبنون الفرقة والتحيز والانقسام والتكتل.

إن يسوع المسيح يقول ليس سلطان إلا من الله. كما أنه يقول أعطوا الجميع حقوقهم، الخوف لمن له الخوف، والسلطان لمن له السلطان، والإكرام لمن له الإكرام، وبالتالى فإن **تصرفات المواطن المسيحى فيما يختص بأمور السلطان الزمنى لا تقع تحت سلطان الكنيسة، فالكنيسة لا تستطيع ولا ينبغى لها أن تستطيع أن تلفت نظر وزير أو مسئول مسيحى فى تصرفاته الحكومية** لأنه ليس تحت سلطانها، الكنيسة فقط تسأل المواطن المسيحى فيما يختص بإيمانه وعقيدته وسلوكه الروحى، إن ذلك يؤدى إلى أن تكون حرية المواطن المسيحى مكفولة فى التصرف وإبداء الرأى والاشتراك فى كل ما يخص وطنه فى كل الأمور دون **أن تكون الكنيسة مسئولة عن تصرفه ودون أن تكون الكنيسة مسئولة عن تقصير أبنائها فى أدائهم الواجب الوطنى، ودون أن توحى الكنيسة لأبنائها بالتزام خطة معينة أو بسلوك تصرف معين تجاه الدولة حتى لا تكون الكنيسة مسئولة أمام السلطان الزمنى عن تصرف زمنى، لأن مسئولية الكنيسة فقط أمام المسيح وهى مسئولة فقط عن تصرفها الروحى.**

وباختصار يقول متى المسكين: إن وطنية المسيحى وكل ما يتعلق بها من تصرفات خاصة وعامة سواء فى الاجتماع أو الاقتصاد أو السياسة إنما تنبع من كيان المواطن لا من كيان الكنيسة، لأن الدولة هى المسئولة فى النهاية عن وطنية المواطن المسيحى لا الكنيسة أو رجال الدين.

إذا لم تكن تلك هى مهمة الكنيسة فما مهمتها على وجه التحديد؟.

إن صوت متى المسكين يصل إلينا من صومعته فى وادى النطرون خافتا خاشعاً ولكنه صوت واضح ومحذر، إنه يريد أن ينقذ الكنيسة من الخطر الذى يتهدد مصيرها إذا ما نسيت رسالتها الأصلية، إذا ما نسيت أن أخطر عدو يهدد كيانها بالانحلال هو أن يهتم القائمون على أمرها بموضوع آخر غير خطيئة الإنسان فيتركوا دعوة المسيح للخطاة وهى التى كانت مهمته العظمى لينشغلوا بالإنسان من جهة حياته الاجتماعية، إن ذلك فى رأيه ليس فقط خروجا على المسيحية، ولكنه مقاومة لها.

كيف ذلك؟ مرة أخرى يعيد متى المسكين على مسامعنا صوت بولس الرسول "صادقة هى الكلمة ومستحقة كل قبول أن المسيح يسوع جاء إلى العالم ليخلص الخطاة الذين أولهم: أنا"!.

إن الأمر فى رأيه وفى رأى بولس الرسول بالغ الخطورة، لأن الذين يحاولون أن يخرجوا الكنيسة عن مهمتها إنما يفعلون ذلك لعدم قدرتهم على الكرازة بالتوبة لتجديد الإنسان وخلاصه؛ لأن الخسارة التى سوف تجنيها الكنيسة من جراء ضم مواضيع جديدة للكرازة سوف تنتهى أخيراً بانطفاء سراج المناداة بالتوبة لخلاص الخطاة.

إن القـائمين على الكـرازة فقـدوا الطريق الموصل إلى قلب الإنسـان، فأخـذوا يــدورون فى متاهــات جانبية بعيــدة تمامــاً عن مهمة الكنيســة، بل لقد ضــيع هــؤلاء بموقفهم، ذلك المفتاح المقدس الذى سلمه الرب يسـوع إلى الكنيسة ليـدخلوا به إلى قلوب الخطاة؛ لأن المفتاح الكبير الذى سلمه الـرب إلى الكنيسة هو أن تفتح ملكـوت السماوات للخطاة ولكنها ضـيعت المفتـاح عنـدما انشـغلت بـأموال الـدنيا وتلاهت عن خلاص الخطاة بمهمة أخرى.

إن هؤلاء ينسون أن المسـيح لم يخلط أبـداً بين مملكة الله ومملكة الـدهر، لأن محاولة الكنيسة الاهتمام بالأمور الزمنية باسم المسيح هو بمثابة تنصيب المسـيح ملكا على الأرض، كما أن تقوية سلطان الكنيسة بدعوى المطالبة بحقوق الجماعة هو رجعة لإقامة ملك المسيا كما يحلم به اليهود.

إنه فيما لو صُـفى فكر الكنيسة من كل أطمـاع الـدنيا وفيما لو نفضت عنها كل الحقوق المطلوبة والحقـوق المسـلوبة حينئذ سـتذكر الكنيسة قـول سـيدها "مملكـتى ليست من هذا العالم" ستتذكر أن التوبة ينبغى أن تكـون شـغل الكنيسة الشـاغل لأنها رسالتها.

* * *

وعنــدما يقــول الأب باســيلوس إن الــدين شــىء والوطنية شــىء آخــر، وإن المســيحى الأمين يخــدم دولته حــتى وإن لم تكن مســيحية ما دامت تكفل له حرية عقيدته المسيحية. وعندما يقول الأب متى المسـكين إن المهمة الوحيـدة للكنيسة هى أن تكفل الإيمــان للمســيحى بحيث يكــون الخلاص – خلاص النفس، وخلاص الجسد هو الأمل الأسمى.

وعنـدما يستشـهدان بكلام السـيد المسـيح وآبـاء الكنيسـة، فإنهما فى الحقيقة يتلاقيان مع القرآن الذى يقول – ويكرر إن الدين لله، وإذا كـان الـدين لله فعندئذ يتسع الوطن للجميع فالمسيحى لا يرفض خدمة الدولة غـير المسـيحية. والدولة المسـلمة لا ترفض خدمة المسيحى.

الأديان ُتجِّمع وتصلح، ولكن السلطة تفرق وتفسد..

الفصل الثامن
السلطة تفسد الاشتراكية
وتجعلها دولة الحكم الشمولى

لم ترزق دعوة من الدعوات – باستثناء الأديان – ما رزقته الاشتراكية من الذيوع والانتشار والتأثير، وقد ظهر ذلك بمجرد أن صدر فى عام 1844 المانيفستو الشيوعى الذى صاغه ماركس وأنجلز فى عبارات كالرصاص المصهور، وتبنى دعـوة المظلـومين والمستغلين وتنبأ بخراب بيوت الرأسماليين، وانهيارها وقيام دولة العمال..

كان سر قوة الاشتراكية أنها قدمت تنظـيراً يتزيا بـالعلم، ويتقـدم بأسـلوب أشد الدعوات حرارة وعاطفية، وأنها رفعت راية العدل ضد الاسـتغلال وجـاء هـذا فى وقت كانت الكنيسة – الممثلة للضمير المسيحى – قد تحجرت وتقولبت وانحصرت رسـالتها فى الطقوس فآمن بالاشتراكية كل ذوى القلوب الطيبة والضمائر الحية وانتشرت أكثر من أى نظرية سياسية فى العصر الحديث وتأثر بها الفكر السياسى حتى فى الولايـات المتحـدة ومن يقـرأ كتـاب فوكوياما عن "نهاية التـاريخ" يجد أنه متـأثر بمنطق وجدلية ماركس أكثر من قواعد آدم سميث رسول الرأسمالية ومنظرها.

وعنـدما ظهـرت الاشـتراكية فى أسـبانيا فى ثلاثينـات القـرن الماضى وأرادت إيطاليا الفاشـية قهرها تقـاطر على مدريد قوافل من المتطـوعين والمفكـرين من كل دول القارة الأوربية للدفاع عن الجمهورية الاشـتراكية الأسـبانية – مما يـذكرنا بتقـاطر المتطـــوعين الإســـلاميين على أفغانســـتان والبوســـنة والهرســـك، وقد لاقى معظم المتطوعين الأوربيين ما لاقاه "الأفغان العرب" أو المتطوعون فى البوسنة ...

ولأن الاشـتراكية – حـتى عند مـاركس – كـانت نظرية أكـثر مما هى عقيـدة – وبوجه خاص فى مرحلته الأولى – فإنها كـانت كتابا مفتوحـاً أمـام المفكـرين فظهـرت فيها من التيــارات ما يفـــوق ألـــوان الطيف وتحت معطفها الواسع ظهر الفوضـــويون، والفابيون والبرلمانيون والثوريون الخ ...

لقد أمن الملايين من الرجال والنساء من عمال ونقـابيين وفنـانين وأدبـاء الخ... فى أربعة أركان الأرض بالمثاليات الـتى تصـوروها فى الاشـتراكية: العـدل، المسـاواة، التحـرر من الفاقـة، كرامة الإنسـان، حكم الجمـاهير، مقاومة الاسـتغلال الرأسـمالى والاسـتعباد الإمبريـالى الخ... وتعرضـوا فى سـبيل هـذا – على مـدار قرابة قـرن – من منتصف القـــرن التاسع عشر حـــتى بـــدايات القـــرن العشـــرين لكل صـــور الاضـــطهاد والـــترهيب. وضـــحوا بحيـــاتهم فى الســـجون المظلمة أو تحت وطـــأة التعـــذيب فما استسلموا ولا استكانوا حتى نجحوا أخيراً وبصورة فـاقت أحلامهم عنـدما قـامت "دولة العمـال والفلاحين" فى روسـيا – على سـدس العـالم ورمز الرجعية والأتوقراطيـة، وبزعامة شخصـية أسـطورية بلـورت كل أحلام البطولة ومثاليـات الكفـاح والتضـحية ووصلت الثقة فيها والإيمان بها درجة التقديس.

ولنا أن نتصور الفجيعة التى أطبقت على الأجيال التى قدر لها البقاء عندما رأت أن الأمل الوردى الذى كافحت فى سبيله وضحى الآباء والأجداد لتحقيقه أصبح كابوسـاً رهيباً أفظع وأشنع من الرأسمالية المستغلة، ومن يد هذا المنقذ نفسه نبى الماركسية المعصوم تجرعوا كؤوس السم وغصص العذاب وزج بهم فى السجون ...

فهل هناك "دراما" أشد مأساوية من هـذه... وما عسى أن تبلغ أى تراجيـديا عن رجل وامرأة – حبيب وعشيقة أمـام هـذه الجائحة الـتى اجتـاحت الملايين وقضت على آمال الأجيال.

لقد ظن العمـــــال – ولهم الحق – أن قد آن الأوان لكى يتحـــــرروا من التبعية المهينة للقيصــر، والكنيســة، والنبلاء، والإقطــاعيين، والرأســماليين، وأن يتخلصــوا من عبودية الأجــور. وكل صــور الاســتغلال الرأســمالى وما تــؤدى إليه من قضــاء على الشخصية وإصابة بالاغتراب.. وظنوا أنهم إذا لم يتولوا بأنفسـهم إدارة الدولـة، فلا أقل من الاقتصـاد بعد استئصـال الرأسـمالية والرأسـماليين وتحل نقابـاتهم المحبوبة محل الرأسماليين..

ولكن من كانوا فى السلطة. وعلقـوا عليهم الآمـال كـان لهم رأى آخـر.. يختلف عن أراء العمال من الألف للياء..

هيمن ليـــنين وتروتســـكى على الثـــورة وكانا فى حقيقة الحـــال من بنـــاة الإمبراطوريات وليسا من دعاة الاشتراكيات وكان لديهما من الحسم والإرادة والعزيمة والمقدرة والذكاء ما يجعلهما أمثال إيفان الـرهيب أو بطـرس الأكـبر. وكـان فى لينين عرق تترى يقربه من جنكيزخان. كما كان لتروتسكى جذر توراتى يجعله يوشع العصـر. يفعل كما فعل يوشع التوراتى من تدمير وتقتيل وتذبيح ...

وكان كل منهما يؤمن بالثورة إيمانا ملأ جنبيه ولم يدع مكانا لأى شئ آخـر. وآمنا أن الثـورة هى وسـيلة السـلطة، وأن السـلطة هى وسـيلة القضـاء على الرأسـمالية، وإقامة الاشتراكية، ولكنهما نسيا أن بلاء الرأسـمالية جـاء من الملكية الفردية لوسـائل الإنتاج وهذه الملكية ليست إلا جزءًا صـغيراً من السـلطة، الـتى أفسـدت الرأسـمالية، لأن السـلطة مفسـدة، وأثبتت تجربة التـاريخ أن كل واحد يسـتخدم السـلطة لتحقيق أغراض – مهما كانت نبيلة – فـإن السـلطة تسـتخدمه وتخضـعه لإفسـادها.. وكل واحد يريد أن يصبح سيدها لا يلبث أن يصبح عبدها لأن السلطة هى المصدر الأكـبر للشـرور ومن يتحراها فإنه يضع نفسه تحت رحمة هذه الشرور، بل ويعمل تبعاً لها.

ومما ضاعف، وفـاقم، فى شر السـلطة اللينينـة/ التروتسـكية أنها كـانت مطلقة لأن فكـرة الثـورة جعلت ليـنين يبـدع نظريته فى الحـزب ودفعت تروتسـكى لأن يقحم نظريته فى عسكرة العمل.

والحــزب اللينيــنى هو الحــزب الثــورى، أى الحــزب الــذى يتكــون من ثــوريين محترفين يعملون تحت قيادة منظـرين اشـتراكيين ويختلف هـذا الحـزب عن الأحـزاب الاشــتراكية الــتى كــانت ســائدة طــوال الدولية الثانيــة، وكــانت تحمل اسم الحــزب الاشتراكى الـديمقراطى وتعمل بوسـائل إصـلاحية وتسـاهم فى الانتخابـات البرلمانيـة وينخرط فيها كل من يدفع اشتراكا. كان حـزب ليـنين شـيئاً مختلفـاً، إنه لا يقـوم على هــواة أو يضم كل من يــدفع اشــتراكاً شــهرياً أو يحضر اجتماعــاً. إنه يقــوم على ثــوار محـترفين يجعلـون الثـورة حـرفتهم الأساسـية، والسـلطة هـدفهم الوحيد ويصـبح هـذا الحزب هو "دينامو" الثورة الـذى يجـذب إليه الهيئـات الجماهيرية كالنقابـات واتحـادات الطلبة الخ... وتكـون هـذه منه بمثابة **"السير ناقل القـوى"** من الحـزب الـذى هو الدينامو والمحرك إلى الجماهير..

وتقتضى طبيعة هذا الحزب أن يكون محدود العـدد لأنه لا يأخذ كل من هب ودب وإنما يأخذ أصلح وأصلب العناصر فى الهيئات الجماهيرية ويعد طليعة لهـا. ويسـتطيع – وإن كان أقلية – بفضل تنظيمه وضبطه أن يهيمن على المجتمع ويكفل السيطرة على الهيئات الجماهيرية، ومن ثم على الشعب..

وكانت هذه الفكرة عن الحزب من أكبر أسـباب ثـورة ليـنين على الدولية الثانية وأحزابها ولم يسـترح إلا بعد أن توصل بعد نجـاح ثـورة أكتـوبر – إلى تحويل الأحـزاب الاشتراكية الديمقراطية التقليدية إلى النمط الذى اختاره وكـانت الخطـوة الأولى هى تحويل اسم "الاشتراكى الديمقراطى" إلى "الشيوعى"، ثم وضـعت الدولية الثالثة 21

شـرطاً لمن تنضم إليهـا.. كـانت تجعلها على غـرار الحـزب اللينيـنى وتجعل ولاءها كله للاتحاد السوفيتى.

فإذا كانت الفكرة فى الحـزب هى التوصل إلى السـلطة، فـإن فكـرة ليـنين تعد إبـداعاً فقد أحل محل الجيش الـذى كـان يقـوم بالانقلابـات العسـكرية جيشـاً مـدنياً يستطيع السيطرة على المجتمع بحكم تنظيمه حتى وإن لم يستخدم المدافع والقنابل. وإنما الإرادة الثورية والتنظيم الدقيق.

ولما كان هدف لينين من الثورة هو السـلطة، فـإن الحـزب هو الأداة المناسـبة. وقد نجح بالفعل فى أن يصل إلى السلطة، وأن يحافظ عليها بضعة عقود من السنين..

ولكن هــذه الفكــرة كــانت تتضــمن عديــداً من المخــاطر لم ينتبه لها ليــنين لاسـتغراقه فى الممارسـات الثورية – **أولها**: وأهمها ما أشـرنا إليه آنفـاً من إفسـاد السـلطة لكل من يسـتخدمها وليست الملكية الـتى أفسـدت الرأسـمالية إلا نوعـاً من السلطة. **وثانيا:** لأن حزباً بهذا الشكل – يمكن أن يكون نواة لطبقة جديـدة تظهر فى المجتمع، نواة محدودة العـدد وفى يـدها أزمة السـلطة، وبهـذا يظهر المجتمع الطبقى ويحل أعضاء الحزب محل الرأسماليين أو الإقطاعيين وأن يكـون هـؤلاء من العمـال أو أنهم يستهدفون الثورة لا يغنى فتيلاً لأن نجاح الثورة يعنى اسـتحوازهم على السـلطة، وتحولهم من ثـوريين إلى حكـام والنتيجة هى غـرس طبقة جديـدة فى مجتمع أريد من ثورته القضاء على الطبقات. وهذه ولا شك واحـدة من أكـبر المفارقـات السـيئة الـتى لوثت النظام رغم كل محاولات لينين إيجاد ضـمانات لكى لا يفسد هـؤلاء الأعضـاء.. إلا أن السـلطة فى النهاية انتصـرت فظهـرت الطبقة الـتى تحـدث عنها اليوجوسـلافى ميلوفان دجيلاس..

وثالثا: لأن تكوين حزب محدود العدد بهذا الشكل لابد وأن يكون أقليه بالنسـبة للهيئـات الجماهيرية لأن الحــزب لا يضم كل العناصــر، ولكن أذكى وأقــوى العناصر – وهؤلاء قلة بالنسبة للباقين. فضلاً عن أن تدريب أعضاء هـذا الحـزب لا يتـأتى إذا كـان عــدده جسـيماً. فقلة عــدد الحــزب الــذى يلى الســلطة لا يعــنى إلا أمــراً واحــداً: **الديكتاتوريـة. الـتى لابد منها ليمكن للأقلية أن تحكم الأكثريـة" ومن هنا جاءت فكرة الإرهـاب بالجملة Wholesale Terror كما ذكر صـراحة فى الجلسة السرية للحزب فى بتروجراد قبيل الثورة(31).**

ولكن لينين كـان متقبلاً لهـذه الديكتاتورية على أسـاس أن ديكتاتورية البلورتاريا ليست ديكتاتورية عسـكرية أو إقطاعيـة. وما فاته هو أن الديكتاتورية واحـدة ولا علاقة لها بطبيعة الأشخاص لأنها ممارسات. وإذا اقترنت بنظام سياسى فلا مفر من سقوطه فى النهاية مهما طال الأمد فضلاً عن أنها تفضى إلى ارتكاب ويلات لا عـداد لها لأفـراد

---

31 **(31) The Russian Revolution in today perspective by Ernest Bock, p. 830.**

ويجب أن نقول إن جانباً كبيراً مما حدث فى الثورة قد لا يكون مكتوباً لأنه تم على أساس أوامر شفهية أو سرية وكمثال فقد جاء فى مقال للكاتب اليسارى الأستاذ محمد عودة فى مجلة الأهالى القاهرية نقلاً عن مجلة السياسة الدولية لثلاثة من الكتاب السوفيت عن "البيروسترويكا والدين" هم سيمسوف - كوفاليف – لينين ما يلى: "وفى الوثائق التى نشرت أخيراً عثر على خطاب سرى وخاص وبخط اليد أرسله لينين إلى مولوتوف وطلب منه أن يقرأه على أعضاء المكتب السياسى كل على حدة وألا تطبع منه أى نسخة وجاء فيه "لابد من إتخاذ أشد الإجراءات وإنزال أقصى العقوبات برجال الكنيسة الأرثوذكسية وأوصى بأنه كلما قضينا على أكبر عدد من القسس الرجعيين أو من البرجوازيين الرجعيين رمياً بالرصاص كان ذلك أفضل لابد أن نلقنهم درساً لا ينسونه ويشل أى تفكير فى المقاومة لحقب طويلة" ويقول الكاتب – الأستاذ محمد عودة – إن ذنب الكنيسة والقسس أنهم قاوموا مصادرة أموال وكنوز الكنيسة لمقاومة المجاعة.

لا عداد لهم والوقوع فى أخطاء لا تجد من ينبه عليها ويحذر منها حتى تتفاقم ويأتى السقوط والموت فى النهاية – كما حدث فعلاً للهرم الذى أقامه لينين فإنه أنهار كبيت من ورق بعد سبعين عاماً وانهارت معه كل "إنجازات" لينين..

وأخيراً فإن الحزب الذى يقوم على الاحتراف الثورى يجد نفسه فى مأزق عند النجاح فى الثورة والاستحواز على السلطة لأن هذا يعنى نهاية المرحلة الثورية وبدء مرحلة الاستحواز على السلطة. وهما مختلفتان تماماً فى الأولى الجهاد والتضحية والتعرض للسجون الخ... وفى الثانية إغراء السلطة من مال وكبرياء أو استمتاع. وكان من المآزق التى تعرض لها الحزب أنه إذا كان من العمال فقلما يتوفر فيهم المهارات الفنية ويصبح من الضرورى استقطاب جموع من الطبقة الوسطى يحملون – رغم أنفهم – رواسب طبقتهم وسيكولوجيتها، ولا يكون الحزب عندئذ عمالياً أو بلوريتاريا ولكن بورجوازيا..

* * *

لم تكن هذه المخاطر ماثلة فى ذهن لينين لأن فكرته كانت من البساطة والوضوح بحيث لا تفسح مجالاً للتفصيل. فالثورة هى الطريقة إلى السلطة والسلطة هى وسيلة تحقيق الاشتراكية.. والحزب البلوريتارى هو الذى سيمارسها. أما من لم يصل به الإيمان بالسلطة إلى حد الهوس مثل روزا لوكسمبرج وبليخانوف وكاوتسكى وكانوا من أساطين الاشتراكية وأطلق فيما أطلق عليهم لينين الانتهازيين والهراطقة والمنشفيك – فإنهم تبينوا هذه المخاطر وكان ذلك فى أساس معارضتهم له، والسبب الذى من أجله صب عليهم جام غضبه.

ومن الإنصاف للينيين أن نقول إنه لم يتردد فى إعلان آرائه والدفاع عنها، ففى وقت مبكر (1905) فى كتابه الهام جداً "ما العمل" صارح العمال بفظاظة أنهم لا يستطيعون تكوين حزب، وإنما يستطيع ذلك الانتلجنسيا المتعاطفة مع العمال من الطبقة الوسطى وأن ماركس وإنجلز لم يكونا من العمال وأن قصارى ما يستطيعه العمال هو تكوين النقابات التى قد تستطيع رفع الأجور شيئاً ما.

ولكن أراء لينين لم تكن تصل إلى القاعدة العريضة من العمال أو الملايين منهم الذين لم يعرفوا عنه إلا الصلابة والتفانى والحسم والبساطة فى المظهر والبعد عن كل مظاهر التميز والترف والترفع. وأنه ليس من النوع الذى يتأثر بالمديح أو يخدع بالإطراء... فهذه الخلائق التى كانت تقربه من العمال هى ما كان العمال يعرفونه عنه. أما آراؤه النظرية فهذه كانت تثار فى دوائر الحزب، وكان لدى لينين مقدرة فذه على انتزاع الموافقة على أرائه. وكان يبذل فى هذا جهداً جباراً ويستخدم كل الوسائل فيلوث خصومه ويصفهم بأقذع الصفات[32]. ويخلط الأوراق ويستعين بمزيج من السفسطة والشواهد التاريخية.. باختصار لا ينثنى فى النهاية حتى "ينتزع" موافقة المجتمعين. وبهذه الطريقة حول مجموعته من "منشفيك" أى أقلية إلى "بولشفيك" أى أغلبية.

* * *

بالإضافة إلى نظرية الحزب، فإن لينين أبدع قاعدة <u>المركزية الديمقراطية</u> كأساس للأداء وهى 90% مركزية و10% ديمقراطية أريد بها تحقيق المركزية تحت غطاء ديمقراطى لأنها تقتضى :

1- كل الهيئات الجماهيرية تنتخب من القاعدة بواسطة الأعضاء وُتسأل أمامهم.

2- تتبع الهيئات الجماهيرية فى إدارتها لنشاطاتها القواعد التى تقررها الهيئات الأعلى

3- يبتّ فى القرارات بمقتضى أغلبية الأصوات.

---

[32] **(32) تحدث إحدى المرات عن كاوتسكى بأنه "يعوى ككلب صغير ضال" وقد كان كاوتسكى يُسمى "بابا الماركسية" ويأتى بعد ماركس وأنجلز مباشرة.**

4- تتبع الهيئات الدنيا الهيئات الأعلى منها.

ولم يكن النظـام الحديـدى للحـزب يسـمح بـأى درجة من الحرية خـارج الإطـار المقرر ويعتبر ذلك "فوضوية" "إنحراف" "انتهازية" ويتعرض من يتهم بها ليس فحسب للطرد من الحزب بل وفقد مركزه فى المجتمع.

لا جدال أن رجلاً بمثل صفات لينين ما كان يؤمن أبداً بديمقراطية أو حريـة.. ولا يعـرف إلا الحسم وعندما تـولى السـلطة وجد أمامه أكداسـاً من المشـاكل وأعـداء عديـدين ينفسـون عليه الانتصـار السـهل الـذى حصل عليه فى أكتـوبر... لم يكن لديه وقت لفك العقد.. وكـان يجب قطعها ولم يكن هنـاك وقت لتأجيل أو إرجـاء خاصة وأن العالم الرأسمالى بدأ المقاومة.. ولما كـان لا يـؤمن بحرية أو ديمقراطية بل يـرى فيها أكاذيب وتحايلات من البورجوازية، ولما كان لا يمثل إلا أقلية، فلم يكن هناك مناص من أن يفرض القرارات بالقوة ولتامين ذلك أسس أكـبر جهـاز مخـابرات عـرف حـتى ذلك الوقت فى العالم بأسـره وسـماه "درع الثـورة" وأطلق له الحرية فى ملاحقة "أعـداء الثورة "..

وكــانت آراؤه فى إدارة العمل والاقتصــاد والإنتــاج مما يتفق مع هــذا المجــرى الرئيسى، وكان كثورى لا يثق فى النقابـات وكرجل "محـترف" لا يـؤمن بالهواية وكـان يرى أن الإنتـاج معركة كبـيرة صـعبة، ومعقـدة، وتتطلب خـبرات ومهـارات وقـدرات لا تتوفر للعمال ...

فى الوقت نفسه، فإن العمال ما إن بدأت الثورة حـتى أخـذوا زمـام الأمـور فى أيديهم فتكونت فى المصانع لجان تولت إدارتها كما قامت النقابات بدور فى ذلك.

وهكـذا ظهر فى الأيـام الأولى للثـورة نـوع من التقطب ما بين لينـين وآرائه عن الإدارة وأنها يجب أن تقوم على فرد واحد مسؤول يصدر الأوامر التى يطبقها العمــال، وما بين رأى القاعدة عن الإدارة العمالية التى تقوم بها لجان من العمال أو مسـئولون نقابيون.

وشـاهدت الفـترة ما بين مـار س ونوفمـبر سـنة 1917 نمـوا ملحوظـاً للجـان المصـانع وفى أبريل سـنة 1917 أعلن اجتمـاع لجـان المصـانع فى بـتروجراد "أن كل التعليمات الخاصة بالإدارة الصناعية فى المصنع مثل طول عمل اليوم، الأجـور، تعـيين وفصل العمـال، الإجـازات الغيـاب الخ... يجب أن تصـدر عن لجنة المصـنع" كما عقد مــؤتمر آخر للجــان المصــانع فى بــتروجراد أيضــاً (يونيو ســنة 1917) ســيطر فيه الشـيوعيون. ودعا إلى تنظيم دقيق لرقابة العمـال على الإنتـاج والتوزيع "وإلى وجـود أغلبية بلوريتارية فى أجهزة السلطة التنفيذية"..

لقد ظن العمــال أن الفرصة التاريخية لتحقيق علاقــات العمل الاشــتراكية قد حانت. ولكن لينين لم يكن يؤمن بهـذا. إن الخيانة التاريخية الـتى لا تغتفر أبـداً للينـيين هى أنه أجهض فرصة الجماهير الاشتراكية لتقـوم بإرسـاء علاقـات عمل تخلص بها من سياسة الرأسمالية البغيضة وعبودية الأجور، كـان تقـوم إدارة ينتخبها العمـال بـدلاً من الرأسمالى. وأن يحل وازع الإيمان الاشتراكى محل وازع الربح. وكان هذا ممكنا للمرة الأولى فى التــاريخ الاقتصــادى بعد القضــاء على الملكية الفردية للمصــانع وانتفــاء التناقض ما بين العمال والرأسماليين. تلك كانت اللحظة التاريخية الـتى أضـاعها ليـنين على التجربة الاشـتراكية فى العـالم أجمع واسـتحق بـذلك سـخط بـل، لعنة العمـال الاشتراكيين حقاً.

ولم يكن لـدى لينـين إيمـان خـاص بأسـاس اشـتراكى فى العمل مع أن قطـار التطور كان مستعداً ليبـدأ مسـيرة علاقـات العمل الاشـتراكية البديلة عن الرأسـمالية البغيضــة، ولكن ســائق القطــار لينــين غَّير مســار القطــار بحيث يســير فى الطريق الرأسمالى نفسه.

كـان لينـين قد قـال أن "كهربـة" الاتحـاد الاشـتراكى هى أهم شـىء ورأى أن الكهربة + الاتحاد السوفيتى = الاشتراكية، ولكن الولايات المتحدة كهـربت بلادها دون

حاجة إلى اشتراكية، وعندما تم هذا لم تصبح اشتراكية. والنقطة الهامة التى فاتت ليـنين – وكـان لابد أن تفوته لما سنعرضه من أسـباب – أنه من الممكن للاتحـاد السوفيتى رغم تخلفه أن يصل إلى الكهرباء بفضل إيمان عمال الاتحاد السوفيتى. وقد كانوا يؤمنون بذلك ولكن لينين لم يثق بهذا النوع من الإيمان لأنه يقوم على النفس الإنسانية، وهو كالرأسماليين لا يؤمن بالنفس الإنسانية وإنما يؤمن بالمادية التاريخية وبالتالى بالوسائل العملية، وفى سباقات العربات فى العصور القديمة كان كل سائق يلهب خيوله أكثر من غيره ليستخلص منها كل ما يمكن أن تقدمه. وكان هذا الأسلوب أحد الضرورات البغيضة لأن الخيل لا تبذل أقصى الجهد إلا عندما تتعرض لأقصى ألم مـادى. ولكن الإنسـان يختلف عن الخيـول. وفيه طاقة إيمانية يمكن أن تفعل المعجـزات، ولكن الالتجاء إلى هـذا كـان التجـاء إلى "الإيمـان" ويمكن أن يجعل الاشتراكية "دعوة" ولينين لا يرى فيها سوى أنها أداة المادة التاريخية ومن ثم فإنه لجأ – كأصحاب السباق القديم – لإلهاب ظهور العمال ليستخرجوا آخر قطرة عرق، وكانت هـذه صورة بدائية من صور الاستغلال تجاوزتها الرأسمالية نفسها التى لجأت إلى وسائل "المحفزات" فى الأجور، بل وبعض صور "العلاقات الإنسانية".

كان لينين يؤمن "بالإنتاج" أكثر مما يؤمن "بالإنسان" يؤمن بفاعلية الثواب والعقاب أكثر مما يؤمن بفعالية الإيمان الاشتراكى، وكان ككبار الرأسماليين الذين أقاموا صناعات الحديد والصلب والبترول والسيارات الخ... وإن كان أسرع تطبيقاً للإدارة العلمية من هؤلاء العباقرة الرأسماليين.

وبهذا فوت على التطور العالمى الفرصة الفريدة لإمكان وضع علاقات عمل اشتراكية محل الرأسمالية. وهذا الخطأ، وهذا الانحراف وهذه الخيانة.. مما لا يمكن على الأقل من وجهة النظر الاشتراكية أن يغتفر..

ووصل الصراع ما بين العمال الذين كانوا يريدون إقامة علاقات عمل اشتراكية وبين لينين الذى آمن بالإدارة العلمية إلى قمته خلال مايو ويونيو 1918 فى المؤتمر الأول للمجالس الاقتصادية فتحدث لينين بقوة مؤيداً "انضباط العمل" وإدارة الفرد الواحد، والحاجة إلى استخدام الخبراء البورجوازيين، بينما طالب العمال بإدارة عمالية لا تكون من أعلى فحسب، ولكن من أسفل أيضاً، وأن يكون ثلثا أعضاء مجلس الإدارة من العمال المنتخبين ونجحوا فى أن يحملوا المؤتمر على تعيين لجنة فرعية تمهيداً لقبول هذا الاقتراح، وغضب لينين غضباً شديداً لهذا "القرار الغبى" وبتوجيهه عقدت جلسة كاملة للمؤتمر "صححت" القرار وذلك بأن نصت بأن لا يزيد المنتخبون من العمال عن الثلث، ووضعت بنيانا هرميا معقداً يعطى حق "الفيتو" للمجلس الاقتصادى الأعلى. وهو قمة الهرم الإدارى.

وخلال سنة 1919 والشهور الأولى من سنة 1920 ظفرت المعارضة ضد لينين وأفكاره عن "إدارة الفرد الواحد فى الصناعة" بتأييد النقابات. فقد دعا لينين وتروتسكى معاً المجلس التنفيذى للنقابات يوم 12 يناير سنة 1920 لقبول فكرة "عسكرة العمل" فلم يؤيدها سوى اثنين من ما يزيد على ستين من المندوبين الشيوعيين وعلق "دوتشر": "لم يسبق أن قوبل تروتسكى ولينين بمثل هذا الصد العنيف ".

وفى أبريل سنة 1918 نشرت ازفستيا مقال لينين عن "المهام العاجلة للحكومة السوفيتية" "اليوم، وجاء فيه إن الثورة تطلب – لمصلحة الاشتراكية – أن تطيع الجماهير بدون مناقشة الإرادة الفردية لقادة العمل **Unquestionaly obey the Single will of the leaders of labor process**

وكتب لينين: "إن الإدارة الجماعية تمثل شكلاً بدائيا **rudimentary** لازماً للمرحلة الأدنى – عندما يكون من الضرورى البناء الجديد. ولكن التحول إلى العمل الفعال **practical work** يرتبط بالسلطة الفردية. فهذا هو النظام الذى يضمن أكثر من أى نظام آخر الانتفاع الأمثل بالموارد البشرية. وفى افتراضاته إلى المؤتمر التاسع

(مــارس ســنة 1920) كتب: "إن المبــدأ الانتخــابى يجب أن لا يحل محل الانتقــاء **selective** ورفض الإدارة الجماعية باعتبارها "يوتوبيا" وغير عملية وضارة ".

وتوضح هذه العبارات أن لينين لم يتصور أن وجود العمـال فى مجتمع اشـتراكى لا يغير من سلوكهم كما لو كانوا فى مجتمع رأسـمالى. وهـذا أمر غـريب. إذ ما الفـرق إذن ما بين الاشتراكية والرأسمالية. إذا كان سلوك العمـال فى المجتمع الاشـتراكى لا يختلف عن ســلوكهم فى المجتمع الرأســمالى؟ ففيم إذن كــانت الاشــتراكية، إن الاشـتراكية الحقه تعـنى مبـادءة العمـال وأن إيمـانهم بالاشـتراكية سـيكون أفضل من الحوافز والضوابط التى تلجأ إليها الرأسمالية لعدم إيمان العمال بها (أى بالرأسمالية).

ووصلت أراء لينين إلى غايتها عندما طـالب صـراحة بالأخذ بوسـائل الإدارة العلمية الــتى أبــدعها المهنــدس الأمــريكى فردريك تيلــور بعد دراسـات طويلة للـوقت والحركة ودراسة الطـرق المختلفة للأداء بحيث توصل إلى الاستغلال الأمثل لكل حركة وسكنة يقوم بها العامل.

ولم يتردد لينين فى أن يدعو للأخذ بها ففى رسـالة "المهـام المباشـرة لسـلطة السـوفيت 1918" قـال: علينا إدخـال نظـام تيلـور إلى كل روسـيا ورفع إنتاجية العمل حسب الطرق العلمية وحسب الخط الأمريكى.

وفى الدولة والثورة قال :

" لا يمكننا خلق أو إقامة الاشتراكية دون اللجوء إلى مدرسة منظمى الترستات إن الاشتراكية ليست ابتكـاراً. بل هى أن تفهم طليعة البروليتاريـا الـتى اسـتولت على السلطة ما ابتكرته الترستات وتطبقه.

"نحن لا نخـترع شـكلاً لتنظيم العمل بل نأخـذه كما هو من الرأسـمالية.." ورأى لينين أن النظام الذى وضعه تيلور يجمع "الاكتشـافات العملية الأكـثر أهمية فيما يخص تحليل الحركات التى يقوم بها العامل أثناء العمل والقضاء على الحركات غـير المجدية وغــير المــاهرة وابتكــار طرائق العمل الأكــثر عقلانية وإدخــال أفضل نظم الإحصــاء والرقابة".

وكان تيلور يرى أن ليس للعمال أن يفكروا، فهناك من يفكر لهم، ومن هو أقـدر منهم على ذلك وأن المطلوب منهم أن يطبقوا الأفكار والخطط التى توضع لهم. وهـذا هو ما كان يؤمن به لينين، ربما أكثر من تيلور.

وهذه من وجهة النظر الاشتراكية، ردة تكرر دفـاع الرأسـمالى عن أسـاليبه، أما الاشتراكية فيفترض أن يكون لديها نظام آخر وجهاز آخر، وأساس آخر لدفع الانتاج غير "السوط" الذى ظل من العهود القديمة حتى الرأسمالية الأسلوب المفضل. إن إيمــان العمـال بالاشـتراكية أفضل وأدق من سـاعات تيلـور الكرونومترية ودراسـات الـوقت والحركة. وكان يمكن أن ينهض بالإنتاج ويحسم مفارقـات علاقـات "الإدارة – العمـال" ويحمل عن أجهزة الدولة عبأ ثقيلاً..

وكلام لـينين يـدل على أن السـلطة قد مسـخته تمامـاً. ومحت كل القيم وأحلت محلها ضرورات تحقيق الخطة المقدسة كأنما خلق النـاس للخطـة، ولم توضـع الخطة للناس. كان أحد بناة الأمبراطوريـة، وكـان بين جنبيه "إيفـان رهيب" وبطـرس الأكـبر.. وكذلك باتو الشنيع سليل جنكيزخان والذى اكتسح أوربا ولم يوقفه إلا موت جنكيزخان. وبهـذه الـروح كـان يريد أن يقيم "روسـيا العظمى" الـتى أطلق عليها مجـازاً "الاتحـاد السوفيتى".

* * *

هذا عن لينين الذى قدم الإضافة الهامة عن الحزب الشيوعى باعتبـاره حزبا من ثوريين محترفين، وقدم المركزية الديمقراطية كقاعدة تنظيم العمل فى كل الهيئـات.. ودعا جهرة إلى التيلورية التى اعتبرها عمـال الولايـات المتحـدة أداة اسـتغلال العمـال على أسس علمية وعملية.

فماذا عن تروتسكى ؟

كان تروتسكى قد شغل وزارة الدفاع فجال وصال فى روسيا من شرقها لغربها فى قطاره المشهور الذى كان يضم فيما يضم مطبعة ولاحق كل أعداء الثورة.. كما شغل حينا وزارة الخارجية وهو صاحب شعار "لا حرب ولا سلم" الذى أراد به أن يخلص من مأزق مقاومة الجيوش الألمانية أو الصلح معها.. وأخيراً ضمت إليه وزارة النقل..

كانت الفكرة التى قدمها تروتسكى هى **"عسكرة العمل" أى تطبيق وسائل الضبط والربط التى تمارس فى الجيش على العمال"** وقد كان تروتسكى قد ألف كتاباً بعنوان "دفاعاً عن الإرهاب[33] دافع فيه دفاعاً مستميتا عن الإرهاب وأنه جزء لا يتجزأ من كيان الدولة الشيوعية وشن هجوماً كاسحاً على كاوتسكى لأنه انتقد إرهاب السوفييت وعدم وجود الحرية أو الديمقراطية فى الممارسات السوفيتية، وأفرد باباً من أهم أبوابه عن عسكرة العمل.

والفكرة الرئيسية فى عسكرة العمل أن الإنسان حيوان كسول وأنه ما لم يدفع دفعا إلى العمل فإنه لا يعمل.. والصورة الوحيدة للدفع المنظم هى فى الجيش، إذا كان الجيش لم يستخدم فى العمل فذاك لأن العمل كان واقعاً فى يد الملكية الفردية. أما وقد تحررنا من الملكية الفردية فيمكن ممارسته، وإن الإلزام، وبالتالى الإكراه هو الشرط الضرورى لضبط الفوضى البورجوازية وتشريك وسائل العمل والإنتاج ولإعادة بناء النظام الاقتصادى حسب خطة موحدة وأنه لا توجد لدينا وسيلة أخرى للانتقال إلى الاشتراكية غير القيادة الحازمة للقوى والموارد الاقتصادية فى البلاد، وغير التوزيع المركزى للقوة العاملة حسب الخطة الحكومية العامة. إن الدولة العمالية تعتبر أن لها الحق فى أن ترسل كل شغيل إلى المكان الذى يحتاج عمله. وأنه ما من اشتراكى جاد ينكر على الحكومة العمالية حقها فى وضع يدها على الشغيل الذى قد يرفض تنفيذ المهمة التى أوكلت إليه.

فى كتابه "دفاع عن الإرهاب" كتب تروتسكى :

"لا مجال للانتقال من الفوضى البورجوازية إلى الاقتصاد الاشتراكى دون اللجوء إلى الديكتاتورية الثورية وإلى طرائق التنظيم القائمة على الإكـــــراه. ص206 من الترجمة العربية.

"إن عنصر الإكراه المادى الفيزيائى يمكن أن يكون كبيراً أو صغيراً فهذا يتعلق بالكثير من الشروط وبدرجة غنى البلاد أو فقرها الخ... لكن الإلزام وبالتالى الإكراه هو الشرط الضرورى لضبط الفوضى البورجوازية ولتشريك وسائل الإنتاج والعمل ولإعادة بناء النظام الاقتصادى حسب خطة موحدة.

"إن الجيش وحده – على وجه التحديد، لأنه حسم بطريقته الخاصة مسائل حياة وموت الأمم والدول والطبقات الحاكمة وقد اكتسب الحق بأن يتطلب من كل فرد خضوعاً تاماً للمهام والأهداف والتعليمات والأوامر. لقد توصل إلى ذلك لأن مهام التنظيم العسكرى بوجه خاص، كانت تتفق مع ضرورات التطور الاجتماعى. ص208.

وتصور أن الحرب الإمبريالية والنتائج التى نجمت عنها جعلت من المستحيل وجود مجتمع قائم على العمل الحر !![34].

وعرض تصوره الاشتراكى للنقابات :

---

33 **(33) كما فى الطبعة الإنجليزية وقد صدرت الطبعة العربية بعنوان "الإرهاب والشيوعية" مصدر سابق.**

34 **(34) هذا يعطينا صورة كيف أن الخيال يشط بأكثر العقلانيين إلى أودية الأوهام. فقد تصور تروتسكى أن الحرب العالمية الأولى (14- 19) جعلت من المستحيل وجود مجتمع ما يقوم على العمل الحر !!.**

"فالنقابــات، بــدون إلزامية العمل وبــدون الحق فى إصــدار الأوامــر، وطلب تنفيذها، تفقد مقوماتها، ذلك أنها ضرورية للدولة الاشـتراكية الـتى فى طريق البنـاء، لا لتناضل من أجل شــروط أفضل للعمل – فهــذه مهمة مجمــوع التنظيم الاجتمــاعى الحكــومى – بل من أجل تنظيم الطبقة العاملة بهــدف الإنتــاج، ومن أجل ضــبطها وتوزيعها وتثقيفها وتعـيين بعض الفئـات وبعض العمـال فى مراكـزهم لمـدة معينة من الزمن، وبكلمة واحـدة من أجل تنظيم الشـغيلة بحـزم، وباتفـاق تـام مع السـلطة، فى إطارات الخطة الاقتصادية الموحدة ".

ولجأ إلى النقطة الممجوجة نقطة "إن المســألة تكمن **فى أن نعــرف من يمارس الإكراه وضد من ولماذا.. !! كأن هذا يمكن أن يغير طبيعة الإكراه** ولم يكن عجيبا أن يدافع عن نظام الرق، وأنه كان فى بعض الشروط تقـدما وأدى إلى زيادة الإنتاج.

"إن كل تـاريخ الإنسـانية هو تـاريخ تنظيم وتربية الإنسـان الاجتمـاعى بالعمـل، بهدف الحصول منه على إنتاجية أكبر. إن الإنسان فى الحقيقة – كما سـمحت لنفسى آنفاً أن أعبر – كسـول، أى يحـاول بـالغريزة أن يحصل بأقل جهد ممكن على أكـبر حد ممكن من المنتجات. وبدون هذا الميل، لن يكون ثمة وجود للتطور الاقتصادى. إن نمو الحضـارة يقـاس بإنتاجية الإنسـان، وكل شـكل جديد من أشـكال العلاقـات الاجتماعية ينبغى أن يمتحن على حجر المحك هذا ".

* * *

كان طبيعياً أن ينشأ خلاف حاد بين القواعد العمالية وما بين القيـادة السـوفيتية بزعامة ليـنين وتروتسـكى. وقد ظهر هـذا الخلاف ودخل فى مرحلة جديـدة بظهـور "المعارضة العمالية" التى رأسها زعيم عمال الصناعات المعدنية شـليابنكوف ورفعت لوائها مدام كولونتاى. وعندما عقد المؤتمر العاشر للحزب الشيوعى 8 – 16 مـارس 21 تقطبت المعســكرات وكــانت قضــية إدارة العمل وعلاقة النقابـــات بالدولة والبيروقراطية الحزبية هى المواضيع الرئيسية التى احتدم فيها الحوار.

فى هذا المؤتمر قدم لينين بيانا حمل اسم بيـان العشـرة وقـدم تروتسـكى بيانا آخر، بينما قـدمت مـدام كولونتـاى بيـان المعارضة العمالية وشـرحت الفكـرة فيها فى رسالة بأسم المعارضة العمالية تحت ثلاثة عناوين أساسـية الأول **(جـذور المعارضة العمالية)** شـرحت فيه الملابسـات السياسـية والاقتصـادية الـتى تحكمت فى الاتحـاد السوفيتى وقضت على الحـزب الشـيوعى بانتهـاج سياسة معينـة. والفصل التـالى عن **(النقابـات ودورها ومشـكلاتها)** وعرضت فيه انعكاسـات السياسة الـتى انتهجها الحـــزب على الحركة النقابية باعتبارها أكــبر حركة تضم الطبقة العاملة وانتقــدت – بالطبع – وبقدر من الصـراحة سياسـات لـنين وتروتسـكى وزينوفيف وبوخـارين وبقية قيادات الحزب وهذا الفصل على أنه الذى يمثل فى الأذهان الموضوع الرئيســى، ليس هو أكــبر الفصــول الثلاثــة. إن أكبرها هو الفصل الثــالث الــذى جــاء بعنــوان **(البيروقراطية والنشـاط الـذاتى للجمـاهير)** فهـذا الفصل يتضـمن أقسى نقد للبيروقراطية والمركزية وما يمكن أن تجره على الحزب وعلى البلاد بأسرها[35].

وافتتح ليــنين المــؤتمر فوصم المعارضة العمالية بأنها "تهديد للثــورة". وأنها فوضــوية وسـينديكالية وأنثـال الآخـرون وسـادت هسـتيرية لم تعـرف من قبل فى مؤتمرات الحزب، بينما نددت المعارضة العمالية بالبيروقراطية داخل الحزب باعتبارها سبب الفجوة ما بين القيادات والجماهير، وطالبت أعضاء الحزب بأن يقوموا بممارسة العمل اليدوى لفـترات منتظمة من الـوقت لجعلهم على صـلة مباشـرة بظـروف عمل العمــال. ووصف ميلنــوف – وهو أحد قيــادات المعارضة العمالية ليــنين بأنه "القمة العظمى للهرمية البيروقراطية القيصـرية". بينما ذكر إجنـاتوف المجتمعين أن أسـاس الحـزب يتغـير ولم يعد بروليتاريـا، وطـالب بـأن يكـون ثلثا لجـان الحـزب من العمـال.

---

35 **(35) لقد عالجنا قضــية المعارضة العمالية بإفاضة فى كتابنا "المعارضة العمالية فى عهد لينين – دار الفكر الإسلامى".**

وانفجر الغيظ المكبـوت، ولكن المجموعة اللينينية الـتى كـانت تسـيطر على جهــاز الحزب، وبمساعدة التروتسكيين نجحت فى النهاية فى إجازة بيان العشرة الذى قدمه لينين، وكذلك إجازة "قرار الوحدة" الذى يحرم تكوين الخلايا، وطالب كل المجموعـات التى تتمحور حول مشروعات واحدة بـأن تحل نفسـها فـوراً ودون اسـتثناء وهـدد بـأن الإهمال فى تنفيذ ذلك يـؤدى إلى الفصل من الحـزب بصـورة عاجلة وغـير مشـروطة، وأعطى القــرار اللجنة المركزية سـلطة تـأديب مطلق "إن المـؤتمر يعطى اللجنة المركزية السلطة التامة فى مواجهة حالات التشرذم وانتهاك الضبط وتقرير العقوبات حـتى الفصل من الحـزب" وإذا جـاءت المخالفة من أعضـاء اللجنة المركزية فـاقترح القرار تنزيلهم إلى مرتبة مرشحين وفى الحالات الخطيرة فصـلهم من الحـزب وأعلن القرار أن المهمة العاجلة للجنة المركزية هى تحقيق وحدة وفعالية بنيان لجان الحزب، وخصص خمسة من أعضاء اللجنة للتفرغ لزيارة اللجان الإقليمية وحضـور الاجتماعـات الإقليمية للحزب.

وقام تروتسكى بقسط كبـير فى مهاجمة المعارضة العمالية وقـال: "إنها جـاءت بشعارات خطيرة، وجعلت من المبادئ الديمقراطية وثناً ووضعت مبدأ حق العمال فى انتخاب ممثليهم فـوق الحـزب، كما لو لم يكن من حق الحـزب أن يوطد ديكتاتوريته – حـــتى لو تصـــادمت هـــذه الديكتاتورية مؤقتا مع الاتجاهـــات المعارضة للديمقراطية العمالية" وتحدث عن حق الميلاد التاريخى والثـورى للحـزب قـائلاً: "إن الحـزب مجـبر على الحفاظ على ديكتاتوريته بصـرف النظر عن التذبـذبات فى الطبقة العاملـة، فـإن الديكتاتورية لا تقيم نفســها فى كل لحظة معينـــة، على الأســاس الصــورى لمبــدأ الديمقراطية العمالية"

وفى أعقـــاب المـــؤتمر العاشر أخضـــعت المعارضة العمالية لسلســـلة من الاضطهادات. وكـان على الحـزب أن يقضى على نفـوذ المعارضة فى نقابة الصـناعات المعدنية التى يتزعمها مدفـدوف **Medvedov** وفى مـؤتمر النقابة العامة الـذى عقد فى مايو سنة 1921 قدمت اللجنة المركزية للحزب قائمة بأسـماء المرشـحين الـذين تزكيهم لقيادة النقابة. وصوت العمال ضد قائمة الحزب. ولكن هـذا الأمر كـان عقيمـاً، فقد عين الحــزب رجاله فى مناصب القيـادة وفشـلت المعارضـة. وفى مـارس سـنة 1922 عقد مـؤتمر آخر للنقابة نفـذت فيه سياسة الحــزب عن طريق "خلية الحــزب" التى حضر اجتماعاتها شخصيات بارزة من الحزب مثل – زينوفيف – لينين – سـتالين – مولوتوف – كامنيف وكلارازتكين.

وبعد بضعة شهور أسس المؤتمر الحادى عشر للحزب الذى عقد فى 27 مارس – 2 أبريل سنة 1922 لجنة خاصة لتقصى نشاط "المعارضة العماليــة" وأعلنت أن كل صور المعارضة المنظمة خلال السوفيتات تعد غير مشروعة.

وعين المؤتمر الحادى عشر ستالين سكرتيراً عاماً للحزب ...

* * *

إن اسـتعراض ما جـاء فى هـذا الفصل يوضح كيف أن السـلطة أفسـدت أعظم أمل للعمال فى بناء مجمع اشتراكى وجعلت الاتحاد السوفيتى بؤرة للإرهاب الحكومى والتسـلط وأن رجــال الحــزب ومن حــولهم كونــوا طبقة اسـتحوزت على السـلطة واحتكـــرت المناصب وقتلت كل مبـــادءة الخلاقـــة. وأن البيروقراطية وما يتصف به التخطيط المركزى من جمود جعل الأداء الاشتراكى عقيما متخلفاً.

* * *

لن يغفر التـاريخ لليـنين وتروتسـكى أنهما عنـدما ظفـرا بثقة العمـال وطـاعتهم وعندما دعم العمال بكل قوة الثورة الناشئة والسلطة التى تمخضت عنهـا.. لم يحـاولا الإفـادة من هــذا الجمهــور وهــذا التأييد لإبــداع خطط للإدارة: إدارة الإنتــاج أو إدارة الدولـة.. تقـوم على إيمـان الجمهـور وتجاوبـه مع قادتـه، وما يتفرع عنه من أسـاليب تختلف عن الأساليب التى وضعتها النظم الرأسمالية والعسكرية، والـتى – لما كـانت لا

تتمتع بمحبة العمــال أو تجــاوبهم، بل تقــوم على اســتغلالهم، لم يكن أمامها إلا ســبيل الإجبار والإرهاب والضبط والربط والتسيير من أعلى.. ولكن لينين وتروتسـكى ظفـراً بما لم يظفر به أى حاكم، عندما رفعا الشعار الذى استحوذ على قلـوب العمـال شـعار العدالة، شعار إسقاط الرأسمالية وعبودية الأجـور واسـتغلال النفـوس فظفـرا بـأعظم رأس مال إيمانى يمكن لحاكم أن يتمتع به. ويبدع منه وسـائل جديـدة للعمـل. فأهـدرا رأس المال الإنسانى الاشتراكى الذى تراكم عبر القـرون كـأن لم يكن. وسـلكا سـبيل الرأسماليين والطغاة والظلمة، وفجعا البشرية فى أجمل آمالها وجعلا من ثوب زفافها قميص كتافها. وقابلاً العمال بسوط العذاب وعسكرة العمل.

لقد كانت محاولة لينين وتروتسكى إرغام العمال على الإنتــاج، وعسـكرة العمل أسوأ من الرأسمالية أنها رأسمالية الدولة التى جعلت العمل سخرة وعندئذ يكـون كل كلام لينين وتروتسـكى مكـابرة، بل نوعـاً من التشـنج المـذهبى وهـذا فى الحقيقة هو شأن معظم كتابات لينين وتروتسكى. ومما يفاقم فى مسئولياتهما أن أسـلوبهما الفج اعتبُر هو الأسلوب الاشتراكى الذى أبدعه منظرا الاشـتراكية وطبق هـذا الأسـلوب فى آسيا وأفريقيا وأمريكا وجر أنهاراً من الدماء.. وأقام جبالاً من الأخطاء.. ظلمات بعضها فوق بعض وعوالم من الزيف والضلال والتعصب.

وبدلا من أن يدفن الاتحاد السوفيتى الرأسمالية فإنه تهاوى بحكم فساد العوامل الداخلية التى كان يخفيها النظام ودعايته حتى أودت به دون أن تطلق الرأسمالية عليه طلقة واحدة..

* * *

إذا كانت هذه هى سطوة الدولة على العمال – شعب الاشتراكية الأثــير، فلنا أن نتصــور مــاذا تكـون ســطوه الدولة على غــيرهم؟ لم يتسع الــوقت لليــنين لأن يطبق سياســته الاقتصــادية الاشــتراكية، بل إنه اضــطر لأن يقلع عنها فيما ســمى بالسياسة الاقتصادية الجديدة **NEP** ووقع تطبيق التصور الاشتراكى للزراعة على ســتالين الــذى طبقه بكل ما عهد فيه من فظاظة وفجاجة ووحشـــــية إذ أراد أن يطبق المـــــزارع الجماعية. والزراعة هى آخر مجال يمكن أن يصبح جماعياً. فالفلاح فردى بالطبيعة، ولا يمكن للتخطيط أن يفـرض نفسه على ملايين الفلاحين الـذين لا يعلمـون إلا ما ورثـوه عن آبـائهم. وكـان يمكن وضع سياسة لتحـديث الزراعـة. مع منح كل فلاح قطعة أرض صغيرة. فهـذا كـان متاحـاً، وكـان يرضى الفلاحين جميعـاً وينهض بالزراعة ويـؤدى إلى تحسين الحال الـذى سـيعود على الدولة فى النهايـة، ولكن هـذا الجـورجى المتـوحش ســتالين، أراد بجــدع الأنف أن يحقق سياسة المــزارع الجماعية فأوفد فيــالق الحــزب والجيش لمصـادرة كل ما لـدى الفلاحين من أقـوات وأطلق على هـؤلاء البؤسـاء اسم "الكولاك" أى الملاك وترك هؤلاء الملاك ليموتوا جوعاً فى برد وصـقيع سـيبرياً ويقـدّر أن ما لا يقل عن عشرة ملايين فلاح مات فى معركة الزراعة الجماعية الفاشلة.

وأصبحت الفنون والآداب ملك للدولة. وصودرت كل الصحف باستثناء صـحيفتين يوميــتين إحــداهما تحمل اسم الأخبــار والأخــرى اسم الحقيقة وقــال معلق "ليس فى الأخبار حقيقة. وليس فى الحقيقة أخبار".

أما النقابات فإنها اعتبرت "السير ناقل القوى" من الحزب للجماهير ويعنى هـذا أنه ليس لديها حرية أو استقلال أو مبادئ لأنها ليست إلا سيراً ينقل عن الحـزب الـذى اعتبر هو مصدر الحركة والطاقة ووصلت المأساة درجة أقـامت فيها النقابـات سـجوناً للعمال المقصرين !!.

لقد أثبتت نظرية الحزب التى أبدعها لينين قوتها وفعاليتهـا. وأصـبحت هى الـتى تربط الاتحــاد الســوفيتى رغم أن هــذا الاسم لا يمثل حقيقة لأنه ليس اتحــاداً إذ كلمة اتحاد توحى بوجـود وحـدات لها قـدر من الحرية قبلت أن تتحد مع غيرهـا. وقد أجـبرت إجباراً كل ولايـات ومقاطعـات القـارة الروسـية على الانـدماج وأن تكـون كتلة واحـدة بفضل حـزم الحـزب لها وربطـه إياها بربـاط وثيـق. وليس "سـوفيتياً" لأن السـوفيتات

كانت من خلق ثورة مارس الديمقراطية. وما أن تمكن لينين من السـلطة حـتى وأدها وأصبح الحزب – وليس السوفيتات هو الحاكم.

ولعل الإنجاز الحقيقى للينين أنه حيد الجيش فلم يتحرك الجيش طـوال سـنوات ستالين الطائشة، لأن الحزب كان قابضاً على الزمـام بصـورة فـاقت كل ما يمكن أن يصل إليه الجيش. لأنه كما قلنا كان جيشاً مدنياً يحكم البلاد من داخلها.

فى النهاية نجد أن السـلطة أفسـدت الاشـتراكية وحولتها إلى المدرسة الأم للحكم الشـمولى تعلم على يـدها وفيها هتلر وموسـولينى وبقية الطغـاة. وطبقت الأحـزاب الاشـتراكية أسـاليبها الشـنيعة القاتلة على العالم بأسره فى أفغانسـتان وكمبوديا والحبشة والبلقـان وأقـامت أهرامات من الجماجم أكبر من أهرامات مصر.

* * *

وهنـاك جناية أخـرى ارتكبها لينين فى حق التطـور السياسى العـالمى هى شل حركة الاشـتراكية الديمقراطية الـتى كـانت قد ازدهـرت فى السـنوات الأولى للقـرن العشرين تحت قيادة سـدنة الماركسـية وحملة وصـية مـاركس كاوتسـكى وبيرنشـتين الألمانيين اللذين قـادا الحـزب الـديمقراطى الألمـانى. وعنـدما ظهر لينين أعلن حربـاً شـعواء على كاوتسـكى وبيرنشـتين وأطلق عليهما كل ما فى قاموسه من بـذاءات واتهامـات بالعمالـة، والانتهازية والهرطقة والانحـراف الخ... ولم يسـترح إلا بعد أن شـطب كلمـتى الاشـتراكى الـديمقراطى من الأحـزاب الاشـتراكية الأوربيـة. وكـانت الضـحية الأولى لهـذه الحملة هـى جمهورية فايمـار الـتى قـامت فى أعقـاب الحـرب العالمية الأولى (1919) بقيادة الحزب الاشتراكى الديمقراطى فقد قـاوم الشـيوعيون بكل قـوة وعرامة هـذه الجمهورية وأطلقـوا على الاشـتراكيين الألمـان لفظ الفاشـية وناصروا هتلر بفكرة أنه ما إن يقضى عليهم حتى يأتى دورهم هم (أى الشيوعيين) فى الحكم. ومن سخريات الأقـدار أن هـذه الحـرب على فايمـار هى الـتى مكنت هتلر من الصعود وهى التى جعلته يقضى على الحزب الشيوعى الألمانى قضاء مبرماً ثم يتحول إلى الاتحاد السـوفيتى ويحاربه حربـاً ضروسـاً مـدمرة أوقفته على شـفا الهزيمة لـولا مساعدة الحلفاء وقضت على قرابة عشرين مليونا من شباب الاتحاد السوفيتى.

ونتيجة للحرب الشعواء التى شنها لينين على الاشتراكية الديمقراطية، تقهقرت، وفقـدت صـدارتها للحركة الاشـتراكية حـتى تهـاوى الاتحـاد السـوفيتى أخـيراً، وعـادت الديمقراطية الاشتراكية، بعد أن حجبها لينين قرابة خمسين عامـاً كـان يمكن أن تـوفر فيها التخبط السياسى والمأساة الدموية: مأساة الحرب العالمية الثانية.

* * *

ولاقى لينين الذى فعل كل هذه الأفاعيل نهاية غير متوقعة أشار إليها دوتشر فى كتابه "سخريات التاريخ" ففى المؤتمر الأخير الذى حضـره (أبريل 1922) عـبر عن أنه يحس بما يحس به السائق عندما يرى العربة تسـير فى غـير الطريق الـتى وجهها لـه. وأن قوى كـبيرة حـولت الدولة السـوفيتية عن هـدفها السـليم. وعنـدما أقعـده الشـلل وانفسح المجـال لسـتالين ليمـارس فظاظته حـتى مع زوجة لينـين ورفيقـة كفاحه "كروبسكايا" تبين لينين خطأه الفظيع عندما حطم المعارضة العمالية التى كـانت تنـدد ببيروقراطية المركزية الديمقراطيـة" وسـيطرة الحـزب والقضـاء على كل صـور الديمقراطية وفى 30 ديسـمبر سـنة 1922 غافل أطبـاءه وممرضـاته وبـدأ ما عـرف بوصيته التى بدأها "إنه ليبـدو أنـنى مـذنب أمـام عمـال روسـيا **I am, it seems, strongly guilty before the workers of Russia**

لم يقرأ الشعب الروسى هذه الكلمات وما تلاها فقد تكتم عليها ستالين وزملاؤه لمدة ثلاث وثلاثين سنة. قبل أن يعلنها خروشوف فى المؤتمر العشرين[36]..

---

[36] **Ironies of History by Isaac Deucher. Oxford University Press, (36) 1966 p. 173**

إنها إحدى سخريات التـاريخ، ولكنها سـخرية تراجيدية محزنة تعـرض لنا فرعونـاً آخر غير فرعون مصر يتوب عند الغرغرة، قبل أن تبتلعه الأمواج..

الفصل التاسع
السلطة تفسد اليهودية
وتحولها إلى صهيونية

فى الفصول السابقة التى أظهرنا فيها كيف تفسد السلطة الأيدلوجيا كان الصراع يدور حول السلطة بطبيعتها المفسدة من ناحية وبين معنويات وقيم موضوعية كالتى جاءت بها الأديان أو أوحت بها الاشتراكية. ولكننا فى هذا الفصل نجد السلطة بطبيعتها المفسدة ونجد أمامها أيدلوجية مشوهه تشويهاً أفقدها طبيعتها الموضوعية. فالأيدلوجية اليهودية كما تقدمها التوراة التى بين أيدينا تقوم على إله غيور يتفقد ذنوب الأباء فى الجيل الرابع من الأبناء وهو يغضب أو يرضى بما يقدم إليه من ذبائح أو يرفع إليه من تضرعات وهذا الإله الغيور يختص سلالة – هى أبناء يعقوب الذى سُمى إسرائيل بأفضلية فوق العالمين، وأن العلاقة بينه وبينهم الختان. وأنه يملكهم منطقة كبيرة من الأرض تمتد من نهر مصر حتى نهر الفرات مسكونة بكثير من الناس ويأمر صراحة، وبصورة متكررة، بأن على جنسه المختار هذا أن يستحوز على الأرض ويقتل أهلها جميعاً رجالاً ونساءً "بحد السيف" بل ويقتل الحيوانات ويحذرهم من الاختلاط بالأجناس الأخرى والتعايش معهم أو التزوج منهم.

وهكذا نرى أن الأيدلوجيا اليهودية ليست – كما هى فى الإسلام مثلاً – أن تكون كلمة الله هى العليا، ولكن أن يكون الجنس اليهودى هو الأعلى، وأن يستحوز على الأرض التى ملكها يهوه لهم وأن يقتلوا بحد السيف أهلها.

ومن هنا فإن الأيدلوجيا اليهودية التى تقدمها التوراة لها طبيعة السلطة فى ذاتيتها واستهدافها الاستحواز بل إن وسيلتها هى شر الوسائل وأكثرها وحشية وهى القتل بلا رحمة، فلم يعد للسلطة شىء تفسده وإنما تطبق هذه التوجيهات وعندئذ نرى أمامنا أسوأ صورة للحكم.. صورة تتعاون السلطة مع الأيديولوجية لبلوغ أقصى درجة من الفساد. وهذا هو ما يعمل شارون لتطبيقه الآن فى فلسطين – رغم كل القوى المعارضة.

نحن المسلمين نؤمن أن اليهودية هى أحد الأديان السماوية الكبرى، بل هى أولاها وأن الله تعالى أنزلها على إبراهيم الذى يعد أبا الأنبياء وأن مضمونها هو مضمون كل الأديان من الإيمان بالله والكفر بالوثنيات والشرور والعمل لتطبيق القيم النبيلة من حب وإخاء ومساواة وحرية ومعرفة.. وأن الله تعالى اختص إبراهيم وسلالته بحمل هذه الرأسمالية وفضلهم بهذا على العالمين، ولكنهم لم يقوموا بهذه الرسالة، بل قاموا بعكسها فقتلوا الأنبياء وأشاعوا الفساد فأنزلهم الله من مستوى أفضل العالمين إلى مستوى القردة والخنازير. إن الأوامر التى تضمنتها التوراة (المحرفة بالطبع) عن القتل حتى الإبادة، ليس فحسب للإنسان بل والحيوان أيضاً هى ما يبرر هذا الحكم..

وقصة هذا التحول من ديانة سماوية سامية إلى شرعة أرضية منحطه والدور المساعد للسلطة هى ما ستوضحه النبذات التالية:

- 1 -
خصوصية الدين اليهودى

يتميز الدين اليهودى عن بقية الأديان بثلاث خصائص قلما نجدها فى دين آخر. أولى هذه الخصائص أنه أقدمها عهداً فهو يعود إلي أربعة آلاف سنة مضت إذا أخذنا بتاريخ دعوة إبراهيم 1955 قبل الميلاد، والثانية أنه دين مغلق، مقصور على جنس واحد هو بنى إسرائيل. ومع أنه يبدأ من إبراهيم، وأن إبراهيم كان له من الأبناء

إسماعيل، بل هو ابنه البكر، فقد استبعد التاريخ الإسرائيلى إسماعيل، بل وصفه بصفة تكاد تكون من "الإسقاط" السيكولوجى "يـده على الجميـع، ويد الجميع عليـه" وهو ما يصدق على أبناء إسرائيل أكثر مما يصدق على أبناء إسماعيل.. ومن أول سـطر ولعله أقدس سطر – نجد أن إله إسرائيل يصطفى إسرائيل ونسله ويفضـلهم على العـالمين ويهب لهم كل الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير الفرات على أن تكـون العلاقة بينه وبينهم الختــان. كما أن تقــديس الســبت يأخذ أهمية كــبرى بحيث حكم على حطــاب احتطب يوم السبت بالإعدام رجما بالحجـارة وسـنرى أن التقاليد والعـادات والمواسم والأعيـاد كلها مرتبطة بـالجنس اليهـودى أو بمناسـبات تعلقت بتاريخـه، وأخـيراً فـإن الخاصية الثالثة هى أن هذا التاريخ الطويل حتم على اليهود التعايش مع "الأغيـار" وفى فترات القوة فإنهم لا يرقبون إلاً ولا ذمه فيهم، فأرضهم وناسهم ونسـاؤهم كلها مباحة للجنس اليهودى المختار. ولكنهم فى فترات الضعف يتسللون إلى المجتمعات الأخـرى بصورة تبقى عليهم، وفى حـالات كثيرة. تسـمح لهم بـالبروز، وهم مع هـذا يحتفظـون بشخصـيتهم الخاصة ولا يفرطـون فيهـا. ولما كـان تـاريخهم طـويلاً فقد شـهد عـدوان الإسرائيليين على جـيرانهم فى عهد قـوتهم، ثم شـهد مقـاومتهم المستيئسة للشـعوب والحضارات الأقوى، ثم استسلامهم وتسللهم.

ومع أن من مقتضى هذه الخصائص الاحتفاظ بشخصيتهم المميزة وعـدم التـأثر بالشعوب والحضارات الأخرى وهو ما حدث بالفعل – كما ذكرنا – إلا أن طبائع الأشـياء أغلب. وكـان لابد أن تـؤثر الحضـارات الأخـرى الـتى كـانت تماثل الـدين اليهـودى فى العراقة – كالحضــارة المصــرية القديمة وحضــارة الرافــدين على العــادات والتقاليد اليهودية وأن تثريها بعناصر ليست فى الديانة المغلقة المقصورة على جنس واحد.

وقد نشأت الديانة اليهودية أولاً فى أور فى الرافـدين ومركز الحضـارة الكلدانية الآشورية وكان إبراهيم معاصراً لحمورابى الملك والمشـرع الكبـير وقد بـدأ دعوته فى السـنة الأولى لملك هـذا العاهل الـذى عـرف بقوانينـه، ثم انتقل إبـراهيم إلى كنعـان (فلسطين) بناء على رؤية، واصطحب معه زوجته سارة ولوطا ابن أخيه. ثم انتقل إلى مصر عنـدما أصـاب الجفـاف فلسـطين وعـاد مـرة أخـرى إلى كنعـان حيث ولد له إسماعيل واسحق وأبعد إسماعيل وأمه إلى الحجاز بينما استقر اسـحق وتـزوج وانجب يعقـوب الـذى سـيحمل أسم إسـرائيل. ورزق يعقـوب اثـنى عشر ولـداً هم الأسـباط. أبرزهم يهوذا الذى منحه حق "البكورية" ومنهم يوسف وهو أحب أبنائه إلى نفسه. وهو الذى ائتمر عليه أخوته وباعوه لقافلة مسافرة إلى مصر.

وتكـررت قصة هجـرة إبـراهيم إلى مصر إذ أصـاب الجفـاف فلسـطين فأرسل يعقوب أبناءه ليمتـاروا. وكـان يوسف الـذى بيع لـوزير ملك مصر قد وصل إلى منصب رفيع فى الدولة لأنه نجح فى تأويل حلم الملك عن السـبع بقـرات العجـاف الـتى تأكل سبع بقرات سمان بأنه سيحل بالبلاد جفاف يستمر لسبع سنوات تسبقه سـبع سـنوات رخاء. وعندما جاء أخوته ليمتاروا عرفهم ولم يعرفوه.. وفى النهاية دعـاهم للإقامة فى مصر فى رعاية الحيثيين الذين كانوا يحكمون مصر وقتئذ. وحسنت حالتهم، ولكن طرد المصـريين للحيثـيين وزيـادة عـدد بـنى إسـرائيل جعل المصـرين يسـيئون معـاملتهم ويستخدمونهم فى الأعمال الشاقة وبناء المعابد الـخ... حـتى ظهر فيهم موسى (سـنة 1600 ق. م) الذى أشفقت عليه أمه عند ولادته أن يقتله المصريون فوضعته فى سلة ودفعت بها إلى النيل. فالتقطتها ابنة فرعون وتبنته فنشأ موسى فى بلاط فرعـون كما لو كان نبيلاً مصرياً. واصطفاه الله لينقذ بنى إسرائيل ويحـررهم، وتم هـذا، وسـار بهم إلى فلسطين، ومات موسى قبل أن يدخل فلسـطين وقـام بهـذه المهمة يوشـع. وبـدأ اســتقرار الإســرائيليين الأول فى فلســطين، وتكــونت مملكتــان هى مملكة يهــوذا وعاصـمتها أورشـليم ومملكة إسـرائيل وعاصـمتها شـكيم ثم السـامرة. ودامت الأولى 346 ســنة حــتى أسر بابل ودامت الثانية 210، وفى المــرتين هــدم الهيكل ونقل الإسرائيليون أسرى إلى بابل، وبهذا عاد اليهود مرة أخرى إلى موطنهم الأصـلى الـذى أصبح منفاهم ودار غربتهم. ولكنهم رجعـوا إلى فلسـطين بعد أن حـررهم الفـرس من حكم الكلـدانيين. وأعـادوا مـرة أخـرى بنـاء الهيكـل. وجـاء الإسـكندر وهـزم الفـرس

وخضعت إسرائيل للبطالسة بمصر ثم للسلوقيين بسوريا حينا من الدهر ليخضعوا للرومان (سنة 40 ق. م) وحصل هيرود كبير اليهود من الرومان على لقب "ملك اليهود" وظل اليهود تحت حكم الرومان ردحاً من الدهر ولكن الصراع بين اليهود والرومان كان متصلاً وهدم المعبد مرتين مرة سنة 70 قبل الميلاد ومرة سنة 133 ميلادية عندما دمر نهائياً وحظر الرومان الديانة اليهودية وهاجر معظم اليهود إلى بابل.

وعندما ظهر الإسلام اتصل اليهود بالمسلمين فى الدولة العباسية والدولة الفاطمية وفى دول الأندلس وشغلوا مناصب رفيعة وكان موسى بن ميمون – أكبر فيلسوف يهودى – يكتب بالعربية والعبرية ويبدو مسلماً فى القاهرة ويهوديا فى قرطبة. وعندما أزال الأسبان للمرة الأخيرة حكم المسلمين من غرناطة واضطهدوا المسلمين اضطهدوا معهم اليهود واستطاع معظم اليهود أن يفروا إلى مختلف بلاد العالم وبوجه خاص تركيا التى فتحت بابها لهم وأسلم فريق كبير منهم فى الظاهر وهم الذين يطلق عليهم يهود الدونمة، ووصل بعضهم إلى أعلى المناصب.

وعمقت هذه الاحتكاكات خبرة ومعرفة اليهود بطرق التعايش مع النظم بصورة تمكنهم من أن يكونوا أصحاب نفوذ دون أن يفقدوا شخصيتهم. ولم يبلغ شعب من الشعوب ما بلغوه فى هذا الصدد وقد تغلغلوا فى المجتمعات الأوربية واستطاعوا – رغم موجات الاضطهاد فى بعض الحالات – أن يكونوا صيارفة أوروبا وأصحاب المهن. وعن طريق العلم والمال احتلوا منزلة رفيعة فى المجتمعات الأوروبية وفى الوقت الذى تكون إنجلترا محاربة لفرنسا، وتكون فرنسا محاربة لألمانيا، فإن أبناء روتشلد فى إنجلترا، وفى فرنسا وفى ألمانيا يحصدون ثمرة هذه الحروب.

وعندما أراد دزرائيلى أن تشترى انجلترا أسهم شركة قناة السويس من مصر ولم يكن البرلمان منعقدا أرسل دزرائيلى سكرتيره إلى روتشيلد ليطلب إليه تقديم أربعة ملايين جنيه إسترلينى قيمة الأسهم فزاره وهو على مائدة الطعام، وعلى مائدة الطعام أمر روتشلد بتقديم المبلغ.

وفى الأيام الأولى لدخولهم المجتمع الأوربى، فإن لفيفا من كبرائهم تنصر لأن المسيحية كانت شرطاً لازماً، ولكن فيما بعد لم يعد ذلك لازما وعندما اختير البارون ليونيل روتشيلد نائبا فى مجلس العموم البريطانى ثارت مسألة قسمه على غير الإنجيل. وعندما عين دزرائيلى رئيساً للوزارة وهناه صديق له رد دزرائيلى التهنئة وختمها: "وكما نقول فى الشرق "الله أكبر" فهو الآن أكبر من أى وقت آخر". وكان دزرائيلى يقول للإنجليز إن اسلافه كانوا يعيشون فى قصور عندما كان الإنجليز يعيشون فى الكهوف والغابات.

لم يكن، والأمر هكذا، من الغريب أن يتسلل النفوذ اليهودى إلى أعلى دوائر المال والسياسة فى إنجلترا والولايات المتحدة وأن يظفر اليهود أخيراً بإعلان بلفور، ويفتح باب فلسطين لليهود ليقيموا فيها وطناً قوميا.

***

- 2 -

الميثولوجيا التى صنعت النفسية اليهودية

يطلق تعبير "الميثولوجيا" عادة على منظومة الآلهة اليونانية التى سجلها هوميروس وهزيود وغيرهما من شعراء اليونان الأقدمين وأبدعوا عالم "الأوليمب" بما فيه من آلهة يرأسهم زيوس ويحف به بقية الآلهة هيرا، وفينوس، ومارس وأبولو الخ... وتحدثت الميثولوجيا طويلاً عن مغامرات هذه الآلهة التى وهبت قوة الآلهة ونزق البشر، وتدخلها فى مصاير الدول والجماهير، وعندما ذكر خبا اليونان وعلا ذكر روما نقلت روما عنها هذه الميثولوجيا بعد أن غيرت الأسماء إلى أسماء رومانية.

وانغرس عميقاً أثر الميثولوجيا فى النفسية اليونانية والرومانية، وورثتها عنها المجتمعات الأوربية التى أحيت الحضارة اليونانية – الرومانية

وتقف الميثولوجيا على مشارف الفن والدين وقد تبدأ من نقطة تمثل أبرز ما فى شخصية اليونان أو الرومان، ولكنها تمد هذه النقطة وتكثفها وتضفى عليها من عطاء الفنان – عادة الشاعر – وعبقريته الخاصة أطيافاً وأعماقاً تعطيها قوة وتجعل لها تأثيراً فعالاً بحيث تضاعف – أضعافاً مضاعفة – النقطة التى بدأت منها.

ولا نعدم فى الميثولوجيا خيطاً من نبوة لم يستسغها الوضع (كما هو الحال بالنسبة لكل الدعوات الدينية) فشوهت وحولت إلى كهانة فالميثولوجيا هى أبرز تجليات "الوثنية" أى الشخوص التى يصنعها الإنسان ويضفى عليها صفة الألوهية، وينسب إليها ما يشاء من قوى.

ولم يلحظ معظم المؤرخين السياسيين هذا الأثر، لأن دراسة الميثولوجيا عولجت فى الآداب أو الاجتماع وليس فى مجال التاريخ ولهذا لم يظهر أثرها فى تطور المجتمعات. خاصة وأن الدراسات الأكاديمية شغلت نفسها بالجزئيات التى تضحى بالكليات، وتحصر نفسها فى دوائر الدراسات الجامعية المغلقة، ومن ثم دق إدراك الأثر الكبير للميثولوجيا على المجتمعات الحديثة، وتطورها التاريخى، ولعل خير من أدرك ذلك هو الكاتب الفرنسى القديم جوستاف لوبون الذى رأى أن العقل يصنع العلوم، ولكن العاطفة والأحاسيس والمشاعر هى التى تصنع التاريخ وتطور المجتمعات.

ولعل خير ترجمة عربية لكلمة الميثولوجيا هى ما جاء فى القرآن الكريم "أساطير الأولين".

وإلى حد ما فلكل دين "ميثولوجيته" والاختلاف بينها هو فى الدرجة. وهو فى الإسلام أخفها، ولكن لا ينكر أن الفقهاء أقاموا قلعة من الفكر السلفى تخالف فى كثير مما ذهبت إليه ما نص عليه القرآن. وتأثروا بالثقافات الفارسية واليونانية وأقحموها فى الفقه والتفسير، كما أدى وجود "الموالى" إلى تطوير فى المجتمع الإسلامى الخ...

كما أن الخرافات والتقاليد التى كانت قائمة عندما ظهر الإسلام، وحاول القضاء عليها، بقى بعضها، فالعصبية التى وصفها الرسول بأنها منتنة عادت مرة وأصبحت هى دعائم النظام الاجتماعى فى السعودية ومناطق الخليج – وعاد السحر، والتقديس، والشفاعة والأولياء، وهى كلها سمات للوثنية التى أوجدت الميثولوجيا، نقول إن هذه زحفت على الإسلام وزاحمت أفكاره الحقه وظفرت بتأييد الجمهور. ذلك لأن الأديان تتطلب درجة من السمو قد لا يتأتى للجميع بلوغها، فى حين تتحدث الميثولوجيا عن واقع الجماهير كما هو.. وأفعالهم وتصرفاتهم فلا عجب أن تكون أقرب إلى قلوب الجماهير. ومعروف بالطبع ما عاناه الأنبياء من مشاق ليتوصلوا إلى إيمان المجتمع. وأنهم رغم صفتهم الاستثنائية – لم يحققوا نجاحاً تاما، ولم يكتسبوا الأغلبية دائماً.

وقد أثرت الميثولوجيا اليونانية/ الرومانية تأثيراً بالغاً على الشخصية الأوربية بحيث نجد أحداثها وأبطالها فى الفنون والاجتماع، بل وتطلق على الأفلاك وعلى أعماق علم النفس كما هو واضح تماماً فى التحليل النفسى لفرويد. وقد كانت دراسة الآداب اليونانية هى أهم دروس "المدارس العامة – كما يقولون مثل ايتون ورجبى وهى التى تعلم أبناء الخاصة والأرستقراطية.

وأثرت الميثولوجيا اليهودية على المجتمع الأوربى. لأنها كانت كالميثولوجيا اليونانية حافلة بأحداث الحروب والهزائم والانتصارات والمؤامرات والعواطف والشخصيات التى تقوم بأدوار معينة، ولأن إله بنى إسرائيل يشبه إله الميثولوجيا اليونانية فهو يغضب ويرضى ويحابى شعبه ويوقع الهزائم بالشعوب الأخرى كما أن التاريخ الذى تقدمه حافل بالمؤامرات والدهاء إلخ... وهناك أناشيد طويلة، وأمثال حكيمة، وشعر عاطفى وابتهالات وروايات عن أولياء وكهنة، بحيث يمكن القول إن التوراة استكمل كل المواصفات التى تخلق "ميثولوجيا" ناجحة ومن هنا دخلت الميثولوجيا اليهودية المتمثلة فى التوراة الآداب والمجتمعات الأوربية. وقد كان اليهود من الذكاء بحيث أقحموا التوراة فى المسيحية بحيث أصبحت مطالعة التوراة جزءاً من واجبات المسيحى التقليدى. ولم يكن لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية التى وضعت وعد بلفور جاهلاً بحدود "الميثاق" الذى وضعه "يهوه" لإبراهيم ووعده فيه

"بالأرض من نيل مصر إلى النهر الكبير الفرات" وقال لكلمنصو أن إعلان بلفور يضم أراض فلسطينية حسبما تشير التوراة من "بانياس إلى بئر السبع".

إذا كان هذا هو أثر "الميثولوجيا" اليهودية على المجتمع الأوربى. فلنا أن نتصور أثرها العميق والشامل على اليهود لأنها تضم الدين، والفنون، والتاريخ، والشريعة الخ... ولأن المحور الذى يدور عليه كل هذا هو أفضلية الشعب المختار وحقه فى السيادة على العالمين. وأن هذا الحق إنما جاء من إله بنى إسرائيل فالتاريخ أصبح دينا، والدين تاريخا، واستطاع اليهود وهم أقدم أقلية فى التاريخ – وفى يدهم هذه الوثيقة، أن يتقدموا – بفضل تراكمات متوالية عبر القرون – بحيث شغلوا منزلة تفوق بمراحل نسبتهم العددية. واندمجوا بذكاء فى المجتمعات الأوربية، وفى الوقت نفسه احتفظوا بشخصيتهم "التوراتية"، ولم يحل دون ذلك أن يؤمنوا بالإسلام كما فى يهود "الدونمة" أو بالمسيحية كما فى "ذرائيلى" الذى تغلغل فى الأرستقراطية البريطانية ورأس حزب المحافظين والوزارات أكثر من مرة، ومع هذا واصل إصدار الروايات التى تنم عن جذره اليهودى..

لقد عايشت اليهودية الحضارة الفرعونية المصرية، وعايشت الحضارة البابلية عشرة قرون، فى كل منها ثم، عاصرت فى مرحلتها الأخيرة الحضارة الرومانية حتى دورها السكندرى. ولم تكن هذه مجرد اتصالات ولكنها معايشة طويلة فقد ولد إبراهيم فى بابل وعاش فترة فيها ثم ذهب إلى مصر وعاد منها. وعاش نسله فى هذه المناطق وعاشروا أهلها وتشربوا بها – حتى فى الأسر البابلى اختلط اليهود بالمجتمع البابلى وكان لهم وجود بارز وهناك من الآثار ما ينم عن مؤسسة مالية ظلت عاملة لأكثر من قرنين متوالين فى بابل. وقبلها عاش اليهود فى مصر وتربى موسى فى بلاط الفرعون كما لو كان نبيلاً مصرياً وخضع اليهود بعد فترة الترحاب بهم أيام يوسف إلى موجات من السخط عندما تحالفوا مع الحيثيين الغازين ولما خرجوا إلى فلسطين تأثروا بحضارة الكنعانيين وأخيراً عندما بسط الرومان حكمهم على هذه المناطق كلها تأثر اليهود بالحضارة الرومانية/ الهلينسية وكانت الإسكندرية معقلاً لليهود كما كانت معقلاً للحضارة الهلينسية. وفيها ترجمت التوراة وبقية كتب اليهود.

هذه المعاشرة الطويلة للمجتمعات الوثنية ذات الميثلوجيات المختلفة أثرت طويلاً على اليهود بحيث طوعت كلمة إبراهيم ودعوته الحقه للإيمان بالله لهذه الميثلوجيات فاختلطت بها وأوجدت ميثولوجيا يهودية خالصة عبرت عنها التوراة بوجه خاص فى أسفارها الخمسة التكوين – والخروج – واللاوبين والعدد والتثنيه وهى الأسفار التى يقولون إن موسى كتبها بخط يده (وكيف يكتب بخط يده خبر وفاته، وما بعده).

كيف تم هذا؟ إن هذا تم بعشرات الطرق، وعلى إمتداد عشرات ومئات السنين وعمل فيه جنود مجهولون لم تسجل صفاتهم أو تعرف أسماؤهم وأسلمه الأسلاف إلى الاخلاف ليقدموا إضافتهم وليسلموه مرة أخرى إلى أجيال جديدة... ووراء هذا كله التطورات التاريخية والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التى تملى على البشر تكييف تصوراتهم طبقاً لما اقتضته ضرورة هذه الأوضاع.

هذا هو الحل الوحيد للمأزق الذى يجد المفكر المسلم نفسه فيه، فهناك تأكيد لوجود إبراهيم وأنه كان رجلاً ممتازاً وأن الله تعالى خصه برسالة التوحيد وأنه دعا قومه إلى الله فكذبوه هذا هو ما يمكن أن يؤكده التاريخ – وهو ما نص عليه القرآن أيضا – أما ما تورده الروايات عن هذا الإله يهوه الذى عشق عشقاً إبراهيم ونسله وفضلهم على كل العالمين ولم تكن له همة إلا إعطاءهم العهود بتمكينهم من الأرض "من نهر مصر حتى نهر الفرات الكبير". وتكررت هذه العهود لإبراهيم، ثم ليعقوب ثم لموسى ثم من بعده.. وأنهم هم الشعب المختار والمميز وأن العلاقة بينهم وبينه الختان.. وأنه إله غيور يفتقد ذنوب الآباء فى الجيل الرابع من الأبناء الخ... فهذا كله ما يضرب عنه المفكر صفحاً، وما لا يرى فيه إلا صياغة لميثولوجيا يهودية وضعها رجال الدين اليهودى فى أوقات متأخرة لتمكين هذه العقيدة فى نفوس اليهود بحيث تحكمهم حكماً لا فكاك لهم منه لأنها فى الوقت الذى تخضعهم لها فإنها تؤكد لهم أنهم الجنس المختار، وأن ليس للأميين منزلة تقارب، فضلاً عن أن تضارع – الجنس اليهودى المختار..

إن ماركس قـدم لنا مفتاحـاً لحل المسـألة اليهودية عنـدما قـال **إننا لن نبحث عن سمة اليهودى فى دينه، بل سنبحث عن سر هذا الـدين فى اليهـودى الحقيقى"** ولا يختلف الرأى الذى ينتهى إليه المفكر المسـلم عن هـذا "أن معظم ما تضمنته التوراة إنما هو من وضع اليهود. فقد وضع اليهود دينهم بأنفسـهم، كما اختـاروا الاههم. وهـذا الـدين يختلف – بل ويتنـاقض – مع ما أنزله الله على إبـراهيم من دين يتسم ككل الأديـان الإلهية بالموضـوعية والانفتـاح وليس الذاتية والانغلاق وإن ظلت بعض توجيهاته، وهى التى أكسبت الإعجاب ومثلت إضافة اليهودية فى عالم الأديان.

نحن لا يخالجنا شك فى أن هذا هو سبب ما أضيف إلى دعوة إبـراهيم السـمحة، من إقامة حكم باسم الدين وهذه الأوامر التى يصـدرها يهـوه إلى قـادة بـنى إسـرائيل باستئصـال أعـدائهم استئصـالاً وقتل الرجـال والنسـاء وسـبى الأطفـال وقتل البهـائم واقتلاع المزروعات، وأن من يعمل فى يوم السبت يرجم.

ويجب أن نـذكر أن وعد إبـراهيم المزعـوم جـاء فى سـفر التكـوين الحافل بتقديرات وهمية عن تكوين الأرض وظهور الإنسـان ونسل آدم الخ... وعنـدما يـرد فيه أن موسى كتب الأسفار الخمسة بيده فهذا نفسه دليل على أن هذا نص كتبه غيره.

وهذا ما ينطبق بوجه خـاص على الوعد الـذى أعطـاه يهـوه لإبـراهيم بـأن يملكه ونسله الأرض من نهر مصر إلى نهر الفرات، إذ لا معـنى لـه. فقد ولد إبـراهيم فى أور واستقر بها والمفروض أنه دعا قومه إلى الإيمان وإذا كان سيملكهم أرضاً، فيكون ذلك فى الأرض الـتى ظهر فيهـا، ولا داعى لتمليكهم أرضـاً بعيـداً عنها واعتبـار هـذه الأرض أرض غربة والأرض الجديدة موطنا. فإدراج هذا النص أمر ينم – فيما يشبه اليقين – أن أحبـار بـنى إسـرائيل قد وضـعوه فى فـترة متخلفة ليكـون أساسـاً لحق مزعـوم فى فلسطين. وما يمكن التسليم به هو أن موسى دعا قومه للذهاب إلى فلسـطين عنـدما أراد أن يحررهم من مصر "أرض العبودية" سواء كان هـذا نتيجة أمر إلهى، أو أنه كـان التصـــرف الوحيد العملى، مما دام قد قـــرر أن يخلص من مصـــر، فليس أمامه إلا فلسـطين، لأنه لا يعقل أن يخـوض بهم فلـوات الصحراء ليـذهب إلى ليبيا أو العـراق. ففلسطين كانت هى أقرب الأراضى التى يمكن أن يلجأ إليها. وكان يمكنه هـذا بـالطبع بالاتفاق مع الأهليين، أو حتى عند رفض هؤلاء بحرب محدودة. وينتهى الأمر..

* * *

من المهم أن نعلم إن عـدم اتفـاق الميثولوجيا مع العلم أو العقل لا يوهنهـا، أو يضـائل الإيمـان بهـا، لأنها تعتمد على الوجـدان والمشـاعر والعواطف الـتى يكـون لها منطقها الخـاص ومكانها فى النفس البشـرية. ومن هنا كـان الكثـير من "العلمـانيين" يؤمنون بها فى مجالها ولا يـؤثر هـذا على عقلانيتهم فى المجـالات الأخـرى. ولعل هـذا الإيمان أن يستكمل لهم ناحية معينة فى النفس البشرية. وكان أكـبر دعـاه الصـهيونية من العلمـانيين مثل هـيرزل ووايزمـان وبن جوريـون. ولكنهم مع هـذا يأنسـون إلى الميثولوجيا اليهودية كما جـاءت بها التـوراة. وكـان إيمـان بن جوريـون بها يختـزل ثلاثة آلاف سنة ويراها كما كانت حية وكان يفخر على الأوروبيين الذين لا يذكرون ماذا أكلوا فى أسبوع مضى فى حين أنه يعلم ماذا أكل أسلافه عنـدما خرجـوا من مصر منذ ثلاثة آلاف عام. لقد أكلوا خبزاً فطيراً بلحم مشوى وأكلوه وهم وقوف. وأحقـاؤهم ممنطقة ونعـالهم فى أرجلهم وعصـيهم فى أيـديهم كمن هو على أهبه السـفر. وكـان هـذا يثـير دهشة مستمعيه وإعجابهم.. ووجد دزرائيلى – وهو فى منصب الوزارة البريطانية – فى الميثولوجيا اليهودية – مادة لروايتيه كننجسبى وتنكريد.

لا عجب إذن إذا كانت الميثولوجيا اليهودية التى وضعت من أقدم الآباد هى الـتى كونت "النفسية اليهودية" وكـانت الربـاط الـذى يجمعهم فى الشـتات فى أوربـا، وفى آسيا الخ... ويجعلهم أمة واحدة. أمة التوراة.. وقد يزيد بعضـهم أمة التـوراة والسـبت، واليوم هم يزيدون "أمة التوراة. والسبت والهيكل".

***

- 3 -
من الخروج إلى الدياسبورا [37]

خرج موسى ببنى إسـرائيل من مصر "أرض العبوديـة" مسـتقبلاً أرضـاً جديـدة. أرض الحرية. وأعانه الله تعالى على ذلك حتى دخل صحراء سـيناء وتمـرد عليه اليهـود وعادوا مرة أخـرى لعبـادة العجل الـذهبى وحنـوا إلى مصر وفولها وعدسـها.. فعـاقبهم الله بالتيه فيها طوال أربعين عامـاً.. انتهى خلالها الجيل الـذى عـاش فى العبودية وحن إليها. ومات موسى وهـارون نفسه وتعين على يوشع أن يـدخل الأرض المقدسة فعـبر بهم نهر الأردن وأمر يوشع أن يختتن الشعب كله لأن هذه الشـعيرة هى العلامة ما بين إسرائيل وإلههم[38]، وهى بمثابة المعمودية عند المسيحيين. ثم دخل أريحا بعد أن نبـأه الرب أنه ما إن يطوفوا حول الأسوار سبع مرات وينفخ الكهنة فى الأبواق حتى تتداعى أسوار المدينة.. وأهلك اليهود كل من وجدوه من رجل أو امرأة حـتى البقر والغنم بحد السيف "كما أمر الرب".

وبدأت سلسلة من الحروب والقلاقل ارتؤى فيها أن يقوم القضاة بـالحكم، وبـدأ حكم القضاة الذين ساسوا فى الفـترة من مـوت يشـوع حـتى اختيـار شـاول أول ملك لليهود.. وتبلغ هذه الفترة أربعمائة سنة على وجه التقريب.

ويتحـدث أحد المراجع عن هـؤلاء القضـاة " بيد أن هـؤلاء لم يكونـوا حكامـاً، ولا حتى قواداً عسكريين بكل معنى الكلمة، بل أبطالاً اختارهم الله رأساً من بين الشعب لمهمة معينـة، حسـبما كـانت تقتضـيه الظـروف، وذلك لتخليص الشـعب من أعـدائهم ومضايقيهم.

ومن ثم لم تكن هنـاك خلافة متسلسـلة الحلقـات بين هـؤلاء القضـاة، الـذين لم تتعد سلطة القاضى منهم فى بعض الأحيان سبطه الخاص. وربما كان بعضهم معاصراً لبعض.

أما من جهة أخلاقهم فلم تكن، علي الــدوام، على ما يــرام، ولا ســيما أخلاق بعضهم. فهم فى الواقع قادة عسكريون أكثر منهم مصـلحون، وإن اهتم بعضـهم بهـدم معابد الأصنام وتطهير شعبه من أرجاس الوثنية[39].

إن أشهر هؤلاء القضاة، هم: عتنيئيل، وأهود، ودبورة النبيه، وبارق. ثم جـدعون. ويفتاح وشمشون.

ويلحظ هنا أن هؤلاء القضاة، وهم أفضل بنى إسـرائيل، وأن بعضـهم كـان يتلقى وحى إله بـنى إسـرائيل ويبتهل إليـه.. نقـول إن تـأثير الميثولوجيا عليهم كـان عميقـاً وجعلهم "محامين" لشعب إسرائيل، وليسـوا قضـاة يحكمـون بالعـدل، وليس عبثـاً أن يكون أحدهم "شمشـون"الجبـار الـذى اسـتطاع "بفك حمـار" ميت قتل قرابة ألف من الفلسطينيين. وهو نفسه الذى استسلم لإغـراء "دليلـة" حـتى ذكر لها أن سر قوته هو فى شعره، فحلقت شعره وهو نائم وأسلمته إلى الفلسـطينيين أعـداءه الـذين طربـوا لذلك. ولكن شمشون تاب إلى الله فأعاد الله إليه قوته وعنـدما أراد الفلسـطينيون أن يسخروا منه، وكان واقفا بين عمودين من الهيكل شد بيديه العمودين فسقطاً وانهـدم

---

37 (37) الخــروج أى الخــروج من مصر بقيــادة موسى والدياســبورا هى التســمية اليهودية لحالة الشتات الـتى عاشـها اليهـود فى مختلف دول العـالم بعد طـردهم من فلسطين.

38 (38) يبدو أن الأحبار اليهود لا يزالون يتمسكون بهذا التقليد. فقد جاء فى الهيرالد تربيون فى 12/11/1993 أن الحاخامات اليهود فى إسرائيل يقومون بعملية ختان على جثث اليهود الروس قبل دفنهم.

39 (39) التاريخ المقدس للأب لويس برسوم الفرنسيسكانى ص130 – مركز الثقافة الشرقية – القاهرة 1954.

الهيكل وهو يقــول علىَّ وعلى أعــدائى يــارب"، ويقــال إنه بهــذه الصــورة قتل من الفلسطينيين أضعاف ما قتلهم فى حياته.

ولعل أفضل هؤلاء القضـاة هو صـموئيل الـذى اسـتطاع أن يخلص إسـرائيل من هيمنة الفلسطينيين وعبادة الآلهة الغريبـة، فـاعترف كل الإسـرائيليين به قاضـياً عليهم وتولى هذه المهمة حتى شـاخ وكـبر.. وعندئذ طلب الإسـرائيليون منه أن يـولى عليهم ملكا.. وتضمنت الفقرة التى جـاءت فى سـفر القضـاة عن هـذه النقطة كلامـاً حكيمـاً فعنــدما ســاء ذلك صــموئيل ابتهل إلى **الله أن يهديه أجابه الله "اســمع لكلام الشــعب فى جميع ما يقولــون لــك. لأنهم لم يرفضــوك أنت، بل إيــاى رفضـوا حـتى لا أملك عليهم. ولكن أشـهدهم وأخـبرهم بوسـائل الملك الذى يملك عليهم حتى إذا ما أثقل عليهم لا يلوموا إلا أنفسهم".**

فجمعهم صموئيل وقال لهم هـذا هو ما سـيفعله الملك بكم إذا حكمكم. سـيأخذ أبناءكم ليستعبدهم فى أعماله، وليسعون بين يدى عرباته وسيعين بعضهم قادة ليكونوا ضــباطاً فى جيشــه، وآخــرين ليكــدحوا فى حقوله ومزارعه وآخــرين لإعــداد عرباته وأسلحته وسيأخذ بناتكم ليكن وصائف وخادمـات وخبـازات وطباخـات، وسـيأخذ أفضل حقـولكم وأشـجار الزيتـون والأعنـاب، وسـيأخذ العشر من الحبـوب ليعطيها لأتباعـه، وسيأخذ أفضل ماشيتكم، وسيثقل كواهلكم بالضرائب وأنتم تكونون عبيداً له.

فـأبى الشـعب أن يسـمع لهـذا التحـذير، وقـالوا بإلحـاح كلا بل يملك علينا ملك كسائر الأمم يقضى بيننا ويخرج أمامنا ويحارب حروبنا.

فلما رأى إصرارهم اختار لهم شاول ملكاً.

وبدأ عهد الملوك..

ولكن شــاول انحــرف عن طريق الله وخــالف وصــاياه. فتعــدى على ســلطة الكهنوت فقد كان متفقـاً على ألا يبـدأ المعركـة، قبل تمـام سـبعة أيـام. وإذ ذاك يـأتى صموئيل، فيقرب محرقة للرب، طالباً معونته وحماية جنود إسرائيل.

وحل اليوم السابع، وطال انتظار شاول، ولم يأت صموئيل. ورأى شاول الشعب يتفرقون من حوله، وطلائع الفلسطينيين تقترب من معسكره، فنفد صـبره. وطلب أن يقدموا إليه المحرقة وذبـائح السـلامة، فقـدموها. وما هى إلا لحظة حـتى أخذ يصـعدها بنفسه.

وأغضب هذا صموئيل وقـال له "إنك بحماقة فعلت حيث لم تحفظ وصـية الـرب إلهك. فإن الرب كان قد أقر ملكك على إسرائيل إلى الأبد، فأما الآن فلا يدوم ملكك (1 مل 13 : 5-14).

أما المعصـية الثانية الكـبرى الـتى ارتكبها شـاول فكـانت بمناسـبة الحـرب ضد العمالقـة، وكـانت حربـاً انتقاميـة، أمر بها الله لإبـادة هـؤلاء العمالقـة، الـذين تعرضـوا لإسرائيل عند دخوله أرض الموعد.

وعلى ذلك فقدُ أمر شــاول بإبــادة جميع الســكان وكل مواشــيهم: الغنم والإبل والحمير، بحيث لا يبقى على حى إطلاقاً.

غير أن شاول قتل شعب العمالقة فقـط. أما ملكهم فلم يشأ أن يقتلـه، بل جـاء به حياً، ليشهد بنصره عند القاصى والدانى. كما أنه أعدم كل ما كان حقيراً مهزولاً. أما خيار الغنم والبقر، وكل ثمين فقد احتفظ به.

ولهذه المعصية غضب إله إسرائيل على شاول وقرر أن يكون داود ملكا[40].

---

[40] **(40) هذه الفقرة، والفقرات الأخرى التالية فى الفصل والمنقولة عن التوراة مقتبسة من كتاب التاريخ المقدس للأب لويس برسوم الفرنسيسكانى – مرجع سابق.**

وخلف شـاول داود، الـذى بـرز عنـدما اسـتطاع أن يقتل العملاق الفلسـطينى جـالوت (جليـات) بحجر من مقلاعـه، وملك داود ولكن شـيعة شـاول، نازعته الملك فقامت الحرب بين بيت داود وبيت شاول لما يقـرب من سـبع سـنين وانتصر داود فى النهاية وملك داود على كل إسرائيل لمدة أربعين سنة. ونقل عاصمة ملكه من حـبرون إلى أورشليم بعد أن أخـرج من القطـاع الأعلى منها اليبوسـيين سـكانها الأصـليين بحد السيف ونقل "التابوت" إلى أورشليم باحتفالات باذخة وحدث وقتئذ أن جمحت الثيران التى تجر التـابوت فمد "عـزة" وهو أحد قـوادهم يـده ليسـند التـابوت "ولكن لما كـان لمس التابوت غير مسـموحاً به إلا للكهنـة. فقد اشـتد غضب الـرب على عـزة وضـربه لأجل جسارته هذه فمات".

"فشق على داود ضرب الرب لعـزة، وخـاف خوفـاً شـديداً من أن يـنزل تـابوت الرب عنده. ومن ثم فقد عدل به مؤقتـاً إلى بيت عوبيد أدوم. فبقى تـابوت الـرب فى بيت عوبيد ثلاثة أشهر، كانت ميمونة على عوبيد وكل بيتـه، حيث باركه الله وكل مالـه، بركة غزيرة.

فلما سـمع داود ذلـك، مضى فى مـوكب عظيم، وأصـعد تـابوت الـرب من بيت عوبيد إلى مدينة داود، كما كان مقـرراً من ذى قبـل. وكـان الفـرح شـاملاً. فكـان كلما خطا حاملو التابوت ست خطوات يذبحون ثوراً وكبشاً مسمناً.

وكان داود يرقص بكل قوته أمام تابوت الـرب طـوال الطريـق، حـتى وصـلوا به إلى أورشليم، إلى حصن صهيون، وأدخلوه السـرادق الفخم المقـام له خصيصـاً بـذلك الحصن. وكان بعد ذلك أن أصـعدت المحرقـات، ونحـرت ذبـائح السـلامة، ووزع لحمها على جميع الحاضرين رجالاً ونساء. ثم بارك داود الشعب وصرفهم"[41].

ومع هذا فقد تمرد على داود ابنه أبشالوم وقـامت حـرب أهليه حـتى هـرب داود وعـبر الأردن، ولكنه انتصر بعد مـدة ورفـرف السـلام على ربـوع المملكة إلى أن أمر داود بعمل إحصاء للشعب.

"وبما أن طلب ذلك الإحصاء كـان بـدافع الكبريـاء، فقد غضب الـرب على داود، فأرسل إليه جـاد النـبى، قـائلاً: "إنى عـارض عليك ثلاثـاً. فـاختر لنفسك واحـدة منهـا، فأنزلها بك: أن تأتى عليك سبع سـنين جـوع فى أرضـك. أم تهـرب أمـام أعـدائك ثلاثة أشهر. أم يكون ثلاثة أيام وباء فى أرضك.

فقال داود لجاد، وقد علم خطأه: لقد ضـاق بى الأمر جـداً، ولا أعلم مـاذا أختـار، ولكن إن كان لابد من ذلك، فـالأحرى أن أقع فى يد الـرب، ذى المـراحم الكثـيرة، من الوقوع فى يد الناس.

فبعث الرب فى كل إسرائيل وباءً شديداً جداً، فمات من الشعب سبع وسـبعون ألف رجل. ولم تكفّ الضربة، إلا عندما رفع داود أكف الضراعة إلى العلى. ليرحم ذلك الشعب البرىء قائلاً: أنا الذى فعلت السوء. وأما أولئك الخراف فماذا فعلوا ؟.

فتعطف الله على عبـده داود وعلى الشعب، فكفت الضربة (2 مل 24..).

وقبل أن يموت داود جمع جميع رؤساء إسـرائيل وخـاطبهم قـائلاً "لقد كـان فى نفسى أن أبنى بيتاً لتابوت عهد الرب، وقد أعددت كل مواد البناء. إلا أن الله قـال لى: أنت لا تبنى بيتاً لاسمى، لأنك رجل حـروب، وقد سـفكت الـدماء! بل سـليمان ابنك هو يبنى بيتى، لأنى إياه اصطفيت لى ابناً. وأنا أكـون له أبـاً. وأقر ملكه إلى الأبـد، إن ثبت على العمل بوصاياى وأحكامى.

وبعد توصية قصيرة للشعب، حثهم فيها على الثبات فى حفظ جميع وصايا اللـه، أبـرز رسم بيت الـرب وملحقاتـه، مع تصـميم جميع الآنية وأمتعة الخدمـة، ودفعها إلى سليمان ابنه.. (1 أى 28..) وقال للرؤسـاء: إن العمل عظيم، لأن الهيكل ليس لبشـر، بل للرب الإله... وبعد فإنى لرغبتى فى تحقيق هذا الأمر، لدى مـال خـاص من الـذهب

---

41 **(41) التاريخ المقدس – مرجع سابق ص 171.**

والفضــة، وهبته لــبيت إلهى، علاوة على جميع ما أعددته – من مــال الدولة وأســلاب الحروب – لبيت القدس: ثلاثة آلاف قنطار من ذهب، وسبعة آلاف قنطار من فضة.

حينئذ تطـوع الرؤســاء، وأدوا لخدمة بيت الله خمسة آلاف قنطــار من الــذهب، وعشرة آلاف من الفضة، وكميات كبيرة جداً من النحاس والحديد.

وبارك داود الرب قائلاً: مبارك أنت أيها الرب إله إسـرائيل... لك يا رب، العظمة والجبروت والجلال والبهاء... من لـدنك الغـنى والمجـد، وأنت مالك على الجمـيـع، وفى يدك القدرة... أيها الرب إلهنا إن كل هذه الثروة التى أعددناها لنبـنى لك بيتـاً، إنما هى من يدك والجميع لك.

وبارك الشعب كلهم الرب إله آبـائهم، وخـروا وسـجدوا للـرب وللملـك. وذبحـوا للرب ذبائح كثيرة. ثم توجوا سـليمان، فجلس على عـرش إسـرائيل مكـان أبيه (1 أى 29..).

وملك سليمان وامتد سلطانه على كل الممالك الصغيرة المجاورة لإسرائيل من نهر الفرات إلى أرض فلسطين إلى حدود مصر.

وفى السنة الرابعة من ملكه بدأ فى إقامة الهيكل..

وتورد التوراة أرقاماً "فلكية".."بلغ عدد العمال الذين استخدمهم سليمان لإنجاز هذا العمل العظيم ما يقرب من المئتى ألف عامـل، منهم: ثلاثـون ألف عامل سـخرة، كان يرسل منهم إلى لبنان عشـرة آلاف فى الشـهر مناوبـة، لقطع الأخشـاب مع عبيد حـيرام ملك صـور، صـديق سـليمان. وسـبعون ألف عامل لحمل الأثقـال فقط ونقلهـا، وثمانون ألفاً لقطع الأحجار ونحتها قبل تصـديرها إلى أورشـليم. هـذا ما عـدا الرؤسـاء وكلاء سليمان القائمين على الأعمال، والبـالغ عـددهم نيف وثلاثة آلاف رجل (3 مل 5: 13..).

ويتكون الهيكل أو بيت "يهوه" بحصر المعنى، من القدس وقدس الأقـداس، وهو ضـعف مسـاحة المسـكن الـذى أقامه موسى تمامـاً. ومن ثم كـان طوله ثلاثين مـتراً وعرضه عشرة أمتار. ويمتد أمام القدس الدهليز، وهو بعرض الـبيت فى طـول خمسة أمتار.

وكان للقدس، الـذى لم يكن مسـموحاً بدخوله إلا للكهنـة، شـبابيك مرتفعـة. أما قدس الأقداس أو المحراب الـذى لم يكن مسـموحاً بدخوله إلا لـرئيس الكهنـة، ومـرة واحدة فى السنة فقط، فكان مظلماً تماماً.

وكانت تمتد على محيط بيت الله ثلاثة طبقات من الغرف، لحفظ أدوات الهيكل، والأقداس والنذور (3 مل 6 : 1 – 10).

ويبلغ ارتفاع رواق القدس أو الدهليز ثلاثون متراً، والقدس خمسة عشـراً مـتراً. أما ارتفاع قدس الأقداس أو المحـراب، فكـان كطوله وعرضه أى عشـرة أمتـار، وإذن فهو عبارة عن عشرة أمتار مكعبة.

ولكى نعطى فكرة للقارئ عن فخامة هذا البناء وعظمته، نقول: إنه بـنى جميعه بحجارة ثمينة تامة النحت. وقد ألبست جدرانه وسقوفه وأرضيته بخشب الأرز والسرو، ثم غشيت جميعها بالذهب الخالص. وقد نقشت على جميع جدران الـبيت صـور ملائكة ونخيل وزهور مفتحة بارزة محكمة النقش. كما أن جميع أدوات بيت الله، الـتى صـنعها سليمان كانت من الذهب الخالص (3مل 6 : 14..).

وكـان يحيط بالهيكل من مدخله وجانبيـه، على أيـام سـليمان سـاحتان كبيرتـان: ساحة الكهنة، وساحة إسـرائيل. وكـانت الأولى، وهى المقـام عليها الهيكـل، أعلى من الثانية بخمس عشـرة درجـة، وفى وسـطها مـذبح المحرقـات، والبحـر، والمغتسـلات العشرة، التى صنعها سليمان من النحاس المجلو.

وكـان حـول هـاتين السـاحتين أروقة كبـيرة فسـيحة، ذات أعمـدة مرتفعة من الرخام، يتخللها عدد كبير من الغرف لسكنى الكهنة، والأغراض الأخرى المختلفة.

فى تدشين الهيكل:

ولما تم بناء الهيكل بجميع أقسامه، أدخل سليمان جميع الأقـداس، الـتى أعطـاه إياها داود أبوه، من الفضة والذهب، وجعلها فى خزائن بيت الرب (3 مل 7 : 51).

حينئذ جمع إليه شيوخ إسرائيل، وجميع رؤساء الأسباط، وكل عظماء الدولة إلى أورشليم، ليصعدوا تابوت عهد الرب من "صهيون" إلى الهيكل الجديد. فأصعدوه بفـرح واحتفال عظيمين.

وما أن أدخل الكهنة تـابوت الـرب إلى مكانه فى قـدس الأقـداس، تحت أجنحة الكروبين العظيمين، اللذين صنعهما سليمان من داخل المحراب، حتى ملأ الغمـام بيت الرب. فلم يستطع الكهنة أن يقفوا للخدمة بسبب الغمام، المشير والمعلن بحلول الله فى بيته.

وإذ رأى سليمان أن مجد الرب قد ملأ الهيكل، قام فجثا على ركبتيه أمـام مـذبح الرب، أمام جماعة بنى إسرائيل كلها، وبسط يديه نحو السـماء، وصـلى صـلاة طويلـة، نقتبس منها الفقرات التالية، قال: أيها الـرب إله إسـرائيل، ليس إله مثلك فى السـماء من فوق، ولا فى الأرض من أسفل.. إن السـماوات، وسـماوات السـماوات لا تسـعك، فكيف هذا البيت؟.. اللهم التفت إلى صـلاة عبـدك وتضـرعه. ولتكن عينـاك مفتوحـتين على هـذا البـاب، والنهـار والليـل.. نحو تضـرع عبـدك وشـعبك، واصغ إليهم فى كل ما يدعونك فيه.

وكـان لما أتم سـليمان صـلاته، أن هبطت النـار من السـماء، فـأكلت المحرقة والذبائح، وملأ مجد الرب البيت. وبذا تم تكريس الهيكل بجميع مذابحه وأدواته.

وعاين جميع بنى إسرائيل هبوط النار، ومجد الرب، فخروا بوجوههم إلى الأرض، وسجدوا لله جلّ جلاله، معترفين بصلاحه تعالى ورحمته.

وذبح سـليمان الملك أمـام الـرب ذبـائح: اثـنين وعشـرين ألفـاً من البقـر، ومئة وعشرين ألفاً من الغنم، ما عدا ما ذبحه الشعب.

واحتفل سـليمان وكل جماعه بـنى إسـرائيل بتدشـين الهيكل أربعة عشر يومـاً. صرفهم بعدها الملك إلى بيوتهم فرحين طيبى القلوب (3 مل 8...).

وتجلى الرب لسليمان ليلاً، وقال له: قد سمعت صلاتك، واخترت لى هذا المكان بيت ذبيحة، وقدسته ليكون اسمى فيه إلى الأبد (3 مل 9..) "[42].

مع هذا كله، فقد حـاد سـليمان عن طريق الحكمة واستسـلم للشـهوات على ما روت التوراة "ولذلك فإن كثيراً من العلماء ومفسرى الكتاب يشكون فى أمر خلاصه.

بعد موت سليمان انشقت دولة إسرائيل إلى مملكتين مملكه يهـوذاً الخاضـعة لرحبعـام بن سـليمان وعاصـمتها أورشـليم ومملكة إسـرائيل الخاضعة لياربعام وعاصمتها شكيم ثم السامرة.

ومملكة إسرائيل يمتد عمرها من سنة 932 إلى سنة 722 ق. م.

ويمكن تقسيم تاريخ هذه المملكة إلي ثلاث فـترات: الأولى، فـترة الحـروب بين الدولتين الناشئتين، وتمتد حتى أواخر ملك آحاب.

الثانية: فترة سلام بين المملكتين الشقيقتين. وتمتاز هذه الفترة بظهور الأنبيـاء، ومنهم إيليا، وأليشاع الخ...

الثالثـة: فـترة حـروب أيضـاً بين الـدولتين، حـتى خـراب دولة إسـرائيل على يد شلمنآسر ملك آشور، وجلائها إلى نينوى.

---

[42] **(42) التاريخ المقدس – مرجع سابق من ص 186 – 189.**

ويمكن القول أن كل ملوكها كانوا أشراراً، بما فى ذلك الملك عمرى الــذى ملك 12 سـنة (886 – 875 ق. م). والـذى أسس مدينة السـامرا الـتى صـارت عاصـمة الدولة، وكان معظمهم يعبدون العجل، أو البعل. وظهر وقتئذ بينهم إيليا الـذى أوحى له الرب بـأن يعظ الملك آحـاب – سـابع ملـوك إسـرائيل. ولما أمر الملك بقتله أوحى له الرب بأن يهرب إلى نهر كريت تجاه الأردن ويشرب منه وأن الغربان سـتأتيه بطعامـه. فكان يشرب من النهر وتأتيه الغربان بخبز ولحم كل يـوم صـباحاً ومسـاءاً (3 مل 17: 1-6). وأجـرى الله على يـدى إيليا معجـزات عديـدة حـتى يرتـدع حكامها وفى النهاية جاءت مركبة نارية، وخيل نارية فصلت ما بين إيليا وتلميذه المخلص أليشاع وطلع إيليا فى العاصـفة النارية إلى السـماء بينما خلفه أليشـاع الـذى حلت فيه روح إيليا فأطاعه بنو إسرائيل. وأظهر أليشاع معجزات عديدة منها تحويل المياه المرة إلى ميـاه حلـوة. ومنها معاقبة فريق استهتر به فخرجت دابتان من الغاب وافترستا منهم اثـنين وأربعين صبياً!. (4 مل 2 :ـ 22) ومنها تكثير الزيت، ومنها إحيـاء ابن لامـرأة تقية بعد أن مـات من ضربة شمس، ومنها إصلاح الطعـام السـام، ومنها تكثـير الخـبز إذ جعل مائة رجل يأكلون من عشرين رغيفاً حتى شبعوا وفضل عنهم.. (4 مل 4 :ـ 42). وشفاء نعمـان الشامى قائد الجيش، كما كشف عن خطط ملك سـوريا ضد مملكة إسـرائيل، وكـذلك إنقاذ مدينة السامرة.

وحـدثت فتن أدت إلى قتل بيت آحـاب الملك ومسح يـاهو ملكـاً على إسـرائيل، وطهر المملكة من عبادة البعل، بعد أن أوهم النـاس أنه سـيقوم بتقـديس البعل فجـاء كل عباد البعل من كل أنحاء إسرائيل إلى السامرة، وفيما هم يقـدمون الـذبائح، للبعل أمر ياهو رجاله فضربوهم ضربا بحد السيف.

وملك يـاهو على كل إسـرائيل ثمـانى وعشـرين سـنة. وهو مؤسس الأسـرة الملكية الخامسة، الـتى قـدر لها أن تعيش ما يقـرب من المائة سـنة. فقد قـال الـرب ليـاهو: حيث إنك أحسـنت فى كل ما صـنعت بـبيت آحـاب، فسـيجلس من بنيك على عرش إسرائيل إلى الجيل الرابع.

بيد أن ياهو، وإن طهر مملكة إسرائيل من عبـادة البعل الرجسـة، إلا أنه لم يحد عن آثام ياربعام بن نباط، فعبد مثله الرب الإله تحت صورة عجلى الذهب، اللــذين فى بيت إيل ودان.

ولذا فإن الرب سلط عليه حزائيل ملك أورام. فكال حزائيل الضربات لإسـرائيل قاسية، حسب نبوة أليشاع رجل الله. واقتطع من تلك المملكـة، الـتى كـانت تحيط بها الأعـداء من الجنـوب والشـمال، كل مـدن شـرقى الأردن، من عروعـير إلى جلعـاد وباشـان. ولم ينج يـاهو من نـير آشـور، فـدفع الجزية لملكها شلمنآسر الثـالث (4 مل 10..).

ومات ياهو، فخلفه على عرش إسرائيل ابنه يوآحاز (814 – 798 ق. م). الذى أضحت فى أيامه دولة إسـرائيل – فى فـترة من الـزمن على الأقل – عبـارة عن ولاية خاضعة لملوك دمشق الآراميين.

فلم يكن ليوآحاز سـوى خمسـين فارسـاً، وعشر مـراكب حربيـة، وعشـرة آلاف راجل. وهى القوة التى كان يسـمح بها لحكـام الأقـاليم الخاضـعة للممالك الكـبرى فى ذلك الزمن (مل 3 : 1 – 8).

ونهضت بعد ذلك إسرائيل نهضة بلغت أوجها فى عهد ياربعـام الثـانى الـذى ملك إحدى وأربعين سنة (784 – 744 ق. م) على أن هذه النهضة المادية العظيمة، الـتى لم تكن تسـتند على أسس ثابتة من الأخلاق وروح الـدين، لم تلبث أن أخـذت فى الانهيار. وقد بدأ هذا الانهيار بوضوح بعد موت ياربعام، وارتقاء زكريا ابنه بالعرش. وهنا تبـدأ الفـترة الثالثة والأخـيرة من تـاريخ دولة إسـرائيل. وهى فـترة تقهقر واضـمحلال بطىء انتهى بفناء هذه الدولة.

ومن ملوك هذه الحقبة الأخيرة :

زكريا بن ياربعام، هو آخر ملوك الأسرة الخامسة، التى أسسها ياهو. لم يملك على إسرائيل أكثر من ستة أشهر، فقد تآمر عليه شلوم بن يابيش، وقتله علناً أمام الشعب، وملك مكانه. (4 مل 15 : 8 – 12).

ولم يتمتع شلوم قاتل سيده، بالحكم أكثر من شهر، فقد تحالف عليه منحيم الترصى، وقتله فى السامرة، وملك مكانه (4 مل 15 : 13 – 15).

واستطاع منحيم أن يملك علي إسرائيل عشر سنين (744 – 735 ق. م)، ولكن بالقوة الجبرية. وبما أنه كان يعرف أن عرشه متزعزع، فقد أعطى لفول، وهو تجلت فلآسر الثالث ملك أشور، ألف قنطار من الفضة، حتى تكون يده معه لإقرار الملك فى يده. فكان يدفع بانتظام هذه الجزية سنوياً، مغتصباً قيمتها من الشعب. (4 مل 15 : 16 – 22).

أما ابنه فقحيا فلم يملك أكثر من سنتين (735 – 733 ق. م)، فقد تآمر عليه أحد قواده المدعو فاقح، وقتله فى قصره مع عدد من حاشيته، وملك مكانه. (4 مل 15 : 23 – 26).

وفى عهد فاقح (733 – 731 ق. م) اكتسح آشور إسرائيل، وأضحت خراباً يباباً، ولم يبق منها إلا مقاطعة السامرة وما يحيط بها من أقاليم جبلية، وجاء دورها هى الأخرى على يد سرجون الأشورى الذى حاصرها وفتحها وأعمل السيف فى رقاب أهلها، وأخذ معه من رجال إسرائيل قرابة ثلاثين ألف أسرى إلى آشور وذلك فى سنة 722 ق. م. (4 مل 17 : 5 – 6).

كما أسكن لفيفاً من أشور وأعمالها مدينة السامرة فنشأ عن ذلك الشعب الذى عرف باسم السامريين.

مملكة يهوذا:

أما مملكة يهوذا فمع أنها لم تكن لها مساحة ولا كثافة مملكة إسرائيل، إلا أنها كانت تمتاز عنها بطابع الوحدة كما أنها كانت تضم أورشليم وهى العاصمة القديمة ولهذا قدر لها أن تعيش قرابة 346 سنة تبدأ من 932 – 586 ق. م.

ويمكن تقسيم تاريخ مملكة يهوذا إلى فترتين طويلتين، تمتد الأولى: من نشأة هذه الدولة، حتى سقوط دولة إسرائيل. والثانية: من سقوط دولة إسرائيل حتى سبى بابل.

وتمتاز الفترة الأخيرة من تاريخ يهوذا، بصراع هذه الدولة المستميت ضد أعداء أشداء، كملوك مصر وبابل. وكان صراعاً للبقاء، انتهى بغلبة الأقوى، أى بغلبة بابل، وزوال دولة اليهود، ولو إلى حين.

وفى عهد الملك رحبعام هاجم شيشان ملك مصر أورشليم ونهبها وأخذ كل نفائس بيت الرب. وخلف رحبعام ابنه أبيا أو أبيام وجرى على جميع خطايا أبيه من عبادة الأصنام والإلهة الغريبة. وحارب أبيا وشعبه ياربعام وهزمه وسقط من إسرائيل خمس مائة ألف رجل (3 مل: 1 – 8). وجاء بعده آسا ابنه، ومن بعده يوشافاط الذى يعد من أتقى ملوك يهوذا، إلا أن نهايته لم تكن سعيدة لأنه ارتكب عدة أخطاء كان منها زواج ولى عهده يورام من عتيليا ابنه إيزابيل ذات الشهرة السيئة. ولهذا فعندما ولى يورام العرش كان من أسوأ ملوك يهوذا وأول عمل قام به هو أنه قتل جميع إخوته بحد السيف مع جماعة من رؤساء إسرائيل فغضب عليه الرب وأرسل إليه رسالة عن طريق إيليا وأنذره فيها بضربة عظيمة من الرب مع بنيك وأزواجك ويضربك أنت بأمراض كثيرة حتى تتساقط أمعاؤك بسبب المرض. وتحققت هذه النبوءة بهجوم الفلسطينيين والعرب على يهوذا وافتتحوها وأصيب يورام بالمرض حتى خرجت أمعاؤه.

ويتوالى الملوك أحزيا (842 ق. م) وعتليا وهى أم أحزيا (842 – 836) ويوآش (836 – 797) وأمصيا 797 – 769 وعزيا وهو المدعو أيضاً عذريا 769 – 737 وهو

إلــذى اســتولى على إيلت على البحر الأحمر وجــدد بناءها بحيث أصــبحت من أعظم أسـواق التجـارة ببلاد الجنـوب إلا أنه لما تمكن، طمح قلبه للفسـاد، وشـاء أن يسـتأثر بالسلطة الكهنوتية أيضاً. ودخل يوماً الهيكل ليقـرب على مـذبح البخـور، فقاومه عزريا رئيس الكهنة وكـان لفيف الكهنة معــه، غـير أنه لم يســمع لهم، واشــتد حنقه عليهم، فضــربه الله إذاك بــالبرص، فاضــطر إلى الخــروج من الهيكــل، وقد شــمله الخــزى والخجل. ويوتام (737 – 733) وآحاز (733 – 718) الذى استنجد بملك آشور وحزقيا (718 – 689 ق. م) الذى يعد أعظم ملـوك يهـوذا بعد داوود. لم يكن بعـده مثله فى جميع ملوك يهوذا ولا فى الـذين كـانوا من قبله (4 مل 18 :ـ 3 – 5) وأعـاد الإيمـان بالدين وخلص البلاد من آثار الوثنية. وفى عهده زحف سنحاريب ملك آشور على مــدن يهوذا وأخذها جميعاً ما عدا العاصمة واضطر حزقيا إلى أن يطلب الصـلح معه على أن يــدفع جزيــة. وقبل ســنحاريب بعد أن فــرض جزية ثقيلة للغاية أتت على كل ما فى أورشليم وأرسل ثلاثة من قواده على رأس جيش عظيم.

فلما سمع حزقيا تهديد وتجديف رسل ملك آشـور، مـزق ثيابة ودخل بيت الـرب لابساً المسح[43] متذللاً. وسمع أشعيا النبى بالأمر فأرسل إلى حزقيا يقول: هكذا يقول الرب، لا تخف من الكلام الذى سـمعته، مما جـدف به علىَّ غلمـان ملك آشـور، فـإنى أجعل فيه روحاً، فيسمع خبراً، فيرجع إلى أرضه، وأسقطه بالسيف فى أرضه.

وكان فى تلك الليلة أن خـرج ملاك الـرب وقتل من جيش آشـور مائة وخمسة وثمانين ألفا فرجع سنحاريب إلى أرضه وأقام بنينوى. وفيما هو سـاجد، يومـاً، فى بيت "نسروخ" إلهه قتله أدْرَمَّلك وشرآصر ابناه بالسيف، وهربا إلى أرض أراراط.

وفى تلك الأيام مرض حزقيا، حتى أشرف على الموت، فوافاه أشعيا بن آمـوص النبى وقال له: "هكـذا يقـول الـرب: أوص لبيتك لأنك تمـوت ولا تعيش". فحـول حزقيا وجهه إلى الحائط، وأخذ يبكى، وصـلى قـائلاً: "اذكر يا رب كيف سـلكت أمامك بـالحق وسلامة القلب".

فلم يخرج أشـعيا إلى وسط الـدار، حـتى صـار إليه كلام الـرب قـائلاً: ارجع وقل لحزقيا، إنى قد سمعت صلاتك ورأيت دموعك وهاءنذا أشفيك وفى اليوم الثالث تصـعد إلى بيت الرب. وسأزيدك على أيامك خمس عشرة سنة.

وقال حزقيا لأشعيا: ما الآية على أن الرب يشفينى فأصعد فى اليوم الثـالث إلى بيت الـرب؟ فقـال أشـعيا هــذه آيه لــك، أيتقــدم الظل عشر درجـات، أم يرجع عشر درجات؟ فقال حزقيا: ليرجع الظل إلى الوراء عشر درجـات. فهتف أشـعيا إلى الـرب. فأرجع تعالى الظل فى الدرجات التى نزلها عشر درجات إلى الوراء".

ومع هذا كله فقد تملكته روح الكبرياء حتى اسـتحق غضب الـرب الـذى أعلن له على لسان أشعيا. "أنها ستأتى أيـام يؤخذ منك كل ما فى بيتك مما أدخـره آبـاؤك إلى هذا اليـوم. إلى بابل ويؤخذ من بنيك فيكونـون خصـيانا فى قصر ملك بابل (4 مل 20: 17 – 18).

وكانت تلك نبوءة تحققت فى عهد ابنه منسى الذى كان شر خلف لأصلح ســلف إذ استخدم السحر وأقام المذابح الوثنية داخل بيت الـرب فى المكـان المقـدس نفسه فكــان عاقبة ذلك أن ســلط الله قــواد جيش آشــور فأخــذوه فى الأصــفاد وأوثقــوه بسلسلتين من نحاس وذهبوا به إلى بابل.

وملك آمون ابنه مكانه. فصنع الشر كما صـنع منسى أبـوه، وعبد الأصـنام، تاركا الرب إلهه. فتحالف عليه عبيده، وقتلوه فى بيتـه، بعد سـنتين فقط من ملكه (641 – 639 ق. م). (4 مل 21 - 18.. و2 أى 33: 20).

---

43 **(43) المسح لباس خشن من نسيج الشعر يلبس على البدن تقشفاً وقهراً للجسد.**

وأقـام الشـعب خلفـاً لآمـون يوشـيا ابنـه، وكـان ابن ثمـانى سـنين. وقد ملك بأورشليم إحـدى وثلاثين سـنة (639 – 609 ق. م). وصـنع يوشـيا القـويم فى عيـنى الرب. ومضى فى كل طرق داود أبيه، ولم يعدل عنها يمنة أو يسرة.

وأول عمل قـام به لما بلغ أشـده، وكـان ذلك فى السـنة الثامنة عشـرة لملكـه، ترميم الهيكل ترميماً شاملاً، وتطهيره من تماثيل الآلهة الوثنية، وأدوات عبادتها، وحرق الكل فى وادى قدرون، خارج أورشليم.

وفيما كانت أعمـال الـترميم قائمة على قـدم وسـاق فى بيت الـرب، وجد حلقيا الكـاهن العظيم سـفر التـوراة، فدفعه إلى شـافان كـاتب الملـك. ودفعه شـافان إلى الملك، فلما قرأه يوشيا مزق ثيابه، لأنهم لم يعملوا بأحكامه، لا هم ولا آباؤهم.

وسألوا خُلدة النبية بخصوص ما جاء فى السفر، فقالت لهم: هكـذا يقـول الـرب إله إسرائيل: هأنذا جالب الشر على هذا المكـان وعلى سـكانه، من أجل أنهم تركـونى وقربوا لآلهة غريبة، فاضطرم غضبى على هذا المكان ولن ينطفئ.

وأما ملك يهوذا، فهكذا تقولون له: من أجل أنه لان قلبك وخشعت عند سـماعك ما قلته على هذا المكان وعلى سكانه، فمزقت ثيابك وبكيت أمامى، فهأنذا أضمك إلى آبائـك، فتنضـوى إلى قـبرك بسـلام، ولا تـرى عينـاك الشـر، الـذى أنا جالبه على هـذا المكان.

وامتدت حركة الإصلاح، التى قام بها يوشيا إلى جميع أطـراف يهـوذا وإسـرائيل، فأزال المذابح والمشارف التى تجاه أورشليم، التى بناها سليمان لعشتاروت، وملكوم، وكمــوش، وحطم الأنصــاب، وقطع الغابــات. وأيضــاً المــذبح الــذى فى بيت إيل فى المشرف الـذى أقامه ياربعـام بن نبـاط هدمه مع المشـرف، وأخذ عظامـاً من القبـور فأحرقها على المذبح، ونجسه على حسب قول الرب.

وذبح يوشيا جميع كهنة المشارف الوثنية التى بالسامرة، وأحرق عظـام المـوتى عليهم تنجيساً لهم. كما أزال أصحاب التوابع والعرافين من أورشليم ويهوذا.

كما قد يمكن الإشـارة إلى يوآحـاز (609 ق. م) الـذى أسـره فرعـون مصر هو وبعض اليهود حيث مات فى الأسر بمصر.

على أن النهاية الحقيقية لأورشليم جـاءت مع تـولى نبوكدنصر (بختنصـر) الحكم فى بابل إذ أرسل جيشـاً إلى يهـوذا اسـتولى على أملاكها وأعمل السـيف فى رقـاب أهلها وبدءوا فى حصـار أورشـليم واستسـلم الملك يويا كين فأخـذه ملك بابل هو وأمه وعبيده ورؤساء خصيانه وكل عظمائه، وأجلاهم إلى بابل، مع نفائس آنية بيت الرب.

كما أجلى جميع الرؤساء والمقتدرين من ذوى الأملاك، عشـرة آلاف نفس، ومن رجـال الحـرب، سـبعة آلاف نفس، ومن الصـناع المهـرة ألف نفس، وعـدداً آخر غـير معلوم من السـكان، ولم يبق فى المدينة إلا فقـراء الشـعب (4 مل 24 :ـ 6 – 16). وأقام نبوكدنصر، صدقيا واليا وأخذ عليه العهود على أن يكون مخلصاً لبابـل. ولكنه بعد عدة سنوات ثار على نبوكدنصر، الذى عاد على رأس جيش عظيم قهر صدقيا، وأخذوه إلى ملك بابل الذى ذبح جميع أبنائه أمام ناظريه وفقأوا عينيه وأوثقـوه بسلسـلتين من نحاس وأخذوه إلى بابل.

ودخل الجيش الظـــافر المدينة المقدسة وأعملـــوا السـيف فى رقـــاب جميع سكانها، دون أن يشفقوا على فتى أو عذراء، ولا على شيخ أو أشيب.

وما أن جمعـوا كل نفيس فى المدينـة، وجميع آنية بيت الله الكبـيرة والصـغيرة، وخـزائن بيت الـرب، وخـزائن الملك ورؤسـائه لتضم إلى كنـوز نبوكدنصر ببابـل، حـتى أخذوا فى حرق الهيكل، وبيت الملك، وجميع بيوت العظماء. وبعد ما أحرقوا ودكـوا كل معـالم المدينة وما فيها من قصـور، هـدموا أسـوارها جميعهـا، فلم يبق من أورشـليم المدينة الزاهرة غير كوم من الخرائب (586 ق. م).

أما الذين نجـوا من السـيف فجلاهم نبوكدنصر إلى بابـل، حيث صـاروا عبيـداً له ولبنيـه، حـتى ملكت دولة فـارس لكى يتم ما تكلم به الـرب بفم إرميا النـبى، حـتى استوفت الأرض سبوتها، لأنها سبتت كل أيام خرابها، إلى تمام سبعين سنة.

وأما من بقى من الشـعب فى أرض يهـوذا، فقد ولى أمـرهم يهـودى اسـمه "جدليا". فلما مات هذا، بمـؤامرة من اليهـود أنفسـهم، قـاموا جميعـاً من الصـغير إلى الكبـير، وأتـوا مصـر، لأنهم خـافوا إنتقـام الكلـدانيين. وفى مصر أسسـوا جالية كـبرى زاهرة. (4 مل 24:17.. و25.. و2 أى 10: 36:10).

* * *

فى الفترة الأخيرة من ملك يهوذا والتى عاصرت تـدمير الهيكل وسـبى الشـعب إلى بابل ظهر الأنبياء الكبار الذين حفظوا الـتراث اليهـودى من الانـدثار، وأضـافوا إليه إضافات تعززه، بما فى ذلك – فيما نرى – الوعد المحورى وعد يهوه لإبـراهيم بـامتلاك الأرض التى من نهر مصر إلى نهر الفرات الكبير.

من هؤلاء الأنبياء أشعيا الـذى أمر الملك منسى بنشـره حيا فمـات شـهيداً سـنة 696 ق. م.

ويعد أشعيا من أعظم كتبة العهد القديم.

أما إرميا فهو الذى نـدب إسـرائيل وتنبأ لها بكل مصـيرها. وكـان إرميا من جمله من أبقــاهم نبوكدنصر فى أرض يهـوذا حيث جلس وسط ذلك الخـراب يبكى ويـرثى شـعبه بتلك المـرائى الـتى طبقت شـهرتها الآفـاق مثل "كيف جلست وحـدها المدينة الكثيرة الشعب!.. صارت كأرملة، العظيمة فى الأمم. السيدة فى البلدان صارت تحت الجزية. كل شعبها متنهدون، ملتمسون طعاماً. بسطت صـهيون يـديها، ولا معـزى لهـا. ألم يبلغكم يا جميع عـابرى الطريـق؟ تـأملوا وانظـروا، هل من وجع كـوجعى.. بمـاذا أعظك، وماذا أشبه بك، يا بنت أورشليم؟ إن حطمك عظيم كالبحر، فمن ذا يشفيك".

وكان لما هـرب اليهـود، الـذين بقـوا فى يهـوذا، إلى مصـر، أنهم اضـطروا إرميا النبى إلى الذهاب معهم. وهنـاك بعد مـدة رجمـوه، لكى يتخلصـوا من توبيخه لهم على سوء سلوكهم، فمات شهيداً.

ومن أشهر نبواته: نبوته عن السبعين سنة، التى دامها الأسر البابلى وعن عـودة مملكتهم إلى الظهور من جديد، بعد تلك المدة [44].

أما حزقيال فقد كـان من أصل كهنـوتى من جمله من جلاهم بنوكدنصر إلى بابل وبدأ رسالته كنبى فى بابل فى السنة الخامسة من الجلاء

وقد تنبأ حزقيال فى بابل اثنين وعشـرين سـنة. ونبوآته مليئة بـالرموز والـرؤى، مما يجعل فهمها وتفسـيرها فى غاية الصـعوبة. ومن أشـهر نبواتـه: وصف الإنجيلـيين الأربعة، والدينونة العامة، وقيامة الموتى فى اليوم الأخير.

وأخيراً فهناك دانيال النبى الذى كان من جمله الذين أخذوا فى السـبئ إلى بابل واشـتهر بتفسـير الرؤيا وتحقيق معجـزات عديـدة وقد شـغل منزلة رفيعة لـدى ملك الآشوريين.

من هـذا يتضح أن السـبئ البـابلى وإن قضى على اليهـود كدولـة، فإنه عـزز وجودهم كشعب، وهذه الفترة بالذات هى التى سجلت أجمل ما جـاء فى "الميثولوجيا اليهوديـة" خاصة تصـوير لـوعتهم من الأسر وشـوقهم المحـرق للعـودة إلى أورشـليم. "والتى أصبحت من مـأثورات الكتابـات اليهوديـة" على أنهـار بابل هنـاك جلسـنا فبكينا عندما تذكرنا صهيون. على الصفصاف فى وسـطها علقنا كنانيرنـا. هنـاك سـألنا الـذين سبونا نشيداً، أن رنموا لنا من ترانيم صهيون. كيف نرنم ترانيم الـرب فى أرض غربـة. إن نسيتك يا أورشليم، فلتنسنى يمينى. ليلتصق لسانى بحنكى إن لم أذكرك".

---

[44] **(44) التاريخ المقدس – مرجع سابق ص 259.**

ولكن الواقع أن اليهود لم يقضوا حياتهم فى ندب صهيون فإنهم عوملــوا معاملة حسنة حتى إن كثيراً من اليهود، حينما صرح لهم بالعودة إلى بلادهم، فضلوا البقاء فى أرض المنفي، على العــودة إلى وطنهم. "ولعلنا نــذكر أنها هى نفســها المقر الأصــلى لإبــراهيم، وأن صــهيون هى أرض الغربة الــتى جعلوها أرض الميعــاد، ومن ثم وطنهم"، ولا ســيما أن البعض كــان قد أثــرى ثــراءً فاحشــاً، وارتقى البعض الآخر أرقى مناصب الدولة، مثل دانيال النــبى، ويكنيا الملــك، الــذى ردت له منزلته ومقامه الملكى (4 مل 25: 27 و28).

كما أعطيت لأفــراد الجالية اليهودية حريــات واســعة، فيما يتعلق بشــؤون دينهم، فكان لهم الحق فى أن يجتمعوا كيفما شاءوا لقراءة التــوراة، وإقامة الشــعائر الدينيــة. (باروك 1 : 3).

وازدهــرت أحــوالهم فيها كما لم تزدهر خلال تلك الســنوات الحافلة بــالحروب والمؤامرات والدسائس والهزائم فى فلسطين. ومن هنا فنحن نظن أن هذه الفقــرات التى تمثل اللوعة لمغــادرة أورشــليم إنما أدرجت فى مراحل لاحقة عنــدما تركز الأمل الصهيونى فى فلسطين.

على كل حال عــاد اليهــود إلى أورشــليم بفضل ســماحة كــورش الفارسى الــذى انتصر على الآشوريين والبابليين – بعد سبعين ســنة من خــروجهم منهــا. ولم يكن هــذا الرجوع عاماً لأن الكثيرين فضلوا البقاء حيث أثروا ثراءً عظيمــاً – فضــلاً عن أن عــدداً آخر تأثر بالحضارة البابلية وآدابها وعقائدها.. بحيث آثر البقاء..

وبعد جهد جهــد، ومــرور اثــنين وعشــرين عامــاً أعــاد اليهــود بنــاء الهيكــل. وقد ساعدهم كورش مساعدة كبيرة ولكن الفلســطينيين بمختلف طــوائفهم حــالوا دون أن يمضى العمل بسهولة، مما دفعهم لبناء أسوار حول أورشليم.

لم ينعم اليهـــود بعد عـــودتهم من جلاء بابـــل، بالاســـتقلال التـــام، إلا فى عهد المكابيين. أما فيما عدا هذه الفترة، التى تقدر بثمانين سنة، فقد ظلوا خاضــعين لنفــوذ الدول الأجنبية، حــتى انــدثار أمتهم وتشــتتها بين الشــعوب فى الســنة الســبعين للميلاد على يد الرومان.

فمن سنة 537 إلى سنة 330 كان اليهــود يــدفعون الجزية لدولة الفــرس. ومن سنة 330 إلى سنة 323 للاسكندر الأكبر. ثم للبطالسة بمصر من سنة 323 إلى ســنة 203 ثم للسلوقيين بسوريا من سنة 203 إلى سنة 166 ق. م.

وفى ســنة 166 ق. م اســتطاع اليهــود بعد جهــاد طويــل، أن يتخلصــوا من حكم الســلوقيين الجــائر. ويرجع الفضل فى ذلك للأخــوة المكــابيين، الــذين اســتقلوا بحكم بلادهم منذ تلك السنة حتى سنة 40 ق. م أخــيراً خضع اليهــود للدولة الرومانيــة، وذلك من سنة 40 ق. م إلى سنة 70 للميلاد.

خلال الحقبة الرومانية (حوالى سبعة قرون) خضدت شوكة اليهود فى فلســطين بعد المعــارك الطاحنة مع الرومــان الــتى استأصل فيها الرومــان المقدســات اليهوديــة، وســاء الوضع عنــدما اصــطنعت الإمبراطورية الرومانية المســيحية لأن المســيحيين يؤمنون بأن اليهود هم سبب صلب المسيح وأن الــوالى الرومــانى عنــدما عــرض العفو عن واحد من المحكوم عليهم بالصلب وهما المسيح ولص يدعى باربــاس أجمع اليهــود على أن يعفو عن باربــــاس فلم تكن الإمبراطورية الرومانية البيزنطية بــــأحنى على اليهــود من الإمبراطورية الرومانية الوثنيــة. وأنست هــذه التطــورات الكاســحة اليهــود وساوسهم ثم جاء العرب مع الإسلام، وكان لليهود موقف معادى للإسلام ومع هذا فإن سماحته حالت دون النيل من حقوقهم. ولكن لم يكن بالطبع لليهود أمل فى "صهيون" فى ظل الإسلام لأن أورشليم أصبحت مقدسة لدى المسلمين باعتبارها أولى القبلــتين وثانى الحرمين وغاية الإسراء وبداية المعراج.

وفى هــذا الــوقت كــانت الحظــوظ تتقلب بــاليهود فى أوربا فطــوراً تســمح لهم وطوراً تطردهم وعرف عن روسيا وبولندا اضــطهاد اليهــود وحــدوث مــذابح لهم. ولكن

اليهـــود فى النهاية تمكنـــوا من دخـــول المجتمع الأوربى، بل والتغلغل فيه طريق الميثولوجيا اليهودية (التـوراة) الـتى اعتـبرت أصـلاً للديانة المسـيحية، ونتيجة لامتلاك اليهـود الأمـوال لأنهم كـانوا الـذين يتعـاملون مع الـذهب والفضة كسـلعة باعتبـارهم الصاغة، ولأنهم وحدهم كانوا يقرضون النبلاء والملوك بفائدة، إذ كـانت الفائـدة محرمة على المسيحيين. ومكنهم هذا من تكوين البنوك وأن يكونـوا سـادة المـال. يضـاف إلى هذا حرصـهم على العلـوم باعتبارها أقـوى وسـيلة ترفع من مـنزلتهم لـذلك فـإنهم فى بريطانيا، وفى فرنسا، وفى ألمانيا والنمسا احتلوا مراكز مرموقة تفوق ما وصـلت إليه أقلية أخرى. وكان ذلك مثار ضـيق فى فرنسا ظهر فى قضـية "دريفـوس" وفى ألمانيا عندما رأى هتلر أن اليهود قد هيمنوا على الصحافة، والـرأى العـام، والمهن – باختصـار على الشـعب الألمـانى – وكـانت الدولة الـتى ركــزوا جهــودهم عليها هى بريطانيا واستطاعوا فى النهاية الحصول على وعـد بلفور..

***

- 4 -
من وعد بلفور حتى الفترة الراهنة

كان المخاض الـذى أدى لظهـور دولة إسـرائيل مخاضـاً دمويـاً عسـيراً نشأ عن زيجة انعدمت فيها الشـرعية تمامـاً. فلم يكن من حق بريطانيا أن تعطى اليهـود وطنـاً قوميـاً فى فلسـطين لأنه لا علاقة شـرعية بين بريطانيا وفلسـطين الـتى كـانت وقتئذ تحت حكم الأتراك وكان وعد بلفور ينص على "وطن قـومى" لليهـود مع ملاحظة عـدم المساس بحقوق السكان الموجـودين فى فلسـطين. ولكن اليهـود ما إن تمكنـوا حـتى أعلنوا عن دولة إسرائيل التى بدأت من اليوم الأول لها فى اغتيال حقوق السـكان، بل قل إنها قامت على حقوق الفلسطينيين.

إن ظهور إسرائيل، وما سبقه من إرهاص ثم ما لحقه من مخاض دمـوى عسـير لم يقف عند ولادة إسرائيل، بل تفاقم بولادتها الذى لم يكن إلا نتيجة لعـاملين مفتعلين حَكَمَا المأساة اليهودية..

العامل الأول: إننا نـرى فى سـفر التكـوين، وجنبا إلى جنب التصـورات البدائية الخرافية لتكـوين الكـون ونشـأة الإنسـان منذ أربعة آلاف سـنة وظهـور آدم وتسلسل أبنائه ابنا ابنا حتى ظهور إبراهيم فى مدينة أور. نرى المبدأ الـذى بلـور المأسـاة كلهـا. نرى إلها يهب شـعباً واحـداً على وجه التعـيين أراض شاسـعة من "نهر مصر إلى النهر الكبير الفرات" ولم تكن هذه المنطقة خلاء أو دون سكان. بل كان فيها سكانُ يعددهم الوعد القلزانــيين، والقــدومانيين، والحيثــيين واليابوســيين والكنعــانيين، ويكفل الوعد لإبـراهيم ونسـله (من ابنه اسـحق) وابن اسـحق يعقـوب الغلبة والسـيطرة على هـذه الأقوام، وأن سلالة يعقوب – الذى سيحمل اسم إسرائيل هو الجنس المختار من الإله، وأنه أفضل العالمين.

هـذه البداية "الغلـط" والـتى لا نجــدها فى أى دين، ولا يستسـيغها أى نظـام سياسى هى الـتى هيمنت وحكمت القضـية من العهـود القديمة حـتى آبـاء الصـهيونية الحديثة: إله. وجنس. وأرض وكانت هذه هى لب "الميثولوجيا اليهودية" لأنه لا يعقل أن يصدر إله هذا الوعد لهذا الجنس، ولكن هذا القسم من الميثولوجيا كان هو الذى استبد بلب وفكر ونفس اليهود فكلهم يعودون إلى الوعد الذى وعده الرب لإبراهيم..

ومنه بدأت المشاكل...

بدأت مع دخول يوشع هذه الأرض التى أطلق عليها أرض الميعاد وبدأت سلسـلة لا تنتهى من الحروب والمؤامرات والهزائم والانتصـارات تمكن فيها الفلسـطينيون من هزيمة اليهود مراراً وأخـذوا فى إحـدى المـرات "تـابوت العهـد" كما انتصر اليهـود فى حالات أخرى، ولكن الميثولوجيا اليهودية تنسب هذه الانتصارات إلى يهـوه – إله اليهـود الـذى يـؤخر لهم الشـمس ويفتح لهم النهـر، ويجعل دوى الأبـواق يسـقط أسـوار أريحا ويوقع بأعدائهم الآفـات والأمـراض ويـنزل ملاك الـرب ليقتل منهم عشـرات الألـوف..

وبالمثل فإن هزائم اليهـود تعـود إلى أنهم "عملـوا الشـر" وآمنـوا بآلهة وثنيـة، وعبـدوا البعل والعجل. وتزوجوا من وثنيات... ففى هذه الحالات يوقع الرب عليهم الهزائم، ولا يرفعها عليهم إلا بعد اسـتجداء أنبيـائهم، وتقـديم القـرابين والمحرقـات الخ... وعندئذ يرضى عنهم، وظل هــذا من يوشع حــتى المكــابيين كما يتضح لكل من يلم بالتــاريخ اليهودى.

فإذا صدق المؤرخ هذه الروايات. فلا يكون لليهود فضل فى الانتصـار أو وزر فى الهزيمة لأن يهـوه هو صـاحب الانتصـار والهـزائم فهو يحـارب عنهم، كما يوقع الهزيمة بهم. وإذا شك فى هــذه الروايــات – وهو ما يمليه العقل – فــإن هــذا يثـير الشك فى مصداقية الميثولوجيا كلها..

والمؤكد على كل حال أن إقامة اليهـود فى فلسـطين منذ دخـول يوشع لم يخل من قلائل وهزائم، وحتى عندما توصلوا إلى تكوين دولتيهم فـإن بركـات ولعنـات يهـوه كـانت هى العامل الفاصـل. ولم ينج من لعنة يهـوه أكـبر ملـوكهم داود وسـليمان، وقد عنينا بإيراد ملخص تلك الملاحم حتى يأخذ القارئ فكرة عنها..

ومن يراجع تـاريخ اليهـود فى تلك الفـترة السـحيقة يجد وجـوه شـبه عجيبة بما تفعله إسرائيل الآن. فقد اسـتولى داود على القطـاع الأعلى من أورشـليم من سـكانه الأصليين اليبوسيين لكى يقيم الهيكل وأقام الكاهن نحميا سوراً حول أورشليم ليحميها من غزوات سكان المنطقة. وهى ممارسات يقوم بها شارون الآن...

إن الخطأ هو فى صــميم القضــية. فلا يمكن أن يــدعى جنس ملكية أرض لأن إلههم وعدهم، ولا يمكن لإله أن يعد جنساً بأرض لها سـكانها ولا يمكن لـدين أن يقـوم على جنس وأرض، إلا إذا وجد إله "ملاكى" خــاص ببــنى إســرائيل يفضــلهم على العالمين. ويكفل لهم النصر ما ظلوا مطيعين لأوامره وتعليماته خاصة الختان وملاحظة يوم السبت.

إننا نجد خليطـاً من العنصـرية، والعقيـدة والسياسة فى بوتقة واحـدة وهى كلها عناصر متناحرة لا يمكن أن تصهر لتوجد "سبيكة".

وإذا كــانت الســلطة الــتى هى خصيصة الدولة قد زحفت على المســيحية فأفسدتها، وزحفت على الخلافة الإسلامية فحولتها ملكاً عضوضاً. فإن السـلطة كـانت جزءاً لا يتجزأ من القضـية اليهوديـة، لأنها قـامت على "أرض" منحت لهم دون سـكانها الأصليين فكانت السلطة ممثلة فى الجيش هى أداة اسـتخلاص الحق المزعـوم ولهـذا فإن الفساد صاحبها طوال تاريخها. بل كان جزءاً لا يتجزأ من كيانهـا، وعنـدما انطفـأت جـذوة الدولة الفلسـطينية بعد الاستئصـال الرومـانى وما تلاه من قـرون متوالية جـاء هرتـزل فأعادها جذعة وقـال بصـريح العبـارة "إن المشـكلة اليهودية ليست مشـكلة اجتماعية أو دينية مع أنها فى بعض الحـالات تتخذ هـذين الطـابعين إنها مسألة قوميـة. ولإيجــاد حل لها يجب أن ننظر إليها على أنها مشــكلة سياســية.. "والســبيل إلى حل المشكلة اليهودية هو تكوين دولة تتجمع فيها تلك العناصر المشتتة وتكـون فيها الإرادة السياسية إرادة يهودية تعـبر عن تلك الجماعة الـتى هى شـعب واحد امنحونا السـلطة فوق قطعة من الأرض فى هذا العالم تكفى حاجاتنا القومية المشروعة.. إن خلق دولة جديدة ليس بالأمر الغريب أو الصـعب. ألم نَـرَ تكـوين دول فى عصـرنا هـذا علمـاً أنها أكثر منا فقراً وأقل ثقافة وأكثر ضعفاً ؟.

فعــادت المشــكلة مدججة بالأسنة البريطانية وفى حماية الانتــداب ومــزودة بالمال.. والعلم والمهارات وظهرت آثار ذلك فى اختلاف موجات الهجرة التى عاصرت أو أعقبت الفكر الأوربى الصـهيونى كما عرضه هرتـزل، عن الهجـرات السـابقة عليها التى كان يتعايش أهلها مع العرب ويتعاطفون معهم. إن الهجرات الجديـدة أرادت بنـاء "دولة" بدون العرب، أو بمعنى أصح بإبعاد العرب..

إلى جـانب هـذا العامل الأصـولى فى العقيـدة الـتى شـكلت النفسـية اليهودية وضــمت العنصر والأرض والإلــه.. فهنــاك خطأ عملى وقع فيه الــذين طــالبوا بالدولة

اليهودية.. والذين طبقوها بالفعل، فكما قلنا لم تكن بريطانيا تمثل فلسطين أو لها علاقة رئاسة أو إشراف فقد كانت فلسطين تتبع السلطة العثمانية وكان الإنجليز أنفسهم يتعهدون للشريف حسين بدولة عربية من فلسطين حتى الحجاز...

"وفى 27 فبراير سنة 1919 وقف مندوب الحركة الصهيونية فى مؤتمر الصلح "ميناحيم أو سيسكين" يدافع عن قضيته فيقول "باسم أكبر جماعة يهودية تلك التى توجد بروسيا أقف أمامكم اليوم أنتم يا قادة العالم لأصوغ الطلب التاريخى للشعب اليهودى: أن تَدَعوه يعود إلى حدوده، أن تعطوا أبناء إسرائيل الأرض التى وعدوا بها منذ أربعة آلاف عام من السلطة العليا، الأرض التى عاش فيها أجدادنا والتى خلفوا فيها حضارة رائعة خالدة، الأرض التى منها عقب ذلك استمدت جميع شعوب الأرض خير ما يملكون من ثروات روحية. هذه الأرض التى انتزعت من اليهود بالعنف منذ ألف وثمانمائة عام بواسطة الرومان أسياد العالم فى تلك الفترة. الشعب اليهودى حكم عليه بأن ينفى من أرضه وبأن يشتت فى جميع أنحاء العالم. وأنا اليوم ابن هؤلاء الذين حكم عليهم بالنفى الإجبارى، وباسم هذا الشعب الجريح قد أتيت أمامكم، أنتم ورثة الرومان سياسيا وحضارياً لأصوغ مطالبى: أعيدوا إلينا موضوع ذلك السطو التاريخى"

إن هذه الدعوى التى تقدم بها صهيونى أوربى إلى السلطة الأوربية العليا وقتئذ، والتى تنسب إلى الرومان القدامى إغتصاب حق اليهود، وتطالب ورثة الرومان بإعادة الحق السليب إلى أهله تنسى أن الأرض التى وعدوا بها من السلطة العليا – ولم يكن يستطيع أن يقول يهوه إله إسرائيل – كان بها سكان وأن اليهود اغتصبوا هذه الأرض من هؤلاء السكان ثم نسى بكل بساطة ألف وأربعمائة سنة من الحكم الإسلامى الذى جاء بعد الرومان، والذى زود المنطقة وأعطاها اللغة العربية، والإسلام وجعلها مركزاً لحضارة أعظم من الحضارة الرائعة والخالدة التى يشير إليها هذا الدعى سواء كانت الحضارة اليهودية أو الحضارة الرومانية.. فكانت عاصمة للخلافة الأموية الزاهرة وأنجبت أجيالاً بعد أجيال طوال أربعة عشر قرنا ثم يأتى هذا الصهيونى فلا يأبه لهذا، ولا يشير إليه، كأنه لم يحدث وكأن التاريخ وقف عند الرومان أو كأن العرب والمسلمين لا يستحقون الإشارة..

إن تجاهل حقيقة أن فلسطين كان لها سكانها عندما دخلها يوشع وطوال السيطرة الرومانية، ثم تجاهل العهد الإسلامى الذى لم ينقطع واعتبارها "أرضا دون شعب لشعب دون أرض" كان تجاهلاً لحقيقة تاريخية – جغرافية هيمنت ليس فحسب على فلسطين، ولكن على كل الدول التى تحيط بها.. بحيث أصبح من المستحيل إقامة دولة فيها على حساب أهلها وبالمجافاة لكل الدول التى تحيط بها لأنه يتجاهل كل الوقائع الجغرافية والتاريخية الحاكمة فى المنطقة..

وهذا الخطأ لا يعود إلى وعد بلفور وحده، إنه يعود – أولاً – إلى وعد "يهوه" لإبراهيم ونسله بملكيته الأرض ما بين مصر والنهر الكبير الفرات فى حين أن هذه الأرض كان بها سكان لهم حضارتهم وعندما أراد يوشع أن يحقق وعد إلهه اصطدم مع هؤلاء السكان الأصليين. ودام هذا الصدام طوال حقبة الوجود اليهودى فى فلسطين، فقد كانت كلها حروب متصلة ولم تنته إلا بقضاء الرومان عليهم... ثم عاد هذا الخطأ مع وعد بلفور مع اختلاف هو أن سكان هذه المنطقة كانوا قبائل شتى فلما ظهر الإسلام تبلوروا فى شعب واحد له دينه ولغته. وحضارته كما أن هذا التطور ساد كل المنطقة فلم تكد كتائب الهاجانا تحاول إقامة الدولة حتى اصطدمت بالفلسطينيين، ثم بشعوب المنطقة المحيطة بها... بحيث أخذ الصراع شكلاً دولياً جسيما ومعقداً.

ولما لم يكن من حل فى الحالين: حال الوجود اليهودى الأول بقيادة يوشع.. ثم الوجود الثانى بقيادة بن جوريون إلا السلطة فى أسوأ صورها: القوة الوحشية،

والقبضة الحديدية فإن هذا هو ما حدث، ويحـدث بالفعـل. فنحن نـرى إفسـاد السـلطة فى أسـوأ صـورها.. وأكثرها إثقـالاً فى الغشـومة. فمع وجـود المتناقضـات الأصـولية والجغرافية والتاريخية لم يكن هناك سـبيل لحـل.. وكـان التصـرف الوحيد هو القطـع.. القطع بالسيف البتار أو بالتعبير التوراتى "بحد السيف" قـديما، وبالـدبابات والطيـارات حديثاً..

لقد قـامت إسـرائيل قـديماً وحـديثاً، على أسـاس عنصـرى ديـنى واسـتخدمت السيف والقهر. ولا يزال فيها الآن من يؤمنون بهـذا وهم العناصر التوراتية الـتى تـؤمن بكل ما جــاء فى "الميثولوجيــا" اليهودية من أوهــام وادعــاءات وســتأتى نهايتها ليس فحسب لصـراعها مع العـرب والمنطقة ولكن – أيضا – للصـراع الـداخلى ما بين هـذه الفئة التى تريد إعادة حكم يهوه.. وبين الذين يريدون إقامة دولة طبقـاً للأصـول الـتى تقوم عليها الدول.

وإذا كانت السلطة تفسد فى صلاح الإيديولوجيا فإننا نجد هنا أيـديولوجيا فاسـدة بالفعـل. فزادتها السـلطة فسـاداً، خاصة وأن العقيـدة مرتبطة بـالجنس، وهـذا هو سر الوحشية المضاعفة للصهيونية.

الباب الثالث
الدولة الإسلامية فى العصر الحديث بين التنظير والتطبيق

كـــان تحويل معاوية بن أبى ســـفيان الخلافة فى وقت مبكر للغاية (ســـنة 40 هجريـة) إلى مُلك عضـوض وجعلها وراثية جبريـة. ضـربة قاصـمة لفكـرة الإسـلام عن الحكم، وأنهت عمليا الحكم الذى يقوم على أصول إسلامية.

ومع مرور قرنين أو ثلاثة، ظهرت نتائج هذا التحـول خاصة مع بـروز العناصر الفارسـية والتركية والـديلم والسـلاحقة. فتحلل قلبها وانتقضت أطرافها واسـتقلت عنها مصـر، وشمال أفريقيا والأندلس وخراسان.

ولكن الخلافة ظلت متماسـكة حـتى أصـيبت بضـربتين قاصـمتين الأولى الغـزو التترى للعراق الذى قضى على بغداد واسـطة العقد النظيم وعاصـمة العـالم الوسـيط والتى كانت "روما" الإسلام. وكانت الضربة من القـوة بحيث لم تقم لها قائمة وأخـذت تتدهور من عاصمة العـالم حـتى أصـبحت على مشـارف العصر قرية كبـيرة. وأصـابت الضربة الثانية القـاهرة، وهى الـتى قـامت بعد انـدثار بغـداد وحلت الخلافة فيها عنـدما داهمها الترك بعد هزيمة السلطان الغورى فى موقعة مرج دابق فتحولت القــاهرة من إحدى العواصم الزاهرة والقوى المؤثرة إلى أطلال وآثار تنبئ عن الماضى العريق.

وأسر الأتراك – فيما أسـروا من القـاهرة الخلافة ونقلوها إلى "الأسـتانة" فشط بها المـزار وظلت غريبة تنطق برطانة تركية لا بلسـان عـربى مـبين حـتى قضى عليها مصطفى كمال سنة 1924 م.

وخلال القرون الخمسة أو الستة الأخـيرة من التـاريخ الإسـلامى كـان الظلام قد أطبق على أرجاء العـالم الإسـلامى واستسـلمت شـعوبه لنـوم طويل لم تتيقظ منه إلا على مـدافع الأسـطول البريطـانى والجيش الفرنسى أو غيرهما من القـوات الأوروبية الغازية التى بدأت مرحلة الاستعمار من القرن التاسع عشر.

* * *

ماذا كان موقف الفقهاء من هذه الصـور من الحكم البعيـدة عن الإسـلام طـوال هذه القرون ؟.

إن دفعة المعارضـة، الـتى وصـلت إلى الثـورة المسـلحة فى السـنوات الأولى للملك العضـوض، وبوجه خـاص على يزيد بن معاويـة، والـتى اتصـلت حـتى الخلافة العباسـية خبت بعد أن فشـلت كلهـا، كما تلاشت على حد السـيوف مقاومة الخـوارج الباهرة والشجاعة، ولم ينجح الزيديون الـذين يؤمنـون بـالثورة على البغـاة فى زعزعة النظم القائمة.

بل لقد انساقوا مع التيار على يد شـيخ من شـيوخهم هو الإمـام يحـيى بن حميد الـدين الـذى جعل خلافته وراثية ضـارباً عـرض الحائط بأصـول الفقه الزيـدى وتاريخه وتقاليـده. مما يوضح مـدى وعمق التطـورات التاريخية من ناحية والأثر الأكـبر للحكم على العقيدة.

وشيئاً فشيئاً بدأ نوع من تـبرير الاستسـلام للقـادة الـذين يغتصـبون الحكم، أو الحكــام الظلمة على أســاس أن الثــورة عليهم – مع عــدم التمكين – لابد وأن ينتهى بالهزيمة وسفك الدماء دون نتيجة، بل حتى لو كانت القوى الثائرة فى مثل قوة النظم الحاكمة فإن تصادمهما لن يسفر إلا عن التمزق والفتنة. وكان هاجس "الفتنة" يسيطر على ذهن الفقهاء "من أيام صفين" عندما سفك فريق من المسلمين دمــاء فريق آخر دفاعاً عن السلطة..

وكان ابن خلدون قد تحدث عن أن الحكم لابد له من عصبية، وأن العصبية كانت فى بنى أمية وكان لابد أن يؤول إليهم الحكم. وبعد بـنى أميـة، **فـإن كل من توصل إلى عصبية فإنه يسـتطيع أن يحكم بمقتضى هـذه العصـبية "فإنما الملك**

على الحقيقة لمن يستعبد الرعية ويجبى الأموال ولا تكـون فـوق يـده يد قاهرة ".

وتحدث الغزالى حديثاً مؤثراً عرض فيه محنة العالم الإسـلامى وشـرح مـبررات التسليم

"وليست هذه مسامحة عن الاختيار، ولكن الضـرورات تـبيح المحظـورات. فليت شـعرى من يقضى ببطلان الإمامة فى عصـرنا لفـوات شـروطها – وهو عـاجز عن الاستبدال بالمتصدى لها بل هو فاقد للمتصف بشروطها، فأى أحواله أحسن: أن يقـول القضاة معزولـون والولايـات باطلة والأنكحة غـير منعقـدة وجميع تصـرفات الـولاة فى أقطـار العـالم غـير نافـذة وإنما الخلق كلهم مقـدمون على الحـرام، أو يقـول الإمامة منعقدة والتصرفات والولايـات نافـذة بحكم الحـال والاضـطرار؟ ومعلـوم أن البعيد مع الأبعد قريب، وأهون الشرين خير بالإضافة، ويجب على العاقل اختياره ".

قد يقـال.. لمـاذا لم ينصح الغـزالى بـالثورة على الحكـام أو الهجـرة أو ممارسة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلى آخر درجاته؟ الرد أن الغزالى وكل الفقهاء فى القرون التى سبقته، والتى لحقته تأكدوا من عجز الشعوب عن الثورة، وأن الثـورة إذا قامت فلن تزيد الجماهير إلا ضعفاً والحكم إلا بأساً.. وأن النتيجة ستكون سفكاً لـدماء أفضل العناصر – وهى العناصر الثـائرة – فـإذا فرضـنا قـدراً من التعـادل ما بين فريق الثائرين، والحاكمين فإنها الفتنة التى تستأصل الفـريقين وتجعل كل واحد منهما يقضى على الآخر أو يوهنه وكـان هـاجس الفتنة – كما ذكرنا – عميقا لـدى الفقهـاء بعد أن شاهدوا مصرع كل الثائرين الأول وفشل قوماتهم.

من هنا يمكن أن نفهم موقف الغزالى الذى كتب بجانب سـطور الاستسـلام فى "إحياء علوم الدين" سطوراً أخرى تقطر كراهية ومـرارة لكل من يعاشر السـلطان أو يسايره فى أهوائه.

ومع أن الغـزالى كـان وثيق الصـلة بـالوزير نظـام الملك فإنه لم يكن أبـداً من فقهاء السلاطين.

وقبل الغـزالى فـإن الإمـام أحمد كـان أبـرز أئمة الأمة تصـريحاً بوجـوب طاعة الخليفة ما دام الأمر قد استقر له. ولم يؤثر عليه فى حكمه ما ناله على يدى المأمون.

بل إن الفقيه الذى عرف بثوريته وهو ابن تيمية سـلم بهـذا المبـدأ مرتكـزاً على حديث "أدوا إليهم حقهم، واسألوا الله حقكم".

لهذا لا نـرى خلال القـرون الـتى سـبقت العصر الحـديث حـديثاً عن مقاومـة، أو مشروعاً لدولة، فقد غرق الشرق فى سبات عميق كان من الضرورى لإيقاظه أن تزار جيوش نابليون وأن تهدر مدافع الأسطول البريطانى. عندئذ فحسب بدأت اليقظة.

وفى هذا الباب سنعالج ظهور الفكر السياسى لدى الدعاة الإسـلاميين بـدءًا من جمال الأفغانى الثورى حتى حسن البنا الإصلاحى. ثم نفرد فصلاً خاصاً لفكر المودودى وسيد قطب والإضافة التى قـدمها الإمـام الخميـنى بفكـرة "ولاية الفقيـه". ثم نعـرض لأفكار جماعات الرفض الـتى تكـونت فى أعقـاب الفكر المـودودى والقطـبى وكثمـرة لهمـا. ثم تنتقل من مجـال التنظـير إلى مجـال التطـبيق فنلقى نظـرة على محـاولات تكوين دولة إسلامية فى الفترة المعاصرة..

الفصل العاشر
من جمال الأفغانى حتى حسن البنا

بظهور جمال الأفغانى بدأت أولى حركات اليقظة السياسية فى العالم الإسلامي. كان قد سبقه أفراد مثل الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى.. إمام البعثة النابغ الذى أصبح أول من حاول أن يجمع ما بين ثقافة العصر وثقافة الإسلام ما بين جمهورية فرنسا ودستورها وما بين نظام الخلافة وشوريتها. ولكن الشيخ رفاعة كان أحد رجالات الحكومة. يخضع لتياراتها ونزواتها وقد غضبت عليه أكثر من مرة ولم يكن يملك حرية العمل أو الفكر، كما أنه لم يكن الداعية الذى يتصل بالجماهير بشكل مباشر – وإن لم يمكن إغفال دوره لأنه أول من عرّف المجتمع المصرى بالمجتمع الأوربى. كما ظهر فى تونس السيد خير الدين التونسى الذى كان أكثر تحديداً وتجديداً.

الظاهرة التى توجب الأمانة العلمية أن نسجلها أن كل "إرادات التغيير" إنما جاءت كرد فعل لتعرف المفكرين الإسلاميين على المجتمع الأوربى ونظم الحكم فيه. وهى الظاهرة التى لفتت انتباه السيد رشيد رضا قبلنا ودفعته لأن يقول "فأعظم فائدة استفادها أهل الشرق من الأوربيين، معرفة ما يجب أن تكون عليه الحكومة، واصطباغ نفوسهم بها – أى المعرفة – حتى اندفعوا إلى استبدال الحكم المقيد بالشورى والشريعة، بالحكم المطلق الموكول إلى إرادة الأفراد

"لا تقل أيها المسلم إن هذا الحكم – المقيد بالشورى – أصل من أصول الدين ونحن قد استفدناه من الكتاب المبين ومن سيرة الخلفاء الراشدين، لا من معاشرة الأوربيين والوقوف على حال الغربيين، فإنه لولا اعتبار مجال هؤلاء الناس لما فكرت أنت وأمثالك أن هذا من الإسلام".

وقد يكون لهذه الظاهرة انعكاس على مضمون مفهوم الدولة الإسلامية لدى هؤلاء المجددين فإذا كان الإعجاب بما وصلت إليه النظم السياسية الأوربية من تنهيج وعدالة وحرية أدت إلى تقدم شعوبها هو الدافع المباشر لهؤلاء المجددين للقيام بدعواتهم، فمن الطبيعى أن تكون فكرتهم عن الدولة قريبة من النموذج الأوربى مع الإحتفاظ بمساحة من التميز تفصل بين الصورة المنشودة للدولة الإسلامية والصورة الأوربية الحديثة، ولكنها لا تصل إلى النقيض، والأمر المؤكد أن صورة الدولة الإسلامية لدى هؤلاء الرواد تختلف اختلافاً كبيراً عن الصورة التى انتهت إليها بعد ظهور أفكار المودودى وبعد ظهور السعودية كدولة مصدرة للبترول، وأخيراً بعد ظهور الخمينى وقيامه بثورته..

ويجب أن نضع فى تقديرنا أن هؤلاء المجددين لم يكونوا من رجال "المؤسسة الدينية" باستثناء الشيخ محمد عبده الذى قضى وقتا طويلاً "ينظف رأسه من قاذورات الأزهر" على ما قيل..

وكان سر حماستهم وقوتهم إيمانهم بالحرية. وقد كانت البيئة التى نشأوا فيها أو شدو إليها الرحال هى مصر التى كانت وقتئذ – رغم كل ما منيت به من كوارث – واحة للحرية يهوى إليها كل الأحرار من المناطق التى أغلقها الحكم العثمانى المتسلط. وكانت الحجاز وقتئذ منطقة فقيرة مهملة لا تذكر إلا وقت الحج وكان نصف سكانها يعملون مطوفين يخدمون الحجاج بينما يعمل النصف الآخر من الأعراب فى نهب الحجاج.. وكانت التكية المصرية والأوقاف الإسلامية الأخرى هى عصمة السكان من المجاعة والفاقة.. وعُرفت مصر حتى فى أشد فترات محنتها بصفة مميزة وبطابع من السماحة فى الفكر، وكانت بحكم موقعها وبدفعه نهضة محمد على الكبير ملاذاً لأفواج متتالية من الزوار والسياح والأحرار وحافظت على هذه الصفة طوال مرحلتها الليبرالية من ثورة 19 حتى انقلاب 52 الذى شوه الأوضاع وعاث فيها فساداً..

من أجل هذا فنحن فى حكم اليقين من أن هؤلاء المجـددين أرادوا نهضة بـالبلاد وتحريرها من الاسـتعمار والاسـتبداد والجهالة والتـأخر. ووجـدوا أن المظلة الفكرية (الأيدلوجية) الوحيدة التى تحقق هذا فى الإسلام. دون أن تكون هـذه الدولة على وجه التعيين هى دولة "الشـريعة"، دولة الحـدود، الدولة الـتى تطبق ما تتضـمنه كتب الفقه من استتابة مهمل الصلاة وتأديبه وقتل منكرها. وكـذلك قتل كل من "جحد معلوما من الدين بالضرورة الخ... مما لا يخلو من دلالة أن كل هـؤلاء المجـددين كـانوا يؤيـدون ما منحه القرآن للمرأة من حقوق وما صرح به من حرية فى الفكر والاعتقاد..

وتقصِّى الملابسات التى أحاطت بهم ودعوتهم يُصدِّق هذا فجمال الأفغانى الـذى ربط المستشـرقون بينه وبين "الجامعة الإسـلامية" كـان هو نفسه جامعة دولية يلتف حوله من اتباعه يعقـوب صـنوع المصـرى اليهـودى وأديب أسـحق وسـليم نقـاش المسيحيان اللبنانيان وغيرهما من الإيرانـيين، وقد كـان هو ومحمد عبـده أول من رفعا شـعار "مصر للمصـريين" وعنـدما ألفا حزبهما كـان حزبا مـدنيا، وليس حزبا إسـلامياً. وكان جمال الأفغانى الذى طـوف ما بين الأفغـان وإيـران والهند ومصر وتركيا وفرنسا وروسيا وإنجلترا رجلاً دوليا، ولم يأنف أن يـدخل الماسـونية عنـدما اعتقد أنها سـتفيده فى التنظيم الـذى يريد إقامته وكـان فى مآكله ومشـربه (الشـاى والسـجائر) رجلاً عصرياً..

ولم يـرد بـال جمـال الأفغـانى جامعة إسـلامية، لأن هـذه الجامعة كـانت قائمة بالفعل فى ظل الخلافــة، وإنما أراد النهضة بدولة إســلامية، يمكنها أن تنهض ببقية الدول. وقد علق أمله على مصر وأمضى فيها ثمان سنين متصلة، وهو الـذى لا يسـتقر بدولـة، ومع أن قـوى عديـدة حـالت دون أن يحقق فكرتـه، فـإن أمله لم يخب تمامـاً. وكانت البذور التى بذرها هى التى أثمرت التطورات التى نهضت بمصر..

ويجب أن لا ننسى أن هؤلاء الدعاة ظهروا فى الفترة التى وصلت فيها العقلانية والتنوير والتقدم إلى أقصى غاياتها فى أوربا. وأن آخر هؤلاء ظهـوراً – حسن البنا – هو ابن ثورة 19 والذى نشأ وترعرع فى ظل الليبرالية المصرية التى غرسها دسـتور سـنة 23.

ومن الثلث الأخـير للقـرن التاسع عشر حـتى العقد الأول للقـرن العشـرين ولم تتغـير الأطر العامـة. بمعـنى أن فكر المجـددين رأى فى الإسـلام مقوما من مقومـات الدولة، وربما يكون أكبر وأبرز مقوم، ولكن لا يذهب فكرهم إلى تكوين دولة إسـلامية، على نهج دولة المدينة والخلفـاء الراشـدين، أو دولة يكـون همها الأول تطـبيق قواعد الشـريعة، كما وضـعها الفقهـاء – فهـذا ما لم يكن مطروحـاً وقتئذ وما لم يظهر على الساحة إلا فى فترة لاحقة..

ولم يترك لنا جمال الأفغانى، ولا محمد عبده صورة للدولة الإسلامية المنشـودة. وكل ما نقطع به فى هـذا المجـال هو أنها دولة الحرية والعدالـة. فلا يجـوز للحـاكم أن يكون مسـتبداً. فإما تـاج دون رأس أو رأس دون تـاج كما قـال الأفغـانى أى أن يكـون هناك ملك يملك ولا يحكم على طريقة بريطانيـا، أو أن يكـون هنـاك من يحكم دون أن يكون ملكاً، كما فى الجمهورية. ومادة حديث جمال الأفغانى سـدى ولحمة هى الثـورة على الاستبداد فى الداخل وعلى الاستعمار فى الخـارج. كما لم يـترك لنا محمد عبـده تصـوراً للدولة الإسـلامية وقد كـان فى أيامه الأخـيرة كارها للسياسة مؤمنا بالإصـلاح التربوى والاجتماعى.

* * *

وهناك صفحة مطوية قد لا يعلم المؤرخون المعاصرون شيئاً كثـيراً عنها مع أنها عن أول محاولة لوضع دسـتور دولة عربية مسـتقلة هى سـوريا. ففى العقد الثـانى للقرن العشرين عقد فى دمشق مؤتمر لوضع دستور لسـوريا الـتى كـانت قد تخلصت من الحكم الـتركى بانتصـار ثـورة الحسـين بن على ودخـول جيش عـربى على رأسه فيصل ابن الحسين(الذى طرده الفرنسـيون من سـوريا عنـدما دخلوها وأعطى عـرش العراق ترضيه له). وسبق هذا المـؤتمر جهـود وتـدبيرات ودراسـات عديـدة. وكـان من

أبرز الذين أسهموا فى هذا العمل مجموعة من المشايخ والعلماء منهم من كان قد هاجر إلى القاهرة مثل السيد رشيد رضا الذى كان قطب حزب اللامركزية وفيما بعد نائب رئيس حزب الاتحاد السورى (الذى كان رئيسه ميشيل لطف الله). والشيخ كامل القصاب، والسيد محب الدين الخطيب، ومن علماء دمشق الشيخ عبد القادر الخطيب، والشيخ تاج الدين الحسينى والشيخ مسلم الحصنى، والشيخ عبد القادر الكيلانى والشيخ عبد العظيم الطرابلسى. وعقد المؤتمر الذى ضم هؤلاء جميعاً وآخرين فى 7 يونيو سنة 1919 لإعداد دستور الدولة الجديدة التى كان سيرأسها الأمير فيصل، وكشفت المناقشات عن وجود انقسام فى الرأى بالنسبة لموقف الدولة الجديدة من الإسلام فقد كان هناك فريق يتبنى نظام حكم علمانى مدنى لسوريا المستقلة وجاء فى أحد وثائق هذا الفريق "أن يكون الحكم فى سوريا المستقلة على مبدأ من الديمقراطية اللامركزية ويكون أساس قوانينها وأحكامها مدنيا بحتا ما عدا الأحوال الشخصية" ويعترف الشيخ رشيد رضا فى وقت لاحق أنه رضى أن يكون مع هذا الفريق المخالف لمذهبه السياسى لأجل "الحرص على تعاون المسلمين مع النصارى على طلب الاستقلال التام الناجز لسورية بعد أن أطال الدعوة إلى مذهبه فلم يستجب له من فضلاء النصارى بمصر إلا أفراد قليلون[45].

واعترضت مجموعة المشايخ على أن مداولات المؤتمر لم تبدأ بالبسملة! ودار نقاش عريض انتهى بالاكتفاء ببسملة عامة من كلمتين "باسم الله".

وعاد الانقسام مرة أخرى فى هذا الموضوع، وفى موضوع الحقوق السياسية للمرأة أما فيما يتعلق بالموضوع الأول – هوية الدولة فقد "اقترح بعض الأعضاء من غير المسلمين أن ينص فى قرار المؤتمر على أن حكومة سورية لا دينية "لائيكية" ووافقه بعض المسلمين وعارضه آخرون مقترحين أن ينص فيه على أنها حكومة إسلامية عربية أو أن دينها الرسمى الإسلام. وحين احتدم الخلاف بين الطرفين تدخل الشيخ رشيد رضا باقتراح السكوت على هذه المسألة لأنه "إذا أعلنت الحكومة لا دينية يفهم منها جميع المسلمين أنها حكومة كفر وتعطيل لا تتقيد بحلال ولا حرام، ومن لوازم ذلك أنها غير شرعية فلا تجب طاعتها ولا إقرارها بل يجب إسقاطها عند الإمكان". ووافقت غالبية الأعضاء على هذا الاقتراح والاكتفاء باشتراط أن يكون دين ملكها الرسمى هو الإسلام. وبعد إعلان استقلال سورية فى اليوم التالى {8 آذار 1920} بدأ المجلس بمناقشة مواد مشروع الدستور الجديد. وتأخر إقرار المادة الأولى التى تتعلق بنظام الحكم حتى 12 تموز 1920، حتى جاءت منسجمة مع نتيجة المناقشة التى دارت حول ذلك فى جلسة 7 آذار 1920 وهكذا تضمنت المادة الأولى أن "حكومة المملكة السورية العربية حكومة مدنية نيابية عاصمتها دمشق الشام ودين ملكها الإسلام" أى أن العلاقة بين الدولة والدين "الإسلام" انحصرت فى ديانة ملكها فقط"[46].

يتضح من هذا أنه عندما سنحت الفرصة لوضع دستور لدولة عربية مثل سوريا، فإن مجموعة كبيرة من المشايخ لم تأنف، ولم ترفض نصاً مدنياً، واستبعدوا أى إشارة إلى الإسلام باستثناء أن يكون دين الملك.

وتوضح هذه الواقعة أن الدعوة إلى الدولة الإسلامية ما كان يمكن أن ترتفع لو ظلت مقصورة على شخصيات الشيوخ رغم المنزلة الرفيعة لهم، ورغم إيمانهم بها.

وقد يؤيد هذا أيضاً أن هذه الفترة شهدت صدور كتاب الشيخ على عبد الرازق الذى كان فى الحقيقة إعلانا عن مشاعر فريق كبير من المثقفين الإسلاميين، ومع أن الكتاب قوبل بعاصفة من المعارضة، فالحقيقة أن هذه المعارضة لم تتصدى لمضمون الكتاب، باستثناء ما كتبه شيوخ الأزهر وأعادوا ما تحفل به المراجع التراثية. أما غيرهم فقد جاءت المعارضة من إلتباس صدور الكتاب لرغبة الملك فؤاد أن يكون خليفة، بعد أن أعلن مصطفى كمال زوالها. الأمر الذى كان محل معارضة الأحزاب المصرية.

---

[45] **(45) مقال للأستاذ محمد م. الأرناؤوط. تحت عنوان "علماء دمشق فى مطلع القرن: بين التقليد الموروث والتحديث المفروض" بجريد الحياة – العدد {13405} السبت الموافق 20 نوفمبر 1999م. ص23..**

[46] **(46) المرجع السابق.**

فضلاً عن أن الكاتب فى عرضه لفكره كان يردد تقريباً فكرة أبداها المستشرقون، وفى الوقت نفسه فإنه تجاهل قيام دولة المدينة والخلفاء الراشدين التى استلهمت المبادئ الإسلامية بحيث لا يمكن القول إنها ليست إسلامية..

فهذه العوامل كانت فى أصل كتاب الشيخ على عبد الرازق. ولعل الرد الذى كتبه سعد زغلول فى أغسطس سنة 1925م يوضح لنا ذلك.

"لقد قرأته بإمعان، لأعرف مبلغ الحملات عليه من الخطأ والصواب، فعجبت أولاً كيف يكتب عالم دينى بهذا الأسلوب فى هذا الموضوع؟!.. وقد قرأت كثيراً للمستشرقين ولسواهم فما وجدت ممن طعن منهم فى الإسلام حدة كهذه الحدة فى التعبير، على نحو ما كتب الشيخ على عبد الرازق، لقد عرفت أنه جاهل بقواعد دينه، بل بالبسيط من نظرياته، وإلا فكيف يدعى أن الإسلام ليس مدنيا ولا هو بنظام يصلح للحكم؟.. فأية ناحية مدنية من نواحى الحياة لم ينص عليها الإسلام؟.. هل البيع أو الإجارة أو الهبة أو أى نوع آخر من المعاملات؟.. ألم يدرس شيئاً من هذا فى الأزهر؟!.. أو لم يقرأ أن أمما كثيرة حُكمت بقواعد الإسلام فقط عهودا طويلة كانت أنضر العصور؟.. وأن أمما لا تزال تحكم بهذه القواعد وهى آمنة مطمئنة؟.. فكيف لا يكون الإسلام مدنيا ودين حكم؟!.. وأعجب من هذا ما ذكره فى كتابه عن الزكاة؟!.. فأين كان هذا الشيخ من الدراسة الدينية الأزهرية ؟!..

إنى لا أفهم معنى للحملة المتحيزة التى تثيرها "جريدة السياسة" حول هذا الموضوع.. وما قرار "هيئة كبار العلماء" بإخراج "الشيخ على" من زمرتهم إلا قرار صحيح لا عيب فيه، لأن لهم حقاً صريحاً – بمقتضى القانون والمنطق والعقل – أن يخرجوا من يخرج على أنظمتهم من حظيرتهم، فذاك أمر لا علاقة له مطلقاً بحرية الرأى، التى تنعيها "السياسة". إن العلماء قد فعلوا ما هو واجب وحق، وما لا يجوز أن توجه إليهم أدنى ملامة فيه.

والذى يؤلمنى حقاً أن كثيرا من الشبان الذين لم تقو مداركهم فى العلم القومى، والذين تحملهم ثقافتهم الغربية على الإعجاب بكل جديد، سيتحيزون لمثل هذه الأفكار، خطأ كانت أم صوابا، دون تمحيص ولا درس، ويجدون تشجيعاً على هذا التحيز فيما تكتبه "جريدة السياسة" وأمثالها من الثناء العظيم على الشيخ على عبد الرازق، ومن تسميتها له بالعالم المدقق والمصلح الإسلامى والأستاذ الكبير الخ..." انتهى.

فهذا النقد الذى عُنى بإبراز الفقه وأن أمما كثيرة حكمت بقواعد الإسلام فقط عهوداً طويلة كانت أنضر العصور... لا يتعرض لتحقيق "أصولية" الدولة الإسلامية وليس أدل من أنه كلام مرسل من أن سعد زغلول نفسه كان رائداً للعقلانية والمدنية، بل والعلمانية إلى حد كبير، وأنه عندما شكل وزارته لم يضم إليها فقهاء ولكن أقباط، وأنه كرئيس وزارة لم يضع قانوناً يمكن أن يقال إنه "قانون إسلامى"..

* * *

فى وسط هذا الاتجاه الليبرالى الذى إن لم يكن عازفاً عن الدين فلا يمكن القول إنه يناصره ظهر حسن البنا، وأبدع شعار "الإسلام دين ودولة" ونقله من دائرة المتخصصين – سواء كانوا فقهاء، أو علماء نظم سياسية – إلى الجماهير – بحيث اكتسب شعبية وشهرة مدوية.

ولكن الحقيقة أن حسن البنا عندما وضع شعار "الإسلام دين ودولة" لم يكن يستهدف إقامة الدولة الإسلامية كما تصورها بعد ذلك المودودى وسيد قطب. والخومينى. ولكنه أراد نظاماً للحكم يستلهم القيم والمبادئ والأصول الإسلامية. وهذه الأصول هى التى عرفتنا عليها النظم الأوربية، وتحدث عنها الإمام البنا كما يتحدث الأوربيون، وليس على طريقة الفقهاء، لأن طريقة الفقهاء مختلفة تماماً. وهذا هو ما يستخلص من رسالته الهامة "مشكلاتنا الداخلية فى ضوء النظام الإسلامى".

فهو يبنى نظام الحكم على ثلاث دعائم :

الأول: مسئولية الحكم.

الثانية: وحدة الأمة.

الثالثة: احترام إرادة الأمة.

فهذه "تقسيمه" من الأدب السياسى الحديث استعارها الإمام البنا وبـرهن عليها بأدلة خالصة من القرآن الكريم والسُنة ومن عمل الخلفاء الراشدين.

وتحدث عن موقف الإسلام من النظام النيابى والدستور المصرى فقال

"يقول علماء الفقه الدستورى إن النظام النيـابى يقـوم على مسـئولية الحـاكم، وسلطة الأمة. واحترام إرادتها، وإنه لا مانع فيه يمنع من وحـدة الأمة واجتمـاع كلمتهـا، وليست الفرقة، والخلاف شـرطاً فيـه، وإن كـان بعضـهم يقـول إن من دعـائم النظـام النيابى البرلمانى: الحزبية. ولكن هذا إذا كان عرفاً فليس أصلاً فى قيام هـذا النظـام، لأنه يمكن تطبيقه بدون هذه الحزبية وبدون إخلال بقواعده الأصلية.

وعلى هـذا فليس فى قواعد هـذا النظـام النيـابى ما يتنـافى مع القواعد الـتى وضعها الإسلام لنظام الحكم، وهو بهـذا الاعتبـار ليس بعيـدا عن النظـام الإسـلامى ولا غريبا عنه. وبهذا الاعتبار يمكن أيضاً أن نقول فى اطمئنان إن القواعد الأساسية الـتى قام عليها الدسـتور المصـرى لا تتنـافى مع قواعد الإسـلام، وليست بعيـده من النظـام الإسـلامى ولا غريبة عنـه، بل إن واضـعى الدسـتور المصـرى رغم أنهم وضـعوه على أحـدث المبـادئ والآراء الدسـتورية وأرقاهـا، فقد توخـوا فيه ألا يصـطدم أى نص من نصوصه بالقواعد الإسلامية "دين الدولة الإسلام" وقابلة للتفسير الذى يجعلها لا تتنافى معها كالنص الذى يقول "دين الدولة الإسـلام أو قابلة للتفسـير الـذى يجعلها لا تتنـافى معها كالنص الذى يقول "حرية الاعتقاد مكفولة".

وأحب أن أنبه هنا إلى الفــرق بين الدســتور وبين القــوانين الــتى تســير عليها المحاكم، إذ أن كثيراً من هـذه القـوانين يتنـافى صـراحة مع ما جـاء به الإسـلام، وذلك بحث آخر سنعرض له فى وضعه إن شاء الله.

ومع أن النظام النيابى والدستور المصرى فى قواعدهما الأساسية لا يتنافيان مع ما وضعه الإسلام فى نظام الحكم، فإننا نصرح بأن هناك قصوراً فى عبارات الدسـتور، وسوءاً فى التطبيق، وتقصيراً فى حماية القواعد الأساسية التى جاء بها الإسلام وقـام عليها الدستور، أدت جميعاً إلى ما نشـكو منه من فسـاد، وما وقعنا فيه من اضـطراب فى كل هذه الحياة النيابية[47].

وقـدم الإمـام البنا ملاحظـات على بعض وجـوه النقص فى الدسـتور المصـرى كإعفاء رئيس الدولة من المسئولية والغموض فى الدستور المصرى واستشهد بمذكرة كتبها الدكتور إبراهيم مدكور عضو مجلس الشيوخ المصرى، والأستاذ مريت غـالى فى مذكرتهما "نظام جديد" قالا تحت عنوان "الدستور وغموضه" :

"فأما العامل الأول فملخصه أن دستورنا على الـرغم من دقته وضـبط عباراتـه، قد وقع فى نفس الغموض الذى وقعت فيه دسـاتير أسـبق منـه، وتـرك أهم نقطة فى الحكم النيـابى دون أن يحـددها التحديد الكـافى، ونعـنى بها سـلطة الـوزراء وصـلتهم بالشــعب ممثلة فى نوابه من جهــة، وإشــرافهم على ما يــؤدى إليه من خــدمات من طريق المصـالح والإدارات من جهة أخـرى. كما أجمل إجمـالاً مخلاً فى بيـان مـوقفهم من رئيس الدولة ومليك البلاد. واكتفى بأن يصـوغ هنا فى عبـارات تصـلح لكل ما يـراد منها. وواضح أن الوزارة هى العمود الفقرى لهيكل النظام النيابى كله، وحلقة الاتصـال بين التشريع والتنفيذ، ومبعث الحياة والحركة فى نظام يراد به احترام سلطة الشـعب مع تصريف شؤون الدولة تصريفاً محكماً سريعاً. وإذا ما رجعنا إلى الدستور وجـدنا أن ما جـاء به متصـلاً بهـذه النقطة الحساسة لا يكـاد يتجـاوز ثلاثة أسـطر كلها غمـوض وعمـوم، فيقـرر فى المـادة 29: "أن السـلطة التنفيذية يتولاها الملك فى حـدود هـذا الدستور" وفى المادة 48: "الملك يتولى سـلطته بواسـطة وزرائـه" وفى المـادة 49: "الملك يعين وزراءه ويقيلهم" وفى المـــــــادة 57: "مجلس وزرائه هو المهيمن على مصالح الدولة" وفى المادة 61: "الـوزراء مسـؤولون متضـامنون لـدى مجلس النـواب

---

[47] (47) مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا "دار الشهاب" ص215 – 216.

عن السياسة العامة للدولة، وكل منهم مسئول عن أعمال وزارته" وفى المادة 63: "أوامر الملك – شفهية أو كتابية – لا تخلى الوزراء من المسئولية على أية حال".

تلك تقريباً جملة النصوص المتصلة بهذا الموضوع، ولا نظن أن فيها ما يكفى مطلقاً لحل أى مشاكل من المشاكل التى أشرنا إليها". انتهى.

وقد أفاضاً بعد ذلك فى الشرح والتمثيل بما يفصل ما تقدم من هذه المعانى.. والمهم أن هذه النقطة وهى لب الأمر تحتاج إلى إيضاح واستقرار، وهى القاعدة الأولى من قواعد "النظام الإسلامى" أو النيابى على السواء، وبغير ذلك لا يمكن أن تستقيم الأمور أو تسلم[48].

وكان للإمام البنا رحمه الله رأى فى الأحزاب وقد بنى حكمه على أسباب موضوعية واستشهد بآراء كتاب ومفكرين مصريين فقال.

"وهذا الكلام الذى انعقد إجماع الأمة عليه، أعلنه شيوخ ونواب وفقهاء. ودستوريون فى صراحة ووضوح. ومن قرأ ما كتبه علوبة باشا فى كتابه "مبادئ وطنية"، أو الأستاذ حسن الجداوى فى كتابه "عيوب الحكم فى مصر" أو غيرهما من الكتَّاب، رأى صدق ما نقول. وحسبنا أن ننقل هنا فقرة من كتاب الفقيه الدستورى الأستاذ سيد صبرى "مبادئ القانون الدستورى" عن الأحزاب المصرية قال: **"والواقع أنه لم يعد لأغلب الأحزاب السياسية فى مصر برنامج يدافع عنه أنصار ومريدون، ولهذه النتيجة أهميتها، فإن الانتخاب لن يقوم على المفاضلة بين البرامج، فقد أصبحت واحدة للجميع، بل سيقوم على الثقة بالأشخاص أو المفاضلة بينهم، وستكون الانتخابات شخصية لا حزبية بالمعنى المفهوم لدى الشعوب الغربية، وبديهى أن بقاء الأحزاب على هذا المنوال يقسم البلاد شيعاً وأحزاباً ويثير الشقاق والمنازعات بين الأفراد والأسرات بلا سبب مفهوم ولا أساس معقول".**

وإذا أضيف إلى هذا أن مصر ما زالت بلداً محتلاً إلى الآن، وأن الذى يستفيد من هذه الفرقة هم المحتلون الغاصبون فقط، وأنه إذا استسيغ الخلاف – وهو غير مستساغ بحال – فى أمة من الأمم، فإن أمة وادى النيل هى أحوج ما تكون إلى أكمل معانى الوحدة لتتجمع قواها فى نضال الاستقلال وفى عمل الإصلاح الداخلى، إذا أضيف هذا كله كان الأمر أخطر من أن يهمل أو يستهان به ".

وبالنسبة للدعامة التالية – احترام إرادة الأمة تناول الإمام البنا "عيوب نظم الانتخاب فى مصر وكان عمدته هو كلام الدكتور سيد صبرى فى كتابه "مبادئ القانون الدستورى"..

"أنه أوجد هيئة ناخبة لا يمكنها تحقيق الغرض من الانتخابات على الوجه المطلوب، وأنه لم يحقق فكرة تمثيل الأمة تمثيلاً صحيحاً، وأنه لم يصل إلى إيجاد هيئة تعمل للصالح العام مجردة من كل قيد.." وقد أورد بعد ذلك إحصائية دقيقة خلص منها بالأرقام إلى أن قرارات البرلمان المصرى فى أدواره المختلفة لا تعبر إلا عن رأى نسبة ضئيلة من مجموع من له حق الانتخاب، لم تصل يوماً إلى 12%.

واقترح الإمام البنا الإصلاحات الآتية :

" لابد من تعديل وإصلاح لقانون الانتخاب، ومن وجوه هذا الإصلاح الضرورية :

1. وضع صفات خاصة للمرشحين أنفسهم، فإذا كانوا ممثلين لهيئات فلابد أن يكون لهذه الهيئات برامج واضحة وأغراض مفصلة يتقدم على أساسها هذا المرشح. وإذا لم يكونوا ممثلين لهيئات فلابد أن يكون لهم من الصفات والمناهج الإصلاحية ما يؤهلهم للتقدم للنيابة عن الأمة، وهذا المعنى مرتبط إلى حد كبير بإصلاح الأحزاب فى مصر. وما يجب أن يكون عليه أمر الهيئات السياسية فيها.

---

[48] (48) المرجع السابق ص218.

2. وضع حـدود للدعاية الانتخابيـة، وفـرض عقوبـات على من يخـالف هـذه الحـدود، بحيث لا تتناول الأسر ولا البيوت ولا المعانى الشخصية البحتة التى لا دخل لها فى أهلية المرشح وإنما تدور حول المناهج والخطط الإصلاحية.

3. إصلاح جداول الانتخـاب، وتعميم نظـام تحقيق الشخصـية، فقد أصـبح أمر جـداول الانتخاب أمراً عجباً بعد أن لعبت بها الأهـواء الحزبية والأغـراض الحكومية طـوال هذه الفترات المتعاقبة، وفرض التصويت إجباريا.

4. وضع عقوبة قاسية للتزوير من أى نوع كان، وللرشوة الانتخابية كذلك.

5. وإذا عدل إلى الانتخاب بالقائمة، لا الانتخاب الفردى كان ذلك أولى وأفضل، حـتى يتحرر النواب من ضغط ناخبيهم، وتحل المصالح العامة محل المصالح الشخصـية فى تقدير النواب والاتصال بهم.

وعلى كل حال فأبواب الإصـلاح والتعـديل كثـيرة، هـذه نمـاذج منهـا، وإذا صـدق العــزم وضح الســبيل، والخطأ كل الخطأ فى البقــاء على هــذا الحــال والرضا بــه، والانصراف عن محاولة الإصلاح ".

هذا هو ما جـاء فى رسـالة مشـكلاتنا فى ضـوء النظـام الإسـلامى. ومن الواضح أنها ملاحظات مصلح ديمقراطى يؤمن كل الإيمـان بسـيادة الأمة وضــرورة احــترام إرادتها وإقامة النظــام السياسى على أســاس برلمانى. ولا نجد فيه كلمة واحدة من شنشنة سـيد قطب والمـودودى أو ادعاءات جماعات الرفض أو حـتى فيهقه الفقهـاء. بل لا نجد فيه إشـارة إلى "تطبيق الشريعة" أو تنفيذ الحدود أو حتى الخلافة.

من هنا ندرك مدى الخطأ الذى يقع فيه الذين يعتبرون أن الإمام البنا كان رائــداً للذين جـاءوا من بعـده. إن الدولة الـتى أرادها الإمـام البنا هى الدولة الديمقراطية بعد إجراء تعديلات وإن كانت جذرية، ولكنها لا تغيرها عن طبيعتها وإنما تصـلح بعضـها. ولم يكن هو الوحيد الــذى طــالب بــذلك ولكن لفيف كبــير من أســاتذة النظم الدســتورية والكتاب والمفكرين.

إن حسن البنا أراد دولة إسـلامية... ولكن لم يـرد "دولة الإسـلام" والفـرق كبـير كما سيتضح من الفصول التالية.

من الواجب علينا بعد أن أشرنا إلى الأفغانى والبنا – أن نشـير إلى داعية تـركى أصطلى بنيران العمل السياسى حينا، حتى طلقه طلاقاً لا رجعة فيه، بل رأى فيه عمل الشيطان نفسه – ذلكم هو السيد بـديع الزمـان سـعيد النورسى الـذى حـاول أن يثـنى مصـطفى كمـال عن غيـه، فكـانت النتيجة أن اضـطهده وكـاد أن يقضى عليه حـتى لاذ بركن قصى من تركيا عكف فيه على استلهام القرآن ليصدر "رسائل النور" التى كانت أساساً لجماعة إسـلامية كبـيرة هى "جماعة النـور" وكـان النورسى يمليها على اتباعه فى منفاه القصى دون أن يرجع إلى كتاب أو يستشير مرجعاً لأنها إنما كانت إلهاماً من القرآن نفسه. ولهذا كان فيها نقاء القرآن وإخلاص صاحبها.

وقد اضــطهد الإمــام النورسى رحمه الله اضــطهاداً لم يقتصر على شخصه بل امتد إلى مدفنه، فنقل مراراً وأخيراً دفن فى مكان مجهول!!.

الفصل الحادى عشر
منظرو الدولة الإسلامية
المودودى – سيد قطب – الخمينى

—

كيف حدث أن تطورت فكرة الدولة الإسلامية من التصور الفضفاض لدى جمال الأفغانى وحسن البنا إلى قميص الكتاف المتصلب على يد منظرى الدولة الإسلامية المودودى وسيد قطب والخمينى.

أولى الملابسات التى أدت إلى ذلك اقتران صدور فكرة كل منظر من هؤلاء الثلاثة بحدث تاريخى يعد هو الذى دفع بصاحبه للاتجاه المعين الذى أخذته تلك الملابسة وكانت بالنسبة للمودودى هى انشطار الهند وظهور باكستان كدولة مسلمة، وهى بالنسبة لسيد قطب العداوة المريرة التى أعلنها عبد الناصر للتيار الإسلامى وموجة الاعتقالات الوبائية وشيوع التعذيب الوحشى وهى بالنسبة لإيران الثورة على حكم الشاه وإعلان جمهورية إسلامية بقيادة الإمام الخومينى. وكل حدث من هذه الأحداث صاحبته تداعيات دراماتيكية أدت بالمنظرين الثلاثة لأن يسلكوا المسلك الذى يتفق معها، ونتيجة لاقتران هذه الأحداث بالنصوص والآيات كان لابد لهؤلاء المنظرين من أن يصلوا إلى ما انتهوا إليه بالفعل.

***

- 1 -
المودودى

أول هؤلاء المنظرين ظهوراً هو السيد أبو الأعلى المودودى الذى اصطحب ظهوره بالتطورات التى جعلت القارة الهندية تكسب استقلالها من الاستعمار البريطانى وتقف على شفا مستقبل مجهول متفجر بالمخاطر. فهناك أغلبية هندوسية تريد أن تبنى هنداً "هندية" تعود إلى أصول وجذور الحضارة الهندية قبل أن يدهمها الإسلام وهذه الأغلبية تستشعر كراهية عميقة للمسلمين الذى جاءوها فاتحين وغرسوا فيها بذور الإسلام وحكموها قرونا متوالية، ولم يكن حكمهم ممتازاً، ولكنه كان بمعايير الحكم وقتئذ حسنا وكفلوا للأغلبية الهندوستية حرية العبادة، بل وفتحوا أمامهم باب الوظائف وفكر بعضهم مثل السلطان أكبر فى إيجاد دين يمزج ما بين الإسلام والهندوكية، ولكن هذا لم يشف معظم الهنادكة من غيظهم القديم. وكان هناك الأقلية المسلمة (قرابة 30 أو 35% من مجموع السكان) استشرفوا ما ينتظرهم من اضطهاد تحت حكم الأغلبية الهندوسية. وكان على رأس الحزب الهندى الأكبر حزب المؤتمر ثلاثة من أكابر السياسيين الذين عرفتهم الهند. أولهم غاندى الذى قاد حملة المقاومة المدنية التى كانت من أكبر الوسائل التى ظفرت للهند باستقلالها. فضلاً عن أنه كان بصفة عامة إنسانى النزعة، وكان الثانى هو نهرو السياسى المثقف المعتدل وأخيراً مولانا أبو الكلام آزاد وهو عالم مسلم درس الفقه والتفسير وكان نفوذه فى المؤتمر لا يقل عن سابقيه.. ولكن هذه القيادة الموهوبة لم ترض جماهير المسلمين الهنود وتجعلها تأتمن مشاعر الشعب الهندوسى، وقدرتها على كبح جماح جماهيره. وظهر بينهم وقتئذ قائدان بارزان أولهما محمد على جنه وثانيهما الدكتور محمد إقبال. وكان معا مثقفين ثقافة أوربية رفيعة ولهما مشاعر إسلامية قوية. ولكن هذه المشاعر كانت تأخذ لدى جنه طابعاً قومياً. فالإسلام هو جنسية المسلمين الهنود ولابد من إقامة دولة إسلامية بينما كان إيمان الدكتور إقبال إيماناً روحياً عاطفياً صوفياً عميقاً. وتمتعا معاً باحترام وتقدير شعب الهند المسلم. وكان جنه يرأس حزب "الرابطة الإسلامية" بينما يعد إقبال المرشد الروحى فيه. وكان جنه بالمهنة محام ومستشاراً قانونيا سياسياً ضليعاً ومفاوضاً ذكيا واستبعد كل المساومات أو أنصاف الحلول مع قادة حزب المؤتمر، وعارض غاندى ونهرو "وأبو" الكلام آزاد الذين أرادوا بكل الطرق

الحيلولة دون انقسام الهند، وأصـبح من الضـرورى إقامة الدولة الإسـلامية الهندية فى المناطق التى تسكنها أغلبية مسلمة.

وسبق ميلاد باكستان مخاض دمـوى رهيب إذ تطلب الأمر هجـرة مئـات الألـوف من مسلمى شرقى البنجاب حيث سادت الأغلبية الهندوسية، بينما هاجر الهنـدوس من البنجاب الغربية التى اعتبرت صميم باكستان، وتعرض المهاجرون من هذه المناطق أو تلك لاضطهادات الأغلبية هندوسا كانوا أو مسلمين.

وعنـدما تكـونت الدولة بالفعل ظهر الطـابع "العلمـانى" لقادتها – وعلى رأسـهم جنه – لأن حماستهم للإسـلام كـانت نوعـاً من العصـبية، أو القوميـة. أما الانصـياع إلى "الشريعة" أو حتى "المُثل" والقيم الإسـلامية فى الحكم فإنها كـانت بعيـدة عنهم. وقد ظفر جنه باحترام وتقدير الجميع لأنه قـاد الشـعب وسط الأنـواء والعواصف ووصل بها إلى بر السـلامة. أما ما بعد ذلك فقد كـان محل اختلاف يعكسه تكـوين وإيمـان شـعب باكستان.

هذه الملابسات هى التى أدت إلى ظهور المودودى وإلى اتخاذه اتجاهه الخـاص. ولم يكن لديه فى شبابه ما يدل على الفكـرة الـتى انتهى إليها مما يـدل على أن سـير الأحداث هى الـتى قادتـه، فى الـوقت الـذى أخذ يتعمق فى الفقه الإسـلامى وسـاعده على ذلك علمه باللغة العربية الذى مكنه من الرجوع إلى مصادرها..

كان المودودى يرى أن الدولة الوليدة ليس فيها من الإسلام إلا الاسم، ولما كان الإسلام هو مبرر وجودها فيفترض أن يقوم هذا الوجود على أصـول إسـلامية لم تتـوفر لدى قادة الرابطة الإسلامية لأن ثقافاتهم كانت أوربية.

وأخذ المـودودى يتوغل فى العلـوم الإسـلامية التقليدية من حـديث أو تفسـير أو فقه وكلما يتوغل كلما كـانت تأخـذه إلى عـالم الأسـلاف وإلى ما وضـعوه من ضـوابط وقواعد تكوِّن فى مجموعها الفهم السلفى.. وكان دوره هو أن يقـدم ترجمة "أورديـه" سـهلة لهـذا الفهم السـلفى.. وأن يضـعه فى إطـار الدولة الحديثة وكـان حرصه على سلامة وقوة الدولة يرتبط بقيامها على الأسس الإسلامية السليمة التى استخلصها فإذا لم تقم على ذلك فإنها تفقد صفتها المميزة وتصبح دولة كبقية الدول.

وكان المودودى يؤمن بفكرة أن الفاتحين المسلمين للهند سلكوا مسلك الملوك الذين يستكثرون من الأموال ويستجيبون للشهوات، ويقيمـون القصـور الخ... ولو أنهم سـلكوا مسـلك السياسة الإسـلامية الـتى وضع أسسـها الرسـول والخلفـاء الراشـدون لكانت الهند قد أصبحت أمة مسلمة. ولهذا كان تركيزه على السلوك الإسـلامى سـواء من الفرد أو المجتمع، فى الاقتصاد أو السياسة

وقبل اسـتقلال باكسـتان بست سـنوات، فى 26 أغسـطس سـنة 1941 أسس الجماعة الإسلامية من 75 رجلاً اجتمعوا من مختلف بقاع الهند بنـاء على دعـوة وجهها المودودى عن طريق مجلته "ترجمان القرآن" وانتخبوا المودودى أميراً لها.

وفى نوفمبر 1972 وبعد واحد وثلاثين عاماً من الكفاح قدم الإمـام المـودودى طلبا إلى الجماعة بإعفائه من منصـبه كـأمير لها لأسـباب صـحية وعكف على البحث والقراءة حتى وافته المنية فى سبتمبر سنة 1979

وأراد المودودى لجماعته أن تكـون جمعية تطبق **المثال على الواقع** وتكـون مجتمعاً إسلامياً حقيقياً يتـوفر لأعضـائه الإيمـان والعمـل، أو ما أطلق عليه المـودودى الشهادة القوليه والفعلية، ويخضع لمعايير صارمة هى التى رأى المودودى أنها تتفق مع متطلبات الإسلام.

وأقامت الجماعة فى قرية عمرتها بنفسها، واسـتوطنها صـفوة من أعضـائها كما لو كـانت مدرسة للكبـار، وكـان من واجبـات كل عضو أن يأخذ نفسه بـآداب الإسـلام وأوامره "فلا يعامل أحداً إلا على الصدق، ولا يعاقد قريباً أو أجنبيا إلا على ما جاءت به الشريعة من شروط ولا يرضى بالعقود الفاسدة المحرمة فى الشـريعة، ولو كلفه ذلك قناطير مقنطرة من الذهب والفضة.

فاســتقال أعضــاؤها من وظــائف الحكومة الكــافرة – البريطانية – وانقطع المحامون من رجالها عن المحاماة أمام المحاكم التى تحكم بغير ما أنـزل اللـه، وأبـوا أن يتعاطوا بالربا فتوقفوا عن التعامل مع البنوك (المصارف)

وتعرض أعضاؤها لكثير من العنت والاضطهاد :

فمن الشبان – وهم الأغلبية العظمى – من طرده أبـوه وأخرجه من داره وحـرم عليه أرضه ومتاعه.. ومنهم من أبى ذوو قرباه أن يزوجوه ابنتهم لأنه عمل بسُنة النـبى ﷺ وأعفى لحيته التى طالما تعود على حلقها من قبل.

ومن الشيوخ من ضـربه ابنه وأهانه لأنه تخلى عن حيـاة الجاهلية فى شـيخوخته الخ...[49].

وتوضح نشأة الجماعة الإسلامية وتطورها أن من الخطأ الاعتقاد أنه من الممكن إضرام نار الإيمان فى صـدور المجموعـات لسـنوات طـوال، وأن الإيمـان الـذى يحكم الخُلق والتصرفات وتخضع الحياة له من الصـعب أن يبقى فى جماعة ما بعد فـترة من الزمن على ما كان عليه فى البداية. وأن وضع الحسابات على بقاء هـذا المسـتوى من الإيمان هو من الأخطاء التاريخية فى فكر الدعوات الإسلامية فحتى إيمان الصـحابة لم يهدهم إلى السلوك الأمثل فى الفتنة الكبرى التى كان تأييد على – وهو الأحق – يعـنى سفك دماء عشرات الألوف من المسلمين. والدرس الـذى يقدمه لنا تطـور المسـتوى الإيمانى للجماعة الإسلامية التى بـدت عميقة الإيمـان ملتزمة بموجبـات هـذا الإيمـان. تجعلنا نقتصد ونضع فى اعتبارنا هامشاً عريضاً لحساب الضعف البشـرى وقـوة إغـراء العوامل الاجتماعية الأخرى، ولا يعنى هذا إهمال هـذا المقـوم الهـام ولكنه يعـنى دعمه بمختلف الوسـائل الأخـرى. وعـدم تركه وحـده ضـحية لعوامل الإغـراء والتعرية وفى الوقت نفسه عدم الارتفاع به إلى مستوى لا تسمح به الأوضاع العملية...

وما يهمنا هنا هو نظرية المــودودى فى الدولة الإســلامية وهو ما يوضحه كتيب "منهاج الانقلاب الإسلامى" عن خصـائص الدولة الإسـلامية كالآتى :

1) ليس لفرد أو أسرة أو طبقة أو حـزب أو لسـائر القـاطنين فى الدولة نصـيب من الحاكمية فـإن الحـاكم الحقيقى هو الله والسـلطة الحقيقية مختصة لذاته تعـالى وحده والذين من دونه فى هذه المعمورة إنما هم رعايا فى سلطانه العظيم.

2) ليس لأحد من دون الله شئ من أمر التشريع والمسلمون جميعاً ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً لا يستطيعون أن يشـرعوا قانونـاً ولا يقـدرون أن يغـيروا شـيئاً مما شرع الله لهم.

3) أن الدولة الإسلامية لا يؤسس بنيانها إلا على ذلك القانون المشروع الذى جاء به النبى من عند ربه مهما تغيرت الظروف والأحوال. والحكومات الـتى بيـدها زمـام هـذه الدولة لا تسـتحق طاعة النـاس إلا من حيث أنها تحكم بما أنـزل الله وتنفذ أمره تعالى فى خلقه.

من هنا يتضح لنا أن الدولة الإسـلامية لا تعد ديمقراطية بـالمعنى الشـائع لأنها لا تجعل إرادة الشــــــعب هى أصل التشـــــــريع، ولكنها حكومة إلهية (ثيوقراطية **Theocracy**) مع اختلاف جذرى فى المدلول الأوربى للكلمة لأن الحكومة الإسـلامية لا تعرف طبقة السـدنة (رجـال الـدين) الـذين يتولـون وحـدهم فى الدولة الثيوقراطية بالمفهوم الأوربى التقنين أو التفسير طبقاً للشـريعة الإلهية ومن هنا فـإن الثيوقراطية الإســلامية يمكن أن تكــون (ثيو – ديمقراطيــة) **Theo democracy** أو الحكومة الإلهية الجمهورية وذلك لأنها خولت للمسلمين حاكمية (أو سـيادة) شـعبية محـدودة **A**

---

49 **(49) رجعنا فى هـذا القسم من اسـتعراض تـاريخ الإسـلام فى الهند إلى الكـتيب الـذى وضـعه السـيد مسـعود النـدوى باسـم: "نظـرة إجمالية فى تـاريخ الـدعوة الإســلامية فى الهنــد" وطبعته لجنة الشــباب المســلم بالحلمية وكتب مقدمته الأستاذ محب الدين الخطيب - رحمه الله - عام 1372 هـ.**

limited popular sovereignty تحت سلطة الله القاهرة. ولا تتألف السـلطة التنفيذية إلا بآراء المسلمين وبيدهم يكون عزلها من منصبها وكذلك جميع الشئون التى لا يوجد عنها فى الشريعة حكم صريح لا يقطع فيها بشىء إلا بإجماع المسلمين.

وكلما مست الحاجة إلى إيضاح قانون أو شرح نص من نصوص الشـرع لا يقـوم ببيانه طبقة أو أســرة مخصوصة وحــدها بل يتــولى شــرحه وبيانه كل من بلغ درجة الاجتهاد من عامة المسلمين..

فمن هذه الوجهة يعد الحكم الإسـلامى ديمقراطيا إلا أنه – كما تقـدم ذكـره من قبل – إذا وُجد نص من نصوص الكتاب والسُـنة فى شأن من الشـئون فليس لأحد من امــــراء المســـلمين أو مجتهد أو عـــالم من علمـــائهم ولا للمجلس التشــــريعى (**Legislature**) بل ولا لجميع المسـلمين فى العـالم أن يصـلحوا أو يغـيروا منه كلمة واحدة، من هذه الجهة يصح إطلاق كلمة "الثيوقراطية " انتهى الاقتباس..

وفى كتابه "الحكومة الإسـلامية" وهو من الكتابـات المتـأخرة للمـودودى عـرض القضية كالآتى :

إن المطالبة بالحكومة الإسلامية والدستور الإسلامى تنبع من الشعور الأكيد بـأن المسلم إذا لم يتبع قانون الله، كان ادعاؤه الإسلام باطلا لا معنى له

1) يقرر القرآن أن الله تعالى هو مالك الملك، ومن ثم فهو صـاحب الحق فى الحكم بداهــة، كما يقــرر أن تنفيذ أوامر أحد غـيره، أو حكم أحد سـواه فى أرضه وعلى خلقه، إنما هو باطل وكفر مبين. والصـواب أن يحكم الحـاكم بقـانون الله ويفصل فى الأمور بشريعة الخالق بوصفه خليفة لله ونائبا عنه فى أرضه.

2) وبنـاء على هـذا سُـلب الإنسـان حق التقـنين لأنه مخلـوق ورعيـة، عبد ومحكـوم، ومهمته تتركز فى اتباع القانون الذى سنه مالك الملك. وقد أبـاح الإسـلام بـالطبع مزاولة الإنسـان الاسـتنباط والاجتهـاد وتفريعاتهما الفقهيـة، لكنه شـرط ذلك بـألا يخرج عن إطار حدود الله. كـذلك أعطى المؤمـنين حق التقـنين فيما لم يـرد فيه حكم صريح من الله ورسوله، على أن تراعى فى التقـنين روح الشـريعة ومـزاج الإسـلام، لأن سـكوت الشـارع عن إصـدار حكمه فى بعض المسـائل يعـنى أن للمؤمنين الحق القانونى فى سن أحكامها وضـوابطها. لكن الأمر الأساسى الـذى لا غمة فيه ولا خفاء أن من يترك قانون الله ويؤمن بقـانون آخر وضـعه بنفسه أو شرعه له غيره من البشر إنما هو طاغوت باغ خارج عن طاعة الحق، وأن من يبغ الحكم بهذا القانون الوضعى، ويعمل على تنفيذه فهو باغ عات عن أمر ربه أيضاً.

3) أن الحكومة الصـحيحة العادلة فى أرض الله هى الـتى تتأسس وتحكم بالقــانون الذى بعثه الله على أيدى أنبيائه، واسمها الخلافة.

4) أن كل ما يصدر من أعمال من قبل أية حكومة تقوم على أسـاس شـرعة أخـرى غير شرعة الله وقانونه الـذى جـاء به الأنبيـاء من لـدن رب الكـون وإلهه باطل لا قيمة له ولا وزن، مهما اختلفت هذه الحكومات فيما بينها من تفاصيل فى الشكل والنــوع، وحكمها غــير شـرعى البتــة، فـإذا كـان مالك الملك الحقيقى لم يعطها سلطانا، فأنى لها أن تكون حكومات شرعية.

إن القرآن الكريم يرى كل ما تقوم به هذه الحكومـات محض عـدم لا وزن له ولا قيمــة، وقد يقبل المؤمنــون – وأعــنى بهم رعايا الله الأوفيــاء – وجــود هــذه الحكومات باعتبارها أمـراً واقعـاً خارجا عن إرادتهم وقـدرتهم، لكنهم لا يعـترفون بها وسـيلة حكم شـرعية، وسـلطة تفصل فى أمـورهم وقضـاياهم، إذ لا يحق لهم طاعة الخارجين على حاكمهم الأصلى (اللـه) أو قبـولهم حكما فى مجريـات حيـاتهم، ومن يفعل ذلك فقد خـرج من زمـرة المؤمـنين الأوفيـاء مهما ادعى الإسـلام والإيمـان " انتهى..

ويمكن تلخيص فكرة المودودى في القواعد الثلاث الآتية :

أولا: العبودية لله التى تجعل المسلم يعيش فى كل حركاته ابتغاء مرضاة الله والتزاما بما وضعه الله.

ثانيا: الحاكمية الإلهية التى تجعل المجتمع يحكم بما أنزل الله ولا يجوز لفرد أو سلطان أو هيئة أو شعب وضع القوانين طبقاً لما يراه..

ثالثا: الجاهلية. وهى الصفة التى أطلقها المودودى على المجتمعات التى لا تؤمن بالحاكمية الإلهية، حتى لو كانوا من المسلمين.

* * *

وللمودودى رأى عن الإنسان بالنسبة لله تعالى قال فيه :

لقد سبق لى القول من قبل مرة بعد أخرى أن الإسلام يستهدف أن يدخل حياة المرء بجميع مظاهرها فى عبادة الله ويصفها بصفتها. الإنسان خلق عبدا – والعبودية هى فطرته التى فطره الله عليها – فليس له أن يكون حراً لا فى فكره، ولا فى عمله، من هذه العبودية. عليه أن ينظر فى جميع مظاهر حياته وجميع أوقاته ما هو رضا الله؟ وما هو سخطه ليتخذ ما كان يرضى الله ويبتعد عما يسخط الله – ابتعاده عن النار – ويسلك المسلك الذى يحبه الله ويجتنب الطريق الذى يبغضه. وإذا رأيت أحداً قد صيغت حياته فى هذا القالب صياغة كاملة فاعلم أنه أدى حق عبوديته لسيده ومولاه وأتم الغرض المنشود لآية ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾.

* * *

ما هى تحفظاتنا على فكر المودودى ؟ :

أولاً: أن العلامة المودودى وقع فى "إسقاط" بشرى على الطبيعة الإلهية وتصور سلطة الله تعالى وحاكميته كما لو كانت سلطة ملك على شعبه أو قائد على جنده. أو مالك على عبيده. وكان من أبرز الأدلة على ذلك الأمثلة العديدة التى أراد أن يوضح بها هذا الفهم، ومثل هذا القياس خاطئ تماماً لانتفاء التماثل فى العلة إن لم يكن مستبعداً أصلاً. فالله تعالى غنى عن العالمين، لا تضره معصية، ولا تنفعه طاعة – وأى مالك ليس غنيا عن عبيده – ولا هو فى حصانة من معصيتهم، أو غنى عن طاعتهم. وعلم الله تعالى الذى يفصل به بين العباد، ويحكم به على الأعمال، يتسامى عن فهمنا المحدود المتأثر بالعوامل الذاتية ونحن يتملكنا الغضب لأنفسنا وتأخذنا العزة عند المخالفة – ونحرص على ذواتنا، وأموالنا، ومراكزنا وسلطاننا.. ونحاسب تبعا لقواعد الحساب.. وهذا كله شىء لا يمكن أن ينسب إلى الله تعالى – فرحمة الله أعظم مما نتصورها – وخزائنه لا تنفد. وهو يكافئ بسبعمائة ضعف وأكثر. وعلمه وحكمته تجعله ينظر إلى المخالف نظرة العارف المتعال: وهم يقولون عن البشر "من يعرف أكثر.. يغفر أكثر.." ومن ثم كانت معاملة الفيلسوف الحكيم تختلف عن معاملة العسكرى الفظ.. وهذا كله بالنسبة للآدميين. فما بالك بالله رب العالمين. إننى لأخشى أن المودودى رحمه الله فى حماسته لتدعيم وجهة نظره كاد أن يقرب من تجسيم إن لم يكن مادياً – فهو فكرياً.. وأراد أن يمحى كل أثارة من أثارات الشرك.. فكاد أن يقع فيما يماثل ذلك عندما كيّف الطبيعة الإلهية تكييفاً بشرياً

ثانيا: أن العبودية لله لا تعنى – كما تصور المودودى – انعدام حرية الإنسان فى الأرض والتصور الذى قدمه المودودى للعبودية الإنسانية الذى رتب عليه انعدام الحرية يخالف مخالفة تامة التصور الإسلامى للحياة واستخلاف الإنسان على الأرض وإرصاد الشياطين لغوايته وإرسال الأنبياء لهدايته. وما ينبنى على هذا من وجود حرية فى التصدى وعقل فى التكييف. وكلمة حرية وعقل هما من المحرمات فى كتابات وآداب الرافضة الجديدة – كما يندر أن نجدهما فى كتابات المودودى. وإغفالهما، مع التركيز على مضمون العبودية يخل بالتصور الذى أراده الإسلام، ولو أعطت كتابات المودودى الحرية الإنسانية. والعقل الإنسانى جزءًا مما ركزته فى العبودية – لاختلف التكييف – ولكان هذا أدعى لهداية الإنسان من تجاهلهما..

ثالثا: يختلف الطابع العام لأحكام المودودى ومنطلقاته عن الطابع العام الذى نجده فى القرآن وفى الحديث. ففى هذين نجد العقيدة وتوجيهاتها تعرض "كمثال" ونجد الطبيعة البشرية بضعفها والعوامل المحددة لها.. تعرض كواقع. وتتجاوب الأحكام مع تلاقى المثال بالواقع.. ومدى إخضاع الواقع للمثال، أو مدى توصل الواقع إلى المثال. ومن أجل هذا يقرر القرآن "لا يكلف الله نفساً إلا وسعها" وكان الرسول أيضاً عندما يبايع المؤمنين يردف "فيما استطعتم" وهذه اللمسات الإلهية والنبوية فى معاملة الإنسان وعمق المعرفة بالطبيعة البشرية لا نجدها فى أحكام المودودى التى تنزع نحو تطبيق المثال كاملاً غير منقوص، وتميل بصفة عامة للتشدد. والإسلام دين اليسر. وتريد قيام مجتمع كامل لا يتضمن نقصاً. فى حين أن الإسلام افترض وجود التقصير والضعف أمام الإغراء، بل إنه إفترض حدوث الكفر. ولم يكن هذا فى حد ذاته ليعنى الإسلام وقد وجه الله تعالى نبيه لأن لا يحزنه الذين يسارعون فى الكفر. لأنه تعالى – لا تضره معصية – ولا تنفعه طاعة – فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ومن شاء فليكفر.. ومن شاء فليؤمن. وقد أراد الله تعالى لهذه الدنيا أن تضم الكفرة – وغير المؤمنين الخ... ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾. {61 النحل}..

رابعا: إن الإلحاح على فكرة العبودية لله مع استبعاد أى إشارة إلى حرية أو عقل يمكن أن يوظف لخدمة الحكـــام والنظم ويفتح الطريق لهما. لأنه مع استبعاد العقل والحرية، تنبهم العبودية، ولا يمكن التفرقة بين أن تكون لله أو لغير الله ويمكن أن يصبح الإنسان عبداً للخرافة ويختلط عليه الحق بالباطل.

خامساً: أن اتباع النصوص القرآنية يتطلب فهما لها يتأثر بدرجة الثقافة وملاحظة روح الإسلام ومقاصد الشريعة وضرورات العصر. وهذا الفهم لا يكون جامداً وليس شرطا أن يتفق مع فهم السلف، ولا مع ما يقرره المفسرون لأن هؤلاء جميعاً من الصحابة حتى الآن ليسو مشرعين وما جاءوا به من أحكام لا يعد ملزما. وقد وضح لنا عمر بن الخطاب أن المهم فى النص هو توافر العلة أو الحكمة، وأنه لما انتفت العلة من نص لم يعمله ولا يعد هذا مخالفة بل هو تطبيق لحكمة التشريع كما فى حالة الزكاة والطلاق الخ... فحتى النص القرآنى فيما يتعلق بالدنيويات يمكن أن يوقف النظر فيه إذا انتفت العلة التى أدت إلى إصداره كما فعل عمر بن الخطاب من قبل ويدخل فى ذلك ما يخص الحكم.

أما السُنة فيجب أن تضبط بمعايير قرآنية حتى لا نكون ضحايا الوضع أو غيره فمما شاب السُنة بعد أن تأخر تدوينها مائة عام.

وتطبيق هذه الاعتبارات وإن كان لا يخرج عن الإطار العام الذى وضعه المودودى لأنه التزام بالقرآن والسُنة. إلا أن تكيفها هذا يوجد – بكل تأكيد – مفاهيم ونتائج بعيدة كل البعد بل ومنافية لما تصوره المودودى الذى لم يكن لديه من طريقة لفهم وتطبيق النصوص إلا ما جاء به السلف.

والحقيقة أن المودودى يتحدث بأسلوب يختلف تمام الاختلاف عن أسلوب القرآن فالمودودى يقول "ليس لأحد من دون الله شىء من التشريع والمسلمون جميعاً ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً لا يستطيعون أن يشرعوا قانوناً ولا يقدرون أن يغيروا شيئاً مما شرع الله لهم.

وإذا وجد نص من نصوص الكتاب والسُنة فى شأن من الشئون فليس لأحد من أمراء المسلمين ولا لمجتهد ولا لعالم ولا لمجلس تشريعى بل ولا لجميع المسلمين فى العالم أن يصلحوا أو يغيروا منه كلمة واحدة. قارن هذا الكلام بما يقوله القرآن ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾. وما يأمر به مراراً من

التفكير والتدبر فى آيات الله فهناك فرق شاسع بين الموقف المنغلق للمودودى والموقف المنفتح للقرآن.

رؤية للديمقراطية فى الثمانينات:

ليس لدينا الكثير من الوثائق والكتابات عن التطورات الأخيرة للجماعة الإسلامية. وهذه الجهالة هى جزء من القطيعة الفكرية بين بلاد العالم الإسلامى، وعدم احتفال كثير من الهيئات بالإعلام المكتوب - أو الاتصال. خارج أطرها الخاصة. وما تأتينا به أجهزة الإعلام الأوربية مُتهم

وتقلبت الحظوظ بالجماعة الإسلامية عندما دخلت العمل السياسى. ولكن قله ما لدينا من مراجع يحول بيننا وبين إصدار الأحكام. وقد وجدنا بين أوراقنا نشرة موجزة بالإنجليزية أصدرتها الجماعة الإسلامية بعنوان **الديمقراطية والتضامن القومى: مشروع المودودى للإجماع القومى عن الأسس الفكرية بباكستان.** صدرت بعد 83 وهى تمثل التطور الفكرى الذى وصلت إليه الجماعة وتكييفها لمفاهيمها للتوصل إلى "إجماع قومى".

وبعد مقدمة موجزة، تعرض النشرة خمسة مبادئ لازمة لتهيئة مناخ رأى عام إيجابى هى :

1. احترام الحق والعدل.

2. التسامح المشترك (أو المتبادل).

3. تجنب المعارضة للمعارضة.

4. تفضيل الإقناع على القسر.

5. المصلحة القومية فوق المصلحة الشخصية.

وهذه المبادئ توضح مدى تطور فكر الجماعة الإسلامية. ولكن يظل مدى إيمان الجماعة بهذه المبادئ وتكييفها محل نظر.

***

- 2 -
سيد قطب
وكتاب "معالم فى الطريق"

كان سيد قطب كاتبا ضليعاً تلقى دراساته فى دار العلوم - وواصلها بقراءاته. وأظهر من أيامه الأولى نبوغاً فى الكتابة واعتبر فترة ما الابن البكر للأستاذ عباس محمود العقاد وأفسحت له مجلة الرسالة صدرها فأثراها بمقالاته عن النقد الأدبى. وكان مما لا يزال عالقاً بالذهن مساجلة بينه وبين الأستاذ محمد سعيد العريان الذى اعتبر أكبر مؤيدى الأستاذ مصطفى صادق الرافعى وكانت المساجلة وكأنها بين الكاتبين الكبيرين "العقاد والرافعى" نفسيهما. وكل واحد يدافع عن وجهة نظره...

ولم يكن الإتجاه الإسلامى بارزاً فى سيد قطب فى كتاباته الأولى على أنه أصدر كتاباً ممتازاً بعنوان "العدالة الاجتماعية فى الإسلام" ثم جذبه الإعجاز القرآنى الذى لابد أن يجذب كل كاتب عربى. فأصدر "مشاهد القيامة فى "القرآن والتصوير الفنى" وعدداً آخر من الكتب أبرز فيها البلاغة والإعجاز الفنى للقرآن..

وأراد الله له أن يرسل فى بعثة إلى الولايات المتحدة وكان وقتئذ قد سلك فى سلك التربويين الذين يعملون فى خدمة وزارة التربية والتعليم ويبدو أن هذه الرحلة أثارت فيه نقطة تحول دفعت به إلى الاتجاه الإسلامى الذى كان قد شارفه، ولعل ظواهر الحضارة الأوربية، وبوجه خاص ما يتعلق بالتحرر الجنسى وظهور المرأة قد أحدث صدمه فى نفسه وهو "الصعيدى" الذى لم يغادر قريته إلا إلى القاهرة، ولم

يتزوج، ومر بمرحلة حب عذرية عابرة.. ولم تكن هذه صدمة "انبهار" بل كانت صـدمة احتقار لمشاهد الحياة الأمريكية.

المهم أنه عاد وهو أقرب إلى الإسلام وكان المجتمع المصرى قد تعـرض بـدوره لتغيير جاء به الانقلاب العسكرى لعبد الناصر. وكان هنـاك صـداقات تجمع ما بين سـيد قطب وبعض ضباط الانقلاب الـذين ألفـوا أن يجتمعـوا فى بيته فى حلـوان خاصة أيـام التقـارب ما بين الانقلاب والإخـوان عـامى 52، 53، وكـان له مكتب فى مركز قيـادة الثورة.

وكان لدى بعض أصدقائه من الضـباط احتمـال أن تعينه "الثـورة" وزيـراً للتربية والتعليم ولكن ما لم يفطنـوا إليه وقتئذ هو أن الأمـور كـانت فى يد جمـال عبد الناصر الشكاك الحذر الذى لا يأتمن إلا اتباعه.

وجرت الرياح على غـير ما تشـتهى السـفن. فتـوترت العلاقـات ما بين الإخـوان والضباط. بعد 1954 فى أعقاب التهمة التى ألصقت بالإخوان تهمة محاولة اغتيال عبد الناصر، وبدأت الاعتقالات..

ولم يكن سيد قطب بالرغم من شخصـيته المسـتقلة، وعلاقاته بالضـباط بمنـأى عن هذه التطورات التى نالته فيمن نالت ولكنه خرج منها بعد أن أحدثت أول شــرخ ما بينه وبين النظام

وأصدر فى هذه الفترة كتابه "معالم فى الطريق" ولم ينتبه القـادة إلى خطـورة مضمونه وقيل إنه كان يوزع بين الضباط..

واكتسب الأسـتاذ سـيد قطب شـهرة مدوية فى أوسـاط الإخـوان.. وانضم إليها بصـفة رسـمية وكـان كتابه "معـالم فى الطريـق" هو مدخله لقلـوب لفيف من شـباب الإخــوان ورأوا فيه صــياغة رصــينة، وإيمــان عميق مؤصل على نصــوص صــريحة من الكتاب والسُنة وحدث هذا فى فترة التخلخل التى لم يوجد فيها كـاتب إخـوانى يواصل التأصيل النظرى الذى قام به الإمام البنا.

والحقيقة أن الفكر الـذى قدمه سـيد قطب وإن كـان جديـداً فى دوائر الإخـوان وغريبا عن كتابات الأستاذ البنـا، فإنه لم يكن جديـداً على مجموعة صـغيرة من شـباب الإخـوان كـانوا يتـابعون حركة المـودودى فاسـتقدموا كتاباته واسـتأجروا محلاً أمـام المركز العـام للإخـوان المسـلمين فى سـكة راتب وبـدءوا تحت اسم "لجنة الشـباب المسـلم" بترجمة بعض كتاباته وبوجه خـاص كتـابى نظرية الإسـلام السياسـية ومنهـاج الانقلاب الإســلامى وهما من أقـــدم كتابـــات المـــودودى وكانتا محاضـــرتين ألقاهما المودودى فى لاهور وتضمنت الأفكار الرئيسية التى أبرزها سـيد قطب وهى: الحاكمية الإلهية – العبودية لله – الجاهلية الحديثة وكان فضل سيد قطب فى هـذا هو أنه أبرزها بأسلوب عربى رصين مثير..

وفى 1965 حـدث سـباق للاسـتحواز على السـلطة ما بين فريق عـامر وفريق ناصـر. وأقنعت المخـابرات العسـكرية التابعة لعـامر عبد الناصر بـأن مـؤامرة إخوانية تحاك وعلى وشك أن تؤدى بدولته. وكانت قد وضعت يدها على نواة صغيرة لمجموعة أرادت أن تـــدرس فكر ســـيد قطب. فـــادعت أنها تخطط لنسف الكبـــارى وقتل الشخصيات العامة والفنانين الخ... وكـانت نتيجة ذلك أن اعتقل سـيد قطب ومجموعة من أخلص اتباعه مع ما يزيد على عشرة آلاف معتقل، وتعرضوا لأشنع صنوف التعذيب وقدم سـيد قطب والمجموعة المخلصة الـتى كـانت حوله وحكم عليهم بالإعـدام ونفذ الحكم فوراً، حتى لا يضطر عبد الناصر للاستجابة لرجاءات الشفاعة الـتى سـيتقدم بها بعض القادة، وكان موقف سيد قطب، ورفضه استجداء العفو ثم إعدامه هى ما أعطته الشهرة المدوية وكللت موته بتاج الشهادة..

وقد أصبح "معالم الطريق" هو الذى يلهم كل المجموعات الرافضة ومع أن المضامين الثلاثة التى قام عليها ألا وهى: الحاكمية الإلهية والعبودية لله والجاهلية – ليست جديدة تماماً، فقد قالها المودودى من قبل إلا أن الجديد هو حُسن تقديمه وصياغته والبرهنة عليها. لا بأدلة منطقية أو علمية فهذا ما يستبعد فى مثل هذا الكتاب، ولكن بنصوص أعطيت بريقا ليس لها..

وأصبح الكتاب وثيقة ملتهبة..

والنقد الرئيسى الذى يوجه لفكرة "الحاكمية الإلهية" – وهى واسطة **العقد فى فكر سيد قطب – هو أنها تجريد للعقيدة عن مضمونها العملى، وإعلاء لهذا التجريد، بحيث يأخذ معنى آخر يختلف عن المعنى الذى تقدمه العقيدة فى مضمونها العملى، ويأخذ طابع الشعار، أو حتى الوثن.**

"فالحاكمية الإلهية" دعوى جذابة تبدو وكأنها ثورة كاسحة، وتغيير شامل..

فإذا قلنا: وماذا تعنيه الحاكمية الإلهية "عملياً" ؟ أو: كيف يمكن لها أن تحقق ثورتها الكاسحة؟ لما وجدنا شيئاً فى مائتى صفحة من صفحات "معالم فى الطريق" إلا هذه السطور :

"ودين الله ليس غامضاً ومنهجه للحياة ليس مائعا فهو محدد بشطر الشهادة الثانى "محمد رسول الله" فهو محصور فيما بلغه رسول ﷺ من النصوص فى الأصول، فإن كان هناك نص فالنص هو الحكم، ولا اجتهاد مع النص، فإن لم يكن هناك نص، فهنا يجىء دور الاجتهاد، ومن أصوله المقررة فى منهج الله ذاته، لا وفق الأهواء والرغبة: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾. {59 النساء}..

والأصول المقررة للاجتهاد والاستنباط مقررة كذلك – ومعروفة وليست غامضة ولا مائعة – فليس لأحد أن يقول لشرع يشرعه هذا شرع الله.. إلا أن تكون الحاكمية العليا لله، وأن يكون مصير السلطات هو الله سبحانه لا (الشعب) ولا (الحزب) ولا أى البشر" انتهى.

فإذا كان هذا هو دين الله ومنهجه فى الحياة على ما قال فإن كل الفقهاء المسلمين السلفيين يقولونه، وليس فيما جاء به أى تجديد.

والنتيجة العملية: أن ليس فى كل الحماسة والعاطفة والثورة أى إضافة أو تجديد عن المذهب الإسلامى التقليدى..

وقد يسأل سأل: إذا كان الأمر كذلك فلماذا ننقد فكره ؟..

السبب: أنه لم يشر إلى هذا التطبيق التقليدى إلا خلال عشرة سطور وسط مائتى صفحة، وأما الباقى كله فكلام يوحى بأن تطبيق الحاكمية غير ذلك البته..

وإلا فلماذا لم يكف نفسه مؤونة الحديث الطويل، إذا كانت النهاية هى هذه النتيجة.

إن "الحاكمية الإلهية" لأنها "شعار" و "تجريد" يمكن أن توحى بما هو أكثر، بل بما هو خلاف ما انتهت إليه عندما اضطر للحديث عن الفحوى والمضمون. بل يمكن أن يصبح وثنا يعبد فى حد ذاته دون أى حكمة أو مضمون.

وعمليا فإن كلمة "الحاكمية الإلهية" كانت وراء استغلال الدهاة.. وضلال السذج: فقد استغلها أدهى الدهاة عمرو بن العاص عندما رفع المصاحف على أسنة الرماح ليعلى باطل معاوية على حق على. وانخدع بها الخوارج فخذلوا عليا وهو أتقى التقاه ومكنوا معاوية من الانتصار بحجة "لا حكم إلا لله".. "حكمت الرجال فى دين الله" !!.

وعنــدما بعثت هــذه القالة تكــررت المأســاة واســتغلها بعض الأفــراد الأذكيــاء للسيطرة على شراذم من السذج وتحكموا فيهم..

فإذا كانت الشعارات من نوع "الحاكمية الإلهية".. "العبودية لله" تكسب الجموع وتثير الحماسة فإنها عمليا لا تعنى إلا الضلال والانحراف عندما يأتى الأمر للتطبيق. ولو انتصرت دعوة سيد قطب رحمه الله لأوجدت أسوأ الطغاة الذين يفرضون ضيق الأفق والغباء والتعصب و "اللاعقل" على الناس جميعاً.

وإذا كانت "الحاكمية الإلهية" تعـنى: تحـريم ما حـرم اللـه، وتحليل ما أحل اللـه، والحكم بما أنزل الله.. فمن الخير أن يقال هذا.

وقد قالتها أم الدعوات الإسلامية فى العصر الحديث "الإخـوان المسـلمون" فى مقدمة شعاراتهم "الله غايتنا.. القرآن دستورنا.. الرسول زعيمنا".

وقالة أخـرى مضـلة هى "العبودية للـه" فما المقصـود بها عمليـا؟.. لأنها عقيـديا ليست محل خلاف..

فإذا أريد بها ألا يكون هناك أرباب من البشر يحلون ويحرمون.. فهذا ما تضــمنته دعوة الإخوان وما أشرنا إليه.

وإذا كـانت تعـنى ألا يكـون هنـاك "شـفاعة" أو "ولايـة" مع اللـه.. فهـذا ما قالته الوهابية وما أقامت عليه دعوتها..

وإذا كانت تعنى أن تتأصل فكرة العبودية فى النفوس وتتغلغل فيها وتكون دائماً نُصْبَ العيون.. فهذا شىء أقرب إلى الرجاء مما هو إلى التحقيق؛ لأن الله تعالى أوجد فى نفوس البشر ما يشغلها من شهوات وغرائز، وسلط عليها الشـياطين، وحرمها من نقاء وصفاء الملائكة

وفى عهد الرسول استشعر هذا المعنى الصحابى "حنظلـه" وظن أن النفـاق قد تطرق إليه فذهب إلى الرسول وفى طريقه قابل أبا بكر الـذى سـأله عن حاله فقـال" "نافق حنظله" ولما استفهم منه أبو بكر عن الحقيقة ذكر له أنهم يكونـون عند رسـول الله ﷺ وقد تملكهم التقى ثم يئوبون إلى زوجـاتهم فتتملكهم الشـهوات، وعندئذ أقر أبو بكر بـأن هـذا ما يحـدث لـه، فـذهبا إلى رسـول الله ﷺ وعرضا عليه الأمر **فقال: "لو تكونون عند أهلكم كما تكونون معى لصـافحتكم الملائكـة! ولكن سـاعة.. وساعة..".**

وليس ما هو أكثر دلالة من هذا الرد المعجز البليغ..

فالنفس الإنسانية لا يمكن أن تخلص تماماً من شواغل الدنيا..

وحسبها أن لا تبعد عما سنه الله تعالى لها..

أو أن توجه مشاغلها لخدمة الأهداف الإسلامية..

وهـذا هو ما كـان يحـدث لعمر بن الخطـاب عنـدما كـان يحسب فى صـلاته "عطـاء البحــرين"، وقيــادة الجيــوش الخ... مما كــان يهيمن على نفسه من قضــايا المجتمع الإسلامى.

وقد رأينا كيف أن المـودودى حـاول أن يحقق هـذا المعـنى عمليا فى المجموعة التى بدأ بها جماعتـه، ولكن غلبت عليها الطبيعة البشـرية كما لابد أن يحـدث بعد فـترة من الزمن.

ولم أجد فى كتاب "معالم فى الطريق" بأسره إشارة واحدة إلى "العقل"!..

وهى سمة يتسم بها دعاة "الحاكمية الإلهية"..

أما العلم؛ فإن الإشارة التى تضمنها الكتاب: هل نحن أعلم أم الله تعالى!. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾.

أما الآية:﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾. التى يحتج بها أنصار العلم، فإنه أعادهم إلى صدر الآية: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾. {9 الزمر}..

فنسفت حجتهم نسفا..

أما الشعب، فقد صب عليه جام غضبه، ورفض أن يكون له من الأمر بشىء.. لأن الأمر كله لله..

وأما الإنسان الذى جعله الله خليفة فى الأرض وأسجد له الملائكة وتقلد الأمانة التى عجزت عنها السموات والأرض والجبال فلا وجود له، فقد استغرقته تماماً العبودية لله.

ونتيجة لهذه التصورات عرض لنا سيد قطب مجتمعين :

مجتمع إسلامى.. ومجتمع جاهلى.

ولا توسط بينهما :

وكل المجتمعات الحديثة – إسلامية وغير إسلامية – جاهلية.

لأن المجتمعات الإسلامية لا تحقق عمادى دعوته: الحاكمية الإلهية.. والعبودية لله.

فهى جاهلية.. حتى وإن ادعت الإسلام..

* * *

إذا كان سيد قطب قد بعث أفكار المودودى، ومن ثم فلا تعد جديدة، فإن الجديد الذى يمكن أن ينسب إليه هو تصوره للجهاد، وأنه لم يكن للدفاع كما يذهب إلى ذلك "المنهزمون" كما ارتأى. وإنما هو أداة الإسلام لحمل رسالته وتوصيلها للعالم أجمع، وهو التصور الذى أدى لظهور جماعة الجهاد، وأثر أثراً كبيراً على فهم هيئات إسلامية لمضمون الجهاد وكان للأسف الشديد – مضمونا يشطح بالجهاد بعيداً عن حقيقته ويحمله ما لا يحمله، بل ونقيض ما يحمله[50].

***

- 3 -
الإمام الخمينى وولاية الفقيه

من بين كل الحركات التى ظهرت فى الدول الإسلامية فى العصر الحديث تعد الحركة التى قادها الإمام آية الله العظمى الخمينى الوحيدة التى تستحق بجدارة اسم "الثورة" وهى بهذا تختلف تماماً عن كل الانقلابات التى تعرض لها العالم الإسلامى/ العربى وقام بها ضباط للاستحواز على السلطة ولما كانت حركات سفاح ليس لها نظرية أو شرعية تنتسب لها فإنها تنسب إلى تاريخ وقوعها فيقال ثورة شهر كذا... وليست هى من الثورة فى شىء.

لقد قلنا فى مناسبات سابقة إن الثورة لابد أن يكون لها نظرية أو عقيدة أصيلة، متكاملة وليست ملفقة أو مطلبيه. ولابد أن تشترك فيها اشتراكاً فعليا جماهير

50 **(50) لقد عالجنا هذا الموضوع فى كتابنا "الجهاد" – دار الفكر الإسلامى سنة 2002.**

عريضة. ولابد أن تستهدف تغييراً جذرياً يشمل الاجتماع والاقتصاد والسياسة. والانقلابات العسكرية التى حدثت فى العالم العربى والإسلامى لا يتحقق فيها مقوم واحد من هذه المقومات. ولهذا لا تعد ثورات. ولكن الحركة التى قام بها الإمام الخمينى تعد ثورة توافرت فيها المقومات الثلاثة للثورة فقد جاءت بنظرية جديدة تستلهم الفقه الشيعى وتطرح النظام المدنى الذى كان سائداً. واشتركت فيها – بل قامت بها – جماهير عريضة جابهت بطش القوة المسلحة. وأدت إلى تغيير كاسح طوى الصفحة السابقة عليه وجاء بأوضاع جديدة فى الحكم والاقتصاد والاجتماع.

من أجل هذا فإن ما حدث فى إيران هو ثورة..

ولكن ليس معنى هذا أن تكون الثورة رشيدة أو صائبة. فالحركة التى قادها لينين كانت ثورة إذ كان لها نظرية، واستهدفت تغييراً واشتركت فيها جماهير ولكن ما تورطت فيه الثورة من أخطاء رغم إنجازها أدى فى النهاية إلى السقوط والتحلل.

واليوم تقف الثورة الإسلامية الإيرانية موقفاً حرجاً وتتجاذبها القوى المتعارضة. ويمكن أن يحدث فيها ما حدث للاتحاد السوفيتى. وإن كنا نأمل أن توفق فى الخروج من مأزقها..

وإيران دولة كبيرة واسعة المساحة كبيرة السكان لها تاريخ عريق يتمثل فى الحضارة الفارسية التى كان أبرز ملوكها "كورش" وكسرى الذى قد يطلق على ملوكها كما يطلق لقب فرعون على ملوك مصر القديمة وعندما ظهر الإسلام كانت فارس تسيطر على العراق وتصبغه بالصبغة الفارسية. ولكن الإسلام هزم الفرس فى معارك شهيرة وقضى على النفوذ الفارسى ثم لاحق فارس فى أرضها. ولكن معظم الفرس اعتنقوا الإسلام وأصبحت عواصم إيران منارات للفكر الإسلامى فى الحديث والفقه والتفسير.

ومع أن الإسلام أعاد "خلق" هذه المنطقة، وأحل الآداب والثقافة والفكر الإسلامى محل الثقافات الزرادتشية القديمة، إلا أن هذا لم يمح تماما الرواسب القديمة، خاصة وأن التطورات السياسية جعلت لإيران أهمية عندما ازدهرت الدعوة الشيعية فيها وبدأت الثورة على الخلافة الأموية فيها، ومع أن التطورات السياسية انحرفت بها إلى العباسيين، فإن هذا لا يضائل من أثر الفرس فى بناء الدولة الجديدة، ولم يحل دون أن يكونوا أركانها بدرجة حملت الرشيد على القيام باستئصال البرامكة بعد أن كاد نفوذهم أن يعادل نفوذه.. ولم تعدم شاعراً مثل مهيار يفخر على العرب:

قومى استولوا على الدهر فتى ... ومشوا فوق رؤوس الحقب
عمموا بالشمس هاماتهم ... وبنوا بنيانهم بالشهب
وأبى كسرى علا إيوانه ... أين فى الناس أب مثل أبى
قد نسبت المجد من خير أب ... وقبست الدين من خير نبى
وضممت الفخر من أطرافه ... سؤود الفرس ودين العرب

ولا بأس بهذه الأبيات، فنحن لا نستطيع، ولا نريد، أن نحرم شعباً من أن يتحدث بمفاخره، ويعتز بأمجاده القديمة، ما دام لا يفرض الماضى على الحاضر أو يعلى الذاتية على الموضوعية.

واعتورت إيران ما اعتور بقية الولايات الإسلامية خاصة وأنها تلاصق دولا قوية كالأفغان والهند والترك.. وروسيا حتى انتهى بها الحال إلى ظهور الدولة الصفوية فى القرن السادس عشر وهى التى عمقت المذهب الشيعى الجعفرى أو الأثنا عشرى وجعلته مذهب الدولة. ونشأت بينها وبين الدولة العثمانية التى تمثل السُنة وتتبنى مذهب أبى حنيفة حروب طاحنة أوهنت الفريقين. وفى عهد الصفويين نشأت الأساطير الشيعية التى أصبحت مأثورات المذهب الشيعى ودعمها الصفويون لتعميق تميزها عن الدولة العثمانية.

وتدهورت الدولة الصفوية وقامت على أنقاضها الأسرة القاجارية وهى من التركمان.. وحكمت إيران فى الفترة التى تعرض فيها العالم الإسلامى بأسره

للاستعمار الأوربى ووقعت إيران ما بين الاستلحاق الروسى الذى انتزع مناطق كبيرة منها وألحقها بروسيا والأطماع البريطانية التى هيمنت على الاقتصاد وبدأ التغلغل الاستعمارى عندما احتل البرتغاليون جزيرة هرمز سنة 1507 وبدءوا بتوسيع تجارتهم مع إيران كما كانت الشركات الهولندية من أوائل الشركات التى حصلت على امتيازات تجارية فى إيران، تبعها البريطانيون، إذ حاولت شركة الهند الشرقية السيطرة على تجارة الحرير، واستطاعت فى عام 1571 أن تحتكر كل تجارة الحرير الإيرانية. ونشبت فيما بعد منافسة حادة بين هولندا وبريطانيا، إذ حصلت هولندا على امتياز يبيح لها الاحتكار التام للتجارة الخارجية الإيرانية (التصدير والاستيراد) وذلك فى عام 1623.

أما روسيا القيصرية التى تأخر فيها النمو الرأسمالى، فقد بدأت سياستها الاستعمارية ضد إيران فى القرن الثامن عشر، ولم تلبث أن فرضت اتفاقيات مجحفة على إيران، وخاضت معها حروبا غير متكافئة كانت دائما وسيلة تهديد وضغط على البلاط الإيرانى الضعيف. ففى عام 1722 فرضت روسيا اتفاقا ضمت بموجبه مدينتى دربند وباكو وملحقاتها حتى سواحل بحر الخزر، وفى عام 1783 وضعت روسيا منطقة كرجستان تحت سيطرتها وحمايتها.

ومنذ أوائل القرن التاسع عشر، تركزت المنافسة الاستعمارية من أجل السيطرة على الاقتصاد الإيرانى بين بريطانيا وروسيا القيصرية، إلى أن عقدت اتفاقية "تركمان جاى" عام 1828 التى قسمت البلاد إلى منطقتى نفوذ: بريطانية فى الجنوب وروسية فى الشمال، وذلك لقاء حصة قيمتها (5 %) فقط من الرسوم الجمركية تدفع للدولة المركزية[51].

وفى مارس 1890 منح ناصر الدين شاه امتياز احتكار التبغ الإيرانى وبيعه فى جميع أنحاء إيران وخارجها لشركة بريطانية لمدة خمسين عاما، وكانت الاتفاقية تمس الاقتصاد الإيرانى ومصالح مئات الألوف من المزارعين والتجار لهذا عم الاستياء واستصرخ السيد جمال الدين الأفغانى المرجع الدينى الأعلى الميرزا أحمد حسن الشيرازى الذى أصدر فتوى بتحريم التبغ فلبت الجماهير نداءه. ووصلت مقاطعة التبغ قصر الشاه نفسه. واضطر الشاه إلى التراجع. وكان هذا أول انتصار حقيقى للحركة الوطنية الإيرانية على الاستغلال الأجنبى ومهد السبيل للثورة الدستورية.

وتركزت المطالبات الشعبية حول تقليص سلطان الشاه وإجراء إصلاحات اقتصادية جذرية. وفى سنة 1896 اغتيل الشاه ناصر الدين (قيل من قبل أحد اتباع جمال الأفغانى) وارتقى العرش مظفر الدين شاه الذى اتسم حكمه بالتنازلات لروسيا حينا وإنجلترا حينا آخر مما عمق التغلغل الأجنبى والسيطرة على الاقتصاد الإيرانى "وحدث وقتئذ أن نشرت صورة لأحد المستشارين الأجانب فى إحدى الحفلات التنكرية بملابس رجال الدين وفى الوقت نفسه فإن السلطة قمعت بعض التجار فى إحدى المظاهرات بعنف ووضعت أرجلهم فى "الفلقة" فثارت الجماهير وبدأ أول تحصن "بست" أى لجوء جماعى إلى أحد مشاهد آل البيت فى إيران ففى 13 ديسمبر 1904 تحصن عدد كبير من رجال الدين والتجار فى مشهد الشاه عبد العظيم (أخى الإمام موسى الكاظم) مطالبين بإقامة دار للعدالة، كان عاشوراء فى تلك السنة يوافق السابع من مارس 1905، وسرعان ما اتضح الوجه الدينى للحركة من انضمام اثنين من كبار علماء الدين إليهما هما سيد محمد الطباطبائى وسيد عبد الله البهبهانى، وسمى هذا التحصن بالهجرة الصغرى، وفى 12 ينايرـ1906 أعطى الشاه وعدا بالاستجابة لمطالب الأمة، لكنه لم يف بوعده، كما بدأ عين الدولة من ناحية أخرى فى اضطهاد كبار رجال الدين وتفريقهم فنفى آقا سيد جمال وتصدى لعدد من الطلاب الدينيين وقتل بعضهم كما قُتل سيدان والقرآن فى أيديهما وأخلى الشوارع وركز فيها قوات الجيش بينما ظل عدد كبير من الناس متحصنين فى "مسجد شاه" ووجه سيد طباطبائى خطاباً شديداً إلى عين الدولة "أين العهود والوعود؟؟ تعلمون جيداً بأمور الدولة الخربة وتعلمون أن صلاحها ينحصر فى تأسيس مجلس نيابى يوحد بين

---

[51] (51) انظر تاريخ الحركة الثورية فى إيران. فاضل رسول ص12.

الحكومة والأمة مع العلماء" وفى 21 يوليه1906 بدأالتحصن الآخر، وخرج التجار فتحصنوا فى معسكر كبير أمام السفارة البريطانية بينما زحفت العناصر الدينية فى جموع كبيرة على مدينة قم "الهجرة الكبرى"، كانت الحركة شاملة ومنظمة كما كان من العسير جداً على قوة البوليس أو رئيس الوزارة أن تتصدى لها، ويشوه بعض المؤرخين الحركة بأنها كانت من تدبير السفارة البريطانية ضد النفوذ الروسى، لكنه زعم واضح الافتعال ولم يجد مظفر الدين شاه بداً من الرضوخ، فأصدر فرماناً بتكوين مجلس نيابى منتخب وسرعان ما تمت الانتخابات وافتتح أول مجلس نيابى (7 أكتوبر 1906) ونظرة فاحصة إلى أعضاء هذا المجلس تبين كيف أن الجناح الدينى قد اجتاح الانتخابات بنجاح كبير. ولم يلبث مظفر الدين شاه أن توفى فى أول يناير 1907 وتولى مكانه ابنه محمد على قاجار عرش السلطنة" [52].

ولى محمد على عرش السلطة وكان عدواً لدوداً للديمقراطية قدر ما كان عميلاً لروسيا فهاجم المجلس بفرقة القوزاق التى كان يشرف عليها ضباط روس وقصفوا المجلس وقبضوا على من وجدوه من أعضائه فتحركت الجماهير فى تبريز وأصفهان وكيلان وغيرها وزحفت على طهران ولما لم ينجح فى قمع هذه الحركة التجأ فى 16 يوليوسنة 1909 هو وخمسمائة من حرسه الخاص إلى السفارة الروسية بعد أن وضع يديه على مجوهرات الأسرة المالكة.

وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى كانت كل المعسكرات المتقاتلة تتصارع على أرض إيران. كان هناك الإنجليز والروس والألمان والأتراك أيضا مما أدى إلى ظهور الثورات فى بعض المناطق مثل جيلان (كيلان) وهى المنطقة التى تغطيها الغابات فى الشمال الإيرانى، ومن ثم يطلق عليها ثورة الغابة إذ استطاع إيرانى قدير نشأ نشأة إسلامية ثم تأثر بالأفكار الاشتراكية استثارة الفلاحين فى هذه المنطقة ورزق نصيراً له اتجاهات سوفيتية.. فنجحا فى إعلان جمهورية كيلان السوفيتية – ولكن من سوء حظ الجمهورية. أن ثورة أكتوبر نشبت فى روسيا وجعلتها تتخلى (ولو مؤقتا) عن أطماعها فى إيران فسحبت القوات الروسية التى كانت تناصر جمهورية كيلان مما مكن السلطة المركزية فى طهران أن تقضى عليها. خاصة وقد تولى ذلك قائد جديد برز على الساحة الإيرانية. عرف بالجرأة .

* * *

أييدهم كلما قرب ميعاد عودة الخمينى ورفضوا فكرته فى ضرورة اشتراك ممثلى الشعب فى الاحتفال بالخمينى – وقصروا ذلك على رجال الحوزة

وفى سبتمبر سنة 1979 توفىطلقانى بصفة فجائية، وأراح ذلك الخمينى من قائد دينى كبير، وفى الوقت نفسه يعارض دائماً الأسلوب الذى انتهجه الخمينى.

وكان هناك مجموعات أخرى من المفكرين والمكافحين السياسيين، القوميين والوطنيين والاشتراكيين. كما أن المنظمة التى قامت بدور كبير فى تعبئة الشعب الإيرانى للثورة. مجاهدى خلق – كانت غريبة على جو "الحوزة" ولها أراء غير تقليدية عن الإسلام.

ولكن...

كان الشخص الوحيد الذى تهيأت له المقومات التى يتطلبها الموقف هو الخمينى.

وقد كان فى حوزة قم من هم أعرق تاريخاً وأكثر علماً وأعظم شهرة من الخمينى. **ولكن توفر فى الخمينى الصلابة فى التعامل.. والوعى الثورى بصورة لم تتوفر لدى أقرانه ممن كانوا يؤثرون الاعتدال ويقنعون بنصف الطريق. ويخافون مغبات الثورة. كان الخمينى صلبا لا يلين ومؤمنا بالثورة.** ويثبت لنا التاريخ أن الثورة لا تسلم نفسها إلا لمن لا يشرك بها، ومن يدفع

---

[52] **(52) الثورة الإيرانية (الجذور – الأيديلوجية) للدكتور إبراهيم الدسوقى شتا ص 48-94 طبعة الوطن العربى بيروت 1979.**

مهرها الغـالى. وكـان الخميـنى هو هـذا الثـورى الـذى له من الصـلابة والإقـدام وعـدم الخوف من النتائج ما يجعله يطلب الثورة ويقبل طواعية دفع ثمنها.

وظهر ذلك فى خطاباته حتى لقبوه بمحطم الأصنام وفى دعوته الشـعب للثـورة وتنديده الصريح بالشاه وسياسـته ودعوته الجمـاهير عـدم الالـتزام بإحكامه وقراراتـه، وجاء هذا كله على أسس دينية بينة. ودعا فيها الفقهاء وآيات الله إلى اطـراح "التقيـة" التى كانت أبرز سمات سلبية الشـيعة فـترة غيبة الإمـام وقـال التقية حـرام، وخـاطب الشاه.

- يا سيادة الشاه..

- يا جناب الشاه..

- أيها التعس..

أيها المسكين، خمسة أربعون سنة مرت من عمرك. فكر قليلاً تـدبر قليلاً، قـدر عواقب الأمور قليلاً أعتبر قليلاً اتعظ بوالدك.

- جعلوا الشعب الإيرانى أكـثر ذلة من كلاب أمريكا إذا داس أحـدهم كلبا أمريكيا بعربته لن يسـلم من العقـاب. حـتى شـاه إيـران لو داس كلبا أمريكيا لن يسـلم من المساءلة لكن لو أن طباخاً أمريكيا داس الشاهنشاه فليس لأحد حق التعرض له.

- نريد الحاكم الذى لا يميز بين الناس، الذى ينظر إلى أسرته وإلى الناس نظرة واحدة وإذا سـرق ابنه قطع يـده، وإذا تـاجر أخـوه أو أخته فى الهـيروين أعـدمها لا أن يعـدم أحـداً من أجل عشـرة جرامـات من الهـيروين فى حين أن أخته عنـدها الأطنـان وتستورد الأطنان لحسابها.

ودعا فقهاء الشيعة..

"التقية حرام، وإظهار الحقائق واجب مهما كانت. إن التقية تتعلق بالفروع ولكن حينما تكـون كرامة الإسـلام فى خطر وأصـول الإسـلام فى خطـر، فلا مجـال للتقية والسكون.

والله إن من لا يصرخ آثم. والله إن من لا يشكو مرتكب كبيرة.

* * *

على أن هذا ليس هو كل ما قدمه الخمينى...

إن الخمينى كان هو الفقيه الذى أخرج النشاط الشـيعى من تقوقعه فى انتظـار الإمام الغائب، إلى مجال العمل الثورى بفضل إصراره على نظرية "ولاية الفقيه".

والفقه الشـيعى مجمع على أنه لا يمكن النهـوض بقضـية الحكم ما دام الإمـام غائبا. لأن الحكم هو اختصاص الإمام ولا يجوز لأحد مشاركته. وعنـدما يغيب الإمـام فلا يمكن ممارسة مسئوليات سياسية عليا.

ومن هنا ظهـرت فكـرة "نيابـة" الفقيه وتقبلها بعض العلمـاء بينما تـردد فيها آخرون. ومن تقبلها فإنه حصرها فى أداء الواجبـات الـتى لا يسـتقيم الـدين إلا بهـا، أى القضاء والحدود وصلاة الجمعة.

وعندما أراد الشاه إسماعيل الصفوى إقامة الدولة الصفوية ادعى أنه كان يسير مع مجموعة من رفقائه الصوفية خارجين للصيد فى منطقة تبريز، وعندما مـروا بنهـر، طالبهم بالتوقف عنـده وعـبر هو النهر بمفـرده ودخل كهفـاً، ثم خـرج متقلـداً بسـيف، وأخـبر رفقـاءه أنه شـاهد فى الكهف صـاحب الزمـان وأنه قـال لـه: "لقد حـان وقت الخروج"، وانه أمسك ظهره ورفعه ثلاث مرات ووضـعه على الأرض وشد حزامه بيـده ووضع خنجراً فى حزامه وقال له: "اذهب فقد رخصتك".

وادعى بعد ذلك أنه شاهد الإمـام على بن أبى طـالب فى المنـام، وأنه حثه على القيام وإعلان الدولة الشيعية.

كما أن الشاه طهماسب استقدم المحقق الكركى من جبل عامل الـذى كـان قد آمن بنظرية الإنابة – ودعاه إلى تبريز ليكون المرجع، وعندما وصل قال له الشــاه أنت أحق بالملك لأنك النـائب عن الإمـام وأنا أكـون من عمالك أقـوم بـأوامرك ونواهيـك" وقبل الكـركى وأعطى الشـاه إجـازه لحكم البلاد بالوكالة عن نفسه باعتبـاره نائبا عن الإمام المهدى.

ولكن هذه السـابقة لم تظفر بتأييد علمـاء الشـيعة لما يمكن أن تسـفر عنه من نتـائج، وإذا جـازت الإنابة فيمكن عندئذ للفقيه أن يلى الأمـور. وإذا جـازت الوكالة عن الإنابة فيمكن أن يحكم الملوك ولا يخلو هذا أو ذاك من المخاطر. ولكن الحاج الموقف دعا أخـيراً الفقيه أحمد بن محمد مهـدى الـنراقى (تـوفى 1245) لإحيـاءفكـرة ولاية الفقيه وقـال بصـراحة **"كل ما كـان للنـبى والإمـام فيه الولايـة، وكـان لهم، فللفقيه أيضاً ذلـك. إلا ما أخرجه الـدليل من إجمـاع أو نص أو غيرهمـا". (عوائد الإمام فى بيان قواعد الأحكام).**

ولكن تطبيق ذلك عمليـاً لم يكن متاحـاً ولعل الفقهـاء أنفسـهم لم يكونـوا على استعداد له لـذلك فقد ظهر الشـيخ محمد حسـين النـائينى فى بداية القـرن العشـرين وأصـدر كتابه "تنبيه الأمة وتنزيه الملـة" الـذى دعا فيه إلى تقييد سـلطة الحـاكم عن طريق الدستور الذي يجعل الشعب يشارك فى السـلطة. ونجد عنـده أقـوى دفـاع عن الديمقراطية قدمه آيــات الله باســتثناء طلقــانى الــذي ســيظهر بعــده، وقــال "إن الديمقراطية جائزة أو واجبة، من باب مقدمة الواجب، لأن الديمقراطية سـبب للرفـاه والتقـدم والأمن. وكـذلك من بـاب الأحكـام الثانويـة، وإن النـواب خـبراء فى السياسة وينتـدبون لتحديد القـوانين الثانويـة. ومن بـاب الأمـور العرفيـة، وإن النـواب ينظمـون القوانين خارج دائرة الشرع. ومن باب الدفاع عن الوطن الإيرانى" [54].

تلك كـانت نقله هامة جـداً سـدت الثغـرة ما بين العجز عن ولاية الفقيـه. وفى الوقت نفسه ضرورة تقييد سلطات الحاكم حتى لا يتحول إلى مستبد وطاغوت. وكـان يمكن أن تُتابع لـولا أن ظهـور رضا شـاه العسـكرى الفظ طـوى هـذه الصـفحة بحكمه العسكرى الذى بسط إرهابه طوال مدة حكمه، ولما أراد ابنه أن يرث هـذه السـلطات ولم يكن له غشومة وفظاظة أبيه، خاصة فى سنواته الأولى – أخذ الفكر الشـيعى يعيد النظر – وعادت مرة أخرى فكـرة ولاية الفقيه باعتبارها الحـل. وتولاها الخميـنى بحيث جعلها التطبيق للحكومة الإسـلامية، ودعم نظرية ولاية الفقيه بحيث يكـون الفقهـاء هم الولاة ودلل على ذلك بالفعل والمنطق من ناحيـة، وحشد من الأخيـار عن على بن أبى طالب أو عبد الله بن جعفر الصادق وتوجيهه المعروف لعمر بن حنظله وغـيره. وهـذه الأخبار والروايـات العديـدة هى فى نظرنا مما لا تثبت ولا يكـون لها مصـداقية، ويكـون من السذاجة بناء تنظيم سياسى عليها. ولكن يظل المبدأ فإذا كانت الحكومة إسـلامية والدولة إســلامية، فليس مما يخــالف المنطق أن يكــون رجــال الإســلام هم قادتها وولاتها.. وقد كان هذا المعنى موجوداً حتى فى أيام أسـرة قاجـار وفى دسـتور 1905 الذى أعلن الدولة إسـلامية مذهبيه وأن الفقهـاء يراجعـون القـوانين للتأكد من تطابقها مع الشرع. ولكن الخطوة التى ما كان أحد يسـتطيعها إلا الخميـنى هى أنه وحد ما بين الدولة ورجل الدين – وهذا لأن الخمينى نفسه كان رجل دولة ورجل سياسة وتـوافرت فيه خصائص "بناة الدول" "وقادة الثـورات" من ذكـاء. وصـلابة ودهـاء ومرونة وتطويع النصوص تبعا للظروف وإخضاع الظروف تبعا للنصوص إلى آخر هـذه اللعبة السياسـية الـتى هى أسـمى، وأقسـى، وأخطر اللعبـات. والـتى تتعامل مع المتناقضـات بمهـارة وذكاء، وليس معنى هذا أنه كان مجرداً من المؤثرات الدينيـة. فإنه ابن الحـوزة، ولكن المقوم السياسى فى شخصيته أقوى من المقوم المـذهبى. ولهـذا اسـتطاع أن يطـوع المذهبى وأن يقود الثورة فى بحرها الهائج حتى يصل بها إلى بر السلام.

وتقصى تاريخه فى السنوات الحاسمة من سـنة 63 حـتى سـنة 78 يـوضحهـذه الخصـائص فقد أعلن من البداية رفضه المسـاومة والمهادنة والحلـول الوسـطى ولم

---

54 **(54) تطور الفكر السياسى الشيعى: من الشورى إلى ولاية الفقيه: أحمد الكاتب دار الجديد بيروت ص409.**

يقبل فى هذا أى وساطة ورفض كل الحلول التي قـدمت للإبقـاء على الشـاه أو غـيره فكان فى هذا صورة للصلابة والثبات على المبدأ

ثم نـــرى بجـــانب هـــذه الصـــلابة مرونة وبعد نظر بل ودهـــاءً لاســـتقطاب كل المعسـكرات لـه. فعنـدما كـان فى فرنسا تحـدث عن المثقفين من غـير رجـال الـدين "أحاديث إيجابية فى عمومها حيث اعتبرهم حلفـاء ودعا أنصـاره للتعـاون معهم وأشـاد بنضالهم ضد القهر والظلم ونهب ثروات الشـعب. ووعد الخميـنى أنه فى ظل حكومته الإسلامية المنتظـرة، سـيتم إدارة القضـاء والاقتصـاد والمجتمع والحكومة بما يتفق مع آمال هؤلاء المثقفين. وقد أعلن الخمينى وقتذاك أن هدفه ليس أن يحكم رجال الـدين ولكن أن يوجهوا الشعب إلى تحديد المعايير الإسـلامية الصـحيحة. ومما لا شك فيه أن مفـــاهيم الخميـــنى عن الحرية والعدالة كـــانت غامضة وعامة عن عمد لجـــذب تأييد قطاعات واسعة من الشعب الإيرانى وقواه السياسـية. كما كـان هنـاك مـدلولات ذات توجه يسارى فى بيانات الخمينى الصادرة فى باريس نتيجة تـأثير مستشـاريه من غـير رجال الدين مثل الدكتور أبو الحسن بنى صدر. وورد على لسان الخمينى وعود ضمنيه لتحقيق التعددية السياسية والحكم الذاتى للأقاليم الإيرانية والحريـات السياسـية حـتى للقوى اليسارية العلمانية التى شاركت فى المظاهرات المعادية للشاه.

"وفى يناير 1979، قام بنى صدر وعـدد آخر من مستشـارى الخميـنى من غـير رجـال الـدين ببلـورة برنـامج من ثمـانى نقـاط. وقد تعهد الخميـنى فى هـذا البرنـامج بتحقيق اسـتقلال إيـران عن الولايـات المتحـدة، وإنهـاء التمـايز الطبقى فى المجتمع الإيرانى، وتحقيق الإصلاح الزراعى وتأميم المشروعات الاقتصـادية الرئيسـية، وضـمان حرية الصحافة والأحزاب وحق الشعب فى تنظيم الاجتماعات والمظاهرات، ومســاواة الإيرانـيين أمـام القـانون وتقـديم الـدعم لكل المناضـلين من أجل الحرية فى العـالم بأسـره. وقد عكست هـذه النقـاط مطـالب مختلف القـوى السياسـية والاجتماعية فى إيران، بما فيها القوى الإسلامية التقدمية". [55].

وبهـذه الطريقة كسب تأييد جماعة مجاهـدى خلق القوية الـتى كـان لها خـبرة طويلة فى العمل السرى والإضرابات الخ... كما كسب تأييد المثقفين الإســلاميين مثل مهدى بازرجان وبنى صدر وغيرهم مع أن الخط الـذى وضـعه لولاية الفقيه لم يكن فى الحقيقة يعنى سوى اسـتئثار الفقيه بـالحكم طبقـاً لمبـادئ المـذهب. وهو ما يعـنى أن مواقفه تلك كـانت كلها مواقف "تكتيكيــة" تطلبتها الظــروف. ولكنه بمجــرد أن تملك الأمر تماماً فإنه لم يتردد فى إبعاد كل هـذه المجموعـات، وأطلق على معظمهم لقب "المنافقين" مما يعنى الاستبعاد النهائى لهم.

وحـتى بالنسـبة لزملائه فى الحـوزة، فإنه تقبلهم على مضض ولم يسـتجب لأى رأى يختلف عما انعقد عليه عزمه. فقد كـان رأى آية الله طلقـانى انتخـاب مجلس من 2000 إلى 3000 عضو يمثل كل القوى والفعاليـات فى إيـران يكـون مخـولا لصـياغة مشروع ختامى للدستور. وجاء هذا الموقف لطلقانى متسقا مع مواقف مجاهـدى خلق والجماعـات الليبرالية واليسـارية والعلمانيـة. ألا أن طلقـانى – نتيجة ارتباطه الطـبيعى بمؤسسة رجال الدين الشيعة – أظهر مرونة حول هذه المسـألة وتراجع فقبل بترشـيح نفسه فى انتخابات مجلس خبراء مصغر مكون من 75 عضو اقترحه أصلاً رجال الدين المؤيدون للحزب الجمهورى الإسـلامى. وهو حـزب الخميـنى، بل حصل طلقـانى على أكبر عدد من الأصوات فى انتخابات هذا المجلس.

وكان آية الله منتظـرى، الـذى رشح لخلافة الخوميـنى قد حـدد فى حيـاة السـيد الخمينى إشتراطاته الفقهية والدستورية للولى الفقيه، ســواء من حيث المكانة العلمية والدينية، أو من ناحية التكييف القـانونى لاختيـاره. ففى حين يقضى الدسـتور الإيـرانى بأن أعضاء مجلس الخبراء المنتخبين، من قبل الشعب، يقـررون الشـخص الـذى يملك امتيازا خاصاً للقيـادة، ويعلنـون على الشـعب باختيـاره قائـدا، أو ينتخب المجلس عـدة

---

55 **(55) إيران صعود وهبوط التيار التقدمى الإسلامى للدكتور وليد عبد الناصر دار المستقبل العربى. ص 86..**

أشخاص من حائزى امتيازات القيادة ويعلنونهم الشعب باعتبارهم أعضاء مجلس القيادة. رأى العلامة منتظرى أن مجلس الخبراء يسمى للشعب مرشحه للقيادة، لينتخب بالاستفتاء المباشر، لأن القائد، وفقا للدستور، وبحكم الواقع، يجثم أعلى السلطات الثلاث التشريعية والقضائية والتنفيذية الأمر الذى يتفق وأطروحات المعارضة الوطنية الليبرالية التى يؤيد منطقها الاحتكام للشعب فى اختيار ممثليه، ففى تلك الحالة تستمد السلطة مشروعيتها من حكم ممثلى الشعب، وهو ما يجسده مبدأ "ولاية الجمهور"، الذى يمكن اعتباره التعبير الشرقى الأقرب لمفاهيم الديمقراطية والمجتمع المدنى[56].

ولم يأبه الخمينى لهذه الآراء وقد توفى آية الله طلقانى فى وقت مبكر – سبتمبر 1979 أما آية الله منتظرى فقد أعفى من منصبه وتوترت العلاقات ما بينه وبين الخومينى، واستبعدت فكرة ترشيحه لخلافة الخمينى وحل محله آية الله على خامئنى.

كما أن الخمينى فى قيادته للثورة تغاضى عن كثير من المحاكمات **التى حكم فيها بالإعدام على أساس أنه الإفساد فى الأرض، والمحاربة فى حين أن الأمر لا يعدو أن يكون معارضة سياسية. بحيث يمكن القول أنه كان أقرب إلى لينين منه إلى الرسول وقد كانت لديه فرصة ليظهر أن الثورة الإسلامية** تتبع تقاليد "اذهبوا فأنتم الطلقاء" أكبر مما يتبع تقاليد "لا حرية لأعداء الشعب" الذى وضعه لينين.

إن هذا كله لا ينبغى أن ينسينا أنه قاد مسيرة الثورة فى سنتيها الحرجتين 77 و 78 قيادةتكشف عن مهارة ودهاء.. وقد شجع المظاهرات والخروج إلى الشوارع بقدر ما لجأ إلى الدعوة إلى الإضراب. ومن النادر أن نجد زعيماً ثورياً إسلاميا تفهم الإضراب ودعا إليه واستفاد منه كما فعل الخمينى.

كان الشاة يتخبط وحاقت به أخطاؤه وحان الوقت ليدفع الثمن. ومع هذا فقد حاول بكل قوة البقاء على العرش، ولعله استعاد ذكرى قومة الشعب أيام مصدق وكيف خلع. ثم عاد منتصراً بفضل مؤامرة الـ **C.I.A.** ولكن المأساة كانت قد قاربت فصلها الأخير.. ولم يبق معه إلا مجموعة من الضباط الذين تدربوا فى الولايات المتحدة. واستفادوا من العهد ولم يكن لديهم من المشاعر ما يسمح لهم بالتجاوب مع الشعب. ومع هذا فقد ثار سلاح الجو، واضطرت القيادات العسكرية الأخرى إلى التزام الحياد حتى اكتسحتها الثورة والحرس الثورى فهرب البعض وقتل البعض الآخر وأصدرت عليه المحاكم الثورية أحكام الإعدام. وارتأى آخر رئيس للوزارة فى عهد الشاه وهو بختيار أن يغادر الشاه طهران فى إجازة لتنقيه الأجواء وأن يتولى الحكم فى غيبته مجلس وصاية، فهلاً تذكر هذا الطاغية فاروق الذى كان كل أمله أن يكون له وريث وطلق زوجته فى هذا السبيل.. وعندما جاء الوريث كان العرش قد طار.. وأصبح وريثه شريداً فى الأرض.. وذهب هو وملكه فى أمم قد خلت ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمْ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾. {29 الدخان}.

* * *

وصف شاهد عيان اليوم الذى عاد فيه الخمينى..

" كل المدن والشوارع والحوارى زينت بالورود ونثرت فيها أطنان النُقل. كل مكان غرق فى السعادة، كل الشفاه مبتسمة، كل مكان زين بالمصابيح فجعلته يلمع بضوء كضوء الظهيرة، كل العيون حتى عيون السيارات تتألق... كل شخص يبتسم حتى الجنود والحراس... لا أدرى فى أى دولة وفى أى عصر صارت أمة ما سعيدة مبتسمة إلى هذا الحد. لكنى أعلم أن الإيرانيين لم يكونوا هكذا سعداء مرحين منذ قرون. لم أر فى حياتى إيرانياً سعيداً إلى هذا الحد، لم أكن قد رأيت قط رجلاً أو

[56] **(56) الانتخابات الإيرانية – د/ مصطفى اللباد – ص32 كراسات استراتيجية الأهرام السنة العاشرة العدد 90.**

امرأة من هـذا الجنس الممتحن ضـاحكاً إلى هـذا الحـد... وبالنسـبة لأمة أحنت ظهرها لقرون متتالية تحت سياط أكبر جبـارى المشـرق من جنكـيز خـان إلى آقا محمد خـان ومن تيمورلنك إلى محمد رضا بهلـــوى وهى جريحة متألمـــة، ولو أنها تنفست لفـــترة تكون فترة قصيرة جداً وعابرة.. ومع ذلك لا تزال تحلم بسلطان عادل، وبالنسـبة لأمة مبتلاة تنتظر لمـدة ألف سـنة ظهـور الإمـام الغـائب حـتى يملأ الأرض عـدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، وبالنسبة لعرق عظيم أنتج واحدة من أكثر الثقافات حرية وإنسـانية على وجه الأرض وهو يعيش أسيراً فى أكثر أغوار التاريخ ظلمـة، أية حادثة يمكن أن تكـون أعظم وأكـثر إعـزازاً وأكـثر بعثـاً للـروح من أن يقـوم رجل من بين أكـثر المظلـومين تعرضـاً للظلم، وهو فى نفس الـوقت طـاهر الجبلة ومتواضع وزاهد ومتقى وفى نفس الوقت عنيد ومناضل وصـامد، ويأخذ حق هـذه السـنوات الألف من ظـالم، ويصـمد كل هـذا الصـمود، ويقاتل كل هـذا القتـال حـتى يجتث آخر جـذور الظلم من هـذا الـوطن العزيز"[57].

هكذا كانت طهران يوم الخميس 12 بهمن (أول فبراير 79) يـوم عودة الإمام".

"وتصف مجلة "طهران مصور" الصـادرة يـوم الخميس 12 بـهمن بعد الظهر من وصول الإمام قائلة: "نزل الإمام من الطـائرة، واحتضـنه ضـباط الطـيران وكـأنهم سد حوله بحيث تبادر إلى الذهن أنهم يريدونه لأنفسهم فقط ويريدون أن يحرمـوا الآخـرين منه، الضباط الكبـار والضـباط الصـغار وصف الضـباط، كـانوا قد نسـوا تمامـاً تسلسل الرتب، كان كل واحد منهم يجاهد بدوره فى المحافظة على الإمام.

لم يكن الحب فقط هو الـذى فكـرت فيه الملايين الـتى خفت للقـاء الإمـام فى طهـران فى يـوم لم يكن له مثيل فى تـاريخ إيـران.. أجـل، كـانت الثـورة الناضـجة قد تعلمت من تجـارب السـنين.. وكـانت قمة نضـجها فى الاسـتعداد لكل ظـروف ولكل خيانة، ففى نفس يوم وصول الإمام كان ميلاد حرس الثـورة "باسـدران انقلاب"، كـان الحرص البالغ فى الحصـول على السـلاح فى سـبيل أيـام منها هـذا اليـوم المشـهود... كانت المدينة خالية من قوات الجيش وقوات الشرطة.. ومع ذلك كان هنـاك أكـثر من سبعين ألف من المسلحين احتلوا شـوارع طهـران من المطـار وميـدان شـهياد (الـذى سمى ميـدان الحرية منذ ذلك اليـوم). شـمالاً وحـتى جبانة بهشت زهـرا فى الجنـوب، وفى اليوم الأول لنزول الإمام طهـران فعل ما لم يكن يجـرؤ الشـاه على فعله طـوال فترة حكمه خاصة منذ 53، فقطع شوارع طهران التى لم تشهد فى تاريخها مثل هـذا الجمع فى عربة، قطع المدينة لا فى صورة الغـازى الـذى يسـتعرض فتحـه، وليس فى طريقه إلى قصر السـلطان، بل كإمـام ورع زاهد جنـدل أعـتى نظـام عرفه التـاريخ المعاصر، متوجهاً من المطار إلى بهشت زهرا حيث دفن شـهداء الحرية يصـلى عليهم ويدعو لهم ويذكر تضحياتهم التى لولاها ما كان ذلك اليوم".

هذا الحب للإمام الخمينى، وتلك القيادة الذكية الناجحة للثورة. وإيمـان الشـعب الإيرانى بها كلها بقدر ما توضع فى مصلحة الثورة، بقـدر ما تلقى عليها مسـئولية أثقل من مسئولية الثورات أو التجـارب الأخـرى لإقامة حكم إسـلامى. فهنا تهيـأت الأوضـاع تماماً. فهل أفلحت التجربة وحققت الآمال ؟.

---

57 **(57) الثورة الإيرانية – الصراع – اللحمة – النصر للدكتور إبراهيم الدسوقى شتا دار الزهراء. ص331.**

الفصل الثانى عشر
جماعات الرافضة الجديدة

- 1 -
جماعة التكفير والهجرة

قدمت كتابات المودودى وسيد قطب الأساس الفكرى لتلك المجموعات التى أطلقنا عليها "الرافضة الجديدة".

وحدث هذا فى معتقلات عبد الناصر ورفع رايتها "شكرى مصطفى"

وتحدث أحد رفاقه فى السجن عن تطوره الفكرى خلال فترة الاعتقال فقال :

"فهذا الشاب الطالب بكلية الزراعة جامعة أسيوط قد جاء صدفة إلى السجن الحربى وهو لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره، وعذب مثل الآخرين، وكنت أراه أيام الحربى لماما ومن بعيد فلم نتجاور فى زنزانة، ولم يشملنا تحقيق واحد، ولكنه كان يلفت انتباهى بكونه واحد من أصغر المعتقلين سنا. لم اقترب منه إلا بعد إعادة التصنيف عقب توعية نوفمبر وفوجئت به فى عنبر الزعماء وهو الغلام الحدث، وفوجئت أنه لا يعرف الكثير أو القليل عن الإسلام اللهم إلا الصلاة، أما الإسلام كبعد عقائدى يجاهد من أجله فلم يكن عند هذا الشاب كذلك حتى يوم التقينا فى عنبر 12، وإن أردت أن أكون أكثر دقة أقول إنه لم يكن يبدو كذلك. وكان يسكن فى العنبر على مقربة منى، وكان هذا أدعى للأحاديث الكثيرة بيننا، كنت فى أغلبها المتحدث الذى يجيب على أسئلته الكثيرة النهمة، فهو يريد أن يعرف قصة الإخوان المسلمين وكيف اعتقلوا؟ ولماذا؟ وما هو الجهاد فى سبيل الله؟ وكيف قامت دولة الإسلام فى سالف عهدها؟ وما معنى دين ودولة؟ ومصحف وسيف؟ كان يسأل ويسأل ولا يفعل أكثر من ذلك وفيما عدا ذاك فهو مهرج مع المهرجين، ضاحك من الضاحكين فى مرح بالغ، ولا يظهر اهتماما كثيراً بشئون السياسة. وكانت ظروفه الأسرية شديدة فقد طلقت أمه، وتزوج أبوه امرأة أخرى، وتزوجت أمه رجلاً آخر، وهو لا يدرى أين يذهب بعد الإفراج عنه، وكان كثيراً ما يتندر بهذه الحالة، ويقول ضاحكاً :

هذا الاعتقال قد حل لى كثيراً من المشكلات.

وكانوا قد سمحوا لنا مرة بعمل ترفيه احتفالاً بذكرى انتصارنا فى السويس عام 1956، وطلبنا أن نمثل مسرحية، ووافقت الإدارة، وكتبت المسرحية وقام بإخراجها الأستاذ محمد حسن ومثل فيها شكرى مصطفى دور التلميذ العبيط المدلل من أبيه المعلم الجاهل، وكان اسم المسرحية أشمونى أفندى وقد أعجب بها محمد قطب كثيراً وبين لنا ما فيها من إسقاط سياسى، وكتبت بتشجيعه مسرحية "البعد الخامس" ولكن هذه قصة أخرى.

كان شكرى مصطفى من غير المهتمين بالسياسة رغم كونه معتقلاً معنا فى قضية سياسية، ولم يكن أيضاً من المهتمين بالإسلام كبعد جهادى رسالى ينبغى التضحية فى سبيله، وكان يسأل ليعرف، ثم انتابته حالة لم تلفت نظر أحد فهى كثيراً ما تحدث، ولا نفسرها إلا بسوء الحالة النفسية، فهو يصمت ويستمر فى الصمت حتى إنه لا يتبادل الحديث مع أحد بالمرة، واقتربت منه أيامها وكنت وأنا الذى أجيب على أسئلته الكثيرة أسأله عن سبب صمته المريب فلا يجيب، ويكتفى بالقعود على بطانيته محدقاً فى لا شىء ويأكل فى موعد الطعام، ويصلى مع المصلين، وإذا خرجنا إلى طابور الفسحة لا يخرج معنا ويكتفى بالجلوس وحيدا فى العنبر متأملاً محدقاً حتى يعود الناس، وتطور الأمر معه فصار يصلى فى الليل، وكان فى العنبر كثير يفعلون هذا، فانضم إليهم وصار واحداً ممن يقومون الليل.

وكففت عن سـؤاله عن سـبب صـمته واكتفيت بملاحظته عن كثب أحـاول أن أدرك ما يفكر فيه بلا فائـدة حـتى جـاء اليـوم الـذى رفض فيه التوقيع على التأييـد، وانحلت عقدة لسانه وصار مرحا ثرثاراً كما كان من قبل.

وصرت أنظر إليه ولا أتحدث متأملاً متعجبـاً أحـاول أن أفهم فينغلق علىَّ الفهم، ورآنى واقترب منى وجلس بجانبى.

وكان عنبرنا يسمح بهذا لقلة عدد من فيه – وقال لى بشوشا :

- لعلك تعجب من عدم توقيعى على التأييد[58].
- فى الحقيقة نعم.
- تريد أن تعرف السبب.
- قلت له ملحاً: لو سمحت.

وتنهد شـكرى مصـطفى تنهيـدة طويلة ملأت عينيه بـالحزن وفارقه مرحه وبـدا جاداً صارما.

قد رأيت ما حل بنـــا، وما فعلته حكومتنا معنـــا، اســتباحت أبناءها وضــــربتهم بالسـياط، وقتلتهم واغتصـبت الفتيـات والأطفـال، قد رأيت بنفسك هـذا هنا فى هـذا المكان، فى السجن الحربى كنا سويا، وضعونى مع الزعمـاء ولست كـذلك قد عـرفت بنفسك، لقد سمعت منك قصة الإسلام بالتفصيل، لم اسـمعها من قبل – وكلما ازددت معرفة ازددت غيظـاً. وأظن أنه إن لم تواتـنى الفرصة للمعارضة وإعلانها لمت كمـدا. أقل ما نفعله لحكومة مثل التى تحكمنا أن نظهر احتقارنا لهـا. هـذا أقل ما ينبغى على فعله. ولو استطعت أكثر من هذا ما ترددت"[59].

وبعد هـذا بمـدة نـرى شـكرى مصـطفى، وهو لا يقف عند هـذه الدرجـة. لأن سياسات الحكومة وتصرفات السجانين تدفعه نحو التطـرف، ونحو الإصـرار.. والمضى إلى آخر المدى.

وقد يصور ذلك هذا المشهد الذى رواه مؤلف "البوابة السوداء".

".. وجـــاء حسن طلعت ببذلته "الموهـــير" اللامعة وســـاعته الذهبية وقميصه الحريرى، وبحذاء "ساكسون" وجورب لعله اشـتراه من المـريخ فقد كـان يجلس على كرسيه أنيقا جميلاً بهى الطلعة، كأنه مصـنوع فى مصـنع، وبـدأ حـديثا سـقيما سـخيفا، تحـدث فيه عن عظمة الإله – إلهه هو – الـزعيم الـذى لا يقهـر، وكيف نجـاه الله من المهالـك، وكيف تغلب عليها وما زال يحكم ويـأمر وينهى ويقتل ويحـيى ويميت ويفعل بالعباد ما يشاء.

كنا جلوساً أمامه على الأرض بملابس الاعتقـال المصـنوعة من "الخيش" والكل مستغرق فى أفكاره وقال :

تآمرتم عليه بتحـريض من الاسـتعمار عـام 1954 فلم تفلحـوا فجـاء غـزو سـنة 1956 لإنجاح ما فشلتم فيه ونجاه الله وتآمرتم عليه فى 1965 ولم تفلحوا فجاء غزو يونيو 1967 لإنجاح ما فشلتم فيه، ونجاه الله. ألا يعطيكم هذا العظة والعبرة بأنه خالد باق لا يموت ؟.

وتمتم الشيخ محمد عبد الفتاح عارف.

- سبحان الحى الذى لا يموت.

وقال حسن طلعت الذى سمع تمتمته :

---

[58] **(58) هذه كانت خطابات أو تلغرافات تطلب إدارة المعتقل من المعتقلين إرسالها للحكومة تأييداً لها فى مناسبات ما. ولم يكن ليرى بعض المعتقلين ضيراً فى هذا. بينما يرفض البعض الآخر ومنهم شكرى مصطفى، ذلك رفضاً قطعياً.**

[59] **(59) أحمد رائف "البوابة السوداء" ص399 – 401.**

- ماذا تقول ؟.

وانفجر الشيخ عارف :

- ألا تستحى أيها الرجل من هذا الكلام الفارغ الذى تقوله ؟.

واستعد الحرس الذين يحيطون بنا إحاطة السوار بالمعصم بالفتك بمن يتمرد، وصوبت الرشاشات، وكل من الجالسين أعزل لا يحمل سلاحا إلا "شبشب" قديم متهرئ يضعه فى رجليه، ويصعب استخدامه فى الضرب، وأشار حسن طلعت إلى الحرس فى شجاعة أن كفوا، فكفوا واستأنف الشيخ عارف كلامه :

- ظلمتم الإخوان عام 1954 فعاقبكم الله عام 1956، وظلمتموهم فى عام 1965 فمسح الله بكم الأرض عام 1967، وجعلكم سخرية العالم، ولو كان عند الرئيس كرامة لاستقال ولضرب نفسه بالرصاص. ولو كان عندكم إحساس ما قلتم هذا الكلام.

وقال أبو بكر الصديق وهو شاب من المعتقلين كلاما شبيها من هذا، كل هذا وجمهور المعتقلين ساكنين قد تربعوا الأرض تحت تلك الشجرة الضخمة بين مبنى المستشفى ومبنى الملاحظة كشيوخ أثينا الحكماء، يرقبون ما يدور ولا تخلو نفوسهم من راحة لما يسمعون.

ثم قام إليه شكرى مصطفى ووجه كلاما سريعا حاسما قاسيا كطلقات نارية من مدفع أتوماتيكى حديث الصنع.

أنت كافر. ورئيس جمهوريتك كافر. ولئن أحيانى الله وخرجت من المعتقل لأقاتلنكم قتالاً شديداً، ولئن مت فسوف يأتى من بعدنا من يقضى عليكم ويدين دولتكم. ولئن هربتم من عقابنا فى الدنيا فلن ينجُ أحد منكم يوم القيامة".

قضى الأمر. ومن هذه اللحظة لم يعد هناك رأفة أو مهادنة، واستقر رأى شكرى مصطفى وأصبح الشىء الوحيد الذى يكرره.

"والله لئن كتب الله لى الخروج من هذا الجب لأقاتلنهم قتالاً ضروساً بما أستطيع حتى أغيرهم أو أموت شهيداً.."[60].

وقد كان...

فعندما خرج شكرى مصطفى. أسس الهيئة الرائدة فكرياً وعملياً من هيئات الرافضة الجديدة.

إذا كانت هذه هى المرحلة الأولى فى تطور شكرى مصطفى، فلابد أنه بعد أن خرج من الاعتقال عكف على المطالعة والتفكير بحيث أضاف إلى مبادئ المودودى وسيد قطب مبدأ "التكفير"، و "مجاهدة الجاهلية" أو "الهجرة" كما تعلق بفكرة "الخلافة" وكتب كتاباً عنها. وفى النهاية أسس الجماعة التى أطلقت عليها جريدة أخبار اليوم "جماعة التكفير والهجرة" ومع أن "أخبار اليوم" قلما تصدق وإنما تبغى الإثارة دائما، إلا أنها فى هذه التسمية رزقت الصدق وكيفت الهيئة تكييفا حقيقيا..

ولما لم يكن لهذه الهيئة، ولا لأى هيئة من هيئات الرافضة قواعد جماهيرية، أو فكر أصولى حقيقى فنحن لا نتابع التطور أو نتقصى التاريخ، وإنما نلم بأبرز القسمات والتطورات فى كل هيئة.

ومن أبرز ما إتسمت به "جماعة المسلمين" كما أطلق عليها شكرى مصطفى من واقع أقواله[61] أمام هيئة محكمة أمن الدولة العسكرية العليا (القضية رقم 6 لسنة 1977) والتى نشرت فى الصحف يوم 21/10/1979

[60] **(60) أحمد رائف "البوابة السوداء" ص573 – 574.**

[61] **(61) من كتاب ذكرياتى مع جماعة المسلمين (التكفير والهجرة): عبد الرحمن أبو الخير. دار البحوث العلمية الكويت ص9.**

- إن كل المجتمعات القائمة مجتمعات جاهلية وكافرة قطعا.

- إننا نـرفض ما يأخـذون من أقـوال الأئمة والإجمـاع وسـائر ما تسـميه الأصـنام الأخرى كالقياس.

- إن الالتزام بجماعة المسلمين ركن أساس كى يكون المسلم مسلما، ونـرفض ما ابتدعوه من تقاليد، وما رخصـوا لأنفسـهم فيـه، وقد أسـلموا أمـرهم إلى الطـاغوت وهو: الحكم بغير ما أنزل الله، واعتبروا كل من ينطق بالشهادتين مسلماً.

- إن الإسـلام ليس بالتلفظ بالشـهادتين، ولكنه إقـرار وعمـل، ومن هنا كـان المسلم الذى يفارق جماعة المسلمين كافراً.

- الإسلام الحق هو الذى تتبناه "جماعة المسلمين" وهو ما كـان عليه الرسـول وصحابته وعهد الخلافة الراشدة فقط – وبعد هذا لم يكن ثمة إسـلام صـحيح على وجه الأرض حتى الآن.

وبطلان بعض هذه المبادئ ظاهر لا يحتاج إلى دفاع فلا يدعى فرد لم يضم سوى عشـرين أو ثلاثين شـابا أن جماعته هـذه هى وحـدها – دون كل الجماعـات الإسـلامية، والمسلمين عامة – هى التى تمثل الإسـلام حقـا، وأن كل ما عـداها ضـال بما فى ذلك جماعة "الإخوان المسـلمين" الـتى تعلم فيها أول ما تعلم، و "الجماعة الإسـلامية" فى الهند التى يتفق هو نفسه معها فى كثير مما ادعـاه، وجماعة "الفنية العسـكرية" الـتى سبقتهم على الطريق.

نقول لا يدعى هذا إلا إذا وصل به الغرور درجه أعمته عن كل أثـاره من الاتـزان والموضوعية.

وقد كان لشكرى مصطفى شخصية قوية ونفوذ مؤثر على أتباعه.. وكـان يهيمن عليه هو نفسه مزاج عصبى جعل معاييره ذاتية خالصة.

من ناحية أخرى فإن فكرة رفض أقـوال الأئمة (أئمة المـذاهب) ورفض الإجمـاع والقياس هى أفكار واردة وقابلة للدراسة، ولم ينفرد بها شكرى مصطفى.

- إن كل الظاهرية (داوود وابن حزم) يرفضان القياس..

ومن أئمة المسلمين من قال إن أول من قاس هو إبليس !..

ومن أئمة المسلمين من رفض الإجماع..

أما أفكار التكفير، وإقامة الخلافة... فكلها أطياف من الهوس والهذيان..

وقد فهمت سلطات الأمن نفسية شكرى مصطفى ونقط الضـعف فيه والعوامل المؤثرة عليه، وتبينت أن المبدأيه المزعومة والتى هى طابع دعوته إنما هى دلالة على السطحية ووسيلة ليحكم بها السيطرة على أتباعه.

ولكنه فى الحقيقة على نقيض شدته وتعصـبه وشـنآن عداوته مسـاوم لا يـرفض أى صفقة إذا تصور أنها تحقق مصلحة.

وقد توصـلت سـلطات الأمن إلى هـذا إما عن دراسة لنفسـيته أو نقلاً عن بعض أعوانها الذين غرستهم فى صحابته.

وجاءت أول إشارة إلى هذه الطبيعة عندما سأل شكرى مصطفى أحد صـحابته: هل لو وجد اليهـود [الـذين يسـيطرون على العـالم فى رأيـه] مصـلحة لهم فى إقامة الخلافة فهل يقيموها.. فرد عليه: إنهم إذا وجدوا الرجل الذى يحقق لهم أغراضـهم عن طريق الخلافة فإنهم يقيموها.

ومن هذه الفكرة نبتت فكـرة: **"العمل من خلال خطة العـدو"..** وتضـخمت حـتى وصـلت إلى مسـتوى "الحسـابات الدقيقة للمصـالح المشـتركة بين الجماعة المسـلمة وبين الجاهليـة"، وأنه إذا كـانت هنـاك عملية يمكن أن تقـوم بها الجماعة

بالاشــتراك مع العــدو بحيث تكسب الجماعة 54 % فيهاويكسب العــدو 46 % منها فيجب أن تؤدى!..

وعندما حاول أحد الأعضاء الاعـتراض وإيضاح أن هـذه لن تكـون سـوى صـفقة خاسرة، فضلاً عن مخالفتها لأسس الجماعة التى تـرفض التعـاون مع الجاهليـة، وأنهم فى النهاية سيستثمرون قال أحدهم: "قبلنا أن نستثمر.. قبلنا أن نستثمر!"[62].

وكان الطُعم الذى قدمته السلطات ادعاءها أنها فى حاجة لمثل هذه الهيئة الـتى تدعو إلى الهجرة وتصرف الشباب عن المناهج الانقلابية، وأنها مسـتعدة لـدفع تعـويض عما نــال أعضــاءها فى الماضى وطلبت إليهم رفع قضــية للحصــول على التعــويض المناسب، وفى مقابل ذلك يقوم شكرى مصطفى وصحابته بالقضــاء على بقية "الفنية العسكرية" خاصة بعد أن أوقعت بينهما فتنة.

وبهــــذه الطريقة شــــنت الجماعة حملة على عناصر معينة فى المعصــــرة والإسكندرية.. وقبض إثر هذه الغارة على سبعة عشر من أعضائها البارزين؛ ولكن هـذا لم يثن الجماعة عن أن تمضى فى خطتها لتقع فى الطعم الأكبر..

هـذا الطعم هو اختطـاف الـدكتور محمد حسـين الـذهبى وزير الأوقـاف الأسـبق والشــيخ العــالم الجليــل، ومطالبة الســادات بمبلغ مــائتى ألف جنية والإفــراج عن المسجونين.

وكان الشيخ الذهبى على وجه التعيين هو آخر من يجوز لهذه الجماعة المسـاس به لأنه كان أحد العاملين على إصلاح جهاز الدعوة والدعاة والمنتقـدين للوسـائل الـتى تقوم عليها..

ولكن كان هناك عامل غلب على أى عامل آخر لـدى شـكرى مصـطفى ذلك هو رغبته المحرقة فى "البلاغ".

أى توصيل دعوته وفكرها إلى الجماهير بأى ثمن..

ويمكن لعملية الاختطاف أن تحقق له هذا..

وبالفعل فإن كل أجهزة الإعلام من صـحافة وإذاعة وتليفزيـون؛ لا فى مصر وحـدها بل فى العالم كله أذاعت النبأ، وتحدثت بالفعل عن هذه الجماعة

ولكنها تحدثت عنها كعصـابة مهووسـة.. مجنونـة..!! خاصة بعد أن قتلـوا الشـيخ وعذبوه فيما قيل..

وقد أكد هذه الفكرة (فكرة أن اختطـاف الشـيخ الـذهبى كـان لكى يتم البلاغ!!) أحد صحابة شكرى مصطفى المقربين[63].

فهل هناك سفاهة أكثر من هذه السفاهة ؟!.

إن شكرى مصطفى فى فعلته تلك أسوأ من مجنون الشهرة الذى أحـرق المعبد لكى يشتهر، فقتل إنسان.. أسوأ من إحراق معبد.

الغريب والذى يصور مدى انفصام شخصية شكرى مصطفى وغلبة الهـوس على عقله أنه كلف أحد أتباعه بكتابة بحث عن الإخوان جاء فيه إن حسن البنا ماسونى!..

وقـدم شـكرى مصـطفى هـذا البحث بكلمة اتهم فيها "بالخيانة العظمى"! قـادة الإخوان المسلمين الذين قادوا رجـالهم إلى التهلكة وفرطـوا فى أعنـاقهم وأسـلموهم لجلاديهم والمشانق والسجون.

فهل تذكر ذلك عندما أودى بنفسه وبخاصة رجاله إلى المشنقة يوم التاسع والعشــرين من مارس عام 1978م.

---

[62] **(62) المرجع السابق ص59.**

[63] **(63) المرجع السابق ص114.**

وطويت صفحة "جماعة تكفير المسلمين" الـتى رأت أنها دون بقية الهيئـات هى التى تمثل "الإسلام"، ويغلب أن تكـون كل هـذه الهيئـات أقـرب منها إلى الإسـلام ولم يبق منها إلا فلول.

***

- 2 -
حزب التحرير

لا يعرف الجيل المعاصر شيئاً كثيراً عن حزب التحرير، وربما ترامى إلى سـمعه ما قد تتناقله الصحف بين حين وآخـر، من إشـارات عنـه. معظمهـا، كما هو العهد فيما يختص بالإسلام – مشوهة، والحقيقة أن حزب التحرير كـان محاولة جـادة لوضع صـيغة إسلامية شـمولية، للنهضة بالأمـة. وقد أراد أن يتعلم من الـدعوات الإسـلامية السـابقة عليه وأن يتفادى أخطاءهـا، ويبـدأ حيث انتهت.. ولكن الإطـار السـلفى التقليـدى الـذى ألـزم نفسه به كـان أقـوى من الملكـات الإبداعية لمؤسسـيه، كما لم يكن من السـهل تجاوز الظـروف السياسـية – زمانا ومكانا – الـتى أحـاطت به إحاطة السـوار بالمعصم وكانت جـزءاً رئيسـيا من اسـتراتيجية وضـعت للمنطقـة، وحمتها نظم حاكمة ومصـالح مكتسبة عاتية. وعندما أراد الحزب الفتىّ أن يشق طريقه. وجد هذه الأوضاع كالصخرة فى مواجهته، فحاول أن ينطحها – وانطبق عليه الـبيت المشـهور (كنـاطح صـخرة يوما الخ...) وكـان أسـوأ مصـيراً من الهيئـات الإسـلامية الـتى انتقـدها وأراد أن لا يقع فيما وقعت فيه.

وإنما اكتسب حزب التحرير صفاته الخاصة نتيجة لملابسات ظهـوره وشخصـيات قادته. فقد ظهر بعد نكبه 1948 التى عاشها مؤسسوه الفلسـطينيون واصـطلوا بنارها ودفعـوا ثمنها غاليا فـتركوا أرضـهم وبيـوتهم وشـردوا فى البلاد. وكـانت هـذه الملابسة الدامية هى الدافع المباشر لتكوين الحزب، ومن ناحية أخـرى فـإن المؤسسـين الثلاثة الذين أشرفوا على تكوينه ووضعوا فكرته، تميزوا بإحكام للفقه الإسلامى ومن ثم فإن أثر الفقه كـان بـارزاً فى فلسـفة وتنظـير الحـزب. وفى الـوقت نفسه فـإن متابعـاتهم للحركات الإسلامية، وغيرها التى شاهدتها المنطقة وقتئذ جعلتهم يجددون، فعلى سبيل المثال، **لعله كان الهيئة الإسلامية الأولى التى تحمل اسم حـزب وتعلن أن عمله هو النشاط السياسى، وأنه ليس تكتلاً خيرياً أو ثقافياً الخ...**

التكوين والسنوات الأولى :

قام الحزب بفضل جهـود مشـتركة من ثلاث شخصـيات فلسـطينية نابهة جمعتها وحدة الثقافة والميول. والابتلاء. **هم الشيخ تقى الدين النبهـانى والشـيخ داود حمدان والأستاذ نمر المصرى.**

وقد عـايش هـؤلاء الثلاثة الأحـداث الجسـام الـتى تعرضت لها المنطقة وقـوى التغيـير الـتى تحكمت فيهـا، فلمسـوا آثـار الإخـوان المسـلمين الـتى كـانت بـارزة فى فلسطين خلال هذه الفترة وألموا بنقط القوة والضـعف فيهـا. وشـاهدوا تعـثر الحـزب القومى الذى أسسه فى الثلاثينات أنطون سعادة للعمل على تحقيق "الدولة العربيــة" فى إطـــار البيئة الجغرافية (ســوريا الكــبرى) ومحاولته التلفيقية فى إيجـــاد مكـــان "للمحمدية" – كما أطلق على الإسلام – فى دولته القومية – ثم شاهدوا ميشيل عفلق وإخوانه – الـذين لم يكونـوا أفضل من أنطـون سـعادة إلا قليلاً – وهم يكونـون على أنقـاض الحـزب القـومى ومن أشـلائه حـزب البعث، من أمشـاج عربية واشـتراكية وإسلامية لتحقيق الوحدة العربية واكتشف الثلاثة ما فى هـذه التكوينـات من ضـعف أو تلفيق.

وفى دمشق تلاقى الثلاثة وأخـذوا يتدارسـون أسـباب النكبة ووضع وقتئذ الشـيخ تقى الدين أصول كتاب "إنقاذ فلسـطين" الـذى ذهب إلى أن النكبة كـانت نتيجة قـرن من التخطيط الإسـرائيلى.. والتـدهور العـربى. وكـان لابد لمجابهة ذلك من إقامة أمة ذات مبدأ يبلور الغاية الواحدة.

وقد وجد الثلاثة أن مبدأ الأمة الواحدة هو "الإسلام" فالمجتمع العربى هو "أمة إسلامية حياة ودستوراً حتى لغير المسلمين من العرب" وبهذا أصبح المطلوب هو توظيف الإسلام للقيام بهذه المهمة التاريخية، بل وتجاوزها إلى دور عالمى مؤثر فى حياة العالم بأسره..

وفى عام 53 أرسل مؤسسو الحزب إخطاراً إلى الحكومة الأردنية "بتأسيسهم حزباً سياسياً" وبين اسمه ومركز إدارته وعنوانه ومقاصده والمفوضين بالتوقيع عنه، وأرفقه بالنظام الأساسى.

وفى 22/3/53 ردت الحكومة بأن الحزب غير قانونى ومنعت القائمين عليه من أى عمل وبررت ذلك بأن الحزب "يحصر الروابط بين أفراد المملكة برابطة الدين مما يدعو للتفريق بين أبناء الوطن الواحد ويخالف حكم قانون الجمعيات، ويلحق بالوطن أفدح الأضرار..".

وفى 1/6/53 رد الحزب بأنه يعتبر نفسه شخصية معنوية، قامت بالفعل ولا تزال قائمة قانوناً، بغض النظر عن عدم إقرار الحكومة لمشروعية الحزب.

وتعرض الحزب لمضايقات الحكومة. وسجن أعضاؤه البارزون أكثر من مرة. ولكنهم اثبتوا شجاعة وتصميماً. واكتسبوا تأييد قطاعات عديدة. واستطاعوا أن يكسبوا لأحد أعضائهم كرسى النيابة عن منطقة طولكرم فى الضفة الغربية..

ولكن هذه البداية المشرقة، الواعدة بنجاح وإنجاز لم تستمر طويلاً، ومع الستينات بدأ الحزب يتقلص. وتضافرت العوامل الخارجية، والعوامل الداخلية (أى من داخل الحزب) على أن يفقد الحزب جماهيره ويتقوقع فى مجموعات..

من الناحية الخارجية، فإن كل نظم الحكم فى المنطقة أعلنت عليه حرباً شعواء، وهو نبته صغيرة، وقبل أن يمد جذوره عميقاً فى أرض المنطقة. وكان الحزب يعلن عن هويته الإسلامية بكل قوة، وعن الحل الإسلامى كالحل الوحيد. وعن الطابع السياسى له.. وكان هذا كله يهدد النظم القائمة، وينذر بزعزعتها إذا سمح له البقاء، فتضافرت كل القوى عليه، وألصقت به الاتهامات المزيفة، وزج بقادته إلى السجون.

على أن حزب التحرير وجد فى الدول الأوربية مجالاً خصباً لبذر دعوته فى مختلف الدول الأوربية مستفيدين من الأوضاع الخاصة بهذه الدول التى تمنحه حرية اللجوء والعمل.

دعوة حزب التحرير :

كانت الفكرة التى فى ذهن المؤسسين للحزب هى كيف يمكن إنهاض الأمة لكى تجابه التحديات – والتحدى الإسرائيلى أحدها – وتنتصر عليها. وقد انتهى المؤسسون إلى أن ذلك لا يمكن أن يحدث إلا بروح جديدة ترفع الأمة فوق حاضرها التعس ومشاكلها وأوضاعها، وتفجر فيها قوة الإيمان. وبدون ذلك لن تستطيع الانتصار على أعداء أشد قوة وأكثر عدداً، أو اختزال سنوات التخلف أو مجاوزة العقبات والعراقيل.

واستبعد المؤسسون كل أفكار الإصلاح الجزئية (إصلاح الاقتصاد – إصلاح التعليم الخ...) لأن المجتمع كل واحد ولن يمكن النهضة بجانب منه على حدة.

وانتهى المؤسسون أيضاً إلى أن هذه الروح لن تكون سوى – الإسلام فهو "مبدأ الأمة".

ولا تخلو هذه المقدمات والنتائج من سلامة موضوعية، وقد يفضل تشخيص الحزب فيها تشخيص هيئات إسلامية أخرى.

ولكن هذا يتطلب توظيف الإسلام كروح انتهاضية، روح تغيير وتطوير، روح اكتساح، كتلك التى تملكت المسلمين أيام الخلافة الراشدة وجعلتهم يكتسحون العالم القديم.

كان المفروض أن يجهد المؤسسون أنفسهم ليقـدموا الإسـلام ثوريـاً، انتهاضـياً، ولكنهم قدموا الإسلام فقهيـاً سـلفياً. فالثقافة الفقهية المتغلغلة فى نفوسـهم والـروح السـلفية الـتى هيمنت عليهم بحكم دراسـاتهم فى الأزهـر، جعلت **إرادتهم الثورية تبعـــاً للفهم الســـلفى. وبالتـــالى حُبست فى قفص الفقـــه، ووجد المؤسسون أنفسهم مختارين أو بحكم الأمر الواقع يتخبطون فيه..**

وعندما كانت تحدث فرجه فى هـذا القفص أو عنـدما كـانوا يسـمحون لأنفسـهم بـالتحرر من الفهم السـلفى، كـانوا يـأتون بتجديـدات تشذ عن السـياق، ولكنها كـانت الاستثناء..

وما من حالة تظهر فيها مأســـاة الفهم الســـلفى، وكيف يمكن أن يجهض **أى محاولة انتهاضية، إذا تطرق إليها كحالة حزب التحريــر. فالرغبة المحرقة فى الانتهـاض والتصـدى لقـوى القهر والطغيـان تقـولبت فى القـالب الفقهى،** وفقدت كل ضرامها وحرارتها وأصبحت ترجيحات واجتهادات مذهبية..

وأصدر الحزب العديد من الكتب، والنشرات والكتيبات شرح فيها فكـرة الحـزب وعـرض أسـباب تـأخر المسـلمين كما يراها وأبرزهـا **عوامل التغشية على فكـرة الإسلام مثل :**

1. نقل الفلسـفات الهندية و"الفارسـية" ومحاولة التوفيق بينهما والإسـلام. مع وجود تناقض.

2. دس الحاقدين على الإسلام أفكاراً وأحكاماً ليست منه لتشويهه.

3. إهمال اللغة العربية التى لا يُفْهَم الإسلام إلا بها.

4. الغزو التبشيرى والثقافى والسياسى من الدول القومية الكافرة..

ويشـير الحـزب إلى المحـاولات والحركـات الـتى أريد بها إنهـاض المسـلمين وإخفاقها، ويعيد سبب الإخفاق إلى :

1) عدم فهم الفكرة الإسلامية من قبل القائمين على إنهاض المسـلمين فهما دقيقـاً لتـأثرهم بعوامل التغشـية، وأنهم يـدعون إلى الإسـلام بشـكل عـام مفتـوح، دون تحديد للأفكار والأحكام التى يريدون إنهـاض المسـلمين، ومعالجة مشـاكلهم بهـا، وتطبيقا، لعدم وضوح هـذه الأفكـار والأحكـام فى أذهـانهم، جعلـوا الواقع مصـدراً لتفكيرهم، يستمدون منه تفكـيرهم، وحـاولوا أن يؤولـوا الإسـلام ويفسـروه بما لا تحتمله نصوصه حتى يتفق مع الواقع القائم، مع أنه مناقض للإسـلام، ولم يجعلـوا الواقع موضع تفكيرهم، ليغيروه حسب الإسلام وأحكامه.

لــذلك نــادوا بالحريــات والــديمقراطيات، وبالنظــام الرأســمالى والاشــتراكى، واعتبروه من الإسلام، مع أنها تتناقض مع الإسلام تناقضاً كلياً.

2) عدم وضوح طريقة الإسلام لديهم فى تنفيذ فكرة الإسلام وأحكامه وضـوحاً تامـاً، فحملوا الفكرة الإسلامية بوسائل مرتجلة، وبشكل يكتنفه الغموض وصاروا يــرون أن دعوة الإسلام تكـون ببنـاء المسـاجد وإصـدار المؤلفـات، أو بإقامة الجمعيـات الخيرية والتعاونية، أو بالتربية الخلقية وإصلاح الأفراد، غافلين عن فساد المجتمع، وسـيطرة أفكـار الكفر وأحكامه وأنظمته عليه، **ظـانين أن إصـلاح المجتمع يكون بإصلاح أفراده، مع أن إصلاح المجتمع إنما يكون بإصلاح أفكاره ومشاعره وأنظمته وإصلاحها سيؤدى إلى إصلاح أفـراده، فـالمجتمع ليس أفـراداً فقــط، وإنما هو أفــراد وعلاقــات، أى أفـراد وأفكــار ومشـاعر وأنظمـة، كما عمل رسـول الله لتغيـير المجتمع الجـاهلى إلى مجتمع إســلامى، إذ أخذ يعمل على تغيـــير العقائد الموجـــودة بأفكار العقيدة الإسلامية، وعلى تغيير الأفكـار والمفـاهيم والعـادات الجاهلية بأفكار الإسلام ومفاهيمه وأحكامـه، ومن ثم تغيـير مشـاعر الناس من الارتباط بعقائد الجاهلية وأفكارها وعاداتها، إلى الارتباط بالعقيدة الإسلامية، وأفكار الإسلام وأحكامه**

وواسطة العقد فى أهداف الحزب هى الخلافة وإعـادة الخلافة هى الهم الأعظم وهو يرى أنه ما أن تعود الخلافة حتى يصلح كل شىء.

وفيما يلى أراءه عن بعض القضايا العامة :

الديمقراطية الرأسمالية :

هى مبدأ الدول الغربية وأمريكا وهى مبدأ فصل الدين عن الدولة، وفصل الـدين عن الحياة، "دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله" وبنـاء على ذلك فـإن الإنسـان هو الـذى يضع نظامه فى الحياة.

وهذا المبدأ هو مبدأ يتناقض مع الإسلام لأن الله هو المشرع.

وهو وحده الـذى وضع النظـام للبشـر، وجعل الدولة جـزءاً من أحكـام الإسـلام، وأوجب أن تعالج جميع شؤون الحيـاة بالأحكام الشرعية التى أنزلها. لـذلك يحـرم على المسلمين أن يعتنقوا المبدأ الرأسمالى أو أن يأخذوا أفكاره أو أنظمته، لأنه مبدأ كفـر، وأفكاره كفر، وأنظمته أنظمة كفر تتناقض مع الإسلام.

رأى الإسلام فى الحريات :

ومن أبرز أفكـار المبـدأ الرأسـمالى وجـوب المحافظة على الحريـات للإنسـان، وهذه الحريات هى حرية العقيـدة، وحرية الـرأى، وحرية الملكيـة، والحرية الشخصـية. وقد نتج عن حرية التملك النظام الاقتصادى الرأسمالى المبنى على النفعية، التى أدت إلى الاحتكارات الضخمة، والتى دفعت الـدول الغربية الكـافرة إلى اسـتعمار الشـعوب ونهب ثرواتها.

وهذه الحريات الأربع العامة تتناقض مع أحكام الإسلام، فالمسـلم ليس حـرا فى عقيدته فإنه إذا ارتد يسـتتاب فـإن لم يرجع يقتـل، قـال "من بـدل دينه فـاقتلوه"، والمسـلم ليس حـرَاً فى رأيـه، فما يـراه الإسـلام يجب أن يـراه، ولا يجـوز أن يكـون للمسلم رأى غير رأى الإسلام.

والمسلم ليس حـراً فى الملـك، ولا يصح له أن يتملك إلا ضـمن أسـباب التملك الشرعية، فليس حراً أن يملك ما شاء بما شـاء بل هو مقيد بأسـباب التملك فلا يجـوز أن يتملك بسـواها مطلقـاً فلا يصح أن يتملك بالربـا، أو بالاحتكـار أو بـبيع الخمر أو الخـنزير، أو ما شـاكل ذلك من طـرق التملك الممنوعة شـرعا. فإنه لا يجـوز أن يملك بأى طريق منها.

والحرية الشخصية لا وجود لها فى الإسلام، فالمسلم ليس حـراً حرية شخصـية، بل هو مقيد بما يراه الشرع، فإذا لم يقم بأداء الصلاة أو الصيام مثلا يعاقب وإذا سـكر يعاقب وإذا زنا يعاقب، لـذلك فالحريـات الموجـودة فى النظـام الرأسـمالى الغـربى لا وجود لها فى الإسلام، وهى تتناقض مع أحكام الإسلام تناقضاً كليا".

وإذا كان هذا هو حظ الديمقراطية بحرياتها، فلا ريب أن النظام الشـيوعى أسـوأ فهو "مبدأ كفر وأفكاره كفر، ونظامه نظام كفر، وهو يتنـاقض مع الإسـلام تناقضاً كليا وجذريا فى كلياته وجزئياته" والنظـام الملكى فى الحكم ليس نظامـاً إسـلاميا وكـذلك النظـام الجمهـورى سـواء كـان رئاسـيا كالولايـات المتحـدة. أو نظامـاً برلمانيا كما هو حاصل فى ألمانيا الغربية. والنظام الإسلامى الوحيد هو "الخلافة".

ولا يخالجنا شك أن هذه ليست أحكام الإسلام، ولكنها أحكـام الغبـاء وضيق الأفق وسوء الفهم، وهى تسىء إلى الإسلام أكثر مما يسىء إليه أشد أعدائه.

وكقاعدة عامة. فإن الحزب إما أن يتبع – اتباعاً أعمى ودون ملاحظة للملابسات – أى نص يثبت لديـه، سـواء كـان حـديثاً، أو حكما فقهيـاً أو أن يجتهد فيما وراء ذلك واجتهاده يميل للتعسف، والتضـييق، باسـتثناء فلتـات سنشـير إلى بعضـها فيما سـيلى، وقد وضع عـام 63 شـرحاً لمـواد الدسـتور الـذى يـراه بعنـوان "مقدمة الدسـتور – أو الأسباب الموجبة له" فى 457 صفحة (المواد 182 مادة) نجد فيه لكل مادة سنداً من حديث أو سابقة من أحكام الخلفاء الراشـدين، دون أى نظر إلى متغـيرات – ودون أى احتفال بإظهار المبرر الموضوعى وما فيه من دواع تقتضيه الخ...

ومن الفلتات الـتى تشذ عن هـذا الحكم مناقشة طويلة لتحـريم الاكتنـاز المـادة 130 ولو أديت زكاتـه، وكـذلك تحـريم مُـآجرة الأرض المـادة 123، وفتح بـاب التعليم للجميع "ويفتح مجال التعليم العالى مجانا للجميع بأقصى ما تيسر من إمكانيات (مـادة 165). وقد إعترف الدستور بالقرآن والسُنة وإجماع الصحابة واستبعد القيـاس من أن يكون مصدراً للأحكام ورفض إجماع المسلمين، وجلب المصـالح ودرء المفاسد ورفض العقل لأن الكلام هو عن الحكم الشـرعى أى ما غلب على الظن أنه حكم اللـه، وهو لا يكون إلا مما جاء به الوحى والعقل لم يأت به الوحى ولذلك لا يوجد دليل لا ظـنى، ولا منطقى على أن العقل من الأدلة الشرعية فلا يعتبر من الأدلة الشرعية مطلقاً. ص57 مقدمة الدسـتور وكـذلك رفض الاستحسـان والمصـالح المرسـلة.. وقد أثبت هـذا كله بحرارة وقوة وبطريقة توحى أن ما ذهب إليه هو الصواب الذى لا مراء فيه !!.

ورأى كتـاب "الفكر الإسـلامى" وهو من تـأليف أسـتاذ مصـرى فى الجامعة المصـرية، ولكنه من كتب الحـزب. أن الـرأى الـذى يسـتنبطه المجتهد **حكم شرعى على أساس أن الحكم الشرعى هو الرأى الذى يؤخذ من النص، وهو الذى يعتـبر خطـاب الشـارع ومن هنا كـان رأى المجتهد خطابـاً شـرعيا ما** دام يستند فيه إلى الكتاب والسُنة، أو إلى ما دل عليه الكتاب والسُنة من الأدلة الشـرعية. وندد الكتاب بالذين يدعون أن الحكم الشرعى هو نص القرآن أو الحـديث فقـط. ورأى أن ذلك سيوجد مسائل كثيرة لا يوجد لها حكم شـرعى وأشـفق أن "يتحكم فيها العقل فيضع الحل الذى يراه والحكم الذى يوافق هواه! ويحذر "من أن يترك للعقل أن يقـرر ما هى المصـلحة، بل يجب أن يقـرر ذلك الشـرع وحـده لأنه هو الـذى يقـرر المصـلحة الحقيقية والمفسدة الحقيقيـة" ورأى الكتـاب أنه "لا يجـوز فى حق الرسـول أن يكـون مجتهـداً" ورفض كل ما أورده الفقهـاء أو المفسـرون من اجتهـاد للرسـول يخطئ فيه فيصحح الوحى له ذلك.

* * *

إن مأساة حزب التحرير أن هذا الحزب الذى خـرج من أحشـاء النكبـة، وتعـرض لمخـاض عسـير، وحمل صـفة "التحريـر"، ولم ينقص دعاته الحماسة والإخلاص، أصـبح قفصـاً محكمـاً تسـجن فيه الجمـاهير، والأفكـار، والإرادات وكل ما يمت بصـلة إلى "التحرير" لأن دعاته لم يعملوا عقولهم، ولكن استخدموا نقولهم. ولم يعمـدوا إلى روح الإسلام الحرة الطليقة، العادلة السمحة "العقلانية" فى كل شىء، باستثناء ذات الله – وإنما لجـؤوا إلى فهم فقهى عقيم كـان هو نفسه وراء اسـتخذاء الجمـاهير.. وضـلال القادة..

ومع أن الحــزب كــان من الــذكاء بحيث يسـتبعد فكـرة العمل "الإرهـابى" أو "الجهادى" من وسـائله، قياسـاً على أنه يعمل فى "عهد مكى" فـإن هـذا لم يشـفع له فى البقاء. فحله كان محتوماً، وكان خيراً أيضاً، فـإن حزبـاً يسـتبعد العقل من تفكـيره الشرعى، عدمه خير من وجوده.

ولكن يظل مع هـذا أن المشـكلات الـتى أثارها لا تـزال هى مشـكلات السـاحة والساعة وأن الحلول الـتى عرضـها تـراود البعض لأنهـا، على خطأ معظمهـا. لم تعـالج المعالجة الموضــوعية من الآخــرين. فقد انتقد كـتيب[64] ما ذهب إليه حــزب التحرير عندما أباح تقبيل المـرأة الأجنبية ومصـافحتها.. فبـدلاً من أن يظهر الخطأ الموضـوعى فى ذلــك، فإنه أورد للــرد عليه كلمة ابن تيميــه. **"من اســتحل النظر فقد كفر بالإجماع!!"** فعرض صورة أخرى من صور الشطط، ووجهاً ثانياً للعملة نفسـها.. فقد يكون اجتهاد حزب التحرير خطأً. ولكن اجتهاد ابن تيميه أسوأ ويفتح باباً للشرور أشــنع

---

64 **(64) نعنى به كتيب "الدعوة الإسلامية. فريضة شرعية وضـرورة بشـرية" ص110 [دار التوزيع والنشر الإسلامية] وفتوى ابن تيميه مقتبسه من "منـار السـبيل فى شرح الدليل على ماذهب أحمد 2/142. أما فتوى حزب التحرير فكان نصـها "ومن قبل قادماً من سفر رجلاً كان أو امرأة، أو صـافح أحـداً رجلاً كـان أو امـرأة، ولم يقم بهـذا العمل من أجل الوصـول إلى الزنا أو اللـواط فـإن هـذا التقبيل وهـذه المصافحة ليسا حراماً، ولـذلك كانا حـالين لا شـىء فيهمـا" وجـاء فى تـبرير ذلك "الدخول تحت عموميات الأدلة لأفعال الإنسان العادية"..**

مما يمكن أن يفتحه خطأ حـزب التحريـر.. فما أسـوأ أن نفتح أبـواب محكمة التكفـير، على مصراعيها لكل صغيرة وكبيرة !.

***

- 3 -
جماعة الجهاد والجماعات الإسلامية

اشــتهرت جماعة الجهــاد عنــدما نجح خالد الاســلامبولى وزملاؤه فى اغتيــال السادات رحمه الله وسط حرسه وفى إحدى مناسبات الاحتفال واستعراض القوة.

وبقـدر ما رزق هـذا الحــدث من إذاعة ونشر لما اتسم به من جـرأة وشـجاعة و"دراماتيكيـة"، ولما انتهى إليه من مصـرع "آخر فراعنة مصـر" وصـاحب "الصـدمات والتحولات" الخ... بقدر ما ذاع وانتشر الحديث عن جماعة الجهاد.

وسالت أنهار الصـحف أحـاديث بعد أحـاديث عن هـذه الجماعة وشـيخها الكفيف عمر عبد الرحمن وكتابها الغامض: "الفريضة الغائبة" الذى اعتبر وثيقة إعدام السادات ووضعه المهندس محمد عبد السلام فرج.

ولم يـرزق كتـاب **"الفريضة الغائبـة"** انتشـارا أو ذيوعـاً لأن الجماعة نفسـها أحرقت نسخ الكتاب، ولم يبق منه إلا نسخ معدودة، ضمت إحــداها إلى أوراق التحقيق فى قضية اغتيال السادات..

وتمكن بذلك المحامون من الإطلاع عليه.

كتاب الفريضة الغائبة

قدمت إلينا إحدى دور النشر صـورة كتـاب الفريضة الغائبة المـأخوذة من أوراق التحقيق. وطلبت أن نعلق عليه ونشرته فى كتاب باسم "الفريضة الغائبة جهاد السيف أم جهاد العقل"[65].

وتعرض تعليقنا عندما طبع لمضايقات، أدت إلى حذف الكثير منه، وظهـرت أثـار ذلك فى عدم انتظام السياق، وما تخلل الصفحات من بياض..

وقلنا فى مقدمة الكتاب :

"غفر الله لصــاحب "الفريضة الغائبــة" لقد أحــاطت به وتحكمت فيه فتنة يضل فيها العليم، ويضـيق بها الحليم، وتنبهم فيها المعـالم، وتنمحى المراسـم.. فلا عجب إذا زلت الأقلام وطاشت الأحلام.

ومن قبل قتل لفيف من المسلمين "عثمان" وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، وكفروا عليا، وهو من هو، وتقربوا إلى الله بدمه !..

وقد كان العهد قريبـاً بـالنبى ﷺ والقـرآن غضا طريا والألفة والمحبة أقـرب إليهم وأمثل بهم..

ومن أجل هذا فإننا كرجال فكر نتصفح التاريخ، ونستعرض الأحـداث فى القـديم والحديث لا نرى فيما رآه صاحب الفريضة الغائبة، وما انتهى إليه إلا فصـلاً من مأسـاة التعقيد الاجتماعى عندما تتراكم الأخطاء، وتتشابك التصرفات من حل سـقيم أو إرجـاء عقيم.

ولا يعد هناك إلا القطع..

ونحن نعذره، ونلتمس له المغفرة، ولا نرى فيما ذهب إليه فكره – على خطئه – شراً محضاً، ولا فى سبيله – على شططه – سوءا خالصاً.

وإن كنا نختلف معه جملة وتفصـــيلاً، ونـــؤمن أنه لو قـــدر له ولجماعته النصر لاسـتحلوا دمـاء كل معـارض، ولأخرسـوا أصـوات كل مخـالف ولما رأوا فيه إلا فـاجراً كفاراً.

ولكننا نستلهم الإسلام وتوجيهه: "صل من قطعك، وأحسن إلى من أساء إليك".

---

[65] **(1) دار ثابت بالقاهرة.**

كما نـؤمن بحرية الفكـر، وحق كل كـاتب فى أن يكتب ما يمليه فكـره كائنا ما كـان". انتهى..

وليس فى كتــاب الفريضة الغائبة إلا القليل جــدا الــذى يعد جديــداً على فكر جماعات الرفض فهو يضم – تقريباً – مقدمة وثلاثة فصول..

ففى المقدمة يشير الكتاب إلى أهمية الجهاد وأنه: "السبيل الوحيد لعـودة ورفع صـرح الإسـلام من جديـد" وأن: "طـواغيت هـذه الأرض لن تزول إلا بقوة السـيف" وأن الإسـلام مقبـل، وأنه سـيفتح روما كما فتح القسطنطينية".

وتبدأ الفصول وهى باختصار :

الفصل الأول :

يعالج الفصل الأول "إقامة الدولة الإسلامية" وهـذه الإقامة "فـرض أنكـره بعض المسلمين وتغافل عنه البعض" والكتاب يثبت وجوب إقامتها بـأن الدولة الإسلامية هى أداة الحكم بما أنــزل الله وما لا يتم الــواجب إلا به فهو واجب ولا خلاف فى أن الحكم بما أنزل الله واجب..

ويرى الكـاتب أن إعلان الخلافة الإسـلامية يعتمد على وجـود النـواة وهى الدولة الإسلامية. ومن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية.

ويتسـاءل الكـاتب "هل نحن نعيش فى دولة إسـلامية" ويـرد بفتـوى للإمـام أبى حنيفة وبعض أصحابه حـول دار الإسـلام ودار الكفـر، ويجـزم بـأن "الأحكـام الـتى تعلو المسـلمين هى أحكـام الكفـر، وضـعها كفـار وسـيروا عليها المسـلمين" وأن حكـام المسلمين فى ردة عن الإسلام "لأنهم تربـوا على موائد الاسـتعمار سـواء الصـليبية أو الشيوعية أو الصـهيونية، فهم لا يحملـون من الإسـلام إلا الأسـماء، وإن صـلوا وصـاموا وادَّعَّو أنهم مســلمون وقد اســتقرت السُـنة على أن عقوبة المرتد أعظم من عقوبة الكافر الأصلى. وأن علماء المسلمين قد اتفقـوا على أن الطائفة إن امتنعت عن بعض واجبات الإسلام الظاهرة المتواترة فإنه يجب قتالها إذا تكلموا بالشهادتين وامتنعوا عن الصلاة والزكاة وصيام شهر رمضان أو حج البيت العتيق..".

ويجرى الكاتب مقارنة بين التتار وحكام اليوم يستشهد فيها بكلام لابن تيمية فى هـذا الصـدد. بل هو يـورد مجموعة فتـاوى لابن تيمية فى هـذا الصـدد" تتضـمن حكم مساعدتهم، وحكم الجنود المسـلمين الـذين يرفضـون الخدمة فى جيش التتـار، وحكم أموالهم، وحكم قتالهم، وأن قتـالهم ليس قتـال بغى وحكم من والاهم من المسـلمين، وحكم من يخرج للقتال فى صفهم مكرهاً الخ...

الفصل الثانى :

يعـرض الفصل الثـانى "آراء وأهـواء" بعض الآراء "لإزالة هـؤلاء الحكـام وإقامة حكم اللـه" ويفنـدها، فهنـاك من يـرى إقامة الجمعيـات الخيريـة، أو يفضل الانشـغال بالطاعة والتربية وكـثرة العبـادة، أو إنشـاء حـزب إسـلامى، أو الاجتهـاد للحصـول على المناصب بحيث تملأ المراكز بـالطبيب المسـلم والمهنـدس المسـلم الخ... ومنهم من يقـول إن الطريق لإقامة الدولة هى الـدعوة فقط وإقامة قاعـدة عريضـة، وهنـاك من يرى الهجرة أو الانشغال بطلب العلم.

والكاتب يفند هذه المذاهب كلها بمختلف التأويلات.

الفصل الثالث :

يــدلل الفصل الثـالث على أن "أمة الإسـلام تختلف عن الأمم الأخــرى فى أمر القتال" ومفتاح الفصل أن "هـذه الأمة تختلف عن الأمم الأخـرى فى أمر القتـال. ففى الأمم السابقة كان الله سبحانه وتعالى يـنزل عذابه على الكفـار. وأعـداء دينه بالسـنن الكونية، كالخسف والغرق والصيحة والريح. وهــذا الوضع يختلف مع أمة محمد . فالله سبحانه وتعالى يخاطبهم قائلاً لهم ﴿قَـاتِلُوهُمْ يُعَـذِّبْهُمْ اللَّهُ بِأَيْـدِيكُمْ وَيُخْـزِهِمْ وَيَنْصُـرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُـدُورَ قَـوْمٍ مُـؤْمِنِينَ﴾. {14 التوبـة} أى أنه على المسـلم أولاً أن ينفذ

الأمر بالقتال بيده، ثم بعد ذلك يتدخل الله سبحانه وتعالى بالسنن الكونية، وبذلك يتحقق النصر على أيدى المؤمنين من عند الله سبحانه وتعالى.

وبصدد تفصيل ذلك. يشير الكتاب إلى "الخروج على الحاكم" وهو يستشهد بما ذهب إليه ابن تيمية "كل طائفة خرجت عن شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة فإنه يجب قتالها باتفاق أئمة المسلمين وإن تكلمت بالشهادتين". ثم يناقش الفصل نقطة هامة هى "التفرقة بين العدو القريب والعدو البعيد" – وبعبارة أخرى أيهما أولى بأن توجه إليه الحرب أولاً الاستعمار.. أو الذين يحكمون بغير ما أنزل الله؟ وهو يرى الثانى. ويرد على من يقول "إن الجهاد فى الإسلام للدفاع فقط" وإن الإسلام لم ينتشر بالسيف ويرى أنه "قول باطل" ويستدل على ذلك بخطابات النبى ﷺ إلى الملوك وكذلك بآية السيف التى نسخت 114 آية من آيات الموادعة والصفح والسماح.

ويفند الفصل بعض الدعاوى التى تثبط عن القتال كدعوى أننا نعيش فى مجتمع مكى، ويرى أن "القتال الآن فرض على كل مسلم" وأن الجهاد مراتب وليس مراحل. أما خشية الفشل فإن الله تعالى يعدنا بالنصر وإدعاء عدم وجود القيادة يُسَتدْرَك بأن توكل إلى الأحسن إسلاماً..

* * *

من هذا العرض لكتاب "الفريضة الغائبة" يتضح أنه ليس فيه جديد عن مفهوم جماعات الرافضة الجديدة..

فهو – مثلاً – يهيم بالخلافة ويرى أنها ركن من أركان الإسلام. "فمن مات وليس فى عنقه بيعه مات ميته جاهلية".

والكتاب يكفر المجتمع الحديث كبقية جماعات الرفض..

ويرفض صور العمل الإسلامى البديلة كإقامة الجمعيات الخيرية، أو التربية الخ...

وهذا ما انتهى إليه قبلهم حزب التحرير، وأشرنا إليه..

وربما كان الجديد فى الفريضة الغائبة هو تعميق قضية "الخروج" على الحاكم، وأن "الحكام المسلمين أولى بالقتال من المستعمرين".

ولا يتسع المجال لتفنيد هذه الدعاوى، فهذا ما قمنا به فى الكتاب، وحسبنا الإشارة إلى النقطة الرئيسية فى جماعات الجهاد وهى "الجهاد".

فحتى لو قصرنا التعبير على أضيق معانيه وهو "القتال"..

فهل يتصور استخدام القتال للقضاء على الحكام الذين لا يحكمون بما أنزل الله !.

هل سيمكن لأى هيئة أن تؤسس جيشا كجيش الدولة فيه دبابات ومدافع وطائرات ؟!.

أو هل سيأخذ القتال شكل الاغتيالات ؟..

إن أى دارس لتاريخ الحركات السياسية يتبين استحالة تكوين جيش.. ويتبين كذلك عقم أسلوب الاغتيالات..

"فالقتال" لا يجدى كأسلوب فى اقتلاع الحكام البغاة..

وإذا أرادوا أن يتجهوا بقتالهم نحو الكفرة، وأن يفتحوا روما..

فهل سيمكنهم تحقيق الانتصار بالسيف فى عصر الصواريخ والطائرات الخ... إذا أرادوا حقا الانتصار فعليهم أن يدرسوا "التكنولوجيا" الحديثة، وأن يعكفوا عليها..

وعليهم أن يعلموا أن النصوص وحدها والعكوف عليها دون العمل لن تفيدهم فتيلاً، وإنما تفيدهم علوم واكتشافات الأوربيين والأمريكان الكفرة وأهل الجاهلية.

* * *

مع إن هذه الكلمـات المحـدودة تكفى لنسف فكر جماعة الجهـاد، فـإن الجماعة واصلت البقاء!..

واكتسب شـيخها (الشـيخ عمر عبد الـرحمن) الـذى أفلت من قضـية اغتيـال السادات شهرة مدوية..

لأن العملية عملية مناخ يتغذى على الأخطاء..

ولأن فساد النظم لا يقل عن فساد الأفكار..

وما ظلت النظم الحاكمة الفاسـدة، تتسـلح بالإرهـاب والديكتاتورية فسـتظهر أمثـال دعوات الرفض على اختلاف صورها..

رغم ما تتسم به من بطلان لأنها رد فعل للفساد، والفساد لا يولد إلا فساداً..

* * *

أدى فـرار جـزء كبـير من قيـادات الجهـاد إلى الخـارج والمحاكمـات الـتى غيبت معظم القـادة الـذين لم يتيسر لهم الفـرار، وما تلى ذلك كله من تطـورات إلى أن تستقل مجموعة وتحمل اسم "الجماعة الإسلامية" معظم قيادتها ممن فر إلى الخـارج وتعاون فصيل منها مع بن لادن فى مقاومته للغزو السوفيتى لأفغانستان وتحريرها منه كما اشـترك فصـيل آخر فى البوسـنة والهرسـك، بينما ظل فريق محـدود يعمل "تحت الأرض".

وليس هناك فرق بين جماعة الجهاد التى قامت باغتيال السادات، وبين الجماعة الإسلامية والقاسم الرئيسى بينهما هو فكـرة الجهـاد ورفض النظم القائمة المسـتمدة من فكرة سيد قطب عن الجهاد بالدرجة الأولى.

وجاء فى ميثاق العمل الإسلامى الذى وضعته الجماعة الإسلامية :

أن الإسـلام جـاء ليـدخل الخلق كلهم فى دين الله تعـالى وشـرعه ﴿قُـلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ﴾..

وجاء أيضاً ليمحو الشـرك فى كل صـوره من فـوق ظهر الأرض "حـتى يعبد الله وحده لا شريك له" كما قال صلى الله عليه وسلم.

نعم كان القتال دعوة للتوحيد بنص حديث رسول الله ﷺ "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله".

كان القتال دعـوة للتوحيد لأن الإمبراطوريـات والممالك أبت بسـلطانها ونفوذها أن تسمح لدعوة التوحيد ودعاته بالنفاذ إلى أرض الله وخلق الله بحجة أن هذه أرضـها هى، وهؤلاء رعاياها.. فكان لابد من القتال.

وكان القتال سـحقا للشـرك بإزالة هـذه الطـواغيت الـتى علت تلك المجتمعـات حاكمة آمرة ناهية، تشرع للناس وتحمل الناس على التحاكم لشـرعتها وتجـبرهم لهـا.. رغبة ورهبة.

كـان لابد من القتـال لإزالة كل سـلطان يعبد من دون اللـه.. لإزالة كل سـلطان يقف فى وجه دعوة الإسلام.. لإزالة كل سلطان يأبى أن يـدخل فى دين الله ويسـتكبر ويرفض أن يذعن ويدفع الجزية، ويصر على أن يعلو ويهيمن.

كان لابد من القتال لإزالة الفتنة.. وسحق الشرك.. وإعلاء شـرع الله ﴿وَقَـاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾..

إن أحد لم يخلق من دون الله.. وإن أحداً لم يخلق مع اللـه.. لـذا فإنه ليس من حق أحد أن يشرع من دون الله.. ليس من حق أحد أن يشرع مع اللـه. قـال ابن تيمية "ليس لأحد أن يحكم بين أحد من خلق اللـه، لا بين المسـلمين، ولا الكفـار.. إلا بحكم الله ورسوله" [66].

---

[66] **(66) ميثاق العمل الإسلامى الصادر من الجماعة الإسلامية وإعداد عاصم عبد الماجد، وعصام دربالة وناجح إبراهيم عبد الله مخطوط مصور بالأوفست بدون تاريخ ص87.**

"إن الناس لم يخلقوا الأرض التى عليها يحيون وعليها تقوم مجتمعاتهم، لذا فإنه ليس من حقهم أن يهيمنوا أو يهيمن بعضهم ليشرع ويحكم ويأمر وينهى من دون الله..

إننا كمسلمين – مأمورون أن لا ندع أى طائفة على وجه الأرض تحكم الناس بغير شرع الله..

فمن أبى ذلك ورفض الإذعان قاتلناه..

يقولون: هذه وصاية منكم على البشرية!!.. نقول: هذه وصاية شرع الله ودينه على أرض الله وخلقه، نحن مأمورون بتحقيقها لصالح البشرية بوصفنا خير أمة أخرجت للناس.

إن الإسلام ليس مجرد عقيدة فى القلب فقط حتى نقنع بحكايتها باللسان والدفاع عنها بالقلم والبرهان ثم نمضى قائلين: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾. لا هذا فهم أعوج مبتور.. إن الإسلام منهج حياة، إنه شرع الله الذى جاء ليسيِّر حياة الخلق.. لذا فنحن لا نكتفى بخطبة أو موعظة نقول فيها "عقيدتنا" وندافع عنها وكفى.. كما أنا لا نقنع بحلقة علم نعُلم فيها أو نتعلم بعض المناسك والشعائر وكفى.. بل لابد وأن ننطلق بهذا الدين دعوة باللسان، وحجة بالبيان، ودعوة بالحسنى، وجهاداً بالسيف.. أما اللسان والبيان والحسنى فللقلوب والعقول، فإن آمنت فيها ونعمت، وإن أبت فالجزية والصغار وعلو أحكام الإسلام على الديار، فإن امتنعت واستكبرت وعاندت ولم تسلم لنا القياد فالسيف السيف.. حتى تنزاح هذه الطواغيت، وبعد ذلك نقول ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾..

وركاكة وطفوليه هذا التفكير، وأنه ليس إلا عاطفة جامحة، هو مما لا نجد أنفسنا فى حاجة لتفنيده، لا من الناحية الأصولية ولا من الناحية العملية والمنطقية. ويكفى فحسب أن يقول أنهم عكسوا مقصد الشريعة من الجهاد[67].

ونتيجة لاستسلامهم لهذا الفهم السقيم، ولأن القضية أصبحت عداوة ما بين السلطة وبينهم، فإنهم تورطوا فى عمليات اغتيال وتدمير لم تثمر إلا فى تشديد القبضة وإصدار الأحكام بالسجن أو الإعدام عليهم وختموا هذه التصرفات الطائشة بمذبحة الأقصر التى قتل فيها أكثر من خمسين سائحاً أوربيا بريئا جاءوا ليشهدوا عظمة المصريين القدماء فقضت عليهم خسة فئة ضالة نسبت نفسها إلى مصر والإسلام وهم منهما براء.

إن الدوى الذى أثارته هذه المذبحة. وحقيقة أن ضحاياها لا علاقة لهم بالإسلام أو الصراع الدائر ما بين الإسلاميين والحكومة، والإساءة الكبرى التى أوجدتها لمصر واقتصادها. جعلت زعماء هذه الحركة الذين كانوا يقضون السنوات التى حكم عليهم بها يعيدون النظر. وهكذا بعد عشرين عاماً من الضلال والتهور انتهوا إلى خطأ اجتهاداتهم وأعلنوا ما أطلق عليه "مبادرة وقف العنف".

ففى الخامس من يوليو سنة 1997 وأثناء نظر القضية العسكرية 235 فوجئ الحاضرون بأحد الإخوة المتهمين فى هذه القضية وهو يقف فى مواجهة رجال الإعلام ليلقى بيانا مذيلا بتوقيع القادة التاريخيين للجماعة الإسلامية يدعو الإخوة لإيقاف العمليات القتالية وحقن الدماء.

وكانت هذه المبادرة من طرف واحد، وقيل أن الشيخ عمر عبد الرحمن أرسل يؤيدها من محبسه فى أمريكا وقيل إن آخرين عارضوها، كما أحاطت بها بعض الشبهات فى الداخل. وأصدر "القادة التاريخيون" كما أطلق عليهم عدداً من الكتيبات شرحوا فيها وجهة نظرهم الجديدة تحت عنوان سلسلة تصحيح المفاهيم ضمت :

1. مبادرة وقف العنف رؤية واقعية ونظرية وشرعية".
2. النصح والتبين فى تصحيح مفاهيم المحتسبين.
3. تسليط الأضواء على ما وقع فى الجهاد من أخطاء.
4. الغلو فى الدين وتكفير المسلمين.

---

67 **(67) إيضاح ذلك بقدر من التفصيل فى كتابنا الجهاد..**

وألفها أسامة إبـراهيم حافـظ، وعاصم عبد الماجـد، وعلى محمد على الشـريف وحمدى عبد الرحمن عبد العظيم وناجح إبراهيم عبد الله. وراجعها وأقرها. كـرم محمد زهدى. أسامة إبراهيم حافظ. فؤاد محمود الدواليبى. عاصم عبد الماجد محمــد. محمد عصام الدين دربالة.

وكل واحد فى حدود 160 صفحة من القطع المتوسط.

ولا جدال أن هذه خطوة سليمة، فـالرجوع إلى الحق فضـيلة، ولكن ما لاحظنـاه أنهم استندوا إلى أقاويل الفقهاء والسـلف فى دعم اتجـاههم الجديـد. وقد كـان أفضل شىء تبينهم أن الجهاد ليس وسيلة لأسلمه العالم أو توصـيل دعـوة الإسـلام إليـه، كما زعم سيد قطب. ومع هذا فإنهم ما ظلوا يعتمـدون على المراجع التراثية التقليديـة. ولا يستهدفون العلم والمنطق. فهناك احتمال أن يجـدوا فى أقـوال السـلف والفقهـاء وما يمكن أن يضلهم مرة أخرى.

الفصل الثالث عشر
الدولة الإسلامية من التنظير إلى التطبيق

—

تعد التجربة التى قامت نتيجة لتحالف الإمام محمد بن عبد الوهاب مع حاكم نجد الأمير سعود فى السنوات الأولى للقرن التاسع عشر هى أولى تطبيقات تنظير الدولة الإسلامية. فقد أراد الشيخ محمد بن عبد الوهاب القضاء على البدع التى تفشت فى عهده وكان أبرزها تقديس الأولياء والاعتقاد فى شفاعتهم فى الدنيا والآخرة. وبناء المآذن والقباب العالية فوق القبور فى المساجد – وارتأى كما ارتأى كل منظرى الدولة الإسلامية – أن السلطة هى التى يمكن أن تقضى على هذه البدع فتحالف مع الأمير سعود أمير نجد الذى آمن بالفكرة. ووجد إن إقامته الدولة على أساس الدعوة سيكفل لها الغطاء الفكرى وسيدعم قوتها المادية بقوة إيمانية ويعزز الحكم القبلى بدعم إيمانى. وباستثناء الدائرة الضيقة لما يتعلق بالشفاعة والأولياء والقبور الخ... فإن الفكر الوهابى لم يقدم شيئاً وقد عنيت الأجيال التى جاءت بعد محمد بن عبد الوهاب بشرح المذهب الحنبلى، ولكن ذلك لم يقدم جديداً بالنسبة لنظم الحكم.

وبسطت الدولة الناشئة حكمها على نجد واستطاعت أن تمد حدودها، ولكن السلطان العثمانى كلف محمد على والى مصر بأن يقضى عليها وأرسل محمد على ابنه النابه إبراهيم باشا الذى هزمهم وأعاد الحكم التركى.

ولكن الدعوة الوهابية عادت مع ظهور "الملك" عبد العزيز آل سعود الذى استطاع أن يهزم الأتراك ويستعيد حكم آل سعود ويتحالف مع بقية أسرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذين حملوا اسم "آل الشيخ" حتى يكفل لدولته الغطاء الإسلامى – كما كان الحال فى البداية الأولى.

ونجح الملك عبد العزيز بفضل صلابته، وذكائه – فى السيطرة على شبه الجزيرة ووحد مقاطعاتها من نجد حتى المدينة وجده ومكة. وأعلن نفسه ملكاً وأطلق على الدولة اسم "السعودية" فابتدع شيئاً لم يحدث منذ أن أطلق اسم المستعمر البريطانى رودس على روديسيا فى أفريقيا. وكانت الإضافة التى قدمها إلى "آليات" العمل السياسى أن صاهر معظم القبائل وبهذا اكتسب رضاها وتأييدها وأنجبت له زوجاته قبيلة صغيرة من "الأمراء" أصبحوا هم الذين يتولون إدارة الدولة. وأصبح الحكم قبلياً بمعنى الكلمة ولم يكن للإسلام دخل إلا فى مجال الحرص على العبادات والحفاظ على الشكليات وتطبيق الحدود.. ومع أن الظروف كانت مواتية للسعودية، إذ أنها بعيدة عن بؤر الصراع التى أثقلت المنطقة العربية (مثل إسرائيل والصراع بين سوريا والعراق الخ...) وأن البترول اكتشف فيها بكميات تفوق أى منطقة أخرى فى العالم. وأن هذه الثروة التى جاءت بها الأرض القاحلة تضاعفت أضعافاً مضاعفة مع حروب رمضان 73 بحيث صعد ثمن البرميل من أربعة دولارات إلى أربعين دولاراً.. فإن نظام الحكم لم يتغير فمجموعة الأمراء من أبناء عبد العزيز.. وأبناء أبنائهم هم الذين يحكمون بمقتضى هذه الوراثة، وقد حققت الدولة إحدى علامات القيامة، فقد أصبحت مبانى رعاة الشاه والبعير تناطح السحاب. ورغم كل مظاهر التقدم المادى والاستهلاكى، فلا تزال أعراف القبائل سائدة، ولا تُعرف مؤسسات الحكم، ولا حريات الفكر، أو تكوين أحزاب أو نقابات أو دور سينما أو مسارح ولا تزال المرأة منقبة معزولة عزلاً حديدياً عن الرجال فهى فى الحقيقة جاهلية الواقع إسلامية المظهر.

وقد حرصت القبيلة الملكية الحاكمة على تعليم أبنائها فى الجامعات الأمريكية لاكتساب المهارات والامتياز الأدبى، ولم يخش المسئولون من أن يكون هؤلاء دعاة ثورة على الوضع، أو حتى تجديد، لأنهم بمجرد عودتهم يتم استقطابهم وتعيينهم فى المراكز والمناصب ويمنحون المهايا العالية والمزايا المتعددة بحيث يرتبطون بالعهد، ويدافعون عنه، وبذلك يكتسب العهد بهم قوة جديدة.. وتمويها ثقافيا.

وهذه هى حال أقدم وأعرق تجارب الدولة الإسلامية...

وقد يـرى البعض أنه لم يكن فى الإمكـان أفضل مما كـان بالفعـل، وأن هـذه المنطقة لها حساسيات خاصة لا توجد فى أى مكان آخر باعتبارها مقر الحـرمين ومهد الدعوة الإسلامية، وأن ما يوضع للإصلاح فى دول قد لا يتلاءم تمامـاً مع "السـعودية"، وأن القيـادة السـعودية لا تخلو من حسـنات وهـذه كلها اعتبـارات يجب أن توضع فى حسباننا، ولكن حـتى لو أخـذنا بهـا. فلابد من تطـوير وهى المهمة الـتى تنـاط بالعناصر المثقفة التى يتوافر فيها الثقافة الحديثة والإيمان بالإسلام. والزمن جزء من العلاج.

* * *

كـانت باكسـتان مهيـأة لتكـون دولة إسـلامية. فقد قـامت لغاية هى أن يكـون للأغلبية الإسـلامية فى الهند حرية إدارة شـئونهم وعقائـدهم فلا يخضـعون لتحكمـات الأغلبية الهندوسية التى طالما أعربت عن عداوتها للإسلام. وكان فى باكستان الـدكتور محمد إقبال الذى جسد العاطفة الإسلامية الحقه.. وصاغها فى شعر رقيـق.. كما كـان هنـاك الأسـتاذ أبو الأعلى المـودودى وهو غـارس بـذرة "الدولة الإسـلامية" فى العصر الحديث.. مع هذا كله لم يحدث أن أصبحت باكستان دولة إسلامية حقاً، ولم يحـدث أن ولى الجنـاح الإسـلامى الحكم، فعنـدما جد الجد لم يكن لـدى هـؤلاء ما يقدمونه لإدارة الدولة الجديـدة وتقلـدت "الانتلجنسـيا" المثقفة ثقافة أوربية والـتى مارست العمل السياسى والمناصب فى الهند فى عهد الاسـتعمار البريطـانى زمـام الأمـور وأظهـرت تجربة الباكسـتان أن من المسـتحيل أن تقـوم دولة فى العصر الحـديث على أسـاس تجاهل هذا العصر الحديث تمامـاً والعـودة إلى عهد الأسـلاف السـعيد.. كما ظهر أنه لا يكفى الأخذ بوسائل الحياة العصـرية دون تفهم روح العصر الـذى أوجد هـذه الوسـائل. إن عكوف المنظرين الإسلاميين على كتب الفقهاء القـدامى وحـدهم، وعـدم إطلاعهم وتعـاملهم مع نظم السياسة فى العصر الحـديث، وما قدمته الحضـارة الحديثة من تطـورات وما يحفل به العصر الحـديث من آليـات جعل الطريق أمـام تكـوين دولة إسلامية فى العصر الحـديث مسـدوداً وكل المحـاولات للف حـول هـذا السد أو تسـور الجدار محاولات غير سليمة وغير طبيعية وتأخذ طابع التحايل، وكيف يمكن أن يتقلـدوا زمام الأمور فى عصر يتنكرون له ويريدون الانفلات منه. وهل يعنى هذا إلا الانتحار ؟.

وفى الحقيقة فإن الصورة التى أخذتها "الجماعة الإسلامية" تطبيقاً لفكر السـيد أبو الأعلى المـودودى – ما كـان يمكن أن تصل إلى أغلبية الشـعب. فـرغم الحماسة الكبيرة للإسـلام لـدى الباكسـتانيين – فـإن افـتراض مسـتويات فى الإيمـان والسـلوك يصـعب على عامة النـاس التمسك به مع تجاهل قضـايا العصر حـال دون أن يحقق الأغلبيـة. وما عجـزت الـدعوات الإسـلامية عن فهمه أن التجـاوب العـاطفى الإيمـانى للجموع مع الإسلام لا يكفى وحـده لتحقيق انتصـار فى العمل العـام، فحـتى فى العهد الإسلامى الأول، وجد من يقـول "سـيوفهم مع معاوية وقلـوبهم مع على". فيمكن جـداً للرجل العـادى أن يكـون متحمسـاً للإسـلام مؤديا للفـروض الدينية من صـيام وصـلاة. ولكنه مع هـذا لا ينضم إلى الجماعة الإسـلامية الـتى تعزله عن المجتمع ونشـاطاته وتحول بينه وبين ممارسة هوايات أو الاسـتمتاع بفنـون أو آداب. وهكـذا فـإن المعـايير التى وضعتها الجماعة الإسلامية للعضـوية والـتى تقـوم على أسـاس إيمـانى "سـلفى" وثيق حال دون أن تصل العضوية إلى الأغلبية. وحال بالتالى أن تصل إلى الحكم.

ومنذ أن ظهرت باكستان والحكم قسـمة ما بين أحـزاب يرأسـها أفـراد يمثلـون البورجوازية الغنية أو الأسر الإقطاعية القديمة فى حـزبى الرابطة الإسـلامية وحـزب الشعب وهـذه النخبة تـدير البلاد إدارة متـأثرة بـالنظم والتقاليد البريطانية فى الإدارة، والسياسة والفهم الحضـارى... ولما لم يكن لهـذه النخبة قاعـدة شـعبية أو أصـول حضـارية حقيقية عصـرية، أو إسـلامية، فـإن الحكم أخذ الطـابع الانتهـازى والمهـاترات الحزبية والأطمـاع والغنـائم الخ... وقد تـولت مع هـذا الحكم لأن لـديها الخـبرة بآلياته ونظمه وإن لم تكن لـديها الأغلبية الشـعبية، ولا لـديها الإيمـان... وعنـدما كـان يظهر فسادها، فإن الجيش كان يتدخل، وليس بأفضل منها.. وهكـذا قضى على هـذه التجربة فى الحكم الإسلامى فى أن تدور فى هذه الحلقة..

* * *

وتعــرض لنا حكومة "طالبــان" أشد محــاولات إقامة الدولة الإســلامية بؤســاً وتعاسة، رغم إنها تصورت أنها أكثر المحاولات قرباً إلى المثل الإسلامى وأكثرها اتباعاً للسُنة النبوية وهى دليل لا يدحض على فشل دعـاوى تكـوين دولة إسـلامية تـدعى إنها تحذو حذو الخلافة الراشدة بما فى ذلك تقشف حاكمها وتسميته بأمير المؤمنين.

ونحن لا نقول هـذا لأن العهد لم يطل بها نتيجة للعـدوان الأمـريكى. ولكننا نقوله لما أخذته من انعزال عن العالم واستغراق فى الماضـى، وجهل بـالقيم الحقيقية الـتى نزل بها القرآن من حرية وعلم ومساواة واستسلامها للأحاديث الضـعيفة بحيث لم تعد دولة الإسلام ولكن دولة الجلباب واللحية.

لقد كان وجودها بلاءً، وكان القضـاء عليها بلاءً. وما بين الـدعوة لقيامهـا، والعمل للقضاء عليها تتبدد جهود الأمة الإسلامية وتتعقد أوضـاع المجتمع وتنفتح فرصة للتـدخل الخارجى..

* * *

يعرض لنا السودان صـورة جديـدة. فقد ظهـرت دعـوة الإخـوان المسـلمين فى السودان على يدى الطلبة السودانيين الذين درسوا فى القاهرة وانتمـوا إلى الإخـوان. وظهر بينهم وتعلم على أيديهم فنون الدعوة الدكتور حسن الـترابى وفى مرحلة لاحقة اسـتكمل حسن الـترابى دراسـاته الأكاديمية ما بين لنـدن وبـاريس وحصل على أعلى الدرجات العلمية وجعلته هذه الثقافـة، بالإضـافة إلى ذكائـه، وطموحـه، يضـيق بـدعوة الإخوان. ويؤسس تيـاراً جديـداً حمل أولاً اسم "جبهة الميثـاق الإسـلامى" ثم بعد هـذا جبهة الإنقاذ واستقطب أعـداداً كبـيرة من الجمهـور السـودانى. ووصل فى الدولة إلى منصب "النـائب العـام" وتعامل بـذكاء مع السـلطة والهيئـات الأخـرى. وبـدا كما لو أنه يمكن أن يكـون المفكر الرئيسى المنشـود. ولكن عمله التنظيمى حـال دون ذلك وإن كان المدى الذى وصـلت إليه حركة الـترابى فى السـودان جـاوز من الناحية التنظيمية والفكرية ما عداه، ليس فحسب فى السودان – بل فى دول إسـلامية أخـرى.. وإن كنا نرى أن الدكتور الترابى لم يذهب إلى المدى الواجب فى التجديد، وأنه لم يؤصل هــذه التجديــدات بما تتطلبه ويســتحقه، إذ من الواضح أنه لا يكفى لتجديد أصــول الفقه الإسلامى رسالة من ثمانين صفحة. مع هذا فإن ما دعا إليه بالفعل كان أكثر مما يمكن أن تتحمله الدوائر السلفية فى السودان التى ثـارت عليه واعتبرته من الـذين انحرفـوا عن "السُنة والجماعة" وكتب أحدهم كتاباً "مناقشة هادئة لبعض أفكـار الـدكتور حسن الترابى"[(68)] عاب عليه فيه زعمه أن العقيـدة يجب أن لا تكـون سـلفية ولا كلامية ورفع شعار التجديد دون تحديد مفهومه مما جعل من سـمات هـذا التجديد التلفيق والسـلبية ورد كثيراً من السنن لا تفه الأسباب واعتباره أن الصحابة ليسوا كلهم عدولا والتشكيك فى أصول المحدثين وتقسيم السُنة إلى تشريعية وغير تشـريعية وتجديداته فى مجـال المرأة بما فيها مصافحة الرجال الأجانب والاختلاط والسـفر دون محـرم وعملها الخ... وختم كتابه بالإشارة إلى وجود "لوبى تجديـدى – حركة ثورية فلسـفية صـوفية ويـزعم المؤلف أنها "ظهــرت فى عــام 1978 وهى حركة ســرية تعمل وفق برنــامج معين وخطط مدروسة وبخطى محسوبة وأن دسـتورها يقـوم على (أ) المصـدر الأول لثقافة الحركة التجديدية هو القرآن الكريم وأن التفسير السـليم بالأكثـار من التلاوة وتسـتبعد كل كتب التفسـير التراثيـة. (ب) المصـدر الثـانى السُـنة وتعتمد على صـحيح البخـارى ومسلم. وأنها تستبعد الكتب التراثية – باستثناء – مقدمة ابن خلدون ومدارج السالكين لابن القيم الجوزية، وتحبذ كتابات المجددين ونسب. إحد دعاة هذا اللوبى إلى الـدكتور الترابى أنه قال – بالنسبة لعصمة الأنبياء أن الرسول فى بشريته كمثل أى دينكاوى !.

ومن الواضح أن هذه التجديدات كلها – باستثناء السطر الأخـير – هو مما لا غبـار عليه، بل هو جزء من حركة التجديد الإسلامى وأن دعوة "الإحياء الإسلامى الـتى نـدعو

---

[68] **(68) مناقشة هادئة لبعض أفكار الدكتور حسن الـترابى بقلم الأمين الحـاج محمد أحمد – 1995 مركز الحق الألكترونى للطباعة والنشر.**

إليها جاوزت هذه التجديدات كثيراً. على كل حال كان للدكتور الترابى أن يقر عينا بما وصلت إليه دعوته وأن يأمل لها التقدم والازدهار وأن ترسخ قواعدها فى المجتمع السودانى ما ظل يوجهها من على منبر المرشد – المربى. لولا إن ذكاءه الحاد رما به إلى السلطة.. وتعجل التوصل إلى "الحكم الإسلامى" وأدى به هذا التعجل لأن يصل إلى السلطة بطريقة ملتوية هى التحالف مع عدد من ضباط الجيش من أعضاء الجبهة للقيام بانقلاب عسكرى لا يحمل اسم الجبهة من قريب أو بعيد، ولكن يدعى "الإنقاذ" ويصل التمويه إلى درجة يعتقل الانقلاب الترابى نفسه مع من اعتقله من الشخصيات السياسية..

وبعد فترة طالت أو قصرت اتضحت الحقيقة. وخرج الترابى من المعتقل ليشترك مع قائد الانقلاب فى السلطة، ولكن هذه الثنائية خاصة مع طموح الترابى لأن يكون الرجل الأول ما كان يمكن أن تستمر فنشب الخلاف بينهما. وفى هذه الجولة كان القائد العسكرى أقدر على الحسم من الزعيم الفكرى فاعتقل الترابى – هذه المرة بحق – ولعله عومل معاملة سيئة وقام صراع مرير ما بين رئيس الدولة "البشير"، وبين زعيم الدعوة الذى فقد كثيراً من أصوله نتيجة لأن السياسة الانتهازية والسلطة لوثته بأوزارها وأدخلت عاملاً غريباً على مناخ الدعوة. ودفعته لأن يمد يده ويصافح أعدى أعداء الإسلام وعميل أمريكا وإسرائيل والمنادى بتقسيم السودان وفصل جنوبه عن شماله "جارنج". بعد أن كان يجند الشباب لمحاربته.

وظهر أن الصراع مع البشير لم يكن حول الدين، أو الدولة، ولكن على السلطة كما أعلن ذلك صراحة أحد كبار أعوان الترابى[69].

وهكذا خسر الترابى الدعوة.. ولم يكسب السلطة، على أنه لو استعاد السلطة لما زادته إلا فساداً..

وهو المصير الذى لابد وأن ينتهى إليه كل داعية إسلامى يستهدف السلطة أو حتى يصل إليها. لأنه عندئذ يكون قد انتهى تماماً كداعية وسيأتى الدور عليه كحاكم..

وفى الوقت نفسه فشلت تجربة "الدولة الإسلامية" فى السودان، بل كانت محاولة "تطبيق الشريعة" سببا فى اشتعال الحرب الأهلية التى قد تؤدى إلى تقسيم السودان..

* * *

فى سنة 1830 بدأت فرنسا غزوها الجزائر، وقامت حروب ومناوشات عديدة بينها وبين السيد عبد القادر الجزائرى الذى قاد مقاومة مجيدة وأن انتهت بانتصار الفرنسيين بعد أن ضيقوا الخناق عليه. وعمل الفرنسيون من الأيام الأولى للقضاء على عروبة وإسلام الجزائريين باعتبارهما المقومين اللذين يحفظان الشخصية الجزائرية ويعزلانها عن فرنسا، فهدمت المساجد أو حولت إلى كنائس وحوربت اللغة العربية، ومنع التحدث بها وفرضت اللغة الفرنسية على المدارس. واستقدموا أعداداً كبيرة من الفرنسيين أعطوهم الأرض التى انتزعوها من العرب، فضلاً عن تسليمهم زمام الصناعة والتجارة، وعندما احتفلت فرنسا بمرور مائة سنة 1930 على احتلال الجزائر، ظنت أنها قد نجحت فى استلحاق الجزائر بفرنسا والقضاء على شخصيتها العربية/ الإسلامية واستنسخت جيلاً فرنسياً من الجزائريين. وفى هذا الوقت ظهر الشيخ عبد الحميد بن باديس وهو مسلم عريق من بربر صنهاجة الأشداء وكون جمعية العلماء.. وأخذ يؤسس الكتاتيب التى تعلم القرآن كما أخذ يدرس فى المساجد الباقية. وأخذ يحيى الرميم وينفخ فى الرماد حتى استطاع أن يعيد للجزائر شخصيتها وهويتها وأن ينشد نشيده...

"شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب"

---

69 **(69) أنظر أقوال الدكتور على الحاج محمد نائب الأمين العام للمؤتمر الشعبى (نائب الترابى) فى جريدة الشرق الأوسط يوم 25/11/2002 ص 4.**

فعـادت الحركة الوطنية إلى الظهـور وبـدأت المناوشـات والمصـادمات ما بين الشباب المؤمن بدعوة بن بـاديس، وما بين بـوليس الدولة المحتلة وجيشـها. وظهـرت مجموعة حملت اسم هيئة التحرير أشـرفت على تنظيم المقاومة وبـذلت الجزائر فى حربها تلك مع الاستعمار قرابة مليون شهيد حتى قدر لها فى النهاية الانتصار.

رغم أن الذى بدأ الحركة كان شيخاً، وأنها حملت الشـعار الإسـلامى وأن الجهـاد كان روح القتال ما بين الجزائـريين والفرنسـيين، إلا أن الـذى قطف الثمـرة كـان هيئة التحرير التى ضمت بضعة من الشباب الثائر بزعامة بن بيلا دون أن يكون لهم تأسيس إسـلامى خـاص. وعنـدما آلت السـلطة إليهم بـدت ظـواهر التخبط ثم الفسـاد وحـدث صـــراع داخل المجموعة أدى إلى إقصـــاء بن بيلا وظهـــور هـــوارى بومـــدين، ثم ورثته مجموعة فاقـــدة للمـــواهب والإخلاص. وتعـــددت الصـــراعات ما بين الســـلطة وبين المجموعة الإسلامية التى أخذت تنهض وتلم شـعثها فى "جبهة الإنقـاذ" برئاسة الشـيخ عباس مدنى والشيخ على بلحاج.

وفى الـوقت نفسه عـرف الشـعب فسـاد النخبة الحاكمـة، واشـتهرت فضـائحها المالية الـتى زكمت الأنـوف وقـدم هـذا دعما سـلبياً لحركة "الإنقـاذ" بحيث أنها فى الانتخابات البلدية سنة 1990 حازت أغلبية المقاعد، وأصبح واضحاً أنها سـتنال الأغلبية فى الانتخابـــات السياســـية العامـــة. فتحـــرك الجيش وقمع الحركة وزج بزعمائها فى السجون وأجهضت حركة من أكبر حركـات العمل السياسى الإسـلامى وُضـرب عـرض الحائط بكل المبادئ الديمقراطية.

ولكن رب ضارة نافعة..

فلو ترك الأمر لها، ولو تقلدت زمام الأمور لعجزت عن إدارة الدولة

ذلك أن جبهة الإنقـــاذ كـــانت بنـــاء تراكميا ضم العناصر المتشـــنجة من أنصـــار "الجهـاد" وأئمة المسـاجد، والإخـوان المسـلمين وأمشـاجاً من المتجـاوبين مع الفكر الإسلامى دون نظرية موحدة ولم يكن لديها "كوادر" تنهض بإدارة الدولة..

* * *

وفى مصر لم يكن الإخـــوان المســـلمون بعيـــدين عن الحكم لو أحســـنوا التعامل مع انقلاب 23 يوليو ولكنهم فرطوا فى حقهم عندما تقدم جمال عبد الناصر طالبا تأييدهم ثم أضاعوا بسذاجتهم – الفرصة السانحة – أو كما قال مؤرخ الإخوان "فرصة الفرص" فى أزمة مارس 1954 وكان عليهم أن يدفعوا الثمن لأن هذا الموقف أضاع على البلاد – وليس على الإخـوان فحسب فرصة تعـديل مسـار انقلاب 23 يونيو وإنهـاء سـيطرة العسكر.. وقد كـان يمكن تفـادى وقـوع 67 الـتى أخـرت المنطقة كلها مائة سـنة إلى الوراء.

واحتدمت العـداوة ما بين الإخـوان المسـلمين فى سـوريا ونظـام حـزب البعث، وحمل شنآن العداوة طاغية سـوريا حافظ الأسد لـدك حمـاة (ثـالث المـدن السـورية) بالمـــدافع والطـــائرات. وسن قـــانون يقضى بعقوبة الإعـــدام على كل من ينتمى إلى الإخوان المسلمين فى سوريا وتكررت فى سوريا مأساة تعـذيب الإخـوان فى سـجون عبد الناصر.

* * *

ولعل أشد فصول هذه المأساة مأسـاوية هو ما حـدث فى تركيا عنـدما فـاز فى الانتخابات حزب له اتجاهات إسـلامية على رأسه مهنـدس مثقف واسع الأفق تعلم فى ألمانيا ولا يمكن أن تعلق به شائبة تعصب أو جهالـة. ومع هـذا تحـرك الجيش – كما لو كان جيش أوربا – وليس جيش تركيا لتحريم الحزب.

فى حالة الجزائر وتركيا كـان تـدخل الجيش انتهاكـاً صـريحاً لكل المبـادئ الديمقراطية وإحلالاً لحكم عسكرى محل نظـام ديمقـراطى إختـاره الشـعب ومع هـذا أيدت الدوائر الأوربية والأمريكية هذا التصرف. إن لم يكن قد أوعزت به[70].

* * *

التجربة التى تستحق أن نقف أمامها طويلاً هى تجربة إيران.. ليس فحسب لأن ما حدث فيها كان ثورة بالفعل، ولأنها رزقت قائداً اكتسب محبة قلبية من شـعبه تصل إلى القداسة. ولا لأن إيران نفسها دولة كبيرة بالثروة البشـرية والطبيعيـة.. ولكن أهم من هـذا كله هو أنها الآن تجابه المشـكلة الرئيسـية الـتى سـتجابه كل دعـاة الدولة الإسـلامية. ألا وهى كيف يمكن الجمع بين الدولة الدينية والدولة المدنية فى وقت واحـد. كيف نـوفر للدولة المقـوم الإسـلامى، وفى الـوقت نفسه تسـتطيع أن يجابه بفاعلية قضايا العصر.

وحاول الدستور الإيرانى أن يجمع بين المتناقضات فالمـادة الرابعة تنص "يجب أن تكـون المـوازين الإسـلامية أسـاس جميع القـوانين والقـرارات المدنية والجزائية والمالية والاقتصـادية والإدارية والثقافية والعسـكرية والسياسـية وغيرهـا. هـذه المـادة نافذة على جميع مواد الدستور والقوانين والقرارات الأخرى إطلاقـاً وعمومـاً. ويتـولىّ الفقهاء فى مجلس صيانة الدستور تشخيص ذلك".

وفى الاتجـاه نفسه تنص المـادة الخامسة "فى زمن غيبة الإمـام المهـدى (عجل الله تعـالى فرجـه) تكـون ولاية الأمر وإمامة الأمة فى جمهورية إيـران الإسـلامية بيد الفقيه العادل، المتقى. البصير بأمور العصر، الشجاع القادر على الإدارة والتدبير وذلك وفقاً للمادة (107).

وهذه الصياغة توحى بأن هذا الفقيه هو نائب أو وكيل الإمـام المهـدى حـتى وإن لم تنص صـراحة على ذلك كما أن كتابـات الخميـنى الـتى يمكن أن تعد "مـذكرة تفسيرية" لنصوص الدستور تعتبره كذلك.. وسلطة الإمام فى المذهب الشـيعى ليست فحسب مطلقة، بل ومقدسة أيضاً..

"وتنص المادة 12 "الدين الرسـمى لإيـران هو الإسـلام والمـذهب هو الجعفـرى الاثنى عشرى وهذه المادة تبقى إلى الأبد غير قابله للتغيـير". نقـول إن هـذه الصـياغة تدل على مدى تمسك واضعى الدستور وما قد يجبره هذا إلى تحكم فى وضع الحريات والحقوق.

وأجازت المادة لأصحاب المذاهب الستة أداء مراسمهم حسب فهمهم

وهناك نص فى المادة 16 "بما أن لغة القرآن والعلوم والمعارف الإسـلامية هى العربية، وأن الأدب الفارسى ممتزج معها بشكل كامل، لذا يجب تدريس هذه اللغة بعد المرحلة الابتدائية حـتى نهاية المرحلة الثانوية فى جميع الصـفوف والاختصاصـات الدراسية".

وإيراد مثل هذا النص فى الدستور ينم عن حرص إيران الإسلامية على العربيـة. وهو أمر يجب أن يكون محل تقدير. ويبقى أن تنفذ المادة..

ويقرر الدستور الحريات المدنية – كما تقررها الدساتير الأخرى لكنه يضـيف فى آخر كل مادة يقرر فيها هذه الحرية "ما لم يخل بالقواعد الإسـلامية والحقـوق العامـة"

---

[70] **(70) ونحن نكتب هذه الكلمـات جـاءت الأنبـاء (نوفمـبر سـنة 2002) بفـوز حـزب "العدالة والتنميـة" ذى الاتجاهـات الإسـلامية بأغلبية كاسـحة مكنته من تشـكيل الوزارة واستفاد الحزب من تجربة الزعيم الإسلامى التركى السابق أربكان الـتى سبقت الإشارة إليها فالحزب وإن كان له اتجـاه إسـلامى لا شك فيـه، فـإن قادته يحذرون أشد الحذر من إبداء هذا الاتجـاه. والإسـلام ليس شـعارات أو لافتـات، أو حتى أسماء، ولكنه عدالة وتنمية وعمل يقوم على أسس سليمة ويستهدف إسعاد النـاس وتحقيق آمـالهم ونبتهل إلى الله أن يوفق حـزب العدالة والتنمية فى أداء دوره.**

أو "بشرط أن لا تناقض أسس الاستقلال والحرية والوحدة الوطنية والقيم الإسلامية". أو "بشرط أن لا تكون مخلة بالأسس الإسلامية". وهذه التحفظات حاصرت حريات الصحافة. والاجتماع والأحزاب. ومكنت السلطات من الافتيات عليها.

وفى الفصل الخامس من الدستور وهو عن "سيادة الشعب والسلطات الناشئة عنها" تنص المادة 57 "السلطات الحاكمة فى جمهورية إيران الإسلامية هى: السلطة التشريعية، والسلطة التنفيذية، والسلطة القضائية، وتمارس صلاحيتها بإشراف ولى الأمر المطلق وإمام الأمة وذلك وفقاً للمواد اللاحقة فى هذا الدستور، وتعمل هذه السلطات مستقلة عن بعضها بعضاً".

والنص لا يحتاج إلى شرح وهو يجعل أزمة القيادة كلها فى أيدى "ولى الأمر وإمام الأمة".

وتنص المادة 64 على أن عدد نواب مجلس الشورى – وهو السلطة التشريعية – التى تنتخب من الشعب مباشرة هو 270 نائباً، ويمكن إضافة عشرين عضوا كحدٍ أعلى كل عشر سنوات.

ومع أن سلطات مجلس الشورى هى سلطات مجالس النواب أو البرلمان فى الدول الأخرى أى سن القوانين فهناك تحفظان هامان الأول: ما نصت عليه المادة 72 "لا يحق لمجلس الشورى الإسلامى أن يسن القوانين المغايرة لأصول وأحكام المذهب الرسمى للبلاد أو المغايرة للدستور، ويتولى مجلس صيانة الدستور مهمة البت فى هذا الأمر طبقاً للمادة السادسة والتسعين من الدستور". والتحفظ الثانى: أن ما يتخذه المجلس من قرارات أو قوانين لا تكون نافذة إلا بعد موافقة مجلس صيانة الدستور عليها وهذا المجلس يتكون من ستة أعضاء من الفقهاء العدول العارفين بمقتضيات العصر وقضايا الساعة ويختارهم القائد، ثم ستة أعضاء من الحقوقيين المسلمين من ذوى الاختصاص فى مختلف فروع القانون يرشحهم رئيس السلطة القضائية ويصادق عليهم مجلس الشورى. والستة الأول هم الذين يملكون وحدهم حق التصويت فى مجلس صيانة الدستور. أما أعضاء الفئة الثانية فيستطيعون التصويت بجانب الفقهاء إذا ما بحثت قضية تماشى قرارات المجلس مع الدستور، وتكون الأغلبية فيه بتسعة أصوات من أثنى عشر مما يظهر أن ذلك يعنى أن لا تصدر قرارات لا تحظى بأغلبية الأعضاء الستة من الفقهاء وفى هذه الحالة تكون الغالبية المطلوبة هى ثلاثة أرباع عدد أعضاء المجلس، كما نصت المادة 98 من الدستور، أى تسعة أصوات من أصل اثنى عشر صوتا. وليس خافيا أن شرط غالبية التسعة هو بضمان تمثيل الأعضاء الستة من الفقهاء، الذين نصبهم الدستور قيمين وأوصياء على أحكامه. ولأعضاء <u>"مجلس صيانة الدستور" الحق فى فحص "صلاحية" المرشحين لخوض الانتخابات البرلمانية والرئاسية،</u> واستبعاد من يرونه "غير مستوفى للشروط"، بالاستناد على عدة معايير منها المنطلقات الفكرية للمرشحين، وبالأخص الإيمان بولاية الفقيه، والالتزام بخط الإمام وهو ما حدث مع مرشحى التيار الوطنى الليبرالى الذين استبعدوا من انتخابات رئاسة الجمهورية عام 1997، أو فى انتخابات البرلمان الأخيرة.

وبعد هذا كله فإن المادة 93 تنص على أنه "لا مشروعية لمجلس الشورى دون وجود مجلس صيانة الدستور عدا ما يتعلق بإصدار وثائق عضوية النواب وانتخاب ستة أعضاء حكوميين لمجلس صيانة الدستور"..

وعلى نقيض هذا التضييق على مجلس الشورى بل ومحاصرته نجد التوسع بالنسبة للقائد فهو القائد الأعلى للقوات المسلحة وهو الذى يعلن الحرب والسلم والمعاهدات ويقوم بتعيين السياسات العامة للجمهورية والإشراف على حسن إجراء السياسات العامة للنظام وعزل رئيس الجمهورية بعد صدور حكم من المحكمة العليا.

وعلى هذا، فافتراض وجود صراعات ما بين مجلس الشورى ومجلس صيانة الدستور لا مناص عنه، وقد حدث بالفعل مرات عديدة مما أدى بالمرشد إلى تشكيل

مجلس جديد للفصل ما بين مجلس الشــورى ومجلس صــيانة الدســتور هو **"مجلس تشخيص" مصلحة النظام..**

ولكن المشــكلة أن تكــوين هــذا المجلس الجديد له الطبيعة المزدوجة الــتى لا تجعله قاضيا موضوعياً بمعنى الكلمة. إنه عادة ما يغلب الجانب الفقهى التقليدى.

إن أفضل ما على الساحة الإيرانية اليــوم أن رجلىَّ القيــادة فيها – المرشد على خــامئنى ورئيس الجمهــوريين خــاتمى يتســمان بالوطنية والاتــزان وأن كل واحد منهما يعلم أن الآخر على شعبة من الحق، وأن المطلــوب هو إيجــاد التــوازن بين تيــار "ولاية الفقيه" وبين تيار ولاية الشــعب. إن الخميــنى نفسه وهو الــذى أبــدع ولاية الفقيه كــان شاعراً تماماً بقوة الشعب وأنه هو الــذى حمله إلى الحكم وهــزم أكــبر قــوة عســكرية أمضى الشاه حياته فى تزويدها بالسلاح وتنشئتها على الطاعة. كما أن خــامئنى شــاهد كيف أن الجماهير خاصة الشباب والنساء أعطت خاتمى أغلبية كاســحة فى الانتخــابين الأخيرين. من ناحية أخرى، فإن خاتمى نفسه ليس بعيداً عن الحوزة وعــالم القيم وهو يؤمن بأن الدولة الإيرانية دولة إسلامية.

إن كلا من الخــامئنى وخــاتمى يؤمنــان بضــرورة التوصل إلى الحــل، ولكنهما يحذران تجربة جورباتشوب فى الاتحاد السوفيتى ولكن هــذا هو ما ســيحدث بالفعل إذا لم تتم تسوية الأمور وقد حدثت حــوادث عديــدة أدت إلى تــوترات عنيفــة، وثــارت فيها الجماهير، وبوجه خاص الطلبة والنساء، وكــان منشــئوها جميعــاً التضــييق على مجلس الشورى من قبل مجلس صيانة الدستور وهيمنة السلطة القضــائية وإصــدارها أحكامــاً على الإصــلاحيين، وكــان آخرها ما حــدث عنــدما حكمت إحــدى المحــاكم الدينية على المفكر الإيــرانى هاشم أغــاجرى بالإعــدام لأنه دعا النــاس إلى عــدم تقليد الشــيوخ كالقرود. إذ تعددت إضرابات الطلبة، وقرأ فى أحدها حفيد آية الله منتظرى رسالة من جــده – الــذى رشــحه الخميــنى لخلافتــه، ثم أعفى منهــا، يؤيد فيها الطلبــة، وظلت المظــاهرات مســتمرة من 9 نوفمــبر ســنة 2002 واضــطر المرشد على خــامئنى لأن يلقى بنفسه خطبة الجمعة، وأن يدعو التيارات المتنازعة للاتحاد ومندداً بالمظاهرات.. كما قام "الباسيج" وهم المليشيا الإسلامية التى تتبع المرشد بمظاهرات مضــادة. وهى الهيئة الــتى طالما تــدخلت لإجهــاض مظــاهرات الطلبــة، ونــدد على أكــبر هاشــمى رافسنجانى الرئيس الإيرانى السابق، ورئيس مجلس تشخيص مصــلحة النظــام بحركة احتجــاج الطلبة ودعا الباســنج إلى الحــذر وقــال "إن الشــيطان أرسل لتــدمير النظــام الإســلامى وأن ما يحصل اليــوم أشــبه بــأولى ســنوات الثــورة عنــدما أتحد المنــافقون والليبراليين وأضاف أن الذين يطلقون شــعارات معادية للباســيج فى الشــوارع هم ضد الأمن لأن كل واحد يعرف أن انعدام الأمن سيسود دون الباسيج، ولم تهــدأ الإضــرابات إلا بعد أن قيل أن المحكمة ســتعيد النظر فى حكمهــا. وإذا كــانت هــذه الأزمة قد حلت بهذه الطريقة، فقد لا يحدث هذا فى أزمات لابد أن ســتحدث، ما دام القضــاء وســلطة المرشد على ما هى عليه خاصة بعد أن هدد كبار المسئولين من الإصلاحيين بالاستقالة من منصــبهم إذا واصل القضــاء عرقلة الانفتــاح الإصــلاحى للشــعب بعد أن أصــبحت السلطة القضائية كرقابة ثقيلة على أعمال مجلس الشورى فى صورة اتهام عدد كبــير من أعضائه بلغ ستين عضوا بمختلف اتهامات ازدراء السلطات أو عدم الإنفاق مع خط الإمام الخ... مستغلة المادة 30 من الدستور التى تجعل المواطنين جميعاً سواء أمــام القضاء وظفرت بعض القضايا مثل محاكمة وزير الثقافة بشهرة وأثارت دويا.

لقد آن للمرشد وللقضاء ولآيات الله فى حــوزاتهم، وفقهــاء المــذهب أن يعلمــوا أن إرادة الأغلبية العظمى للشــعب الــتى جــاءت بخــاتمى والــتى تؤيد الإصــلاح يجب أن يكون لها الأولوية إنها الحقيقة الإنسانية.

وحتى تصل إيران إلى الحل الإسلامى الأيدلوجى فإنها ستظل مهددة بالانشقاق، وبــأن يحــدث فيها ما حــدث فى الاتحــاد الســوفيتى، وقد تجد إيــران الحــل. عنــدما ما تستكشف أن حكم الفقيه، ومعه أحكام علماء المذهب الســابقين ليست هى على وجه التعــيين حكم الشــرع، وإنما هى اجتهــاداتهم فى فهم حكم الشــرع وهــذا ما يفتح بابــاً للتأويل، وللاجتهاد وللــرأى الآخر وكتب الفقهــاء حافلة بوجــوه الاختلاف فيما بينهــا. وإذا

كان الفهم المتحفظ – فيما يظنون – يعمل لحماية النظام فإنه يصيبه بالجمود والشلل ويضعه فى نفق مسدود مظلم فى حين أن مخاطر الانفتاح أقل من مخاطر الانغلاق. وما دام التأويل يسمح بالانفتاح فلن يكون فى هذا مخالفة أصولية – وهناك شواهد عديدة من القرآن والسُنة على ذلك، وقد اعتبر بعض الفقهاء أن الإجماع يقضى على الكتاب نفسه من ناحية أنه يمثل فهم الأمة للكتاب. فإذا كان من الصعب أن تجتمع الأمة على ضلالة. فإن للأغلبية الكاسحة هذا الحق ولو من باب الترجيح.

إن ارتباط التجربة الإيرانية الشديد بالمذهب الجعفرى والدولة الإسلامية التى يحكمها إمام معصوم، أو من ينوب عنه. ولأن رمز الثورة وروحها كان أحد آيات الله الكبار وضع الثورة وجها لوجه أمام المعادلة الصعبة: معادلة الحفاظ على المضمون الإسلامى وفى الوقت نفسه كفالة الحرية والمرونة اللازمة لمضى عمل الدولة تجاوبا مع إرادة الشعب خاصة الشباب والمرأة الذين يمثلون المستقبل وتحقيقاً لمقتضيات العصر الحديث.

إن الإمام الخمينى، ولم يكن ينقصه الذكاء ولا الحاسة السياسية كما لم يخل من العاطفة الحارة التى تربطه بشعبه، لم يدق عليه هذا، ولكن لم يكن ممكنا له أن ينقض البناء الذى قام عليه المذهب الجعفرى أو يخل بأركانه، فقد حاول إجراء توازن ما بين عمل مدنى وسياسة دينية يقوم بالأولى رئيس الجمهورية ويقوم بالثانى مرشد الثورة. وهو بالطبع أحد آيات الله.

وإذا كان الإمام الخومينى قد قاد بنجاح الثورة، فمن المحتمل أن تؤدى سياسته إلى فشلها. لأنه رفض من البداية أن تكون إيران "جمهورية إسلامية ديمقراطية" ورفض تشكيلاً واسعاً لجمعية دستورية تقدم دستوراً لا يضع السلطة فى أيدى الفقهاء، ورفض السماح بوجود قناة للمعارضة والانتقاد، وهى الفكرة التى تقدم بها آية الله العظمى شريعة مدارى على ما رواه وزير الأمن محمدى الرشتهرى عندما بدت بوادر أزمة المنتظرى "يجب أن يفتح الإمام قناة لانتقاد المجتمع والحكومة وإصلاحها. أن الشيخ المنتظرى يطرح أموراً ضرورية جداً مع أنه ينقل بعض الأحاديث التى ليس لها كثير اعتبار ولكن بشكل عام جيد ويجب أن يسمح له الإمام بأن يطرح كلاماً جيداً وبناءً"[71]. ولكن شريعة مدارى نفسه عندما قال هذا كان فى منزله الخاص تحت المراقبة فى ما يتعلق بقضية قطب زاده. وقد وضحت صلابة الخمينى فى رفض المعارضة بعزله آية الله منتظرى وقد كان كما قال الخمينى عنه "حصيلة عمرى وقلبى يدمى من أجل مصلحة النظام والإسلام". وحدث هذا كله لأن إيمانه العميق بالفكرة الشيعية جعله يغلب ولاية الفقيه على ولاية الشعب الذى قلده القيادة، وكان يجب – منطقياً – أن يكون إيمانه به أكبر من أى إيمان آخر. ولم يكن ليعدم من الحوزة نفسها من يناصره.

ولعل أول خطوة نحو الحل أنه عندما تصدر المحاكم (حتى لو كانت المحكمة الدستورية العليا – أو أى هيئة أخرى) أحكاماً تخالف السياسة التى أقرها مجلس الشورى – يكون من حق مجلس الشورى إستفتاء الشعب باعتبار أن إرادة الشعب تمثل الإجماع – أو الأغلبية التى لها حكم الإجماع. فإن قرار الشعب يكون له حجية أصولية خاصة إذا لاحظنا ما ذهب إليه بعض الفقهاء من أن الإجماع يقضى على القرآن، باعتباره يمثل فهم الشعب المسلم للقرآن كما ذكرنا آنفاً. كما يجب الإشارة إلى أن الزيدية، وهى فرقة شيعية تقدم قضية العقل المبتوتة على القرآن الكريم[72]

وبالإضافة فيجب إعتبار أن مجلس صيانة الدستور كان إجراءً مرحليا يرتبط بمرحلة بداية الثورة، وأن هذا الدور قد انتهى لأن بقاءه يمحو – عمليا – مجلس الشورى.

---

71 **(71) المذكرات السياسية ص346.**

72 **(72) انظر كتابنا "الإسلام والعقلانية" دار الفكر الإسلامى – ص26 – 28.**

وإذا قـــام خلاف ما بين المرشد ورئيس الجمهورية فيتبع أســـلوب اســـتفتاء الشــعب. واعتقد أن مجــرد تقرير هــذا ســيجعل المرشد – كــالرئيس – يلحظ إرادة الشعب..

وعلى الجميع أن يؤمنـوا إن إرادة الشـعب من إرادة الله وأن أمة محمد لا تجمع على ضلاله.

* * *

من هـذا الاسـتعراض لحالة الـدول الـتى أريد فيها قيـام دولة إسلامية يظهر مدى إفلاسها وفشلها إذا قيست بمقـاييس الإسـلام الحقـه. ففى دولة ﴿أقــرأ﴾. تتفشى الأميـة، وكـان يجب أن لا يكـون بها أمي. وفى دولة ﴿وَقُلْ الْحَـقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَـاءَ فَلْيُـؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ و ﴿.. أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُـؤْمِنِينَ﴾. تقـوم الدعوة على أساس الإكـراه ويحـاكم كل صـاحب حر بقـانون الـردة اللعين. وفى دولة ﴿وَلَهُنَّ مِثْــلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِــالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَــالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَــةٌ﴾. توجد ألف درجة ودرجة بين النســاء والرجــال وفى دولة تكون فيها الزكاة ركناً ثالثا للإسلام لا نسمع شـيئاً عن الزكـاة ولا عن حسن تطـــبيق مصــــارفها وفى دولة محمد وأبى بكر وعمر وعلى الذين لم يأخذوا لأنفسهم شيئاً ولم يخلفوا دينــاراً ولا درهما يقــال إن نصف عوائد البــترول فى المملكة الســعودية تــأوول إلى الأســـرة المالكة والنصف الآخـر للشــعب بأســره ﴿تِلْــكَ إِذًا قِسْــمَةٌ ضِيزَى﴾.

وأسوأ من هذا كله وصمة الاعتقالات والسجون والتعذيب. لقد حــرم الإسـلام المثلة بــالكلب العقـور فكيف بإنسـان يمـارس حقه كمــواطن فى المعارضة ويعمل بما طلبه أبو بكر وعمر "إن أســأت فقومــــونى" فتكـــون النتيجة أن يســجن ويعـــذب وتصـــادر أمواله ويضـــطهد آلـــه. هــذا موجـــود ولا يمكن المجادلة فيـــه. وقد كـــانت السودان أبعد ما يمكن أن يتصور أن يوجد فيها تعـذيب، لأنه يخـالف طبيعة وفطـرة الإنسـان السـودانى ومع هـذا تـواترت الأنبـاء عن "بيـوت الأشـباح!" وكـانت إيـران بحكم اسـتلهامها أعظم الخلفـاء تسامحاً مع معارضـيه – على بن أبى طــالب – وبحكم خلائق الحسن والحسين أن تكون أبعد النظم عن التعـذيب. ومع هـذا فـإن آية الله منتظــرى الــذى كــان مرشــحاً لخلافة الخميــنى كتب إلى الخميــنى نفسـه" سُـمع أنكم قلتم إن فلانا يقرنـنى بالشـاة وأمـنى بسـافاك طبعا لا أفرض أن سـماحتكم هو الشـاه. ولكن جـرائم أمتكم بيضت وجه الشاه والسافاك. هذه الجملة أقولها بإطلاع دقيــق"[(73)]. وليس من شــهادة تقــدم من خليفة الخميــنى إلى الخميــنى نفسه مثل هذه...

من هنا، فإن الدولة الإسلامية كما طبقت بالفعل فى الدول التى أشــرنا إليها لم تحقق أهـداف الإسـلام كما لم تسـتطع أن تكـون "دولة الرعايـة" كما حـدث فى بعض الدول الأوربية أو "دولة الحرية" كما هو حال دول أخرى، ولا نهضت بالزراعة والتجــارة ولا حققت الأمن والأمان.. فخسرت الدنيا ولم تكسب الآخرة....

---

[73] **(73) المذكرات السياسية بقلم محمدى الرى شهرى ص334 وهو وزير الأمن فى عهد الخمينى. تعريب لجنة الهدى مؤسسة دار الحديث – إيران.**

الباب الرابع
إنما تتقدم الأمم بفضل الأنبياء والحركات الشعبية والجماعات والعلماء

أوضحنا فى الصفحات السابقة كيف أن السلطة أفسدت الأيديولوجيا وأن الدولة التى يفترض أن تكون خادمة للأمة أصبحت هى سيدة الأمة التى تتحكم فيها. وبدلاً من أن تجبى الضرائب لتقدم الخدمات من صحة، وتعليم، وأبحاث، فإنها تجبى الضرائب لتدعيم الجيش ومضاعفة البوليس وبناء السجون وإقامة نظم مخابرات وتجسس بحجة حماية الأمن الداخلى..

ولاحظنا أن دور الدولة حتى مشارف العصر الحديث اقتصر على شن الحروب لضم المزيد من الأراضى إذا كان على رأسها ملوك أو قادة عسكريين، أو لضم الأسواق إذا سيطر عليها الرأسماليون. وفى جميع الحالات فإن الشعوب لم تجن من هذه الحروب إلا سفك دماء شبابها وتشويه جزء كبير من شعبها بالعاهات التى تحدثها الحروب، فضلاً عن دمار البيوت وفساد المحاصيل الخ... وما أكثر ما استغلت الجماهير أسوأ استغلال واستحوزت على أموالها ولولا يقظة الشعوب فى القرنين الأخيرين فى أوربا – لما تنبهت الدولة إلى دورها الحقيقى فى خدمة الشعوب والجماهير.

وعند تحليل الوضع ووزنه نجد أن الجماهير تمكنت فى العصر الحديث وحده من كبح جماح الدولة، وألزمتها القيام بدورها كما حدث فى بريطانيا عندما حكم العمال لأول مرة بمفردهم سنة 1945 إذا بدءوا دولة الرعاية. وإن كانت هذه البداية لم تستمر طويلاً فى بريطانيا، كما أنها لم تظهر بهذه القوه فى غيرها. فلا تزال الجماهير تتخبط فى إسار النظم والأوضاع والتعقيدات التى أقامتها الدولة من العصور القديمة حتى الآن، ولا تزال عاجزة عن إلزام الدولة القيام بدورها الحقيقى.

وفى هذا الباب سنبرز أن تقدم الأمم لم يأت بفضل الحكومات والدول، ولكن جاء بفضل الأنبياء الذين نعتبرهم المُثل العليا للقيادات ونعتبر أن دعواتهم – الأديان – كانت هى التحرير الأول للجماهير فى العصور القديمة قبل أن تتقدم المجتمعات وتستطيع أن تنظم نفسها للدفاع أو لكبح جماح الحكومات ومن العجيب أن يبدو ذلك كما لو كان أمراً جديداً، مع أنه هو أقدم الظواهر فى تاريخ المجتمعات القديمة، ولكن اقتصار الكتابات عن الأديان على الجانب العبادى – الفردى – وإغفالها للجانب الجماعى الثورى – جعل إظهار وإبراز هذه الصفحة يبدو شيئاً جديداً.. مع أن شعوب هذه المنطقة تعيش فى عالم الدين.. تأكل وتشرب وتفكر وتقرأ الخ... كما يريد لها الدين.

فإذا انتقلنا إلى العصور الحديثة وجدنا أن توجيه الدولة إلى دورها الحقيقى إنما جاء بدفع الهيئات الشعبية والجماهيرية المتطوعة التى نظمها لفيف من الناس بوحى اهتمامهم بموضوعها وإيمانهم بالفكرة فيها سواء كان ذلك عن تعميم التعليم أو العناية بالصحة العامة والتأمين من المرض أو إصلاح القوانين – مدنية أو جنائية الخ... وقد ضربنا المثل بالحركة النقابية من بين الحركات المدنية والطوعية لأنها أعرق هذه الهيئات ولأنها استطاعت أن تحكم بوسائلها الخاصة نظماً لمعالجة الأجور وساعات العمل والتأمينات الخ... إلى آخر ما يتعلق بالعمل. ثم زحفت بحكم إيمانها الشعبى – على المجال السياسى – فقامت فى بريطانيا بأول محاولة شعبية جادة وعميقة لإصلاح النظام الانتخابى البريطانى فى الحركة التى حملت اسم حركة الميثاق أو الحركة الميثاقية فى منتصف القرن التاسع عشر والتى لا يكاد كتاب النظم الدستورية يعرفون عنها شيئاً. ثم نظمت مع حليفتها الجمعية الفابية حزب العمال.

وأخيراً نأتى للعصر الحديث الذى بـدأه العلمـاء فى كل مجـال، فهو مـدين للعلم والعقل والفكر فى كل تخصص سـواء كـان علـوم بيولوجيـة أو هندسـية أو رياضـية أو فلسفة الخ... وقد بدأ مع حقبة "الرينسـانس" وظل حـتى أديسن وفـورد اللـذين يـدين إليهما العصر الحديث بالإنجازات التى تغطى أكبر مجـال فى حياتنا فى العصر الحـديث حتى ثورة الكومبيوتر والإنترنت التى نعايشها.

واقــترنت حركة النهضة العلمية بفكــرة "التقــدم وإثــراء الحيــاة" وجعل قــوى الطبيعة فى خدمة حاجات المجتمع البشرى.

فالدعوات الدينية، والجماعات المدنية، والألـوف وعشـرات الألـوف من العلمـاء هم سر تقدم الأمم – وليس الحكومات، ولو تركت الحكومات وحـدها، لما قـامت بغـير الحروب واستغلال الشعوب..

الفصل الرابع عشر
الأنبياء أول الدعاة لتحرير الشعوب

—

إذا عـدنا إلى أعمـاق التـاريخ، إلى تلك العصـور المجهولة الـتى لا نعلم عنها إلا القليل والتى كانت شـعوبها تعيش على الزراعة أو الـرعى أو الحـرف اليدويـة. والـتى سادتها الجهالة والأمية، والخرافة، وحكمها طغـاة مؤلهـون وتسـاءلنا كيف كـانت حيـاة هذه الشعوب ؟.

إذا حكمنا بطبائع البشر، وضرورات الاجتماع فيمكننا القـول إنهم كـانوا يعيشـون فى شقاء وبؤس وكدح يتعرضون للأمراض والأوبئة، ولا ينالون ولو بصيصاً من المعرفة التى كانت محصورة فى أيدى الكهنة، وكان الملوك والأرسـتقراطيات الحاكمة لا تظفر – إذا ظفرت – إلا بقسط ضئيل منها.

كان الدين هو القـوة المهيمنة فى هـذا المجتمع إذ ارتـؤى أنه يقـدم الحل الـذى يقلق إنسان هـذه العصـور ويشـغل باله من شـمس بازغة إلى بحـار هـادرة إلى أنهـار جارية إلى أمطار تنزل من السماء.. ثم ما يحدث للإنسـان عنـدما ينـام من أحلام تنقله إلى عوالم خيالية، وأخيراً الموت التى ينهى الحياة تماماً... هـذه الظـواهر الـتى كـانت تكتنف الإنسان القديم لم يكن يجد لها حلاً.. إلا فى الـدين الـذى قـام وقتئذ على مـزيج من الخرافة والسحر والطلاسم والطقوس.. الـتى تحـاط بها الأوثـان المعبـودة وتنسج حولها الروايات عن قدراتها. وظهرت فئة "الكهنة" الذكية الـتى احتكـرت هـذا المجـال الهام ووظفته لمصلحتها وتعـاونت مع السـلطة بحيث قـام بينهما تحـالف وثيق فالكهنة يضفون على الملوك، والفراعنة، والأباطرة، الصفة الإلهية المقدسة، وهـؤلاء يعـترفون للكهنة باعتبارهم القوامين على هـذا المجـال وبهـذا التحـالف تُحْكَم السـيطرة الروحية والفعلية على الجماهير.. بحيث استحال عليها أن تتخلص منها.

أمام هذا الطـوق المحكم، أمـام هـذا السد المغلق اسـتحال على الجمـاهير فى تخبطها وجهالتها وفاقتها وتفرقها أن تستنقذ نفسها بنفسـها، وأصـبحت شـعوب العـالم فى هذا سواء. فالوثنية القديمة جعلت العالم "أمة واحـدة" بتعبـير القـرآن الكـريم فى استخذائها للأوثان والطغاة حتى وإن اختلفت الأسماء فى مصر عنها فى روما عنها فى بابـل.. كلها أوثـان، كلها كهنة كلها ملـوك طغـاة.. كلها اسـتبداد وتسـخير للشـعوب والجماهير.

وهكـذا كان الناس أمة واحدة فى غفلتها، واستخـذائها واستسـلامها. ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمْ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾. {213 البقرة}..

لم يكن من الممكن أن تتحرك الجماهير، ولم يكن طبيعياً أن يكون منفذوها هم مستعبدوها. كانت القوة الإلهية وحدها هى التى يمكن أن تنقذ الشعوب والجماهير.

ماذا قدم الأنبياء للبشرية فى عهودها القديمة عندما كانت هذه الجماهير عـاجزة مجردة من القوة...

قـامت دعـوة الأنبيـاء أولاً قبل كل شـىء بتخليص النـاس من عبـادة الملـوك والأباطرة، أو الأوثان التى نصبوها رموزاً لبعض مظاهر قوة الطبيعة وما كـان يسـتتبعه من طاعة عمياء للملوك على أساس أنهم آلهة. وقد كـانت كل الشـعوب القديمة تؤله ملوكها بدرجة أو أخرى من فراعنة مصر حتى أباطرة الرومـان. وكـانت هـذه النقطة – تألية الأباطرة – هى التى حملت الرومان على مقاومة المسيحية واضطهاد المسيحيين الذى أشرنا إليه من قبل

قد يقال إن الأنبيـاء أنقـذوا البشر من عبـادة الملـوك والأبـاطرة وأوقعـوهم فى عبـادة اللـه. ولكن الله تعـالى فى الحقيقة هو الكمـال المطلق والعبودية له ليس فيها شـبه للعبودية للملـوك حـتى وإن تضـمنت صـلواتها ركوعـاً وسـجوداً ما دام هـذا كله للكمــال والحكمة والمثل الأعلى والقــوة الــتى خلقت الســموات والأرض ووضــعت النواميس والسُنن لسيرها جميعاً. فالإيمان بالله جزء من كمال الاعتقاد.

وقام الأنبياء عملياً بدور المحرر للشعوب والجماهير فى ثورات هى أعظم وأنبل الثورات، وأقلها سفكا للدماء.

هو ذا موسى يتقــدم إلى فرعــون ليطلق ســراح قومه اليهــود الــذين كــان المصــريون قد اســتعبدوهم وســخروهم فى أشق الأعمــال وأخضــعوهم لصــنوف من الاستغلال والاستعباد حـتى ظهر فيهم موسى وطـالب فرعـون بـأن يحـررهم ويـتركهم ينطلقــون إلى بلاد أخــرى لا تفــرض عليهم الســخرة ورفض فرعــون وتمسك موسى واستطاع بتأييد من الله أن يقود بـنى إسـرائيل من "بيت العبوديـة" إلى أرض الحريـة، وأن يبدأ تاريخ الشعب اليهودى بظهور هذا القائد المحـرر الـذى أنقـذهم من الاسـتعباد وقادهم إلى أرض الحرية.

وأنقـذت المسـيحية الشـعوب المسـتعبدة فى الـرق الرومـانى وشـرعة روما الطبقية والقائمة على السـيف إلى شـعوب حـرة أبيه تسـتعذب العـذاب فى سـبيل إيمانهـا، وتتوصل فى النهاية إلى إنهـاء الحكم الرومـانى بأباطرته المعبـودين وشـرعته الطبقية..

وظهر خاتم الرسل محمداً وسط قبائل عربية متنازعة متحارية يغير بعضها على بعض وتفخر بسـبق جـواد أو كسب الميسر وشـرب الخمـر.. إلى أمة تحمل الكتـاب والمـيزان وتعِّرف الحضـارة الفارسـية والحضـارة البيزنطية على مثل وقيم المسـاواة والعدل والرحمة والخير..

واقترنت دعوة الأنبياء للإيمان بالله، بمجموعة من التوجيهات والأوامر والنـواهى كلها تمثل القيم العليا الـتى يصـلح عليها نظـام المجتمـع. وكـان لابد لها من هـذا حـتى تتميز الدعوة لله التى يتقدم بها الأنبياء عن الدعوة للآلهة الوثنية التى يتقـدم بها الكهنة والتى تتضمن صنوفاً من التفرقة الطبقية والتمـيز والـتى تقر الظلم والبغى. وقد قـدم كل نبى من الأنبياء رسالته فقدم موسى وصاياه العشرة التى تنص على :

أنا الرب إلهك الذى أنقذك من مصر بيت العبودية :

1. لا تعبد آلهة أخرى.
2. لا تقم صنما يصور أى شىء فى الأرض أو فى السماء أو فى أعماق الماء.
3. لا تسئ استخدام اسم الرب إلهك لأن الرب لا يغفر لمن يفعل ذلك.
4. تـذكر السـبت واحتفظ به مقدسـاً تعمل أعمالك كلها فى سـتة أيـام وتخصص اليوم السابع للرب. ففى هذا اليوم لا يجوز له، ولا لابنك أو ابنتك ولا لخادمك أو خادمتك ولا لحيواناتك ولا لغريب داخل بابك.
5. احترم أباك حتى تعيش طويلاً فى الأرض التى منحها الله لك.
6. لا تقتل.
7. لا تزن.
8. لا تسرق.
9. لا تشهد زوراً على جارك.
10. لا تشته بيت جارك ولا زوجته، أو خدمه، ولا ثوره ولا حماره، أو أى شىء يملكه.

بينما قـدم المسـيح خطبة الجبل الـتى أوردناها بالكامل فى الفصل السـابع من هذا الكتاب.

أما محمد فقد بلـور فى خطبة الـوداع الـتى ألقاها يـوم الحج الأكـبر قبيل وفاته وقال فيها" "أيها الناس، إن دمائكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقــوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وإنكم سـتلقون ربكم، فيسـألكم عن أعمـالكم، وقد بلغت فمن كانت عنـده أمانة فليؤدها إلى من أتمنه عليهـا، وإن كل ربا موضـوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم، لا تظلمون ولا تُظلمون. قضى الله أنه لا ربـا، وإن ربا عبـاس بن عبد المطلب موضـوع كلـه، وأن كل دم كـان فى الجاهلية موضـوع، وإن أول دمـائكم

أضع دم ابن ربيعه بن الحارث بن عبد المطلب[74] أما بعد أيها الناس، فإن الشيطان قد يئس من أن يُعبد بأرضكم هذه أبدا، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم، أيها الناس: إن النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً، ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله، ويحرموا ما أحل الله، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله أثنا عشر شهرا، منها أربعة حُرم، ثلاثة متوالية ورجب مضر، الذى بين جمادى وشعبان.. أما بعد أيها الناس، فإن لكم على نسائكم حقا، ولهن عليكم حقا، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن عندكم عوان، لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله، فاعقلوا أيها الناس قولى، فإنى قد بلغت، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا، كتاب الله وسُنة نبيه. أيها الناس، اسمعوا قولى واعقلوه، تَعَلَّمُنَّ أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين أخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تْظِلمُنَّ أنفسكم، اللهم هل بلغت".

* * *

على أن هذا ليس هو كل ما قدمه الأنبياء.. لقد قدموا أيضا النموذج الأمثل للقائد، واتصفوا بما لا يتصف به عادة القادة، كما عرفهم العالم القديم، من سيطرة وتسلط واستحواز على الثروات الخ... برؤوا من كل لوثات الضعف والانحراف والنقائص فكانت أخلاقهم كريمة لا تشوبها شائبة.

والأنبياء عادة من صميم الشعب، وهم يتقدمون بدعوتهم للجميع، ولكن قلما يؤمن بها الحكام والمترفون.. لأنهم يرون فيها ما يمس وضعهم المتميز ومزاياهم الطبقية، وإنما يؤمن بها عامة الشعب والفقراء والكادحون فى الأرض أو الحرف والفقراء المجردون من الثروات.. باختصار من كان يطلق عليهم الحكام "أراذلنا" ومن كانوا يرون أن إيمان هؤلاء يجعلهم يترفعون عن الإيمان بالرسل حتى لا تتساوى الرؤوس.

والأنبياء يجوبون الأسواق ويتحدثون إلى الناس ويقيمون دعوتهم على "الحوار" وعلى تقديم البينة والحجة وعلى إثارة ما فى نفوس الناس من عناصر خير كامنة فيه.

واقرأ مثلاً هذه الآيات التى تمثل حوار الأنبياء نبياً نبياً مع شعوبهم وجماهيرهم..

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يا قوم اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ **(59)** قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ **(60)** قَالَ يا قوم لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ **(61)** أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ **(62)** أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ **(63)** فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ **(64)** وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يا قوم اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ **(65)** قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنْ الْكَاذِبِينَ **(66)** قَالَ يا قوم لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ **(67)** أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ **(68)** أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ **(69)** قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنْ الصَّادِقِينَ **(70)** قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنْ الْمُنتَظِرِينَ **(71)** فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ **(72)** وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يا قوم اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ

---

74 **(74) وكان مسترضعا فى بنى ليث، فقتلته هُذيل، فهو أول ما بدأ به من دماء الجاهلية.**

غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(**73**) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ(**74**) قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ(**75**) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ(**76**) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يا صالح ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنْ الْمُرْسَلِينَ(**77**) فَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ(**78**) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يا قوم لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ(**79**) وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ الْعَالَمِينَ(**80**) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ(**81**) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ(**82**) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنْ الْغَابِرِينَ(**83**) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ(**84**) وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يا قوم اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ(**85**) وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ(**86**) وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ(**87**) قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شعيب وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ(**88**) قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ(**89**) وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ(**90**) فَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ(**91**) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمْ الْخَاسِرِينَ(**92**) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يا قوم لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ(**93**) وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ(**94**) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾. {95 الأعراف}..

وكذلك...

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ(**9**) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ(**10**) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ(**11**) وَمَا لَنَا أَلا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُتَوَكِّلُونَ(**12**) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾. {13 إبراهيم}..

لقد حول رفض المشركين القاطع لدعوة الأنبياء، وتهديدهم الأنبياء بمختلف صور الاضطهاد.. الحوار إلى صراع ما بين الحق والباطل، ولم يكن مناص من أن تقوم المعجزة بدور في هذه الأزمان البائدة.. وقد يثير ذلك شيئاً من العزوف.. لدى البعض، ولكن هل كان الأفضل ترك الباطل يتحكم ويستشرى، وهل كان الأفضل أن يقود الأنبياء جيشاً يقهروا به المشركين؟ وإنى لهم هذا والقوة والمنعة فى أيدى الحكام أو هل يكون أكثر معقولية لو قضى عليهم بزلزال أو سيول الخ... إن صراع القوى فى المجتمع أمر واقع، ولا مفر منه، وعلى كل حال فإن دور المعجزة الخارقة للطبيعة قد انتفى مع ظهور الإسلام لأن معجزته كانت كتاباً..

* * *

بالإضافة إلى أسلوب الحوار، فإن الأنبياء لا يطلبون أجراً ولا يريدون منصبا. وإذا قدرنا أن القيادة فى الدأب المألوف والممارسات الجارية هى السبيل إلى الثروة والجاه والمنصب والرئاسة لظهر لنا كيف أن تجرد الأنبياء يعطيهم، ويعطى قيادتهم، صفة مختلفة عما ألف الناس فى القادة

هو ذا نوح يقول :

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. {127 الشعراء}..

وهو ذا هود :

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. {155 الشعراء}..

وهذا لوط :

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. {180 الشعراء}..

وأخيراً قول الرسول :

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾. {47 سبأ}..

* * *

إن...

- إنقاذ البشرية من تأليه الحكام وسيطرة الكهنة وتعريفهم على الله تعالى.
- القيام عمليا بقيادة ثورات التحرير الكبرى التى حررت اليهود المستعبدين، والمسيحيين المستضعفين والتى جعلت من القبائل العربية المتنازعة رسل حضارة يحملون الكتاب والميزان.
- اقتران الإيمان بالله بمجموعة من القيم التى تكفل سلام المجتمع واستقامته بدءاً من الوصايا العشر فى اليهودية حتى خطبة الوداع فى الإسلام مروراً بخطبة الجبل من المسيح.
- إدارة الدعوة بأسلوب الحوار دون قسر أو ضغط.
- التجرد الكامل بحيث لا يقبل الرسول أجراً ولا يتقلد منصبا، وإنما يقوم برسالته حسبة وقربى..

هذه كلها قدمها الأنبياء فأى قادة قاموا ببعض – لا بكل ما قاموا... ؟

إننا لا نرى ذكراً للجماهير فى هذه العصور الموغلة فى القدم إلا على لسان الأنبياء، ولا نرى عناية بهم، إلا عندهم وقبلهم كان التركيز على الطبقات المميزة والحكام والأثرياء الخ...

إن الأنبياء مثل عليا فى الخلق الكريم من صدق وشجاعة وإخلاص الخ...

من أجل هذا قلنا فى "إيماننا" الذى يبلور دعوة الإحياء..

"الأنبياء هم القادة الحقيقيون للبشرية، ويجب جعلهم المُثل فى القيادة، وإطراح أحكام الطاغوت من قادة جيوش أو أباطرة أو ملوك الخ... وما وضعوه من سياسات القهر التى لوثت فكرة الحكم والقيادة وأساءت إلى البشرية.

ونحن نؤمن أن الإسلام قد قدم الصورة المُثلى لله والرسول، على أننا نفهم الصور التى قدمتها الأديان الأخرى، لأن الدين أصلاً واحد، ولكن الشرائع متعددة، ونحن نؤمن بالرسل جميعا، وأن الله تعالى أراد التعدد والتنوع ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾. وأن الفصل فى هذا التعدد هو إلى الله تعالى يوم القيامة". ولا ينفى هذه الحقيقة أن تكون الفلسفة والآداب والفنون قد حلت محل الدين فى المجتمع الأوربى فلكل مجتمع طبيعته الخاصة وقدَره الذى لا يمكن التمرد عليه أو التنكر له، وفى الوقت نفسه – فإنه لا يحول دون تلاقح الأفكار وتحاور الحضارات، وتقارب الديانات لأن الحكمة ضالة المؤمن، ولا ينفى هذا أن تَعَرُفْ الجماهير الأوربية على سيرة السيد

المسيح أضفى قدراً من المحبة والخدمة التطوعية فى المجتمع الأوربى، ولكن هذا لم يؤثر على السياسات، ولا على القادة الذين استحوزت عليهم ضراوة الربح أو السلطة.

وفى نظرنا أن أعظم خسارة خسرتها أوربا هى أنها لم تطلع تماماً – وبالصــورة السليمة – على هذا السـجل الخالد النبيل فى تـاريخ تحرير الشـعوب ونمـوذج القيـادة الذى جـاء به الأنبيـاء، وبالتـالى اتسـمت قياداتها بـالجبروت والانتهازية واقتصـرت على القيم الذاتية التى ليس لها كمال أو موضوعية أو حصانة القيم الدينية.

الفصل الخامس عشر
الحركة النقابية
تنهض بمستوى حياة الشعب البريطانى

بعد الأنبياء فى النهضة بالشعوب والجماهير تأتى الجماعات المتطوعة التى يؤسسها رجال ونساء يؤمنون بأفكار اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية معينة ويرون فيها تقدم بلادهم ويجدون أن تكتلهم فى جماعة يزيدهم قوة، ويمكنهم من التأثير على السلطة وساعدهم على ذلك أن الحرية التى هى أساس النظام الرأسمالى لم تكن لتتجزأ، وكان لابد من السماح بتكوين مثل هذه الهيئات والتجمعات..

وهكذا ظهر فى مجال التعليم جماعات تدعو إلى تعميمه، ومجانيته وإصلاحه وتغيير مناهجه بما يتفق مع متطلبات الحياة، وإطلاق المبادءات والملكات الحرة للدارسين وعدم الاعتماد على وسيلة التلقين التقليدية.

وظهر فى مجال تحرير المرأة هيئات عديدة تضم الرجال والنساء معاً تدعو إلى تحقيق المساواة بين المرأة والرجل بما فى ذلك حق الملكية والعمل وحق التصويت وحق الترشيح.

وظهر فى مجال الصحة العامة هيئات تدعو لإصلاح نظم التمريض والعلاج فى المستشفيات، وحق الشعب فى العلاج المجانى أو المدعم من الدولة، والحق فى الإجازات المرضية الخ...

ولم تعدم السجون من يتصدى لإصلاحها ويدعو لنبذ الوسائل الوحشية المتبعة فيها، فظهرت جمعيات عديدة تدعو لإعادة النظر فى القوانين العقابية وتكييف الجريمة ومعاملة السجين وأن المجرم فى كثير من الحالات، يكون ضحية الظروف الاجتماعية التى أدت به إلى الجريمة.

وظهرت الجمعيات السياسية والأحزاب التى طالبت بالنظم الانتخابية الشعبية وتقييد سلطة الحكم وأن تكون السيادة للشعب.. وأن يتولى الحكم الأحزاب أو الهيئات التى تنال ثقة الجمهور، وأن تحل الديمقراطية محل النظم الأتوقراطية والأرستقراطية.

أما فى مجال الدين فحدث ولا حرج عن الهيئات والجماعات والمذاهب التى ظهرت بعد أن انقطع الوحى من السماء فنهضوا بتراث الأنبياء ودعوا إلى تنقية العقيدة وتصحيح المفاهيم والتحرر من آثار الأسلاف والقضاء على الخرافات التى تلتصق بالعقائد. وقدم رجال كثيرون حياتهم ثمنا لدعواتهم الإصلاحية إذ أحرقوا أو قتلوا أو سجنوا أو عذبوا..

وفى ميدان الفنون والآداب تعددت الجماعات والهيئات والفرق التى أنزلت الآداب والفنون من أبراجها العاجية ومن دوائرها الأرستقراطية إلى واقع الحياة ومكنت الجماهير من الاستمتاع بما لم يكن يستمتع به إلا الأرستقراطيات فتعددت الفرق المسرحية – وظهرت فنون الغناء والموسيقى وأدخلت البهجة والمتعة فى حياة الكادحين، وظهرت مع ظهور المطبعة الملايين من الطبعات الشعبية والرخيصة للآداب العالمية من فن ونظم، ونثر وشعر وقصة ورواية.

هذه الهيئات والجماعات هى التى نهجت ونظمت مشاعر وآمال الأفراد، وبلورتها فى دعوات تقوم بها هيئات لها وجود مستقل ودائم. لقد كانت هى المعبرة الحقيقية عن نبض الشعب وإرادته ورغباته وعملت بكل قوة لتحقيقها بمختلف الطرق من دعاية ونشر واتصال واتفاق مع أعضاء المجالس النيابية والمحلية والبلدية ومطالبات متكررة للحكومات واتخاذ وسائل للضغط من مظاهرات أو مسيرات أو إضرابات أو غير ذلك بحيث كبحت جماح السلطة وحيدت فسادها بل استطاعت – كما

سنرى فى المثال الذى اخترناه مثال الحركة النقابية البريطانية وسعيها الدائب متعاونة مع جناحيها الجمعية الفابية وحـزب العمـال. أن تحقق لأول مـرة سـنة 1945 دولة الرعاية عندما استطاع حزب العمال أن يحكم بريطانيا بأغلبية برلمانية كاسحة.

وحقا إن هـذه الجهـود كثـيراً ما تُصـاب بنكسـات، وتضـطر للرجـوع إلى الـوراء خطوات، ولكنها تواصل المسيرة فتعوض خسائرها..

* * *

من بين هـذه الهيئـات والجماعـات التطوعية اخترنا كمثـال الحركة النقابية لأنها بسعيها الدائب وبوسائلها الفنية الـتى سـنتحدث عنها رفعت ظـروف العمل من أجـور، وتأمينات الخ... ونهضت بمستوى حياة الشعب البريطانى كما وضعت فى وقت مبكـر. (1838) "ميثاق الشعب لإصـلاح النظـام الانتخـابى البريطـانى فـأدت مواصـلتها لهـذه المسيرة دون كلل وبفضل جناحيها الجمعية الفابيـة. وحـزب العمـال إلى تحقيق ثـورة فى أسلوب الحكم وأن توجد لأول مرة دولة "الرعاية"..

إن الوعى عن هذه الجماعات والهيئات والحركات ضحل وسـطحى، وبوجه خاص بالحركة النقابية التى هى أشمل هذه الحركات وأهمها لأنها تضم العاملين جميعـاً من رجـال ونسـاء دون تفرقـه. ولأنها هى القّوامة على مرفق العمل أى أنها هى الـتى تحـرك عجلة الإنتـاج فى المصـانع والحقـول والمرافـق.. ولعلنا بتسـطير هـذه الصـفحات أن نسـتكمل هـذا النقص فى المعرفة.

* * *

الثورة الصناعية :

كانت البشـرية تسـتخدم فى صـناعتها وزراعتها وسـائل توارثتها الأجيـال طـوال القرون الماضية وكانت هذه الوسـائل تعتمد على اليد وتتمـيز بالمهـارة المسـتمدة من الذكاء الفردى أو صفات القوة والمهارة والدأب التى تمـيز بها بعض النـاس عن بعض، ولكنها بصفة عامة كانت واحدة فى الشرق والغرب، فى الشمال والجنوب..

ونتيجة لعدد من التطورات التى لا يتسع المجال لتفصيلها هنـا، ظهر فى إنجلـترا فى الثلث الأول من القـرن الثـامن عشر حـدث على أعظم جـانب من الأهمية والخطورة وإن بدا أولاً أنه لا يثير الانتباه. ذلك الحدث هو اكتشاف قوة يمكن أن تقـوم بالعمل غير قوة الأيدى البشرية. وبشكل أكثر اتصالاً وقـوة مما يتـوفر للأيـدى. وكـانت هـذه القـوة هى البخـار. الـتى بـدأت سـاذجة ولكن التحسـين المتـوالى فى طريقة استخدامها أدّى إلى صنع آلات للغـزل والنسيج تحل محل الأنـوال اليدوية الـتى كـانت تنتشر فى قرى إنجلترا وتقوم عليها صناعة غزل ونسيج الصوف الـتى كـانت من أكـبر مـوارد قـوة بريطانيـا.. وفى مرحلة لاحقة على امتـداد قـرن من الثلث الأول للقـرن الثـامن عشر حـتى الثلث الأول للقـرن التاسع عشر اسـتخدمت هـذه القـوة لتسـيير القطار البخارى. وشاهد الناس مبهورين عربات تترابط وتسـير دون أن تجرها الخيـول والبغال..

وقلبت الثورة الصناعية عالم الصناعة والعمال رأساً على عقب. وتعـرض عمـال بريطانيا للتشـرد، ولم تعد ورشـهم الحرفية وآلات الغـزل والنسـيج اليدوية والخشـبية تغنى شيئاً أمام المارد المصنوع من الحديد والذى يتغذى بالفحم والنار وظهـرت طبقة الرأسماليين، وهم أصلاً من التجار الذين دخلوا مجال الصـناعة كـأداة للكسب فهبطـوا بالأجور وأطالوا ساعات العمل. وزاد فى شقاء العمال البطالة التى شـردتهم وجعلتهم ضـحايا مستسـلمة أمـام الرأسـماليين فأعـدادهم تزيد عما تطلبه الآلات. وبهـذا أصـبح قانون العرض والطلب فى غير مصـلحتهم، ولما كـان العمل يعد وقتئذ سـلعة ثمنها هو الأجـر، فـإن قـانون العـرض والطلب الـذى يحكم أثمـان السـلع أصـبح تلقائيا فى غـير مصلحة العمال.

وكـان يفـترض طبقـاً لاقـتران قـانون العـرض والطلب بظـاهرة زواج العمـال وإنجـابهم أن تبخس أجـور الجيل الثـانى من العمـال أكـثر من أجـور الجيل الأول. لأن

الجيل الثانى تزوج وانجب فى حين أن الوظائف قلت لزيادة استخدام الميكنـة. وهكـذا تنزل أجور هذا الجيل الثانى، وتتكرر المأساة مع الجيل الثالث والرابع حـتى يصل الأجر إلى الكفاف الذى لو نزلت عنه لمات عدد من العمال جوعاً. ولو مات عدد من العمـال جوعاً لقل عـددهم، ولو قل عـددهم لارتفع أجـرهم، وهـذا هو قـانون الأجـور الحديـدى الذى حدد للعامل جحيما "لا يموت فيه ولا يحيا" وكان من الممكن أن يتحقق هذا، فقد تخلت الكنيسة عن العمال. وكانت الحكومة هى حكومة أصحاب الأعمال، وكان المنـاخ هو مناخ الأثرة الفظة "كل لنفسه.. وليأخذ الشيطان الأخير" وصارح مـالتوس الفقـراء أن ليس لهم أن يشـكوا.. فلم يسـتأذنوا الطبيعة قبل أن يـأتوا.. وأن على الفقـراء أن يعملوا لكى لا يزدادوا فقرا. وبررت كل سـوءات الرأسـمالية بمـبررات بـدت معقولـة! فالبطالة ليست نقمة، بل هى نعمة وجزء لا يتجـزأ من آليـات النظـام. وكيف يمكن أن تفتح أو تغلق المصـانع ما لم يوجد هــذا الجيش الاحتيــاطى من العمــال العــاطلين، وسـاعات العمل الطويلة المرهقة حسـنة! لأنها تعـود الأطفـال العمل والـدأب وتقضى على نزعة الكسـل، والأجـور الضـئيلة مطلوبة لأنها تجـبر العمـال على مواصـلة العمل وتحول بينهم وبين التردد على الحانات !.

كـان من الممكن أن يتحقق هـذا الجحيم الـذى يعيش فيه العمـال كما لو كـانوا قطيعاً آدميا، مسخراً للعمل وتستبعد منه كل أثارة لإنسانيته...

لو لم تقم النقابات...

الفكرة الجوهرية فى النقابية: احتكار عرض العمل

ووسيلة التطبيـق : الاتفاقيـات الجـماعيـة...

لكى يمكن للحركة النقابية مقاومة هجمة الاستغلال الرأسمالى العاتيـة. أبـدعت تكنيكا لم يتصــوره دهاقنة الصــناعة والاقتصــاد السياسى وقتئــذ، واســتطاعت بهــذا التكنيك. أن "تحتكر" عرض العمل فشلّت حرية هذا القانون وانطلاقته التى تحكم على العمـال بالعبودية ووجد أصحاب الأعمـال أنفسـهم ذات يـوم وقد ظهـرت هيئة اسـمها نقابة تضم كل العمـال. وتتقـدم باسم العمـال طالبـة زيـادةً فى الأجـور وتقصـيراً فى ساعات العمل الخ... فإذا رفضـوا فلن يعمل لـديهم عامل واحد لأن كل العمـال وكلـوا النقابة فى التحدث باسمهم.

لقد أسقط فى أيديهم، فمهما كانت الآليـة، فالعمـال هم الـذين يحركـون الآلات. والعمال فى النقابـة، وإلى النقابة سـار أصحاب الأعمـال، أو أنهم قابلوها فى منتصف الطريـق. ووجـدوا أنفسـهم يجلسـون مع العمـال على مائـدة واحـدة ويتسـاومون فى المطــالب.. ويســلمون للعمــال بما يمكن أن يحــول بينهم وبين الإضــراب. ويُوقعــون "اتفاقية جماعية".

كان هذا انتصاراً مـؤزراً. فى إبـداع الأسـلوب والوصـول إلى النتيجـة. ومن هـذه اللحظة وقف نزول الأجور وامتداد سـاعات العمـل. والاسـتبداد الطليق بالعمـال. فهل هناك قصة أكثر إنسانية من هذا ؟ وهل هناك انتصار فى معركة اجتماعية يماثله ؟.

ولم تقف النقابة عند البداية الــتى أبــدعتها. إذ وضــعت سياسة دقيقة ومحكمة لكفالة استمرار زيـادة الأجـور عند تجديد كل اتفاقيـة، ومـدتها فى العـادة ما بين سـنة وثلاث سنوات، وحددت هذه الزيادة بشكل يجعلها الأفضل لصـاحب العمل ويحـول بينه وبين أن يدخل معركة مسـتقتلة مع العمـال.. أو يغلق المصـنع الخ... بحيث يـذعن فى النهايـة، وبـذلك فرضت النقابـات علاوات دورية على الأجـور، وعلاوات أخـرى طبقـاً للإنتاج. وعندما خدعها أصحاب الأعمال. فمنحوا العمال الزيادات المطلوبة فى الأجور، ثم رفعوا الأسعار. بما يزيد عن زيادة الأجور، ووجد العمال أنهم كمستهلكين يخسـرون ما كسبوه كمنتجين، لم تستسـلم النقابـة، إذ توصـلت إلى إدمـاج مـادة فى الاتفاقيـات الجماعية تنص على أنه إذا زادت أسعار المواد الرئيسية التى هى قـوام معيشة العامل من خبز أو لحم أو سكر أو زيت الخ... بنسـبة مئوية معينـة. فـإن الأجـور تزيد بالنسـبة المئوية التى زادت بها الأسعار..

وهكذا استطاعت الحركة النقابية أن ترفع المستوى العام للأجــور. وأن تكفل له زيادات دورية، وزيادات مع زيادة الإنتـاج وزيـادات مع زيـادة الأسـعار.. وكل زيـادة من هذه الزيادات المادية لها ترجمتها الإنسانية: عواطف ومشاعر، واسـتقرار وأمن، ونــور ودفء واسـتقرار، ورضا وقـدرة على الاسـتمتاع بالحيـاة وممارسة مجـالات النشـاط الإنسانى من فنون وآداب.

ولم يقتصر فضل الحركة النقابية فى مجـــال الأجـــور على العمـــال. لأن من المعروف أنه عندما تزيد أجور فئة ما من العمال فـإن هـذه الزيـادات تنتقل إلى أجـور عمال آخرين، ثم إلى فئـات أخـرى غـير العمـال من حرفـيين أو فلاحين. وفى إنجلـترا يقولون "إذا زاد أجر الفحام زاد مرتب الأسقف". فعمل الحركة النقابية الذى بـدأت به نقابة أو نقابتـان تحـول إلى ثـورة سـلمية أعـادت توزيع الـدخل فأخـذت من الأغنيـاء وأعطت الفقــراء وحققت العدالة الاجتماعية لا بالنسـبة للعمـال فحسـب، ولكن لكل فئات المجتمع..

وحقق العمــال انتصــاراتهم تلك بوسـيلة المفاوضة الجماعية الـتى تعد وسـيلة حضارية بمعنى الكلمة، لأنها تختلف عن الحـروب الـتى تسـوى بها الـدول مشـاكلها ما بينها. أو الضغوط التى يمكن أن تمارسها الحكومة على شعبها من سـجن أو اضـطهاد. وهى بالإضافة إلى أسلوبها الحضارى. فإن هـذا الـدور له طابعه الجمـاعى الـذى يعمل لتحقيق المصلحة للمجموع لا للفرد ويقوم على الشورى والديمقراطية وليس باستبداد طرف واحد باتخاذ القرار.

الإضراب: وسيلة الضغط النقابى..

وليس معنى هذا أن الحركة النقابية لم تجد نفسها فى حاجة إلى وسيلة للضغط لأن هذا يتنافى مع الطبيعة البشرية وما طبع عليه المميزون من حرص على مزايــاهم، فأبـدعت الحركة النقابية **أسـلوب الإضـراب** كوسـيلة للضـغط وهو أيضـاً أسـلوب حضـارى لأنه لا يسـتخدم الأسـلحة أو العقوبة ولكنه الامتنـاع الجمـاعى السـلمى عن العمل الذى يتحمل فيه العمال من التضحية يقـوم أصحاب الأعمـال بتقديمـه، وما قد يكون بالنسبة لظروف العمـال – أقسى عليهم مما هو على أصـحاب الأعمـال – وكـان هذا السلاح رغم طبيعته السلبية فعالاً وأرغم أصـحاب الأعمـال على التسـليم للعمـال بما هو عادل ومعقول.

ولما كان الإضراب هو وسيلة النقابات الفعالة للضغط، ولما كان من المسـلم به أن النقابـات هى الأداة المنظمة لحماية العمـال وتحقيق مطـالبهم، فـإن التشـريعات اعترفت بمشروعية الإضراب المهنى. كما اعترفت به المواثيق الدولية عن العمل.

أن ســلاح الإضــراب الــذى أبدعته الحركة النقابية فى صــراعها المهــنى مع الرأسماليين، يمكن أن يكـون سـلاحاً لكل هيئـات المجتمع لتحقيق مطالبة المشـروعة بحيث يمكن القـول أن الحركة النقابية قد أهـدت إلى المجتمع أسـلوبا فعـالاً للضـغط دون أن تكون له الآثار السلبية لوسائل الضغط الأخـرى وهـذا هو ما حـدث فإضـرابات الطلبة والأحزاب السياسية قد لا تقل عن الإضرابات العمالية.

ولم يقف إطـار العمل النقـابى حـول زيـادة الأجر فقد شـمل تقصـير سـاعات العمل، وتطبيق وسائل الأمن الصـناعى وكل ما يتعلق بصـحة العمـال الخ... وممارسة هذه المطالب كان يوسع إطار "الشورى" الصناعية مع أصـحاب الأعمـال بحيث حققت النقابات الديمقراطية بعد أن حققت العدالة دون أن تتورط فى أوزار السياسة.

ميثاق الشعب 1838 – 1848..

قامت الحركة النقابية البريطانية بدور جماهيرى بـارز لإصـلاح النظـام الانتخـابى الــذى كــان قد طــال عليه العهد وظل قرابة 400 ســنة دون تغيــير فى الحركة الــتى حملت اسم الميثاقية **Chartism** وأخذت الحركة هذا الاسم لأنها تبلورت فى تقـديم ميثـاق **Charter** أطلق عليه العمـال "ميثـاق الشـعب" وكـان يسـتهدف أن تحقق الحكومة ستة مطالب هى :

1. إعطاء حق الانتخاب لجميع الذكور. لأن هذا الحق كان مقصوراً على فئات بعينهـا، وفكر الميثاقيون فى أن يكـون هـذا الحق لجميع الشـعب (رجـالاً ونسـاءً) ولكنهم تفادوا مقاومة – أو حتى سـخرية – المجتمع البريطـانى لو طـالبوا بحق الانتخـاب للنساء فقصروه على الذكور.

2. أن يكـون الانتخـاب بـالاقتراع السـرى. لأنه كـان يتم بصـورة علنية كـانت تجعل الناخبين تحت تأثير المرشحين الأقوياء أو الأثرياء الذين يتابعون العملية الانتخابية.

3. المساواة والعدالة فى توزيع الدوائر. لأن الدوائر كانت قد حـددت منذ 400 سـنة تقريباً، وفى هذا الوقت كانت إحـدى المنـاطق مأهولة ومن حقها انتخـاب نـائبين، ولكن التطـور الصـناعى والإنتـاجى أدى إلى هجـرة سـكانها إلى منـاطق جديـدة، وهـذه المنـاطق لم يكن لها حق الانتخـاب لأنها كـانت وقت تحديد الـدوائر أرضـاً بـوراً. وكـانت نتيجة ذلك أن كـان من حق منطقة مهجـورة انتخـاب نـائبين بينما حرمت المناطق الصناعية حيث منـاجم الفحم والحديد وتركـزات العمـال من حق انتخاب نواب.

4. إلغاء اشتراطات الملكية للمرشحين. لأن الفكر السياسى القديم أعتبر أن الملاك الذين يملكون الثروات هم "أصحاب المصلحة الحقيقية" أما المعدمون فليس لهم مصلحة !

5. منح النواب مرتبات. لأن النواب لم يكونوا يمنحون مرتبـات من مجلس العمـوم – لأنه رغم اســمه – كــان أرقى نــادى فى أوربا كما يقولــون. وكــان أعضاؤه من أصحاب المصانع وكبار التجار الخ...

ولم يكن هـؤلاء فى حاجة إلى مرتبـات. وإنما يرشـحون أنفسـهم حـتى لا يمكن للحكومة أن تفرض ضـريبة إلا بمـوافقتهم. وهـذا الوضع يتغـير بـالطبع إذا دخله عمال ليس لهم دخل خاص.

6. أن تكون مدة الدورة النيابية سنة.

وأخذ الميثاق صورة عريضة تطالب بتحقيق هذه المطالب يوقع عليه العمال فى كل مصنع. وتؤخذ هذه العرائض وتلصق على شـريط عـريض يلف حـول بكـرة ضـخمة دخلت من باب مجلس العموم بصعوبة لكى ينظر فيها..

وقدم الميثاق ثلاث مرات، وبلغت التوقيعات عليه فى المرتين الأخـيرتين بضـعة ملايين وقـاربت الحماسة المحمومة حد للثـورة، وأصـبح الحـديث عن السـلاح والبحث عنه أمراً مألوفا، وعادت مرة أخرى فكرة الإضـراب العـام طـوال شـهر مقـدس حـتى ينفذ الميثاق، وحصنت الحكومة لندن ومواقعها وعبأت جنودها، وجاءت بالــدوق ولنجتن العجوز قاهر نابليون وبطل وترلو قائداً ليشرف على تحصـينات مدينة لنـدن يـوم قـدم الميثاق للمرة الأخيرة سنة 1848.

ولم يتحقق أى مطلب من مطـالب الميثـاق عنـدما قـدم فى المـرات الثلاث (1838 – 1848) لعزوف أعضاء مجلس العمـوم، ولكن المطـالب تحققت واحـدة إثر الأخرى. بفعل التطورات وضغوط النقابات والمصلحين وهيئات المجتمـع. وكـان آخرها تطبيقاً هو منح النواب مرتبات. ولم يتحقق إلا سنة 1913 عندما أصبح عدد من العمال المرشحين نواباً. وتعين صرف مرتبات لهم.

المطلب الوحيد الذى لم يتحقق هو أن تكون مدة الدورة الانتخابية سنة واحــدة، إذ اتضح أن هذا غير عملى، وأن العمال عندما طالبوا به كانوا متأثرين بالــدورة النقابية التى كانت وقتئذ لمدة عام.

ويجب أن لا ننسى أن الحركة النقابية كـانت هى قاعـدة تكـوين حـزب العمـال الذى حل محل حزب الأحرار وأصبح هو وحزب المحافظين فرسى رهان...

وأخيراً فقد كـانت للحركة النقابية البريطانية الفضل فى تـدعيم دعـوة "الأممية الأولى" الـتى تكـونت سـنة 1864 واتخـذت من لنـدن مقـراً لهـا، **وهى أول صورة**

"لعولمـة" جماهيرية شـعبية وكـان يمكن أن تزدهر لـولا تـدخل مـاركس وبعض المتطرفين فيها.

فهــذا العمل النقــابى يقــدم لنا صــورة فعالة ومــؤثرة للنهضة بالمجتمع قام بها رجـال من صـميم الشـعب ونجحـوا فيها لأنهم توصـلوا لإبــداع آليــات فعالة فى تطــوير المجتمع والنهضة به ويمكن لكل حركة نقابية فى دول العـالم الثـالث أن تقـوم به إذا اسـتوعبت أصـول وفنية العمل النقابى من ناحية، وأهدافه العامة والشعبية من ناحية أخرى.

الفصل السادس عشر
العلماء والمخترعون والدعاة يقيمون العصر الحديث

- 1 -

تقدم لنا أوربا مثالاً ثالثاً للعوامل التى تنهض بـالأمم حـتى وإن لم يكن مقصـوراً عليها، ولكنه بارز فيها، لأن أوربا لم تكن أرض النبوات والرسل. وقد منحها الله تعـالى الكثــير من المزايا ولكنه لم ينعم عليها بالأنبيــاء، ونتيجة لــذلك كــان عليها أن تلتمس الهداية ممن اعتبرهم الإسلام ورثة الأنبياء – أى العلماء. وقد ظن فريق من فقهائنا أن المقصود بالعلماء هم "أهل الحديث" أو "أهل السُنة والجماعة" وكأنهم لم يقرءوا ﴿أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَـرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنْ الْجِبَـالِ جُـدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ **(27)** وَمِنْ النَّاسِ وَالـدَّوَابِّ وَالأَنْعَـامِ مُخْتَلِـفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾. {27 فاطر}..

"لقد أراد القرآن الكـريم بالعلمـاء هنا كل الـذين يستكشـفون الآفـاق الجديـدة ويلمـون بالأبعـاد العديـدة للحقيقة ويُعمِلـون عقـولهم فيما يـرون ويسـتخدمونها فيما يريدون.. سواء كانوا علماء أدب وفن، أو علماء طبيعية ورياضة، أو جغرافيا وجيولوجيا، أو فلاسفة يعالجون من منطلق العقل ما عالجه الأنبياء من منطلق الوحى حـتى يقفـوا على باب الألوهية المقدس.. حيث لا يجرؤ عقل على الدنو.

من فجر التاريخ الأوربى ظهر الشعراء والروائيـون العظـام فى اليونـان وقـدموا للشعب تلك الروائع الشعرية والمسرحية التى بلورت "الوجدان" اليونـانى، وفيما بعـد، الأوربى وضـمنوها أمثلة عديـدة للمغـامرة والشـجاعة، والقـوة، والجـرأة.. وهى بوجه خاص الفضائل التى تتجاوب مع النفسية الأوربيـة، ثم ظهر الفلاسـفة الـذين كللـوا فى العصر القديم بسقراط وأرسطو وأفلاطون فعالجوا مشاكل الوجود، والكون، والحيـاة، والموت، والطبيعة وما توحى به آياتها وظواهرها.. كما عالجوا مفاتيح كل العلوم تقريباً لأن الفلســـفة وقتئذ كـــانت أم العلـــوم وكـــانت تنتظم الرياضة البحتة وعلم الطب والموســـيقى، والحســـاب والهندسة كما تعـــالج مشـــكلات الحكم. وكـــان ما **قدمه الشــعراء من ناحية والفلاســفة من ناحية أخـــرى ما يمكن أن نســـميه الأســاس المعنــوى والنظــرى للحضـارة الأوربية الــذى يجتمع فيه العلم والفن والعقل والقلب.**

ثم توالت القرون وتعرضت أوربا لبيـات طويل امتد عشـرة قـرون كـان الشـرق الإسلامى فيها يقدم عطاءه، وكان الفلاسـفة الإسـلاميون يبـدءون حيث انتهى فلاسـفة أثينـا، كما كـان العلمـاء المسـلمون فى الطبيعة والكيميـاء والطب يقـدمون الأسـلوب التجريـبى العملى الـذى كـان مفقـوداً فى المجتمع اليونـانى. ففى هـذا المجتمع كـان العمل مقصـوراً على العبيد أما السـادة فـإنهم يفكـرون – ولكن لا يعملـون حـتى أن الطبيب اليونانى كان يدلى بتوجيهاته لمساعده العبد الذى يمارس العمل لأنه ليس من شأن الطـبيب أن يعمـل، وكأنه المهنـدس الـذى يـأنف أن يعـالج الآلة بيديه ويعرضـهما للشـحم والـزيت الخ... نتيجة للتشـويه الثقـافى فى نظمنا التعليميـة. جـاء العلمـاء المسلمون وكان رائـدهم جـابر بن حيـان بالأسـلوب العملى والتجريـبى، وكـان هو أول كيميائى فى التاريخ استخدم النار والأنابيب والأنبيق والبوتقة والتقط العلماء الأوربيـون عنـدما بـدءوا نهضـتهم هـذه الأسـاليب فيما التقطـوه من عناصر إصلاح شـملت حـتى الكنيسة والإصلاح الدينى الذى كان تطبيقـاً للأصـول الإسـلامية فى نفى الوسـاطة بين الله والإنسان وتحريم الصور والتماثيل والشـفاعة الخ... الـتى كـانت تعج بها المـذاهب الكاثوليكية.

بدأت النهضة الأوربية وكان من سـعدها أن بـدأت فى عصر جـاوز عصر الإيمـان ليبدأ عصر العقل. لأنهم كـانوا أنـداده وأجنـاده وأبطالـه.. وكما بـددت الأديـان ظلمـات

الكفر والوثنية وأضـاءت بقبس من الألوهية سـبيل الهداية والإيمـان، فـإن العقل جـاء بـالعلم ليستكشف العـوالم المحيطة بالإنسـان وليجيب على الأسئلة كيـف؟ ولمـاذا... وكأنه يطبق التوجيه القـرآنى فى التـدبر فى السـماء والأرض والليل والنهـار والعناصر والمعادن والإنسان وما يعرض له من صحة ومرض واختلاف الأجناس والألوان واللغات الخ... بدءوا حيث انتهى العلماء المسلمون وتسلحوا بالأسلوب العلمى والتجريبى الذى بدأه العلماء المسلمون ثم ويا للأسف نسوه وأهملوه.

ومما يثير الدهشة أن معظم الاكتشافات التى أحدثت الثـورة الصـناعية والثـورة العلمية والـتى انتهت بـالأجهزة والاكتشـافات الكـبرى كـالآلات البخاريــة، والتليفــون والكهربـاء والسـيارات الخ... كلها بـدأت بـدايات بسـيطة سـاذجة، وعلى أيـدى مهـرة الصناع وأجـريت التجـارب عليها فى الـبيوت وكـانت المصـادفة العارضة عـاملاً فيهـا.. وعندما يتسـاءل الإنسـان ولمـاذا لم تتح هـذه العوامل للعلمـاء المسـلمين وهم الـذين بدءوا المسيرة لكان الرد أن الأوربيين قد رزقـوا قـوة ملاحظة نفـاذه. فما الـذى يجمع بين إطارة البخار لغطاء الحلة المغلقـة، وبين فكـرة اسـتخدام البخـار كقـوة دافعـة؟.. وبين سـقوط تفاحــة، وقـانون جاذبية الأرض؟.. إن الكثـير من الاختراعـات جـاءت عن طريق مصادفات كهذه كان يمكن أن تذهب أدراج الرياح لـولا قـوة الملاحظـة، وما هو أهم، أن المجتمع الأوربى مجتمع حيوى يؤمن بالحيـاة، والحيـاة هى رأس ماله الوحيـد، فهو لا يفكر فى حياة أخرى بعد الموت. إن الحياة هى جنته وناره، ومن أجل هذا فوراء علمه، وفلسفته، وفنونه، رغبة غريزية عميقة فى أطـواء النفس عن حب الحيـاة، وعن تسخير كل قوى الطبيعة لجعل الحياة أكثر ثـراء وكـانوا فى هـذا يختلفـون بـالطبع عن المجتمع الإسلامى الذى جعله إيمانه بالحياة الآخرة يستهدف هذه الحياة وكان الطريق فيما ظن – لأن العصر كان عصر الإيمان الـذى أطبق على هـذه الأجيـال – هو العبـادة فحافوا على حق حياتهم وكان جديراً بهم أن يعلموا أن إثراء الحياة الدنيا يـثرى الحيـاة الآخرة أيضاً، لأن الحياة الدنيا كما يقولون. مزرعة الآخرة ولكن روح العصر حالت دون أن يدركوا ذلك ففقدوا تلك القوة الدافعة المحرقة الـتى تتضـرم فى نفـوس الأوربـيين وتجعلهم يسـخرون كل ملكـاتهم لخدمة الحيـاة. ولو اقتصـرت البحـوث والاكتشـافات والاختراعات على جانب الاستمتاع بالحياة فقد يكون للفكر الدينى شـيئاً من الوجاهـة. ولكن النقطة الهامة هى أن تلك البحوث والعلوم استهدفت أول ما استهدفت الطاقــة: أى القوة. وعن طريقها أصبحت الدول الأوربية أقوى دول العالم وتمكنت من استعمار العالم الإسلامى فى القرن التاسع عشر، ثم واصلت المسيرة فى الولايات المتحــدة – حتى نقلت الحروب من الأرض إلى السماء وأصبحت سـماوات العـالم مكشـوفة أمـام الطــائرات والصــواريخ الخ... من هنا ظهر خطأ الفكــرة الــتى إســتولت على أذهــان المفكرين الإسلاميين سواء كانوا مفسرين أو محدثين أو فقهاء، أو شعراء، عن تسـخير الحياة الدنيا للآخرة بالعبادة من صلوات أو ابتهالات أو صـوم الخ... وكـان قمينا بهم أن يعملوا لجعل إثراء الحياة الدنيا وأن تكون مجال قوة تجعل المسـلمين أعـزة، ولا عـزة إلا بالقوة.

وبجــانب هــذا الانغلاق الــدينى، وجد الاســتبداد السياسى لطغـاة حكمــوا حكمــاً مطلقاً وأهدروا ضـمانات العدالة وآليـات الشـورى الـتى أوجبها الإسـلام، وكـان الكثـير منهم قادة عسكريين ولم يكن معظمهم من أهل المنطقة ولم يكن لـديهم شـعور بـأن الحكم وظيفة لتعمير الأرض وإصلاح المجتمع وإسـعاد النـاس. وبينما كـان ملـوك أوربا وأمراؤها يشجعون "العلم ويقدرون المكتشفين كان ملوك الشرق وخلفـاؤه يكـافئون الشعراء الذين يمدحونهم ويجزلون لهم العطاء. فكـانوا من أكـبر أسـباب تـأخر العـالم الإسلامى.

هذا اسـتطراد رأينا فيما يبـدو أنه هـام لأنه يجيب على علامة اسـتفهام مزعجـة، ولأنه قد يسهم فى تصحيح وضع خاطئ...

ولنعد مرة أخرى إلى السياق..

فنرى أن عملية اكتشاف قوى الطبيعة بدأت فى مجال الطاقة – أى القوة الـتى كانت حتى ذلك الوقت هى العضلات الإنسانية أو قـوى الحيـوان. وبـدأت مع اسـتخدام

ظاهرة "قوة البخار" وطرأت فكـرة حبسه فى قنـاة ضـيقة بعد غلى المـاء بنـار الفحم حتى يصبح له قوة دافعة تسلك طريقها فى سلسلة من القنـوات بحيث تحـرك تروسـاً أو روافع. أو أجهزة فى آلات وبدا استخدام الفكرة فى صناعة الغزل والنسيج، وضمت المجموعة الـتى توصـلت إلى ذلك غـزالاً، وحلاقـاً، وقسيسـاً، وراعيـاً بحيث ظهر فى النهاية المغـزل الآلى ونـول النسـيج الميكـانيكى، بينما كـان هنـاك محـاولات جـادة لاستخدام البخار فى المضخات التى تسحب الماء من مناجم الفحم، ودفع بإحدى هـذه المضخات إلى ميكانيكى نابغ هو جيمس وات الذى عكف على إصلاحها بحيث أصـبحت تؤدى المهمة بكفاءة.

وانتقلت الفكرة إلى مجـال آخر هو مجـال النقل الـذى كـان بـدء التقـدم فيه هو إقامة قضبان حديدية تسير عليها عربات تجرها الخيول. وكان هذا بالطبع يكفل سـرعة أكـثر من سـرعة العربـات على الأرض. ولكن جـورج استفنسن – وقد كـان وقـادا وميكانيكيا – فكر فى اسـتخدام قـوة البخـار فى آلة تقـوم بجر العربـات – أى القطـار وذلك بتحويل الطاقة من المحرك إلى عجلات الجر عن طريق عجلات مسـننة، وعكف على ذلك حتى توصل إلى صنع قاطرته التى أطلق عليها "الروكت" الـتى ركبها خمسة وثلاثون راكبا وسارت بسرعة 25 ميلاً فى السـاعة وكـانت تلك هى البداية المتواضـعة التى سارت قدماً حتى ظهرت القطارات الـتى تسـير بسـرعة مائة ومـائتى كيلو وتجر عشرين عربة وكانت أكبر عامل فى بلوغ الأراضى البعيدة واستثمارها وربطها وإنتاجها بالأسواق.

كـان البحث عن "الطاقــة" فى حقيقته تعبــيراً عن إرادة المجتمع الأوربى التوصل إلى "القــوة" وهــذا هو ما كــان فى ذهن جيمس وات. وعنـدما زاره ملك إنجلـترا فى ورشـته هو وشـريكه بـولتن وقـال له فى أنفة الملوك.

- **ماذا تصنعون.**
- **أجاب إننا نصنع يا مولاى ما يريده كل الناس "القوة" Power.**

ولهذا لم يكن اكتشاف البخـار إلا الخطـوة الأولى فى سـبيل استكشـاف القـوى التى وصلت إلى الكهرباء ثم إلى الذرة...

وكــان المجتمع الأوربى فى بحثه عن القــوة، وفى اســتخدامه العلم لتســخير الطبيعة وعناصـرها لخدمة الحيـاة مسـوقاً بتلك بـروح الحيويـة، وحب الحيـاة وجعلها محوراً ومنطلقاً للنشاط الإنسانى.

وعيرت كتابات فرانسـيس بيكـون 1561 – 1626 عن التكـييف الجديد للعـالم والوسـائل العلمية للتعامل مع قـوى الطبيعة فى مؤلفه **Novm Organum** الـذى رزق انتشاراً وأثار انتباه الجمهـور للعلم والبحث العلمى ثم جـاء ديكـارت فحـرر الفكر من إسار الاتباع الأعمى وضرورة التثبت من صحة الأحكـام واختبارها على محك العقل والتجربة.

"ومما أمتاز به القرن السـابع عشر إنشـاء جمعيـات علمية فى مختلف الحواضر الأوربيــة. غايتها أن تضم رجــال البحث العلمى والفلســفى، للمباحثة والمناقشة حثــاً للهمم وشــحذاً للأذهــان فتــألفت فى إيطاليا ســنة 1603 الجمعية اللينوســية (**Linnean** نسبة إلى لينيوس العـالم النبـاتى) برعاية المركـيز فردريجو شـيزى وكـان غليليو عضواً فيها ثم انحطت فحلت محلها الجمعية المشهورة باسم مدرسة الطبيعيين الفلورنسـيين (نسـبة إلى فلورنسـة) فى سـنة 1657 ومن أشـهر أعضـائها توريشـلى صـاحب التجـارب المشـهورة فى ضـغط الهـواء. وفى فرنسا أنشئت أكاديمية العلـوم الملكية سنة 1666 فى عهد الملك لـويس الرابع عشـر. وتـألفت جماعة فى اكسـفرد سنة 1645 تحولت فى عهد الملك تشارلز الثانى سـنة 1662 إلى معهد ملكى يعـرف باسم الجمعية الملكية لتقدم العلوم واسمه المتداول الآن الجمعية الملكية فقط. ومما

يتصل بإنشاء هذه الهيئات العلمية تأسيس مرصد باريس القـومى سـنة 1667 ومرصد غرينتش سنة 1675.

أما وهذه هى الأحوال المؤاتية للعلم والبحث، فلا عجب أن يتصف النصف الثانى من القرن السابع عشر بنشاط عجيب فى البحث العلمى، وبتقديم أعجب فى الرياضة والطبيعة، وبطائفة ممتازة من أكبر العلمـاء والفلاسـفة الطبيعـيين أمثـال بويل وهـوك وهالى فى إنجلترا. وليبنتز وهوجنس وتوريشـلى وباسـكال فى ألمانيا وهولنـدا وإيطاليا وفرنسا. ولكن نيوتن كان بين معاصريه، كالجبل الشامخ، كان جباراً بين جبـابرة، كـان عالمـاً لا يدانيه عـالم آخر فى تنـوع مباحثه وجمله ما أضـافه من الحقـائق والقواعد الأساسية إلى علوم الطبيعة. كان حقاً أميراً لفلاسفة الطبيعيين بلا منازع[75].

ويضع أمامنا كتاب "أسـاطين العلم الحـديث الـذى وضـعه فـؤاد صـروف محـرر المقتطف سنة 36 عقـداً نظيمـاً للعلمـاء والمخـترعين والمكتشـفين الـذين رادوا هـذا الطريق من القـرن السـادس عشر حـتى الفـترة المعاصـرة بـدءاً من الـذين وجهـوا مراصــدهم نحو الســماء لاستكشــاف النجــوم والأقمــار والكــواكب والشــمس مثل كوبرنكوس وكيلر وجليليو وهرشل أو الـذين عـالجوا الطبيعة مثل بريسـتلى ولافوازيه ودايفى وفراداى ومكسول وميكلين ودالتون ومندليف وكورى ورذرفورد ومـاركونى ثم أديسن صاحب الألف اختراع وفورد الذى صـنع السـيارة والإخـوان رايت اللـذين صـنعا الطائرة.

ومن الغريب أن الثورة الصناعية استهلت بفضل جهود صـناع وعمـال هم الـذين توصلوا إلى اسـتخدام قـوة البخـار فى آلات الغـزل والنسـيج ثم القطـار البخـارى.. ثم كادت الثورة تتكلل ببضعه من الصـناع والعمـال هم أديسن الـذى توصل إلى اكتشـاف المصباح الكهربائى. والجرامفون ومئات الاختراعات الأخرى التى يسرت السينما وكان أديسن بائع صـحف وعامل تلغـراف وفصل من المدرسة وهو طفل لأنه غـبى! فتـولت أمه تربيته. وهذا الغبى هو الذى ضرب الرقم القياسى فى براءات الاختـراع! أما فـورد فكان ميكانيكيا وعامل فى إصلاح السـاعات.. وهو الـذى جعل من السـيارة أداة عملية للركوب فقضى على عهد البغال والحمير وسمح بظهور المدن الكبيرة أما اللذان صنعا الطـائرة لأول مـرة وهما الإخـوان رايت فكانا أصـحاب دكـان لإصـلاح الـدراجات ومن إصلاح الدراجات حتى آفاق السموات أمام الإنسان وقدما "بساط الريح" للجميع !.

وفى مجال الطب ظهر "غزاة الميكروب" الذين اكتشـفوا لأول مـرة بالعدسـات المكبرة كائنات لا تـرى بـالعين المجـردة. وقد رآها لأول مـرة صـانع عدسـات هولنـدى يدعى لوفن هوك عندما نظر عبر إحداها فى قطرة مـاء فوجـدها تعج بمئـات الكائنـات الدقيقة. ودخل الحلبة باستور وكان ابناً لـدباغ وحفيـداً لأحد أقنـان الأرض فتوصل إلى ميكـروب الكلب وشـفا النـاس من داء من أسـوأ الأمـراض ثم واصل المسـيرة أطبـاء وعلماء كيمياء كشـفوا جـراثيم السـل. والـدفتريا والجمـرة ومعظم الأمـراض وخلصـوا البشرية منها أو أوجدوا فى الناس مناعة أو حصانة منها.

ومع مشـارف العصر ظهر جهـاز جديد هو الكومـبيوتر أو الحاسـوب، وظهر معه "الإنـترنت". كما ظهـرت قنـوات التليفزيـون الفضـائية الـتى تنقل مادتها عـبر الأقمـار الصــناعية فأصـبحت أخبـار العــالم كله وأحداثه تشـاهد وقت وقوعها فى أفريقيا وإن حدثت فى أمريكا.. وفى أوربا وإن حدثت فى آسيا..

هذا العالم الرائع – عالم العلم – عالم المعرفة: عالم معالجة الظواهر والعناصر والقوى وأسرار الحياة والموت والصحة والمرض. هذا العالم الذى حقق حلم الأقدمين فى الطيران إلى الكواكب.. والنزول على القمر.. العالم الذى أمسك "الجوهر الفـرد" وحجر الفلاسفة والأكسير الذى يجعل الرصاص ذهباً واسـتخرج أقـوى قـوة من أصـغر "ذرة" كل هذه العوالم توصل إليها الإنسان من بـدايات متواضـعة حـتى نهايـات فـاقت

---

75 **(75) أساطين العلم الحديث – الأستاذ فؤاد صروف ص28 – المطبعة العصرية سنة 1936 القاهرة**

الخيال وجعلها العلماء فى خدمة البشرية.. هـذه المعايشة هى الـتى يمكن أن ينفِسـها الملوك على العلماء.. أكثر مما ينفسها على الصوفى القديم (كما قالوا)...

إن العالم الحديث وضع تحت تصـرف العامل والعاملة من وسـائل الحيـاة ما لم يصل إليه الملوك والأباطرة.. وجعله هينا سهلاً سائغا يتم بضغطة من إصبع.

فالعصر الحديث، يدين سدى ولحمة، للعلماء والمكتشفين والمخترعين وهم الذين بنوه طوبة ودفعوا المجتمع الإنسانى ونهضوا به كما لم ينهض أحد من قبل.

* * *

إن حركة هذا التقدم والبحث والعلم والتوصل إلى الاكتشافات والاختراعات وإن كان قد بدأت متواضعة على ما أوضحنا فإن استمرارها ومواصلتها ما كان يمكن أن يتم لـولا أن المجتمع الأوربى كـان مجتمعـاً واحـداً رغم تعـدد دوله فكـان العـالم فى إنجلترا يستفيد من العالم فى فرنسا، وهذا يسـتفيد من إيطاليـا، حـتى روسـيا القضـية قـدمت الرجل الـذى وضع جـدول العناصر طبقا لوزنها الـذرى فكـان الجديد يبـدأ حيث انتهى القديم وكان العلماء فى الشرق والغرب يتبادلون المعارف ويستكمل بعضهم ما ببعض وكان المناخ القائم هو مناخ الطموح نحو التقدم والثقة فى الإنسان والحرية فى المعرفة.

ظهر بجانب المخترعين والمكتشـفين ورجـال العلم، الشـعراء والفنـانون الـذين اسـهموا فى تقـدم المجتمـع. إن مسـرحية "لعبة الـبيت" للمسـرحى الـنرويجى أبسن كانت دفعة نحو تحرير المرأة كما دفعت رواية "كوخ العم توم" دعـوة تحرير العبيد فى الولايات المتحدة حتى أوقدت الحرب ورحب لنكولن بمؤلفتها "السيدة الصـغيرة الـتى أضرمت الحـرب الكبـيرة" كما كـان هنـاك الفلاسـفة الـذين وضـعوا القيم للمجتمع ولا يتسع المجال لتعدادهم وحسبنا أن نذكر ديكـارت الفرنسى الـذى حـرر الفكر من ربقة الاتباع والتقليد واجست كونت فيلسوف التقدم وكانت صـاحب القيم والـواجب وهيجل الـذى أبـرز "الجدليـة" الـتى قضت على منطق أرسـطو الجامد ومـاركس الـذى نقل الفلسـفة من أبـراج العـاج إلى منـابر الشـعب وحولها دعـوة للعدالة والانتصـاف.. كل هؤلاء استكملوا للمجتمع الأوربى قيمه، وآدابه، وهذبوا طباعه.

فأنىَّ للحكومات والدول أن تقوم بشىء مما قام هؤلاء العلماء وما كان السـبب الحقيقى لنهضة الشعوب وتقدمها..

هل قامت الـدول والحكومـات باكتشـافات واختراعـات؟ هل عكفت على علـوم وأبحاث؟ هل قدمت فلسفة للحياة.. هيهات. إن الحكومات لا تعـنى بـالعلوم والأبحـاث إلا عنــدما تتعلق بالتسـليح. وعندئذ تسـتغل ثمرتها فى قتل الملايين وتـدمير المـدن وإشـاعة الفوضى والخـراب، وقد نـدم نـدماً شـديداً علمـاء الـذرة من إينشـتين حـتى أوبنهيمر أنهم وضـعوا أسـرارها فى خدمة الحكومة الأمريكية فصـنعت قنبلـتين أزالتا مدينتين آهلتين بمئات الألوف من السكان فى غمضة عين.

- 2 -

قد لا تكـون بعض البلاد محظوظة كالـدول الأوربية الـتى تحـدثنا عنهـا، ومع ذلك فإنها لم تحـرم قـوة تنهض بهـا، لم تكن هـذه القـوة هى اكتشـافات العلمـاء.. ولا هى الإصلاحات السياسية ولكنها الآداب والفنون والدعاة وهذا ما حدث فى روسـيا القصـية البعيدة التى كانت على أطراف أوربا وأطراف آسيا وتمزقت هويتها بين الاثـنين فكـان هناك فريق سلافى يعود بها إلى آسيا البيزنطية وكـان هنـاك فريق أوربى يعـدها جـزءاً من أوربا كفرنسا وإنجلترا وألمانيا وعندما ظهر بطرس الأكبر حاول أن يحسم الصـراع ويجعل روسيا أوربية فبنى بطرسـبرج كعاصـمة عملية وأدخل الصـناعات وأمر الرجـال بحلق لحاهم وتقصـير أرديتهم الشـرقية الطويلـة، ثم جـاءت كـاترين الثانية 0 وكـانت ألمانية الأصل فرنسـية الثقافة – فـدفعت هـذا الاتجـاه دفعة إلى الأمـام ولكن بطـرس الأكبر وكاترين الثانية قاما بالفتح والتوسع وكان يجاورهما ممالك التتر والخانات خلائف جنكيز خان الذين استعبدوا الروس حينا من الـدهر وكـانت موسـكو تجمع الإتـاوات من

الولايات الروسية لتقدمها للخان. وكانت هذه الممالك قد تدهورت فغزاها بطرس وكاترين واستلحقا مدنها وضماها إلى روسيا، وبذلك عادت روسيا مرة أخرى أسيوية.

كانت روسيا فى القرن الثامن عشر متخلفة، يطلق عليها بسمارك "اللاشىء الكبير" تسودها الأمية، ولم يتحرر فيها الأقنان إلا سنة 1861 وتقاسم السلطة فيها القيصر والبطريرك، ولم تشهد مرحلة الأحياء والنهضة التى حدثت فى أوربا فى القرن الخامس عشر والسادس عشر، ولا حركة الإصلاح الدينى، ولا شهدت الثورة الفرنسية فى أواخر القرن الثامن عشر كانت قارة مغلقة يعمها ظلام الليل ويلفها صمت القبور ويعمل فيها ملايين الفلاحين الذين كانوا رمـوزا للغفلة والجهالة والفجاجة يطلق عليهم "الموجيك" وفى أواخر القرن الثامن عشر عندما حاربت قواتها مع نابليون حينا وضده حينا آخر تعرف فريق من الضباط على الحضارة الأوربية وعالم الحرية فلما عادوا حاولوا الثورة على القيصر نقولا الأول الذى كان يعد رمزاً للأوتقراطية وأرادوا تكوين ملكية دستورية تستمد سلطتها من الشعب وتسئل أمامه، ولكن مؤامرتهم كشفت وقبض عليهم القيصر سنة 1825 وقتل بعضهم ونفى الآخرين إلى سيبريا حيث أقاموا البقية الباقية من عمرهم وكانوا عنصر تقدم فى هذه الناحية. وكانت هذه الحركة التى حملت اسم "الديسمبرين هى أول محاولة لانقلاب يستهدف الإصلاح"..

وبعد هذه القومة الفاشلة شدد القيصر قبضته وعاد ظلام الليل الدامس وصمت القبور الموحشة..

ولكن بدا وسط تلك الظلمات الموحشة شهاب ثاقب بدد الظلمات وأحيى النفوس وأوجد وعياً وإحساساً بالحياة وأخترق الحجب حتى وصل إلى الريف الموحش المظلم.

كان هذا الشهاب هو الفنون والآداب. وبوجه خاص الشعر والرواية وظهر الشعراء والروائيون العظام بوشيكين، وتورجنيف، ودستوفيسكى وتولستوى وجوجول الخ... كما ظهر الكتاب الاجتماعيون ودعاة الثورات فأخذت الظلمات تنقشع.. والوعى يتيقظ، بل قد جاوزت الرواية الروسية بفضل عمالقتها الثلاث دستوفيسكى وتورجيف وتلستوى حدود روسيا ووصلت إلى أوربا حيث أثارت موجة من الإعجاب والحماسة.

فانظر إلى التربة الهامدة وقد سقط عليها المطر فأحياها وأثمر فيها من كل زوج بهيج. تلك حالة روسيا عندما انقذها الشعر والأدب من سباتها وهمومها، ويأسها واستسلامها..

ولاحظ كاتب أن الأدب الروسى هو أكثر آداب العالم تنبؤية وهو ملىء بالنذر والتنبؤات. والتحذير من الكارثة المقبلة سمة مميزة له. وقد شعر كثير من الكتاب الروس فى القرن التاسع عشر أن روسيا معلقة على شفا هاوية تكاد تتردى فيها. وكان القرن التاسع عشر بأسره وهو من جميع القرون فى التاريخ الروسى – أعظمها فى القدرة الخلاقة – قرن الثورة الآخذة فى النمو ولم يولد الأدب الروسى من وفرة خلاقة سعيدة، بل من العذاب ومن معاناة البشرية المؤلمة ومن البحث عن الخلاص للناس كافة"[76]

كان بوشكين شاعر "الإمبراطورية" والمقرب من البلاط ومع ذلك فإنه كان يهيم بالحرية، ويستشعر الآم الجماهير ويصب لعنته على الطغاة.

ويذهب البعض إلى أن الدوائر الرجعية فى البلاط القيصرى هى التى استفزته لكى يبارز ضابطا محترفاً غازل زوجته وهى تعلم أنه مقتول لا محالة.

وجاء فى بعض أشعاره :

نحن ننتظر وقلوبنا المشوقة تخفق
بالأمل فى الحرية المقدسة، كما ينتظر
عاشق شاب لحظة لقائه بحبيبته

---

[76] **(76) أصل الشيوعية الروسية – تأليف نقولا برديائف – ترجمة فؤاد كامل. مراجعة د. راشد البراوى ص82 .**

وسيتذكرنى القوم البسطاء طويلاً
لأن قيثارى جعـل قلوبـهم إلى الحنـان تميل
وبالرحمة أهبت لأولئك الذين يسقطون ويهلكون
وبمدائح الحرية تفتت فى هذا العصر القاسى

ولا نعدم تنديداً عنيفاً بالقياصرة..

أيها الطاغية الشرير
عليك وعلى أهلك لعنتى !
وفى سرور غامر أهب بذرتك
للموت، وأقدمك للهلاك الأبدى !

وتنبأ لرمنتوف فى قصيدته المسماة "نبؤه" التى نشرها سنة 1830.
سيـأتى ذلك اليـوم، ذلك اليـوم المظـلم لـروسيـا،
حين يهوى تـاج القيصر.. وهؤلاء الذين أحبـوه يوما
لن يحبوه بعد، وسيعيش الكثيرون على الموت والدماء.
لن يمنح القانـون الـذى وطئ بالأقـدام مأوى للطفل
أو المرأة البـريئة. وسيجـوب الطاعون المنبعث من
الجـثث المتعفنة الأرض التى نـزل الحـزن بساحتها،
وينتـقل مـن كـوخ إلـى كـوخ طالبـا معـونـة
لا يستطيع أن يقدمها أحد،
وستقبـض آلام المجـاعة الرهيـبة على مخنق الريف
بمخالب لا ترحم.

ووجد الضمير المعذب بشقاء الجماهير شـاعره فى نيقـولا نكراسـوف 1821 – 1877 الذى جاء ليقود القراء فى الستينات والسبعينات من القرن التاسع عشر وصور فى قصائده أنواع الفلاحين والمناظر الطبيعية الروسية بأسـلوب واقعى دارج. وعـبرت قصـائده الأخـيرة عن حـزن الملايين من أبنـاء وطنه وشـقائهم، وبـدا لمعاصـريه أن سـوداويتهم ومـزاجهم الـذى يقـرب من اليـأس، يمثل الواقع حقيقـة. ومعظم قصـائده الطويلة مثل قصـيدته الشـائعة "من يجد الحيـاة طيبة فى روسـيا؟" أو "النسـاء الروسيات" (عن زوجات الديسمبريين اللائى تبعن أزواجهن إلى منفاهم).

وكان نكراسوف يؤمن برسالة الشعر الاجتماعية، وكـانت تعليقاته على الأحـداث الجارية تخاطب بوضوح أمثاله الذين يؤمنـون بــ "أمتنا روسـيا التعسة الثرية المظلومة ذات البطش. الضعيفة القوية، وقد كان نقادة النبلاء على حق تام فى شكواهم من أن قصائده "تفوح منها رائحة الفلاحين" فقد أدخل نكراسـوف أحـوال الفلاحين وحركـاتهم فى الشعر المكتوب.

بالإضافة إلى بوشكين، وليرامنوف ونكراسوف فقد وجد ميخائيل لتيكوف 1826 – 1889 الـذى كـان يكتب تحت اسم شـهره "شتشـيدرن" وكـان من أبـرز ممثلى المعارضة للسياسة القيصـرية وهـاجم بعنف أخطـاء الساسة الأغبيـاء، وفسـاد أعضـاء الحكومة المركزية الكسـالى، وجهل الطبقـات الحاكمة وتخلف الأشـراف الرجعـيين، وجشع الرأسـماليين الحـديثى الظهـور ومعـاداتهم للاسـتنارة. وعـرض فى قصة رمزية تتكلم عن مـدن خياليـة، تـاريخ روسـيا القيصـرية بأكمله كسلسـلة طويلة من الأعمـال البربرية والأخطاء، وسخر من الأبـاطرة والـوزراء، وهـزأ من الإجـراءات الرجعية الـتى حاول الحكم المطلق بها أن يوقف انتشار الأفكار التقدمية.

وعبر الكسندر بلوك 1880 – 1921 عن مشكلات الحياة والثقافة، واصـطبغت قصـائده الجديـدة، ومن بينها "أشـعار من روسـيا"، وقصـيدة "حقل كوليكـوف" عن شخصية روسيا ومصيرها، بالشـعبية والتطـرف مع نغمـات سـلافية عرضـية. وعـبر فى قصـائده القصصـية الغنائية ومسـرحياته عن نـذير الكارثة القريبة وبداية فـترة تاريخية جديدة.

وظهر بجانب الشعراء الكتاب والنقاد الكبـار مثل فيساريون بلنسـكى (1811 - 1848) الذى كان الزعيم الفكرى لجيل بأسره وكانت الطبقة المستنيرة تقرأ وتنـاقش بشـغف تفسـيراته للأدب والمجتمع ويعكس تطـوره الفكـرى تطـور اتجاهـات عصـره وانتهى إلى أن الحرية والعدالة السياسـية والاجتماعية على حد سـواء يجب أن تكـون من لزوميات أى تطور تاريخي. وأن الإنسان نفسه يخلق القيم التى تسـتخدم كمعـايير فى استطلاعه للوقع. ويجب ألا يظل الجمال، والعدالـة، والحقيقـة، أسـمى من الحيـاة بل يجب أن تتخلل الحياة ذاتها، ويجب أن تغير الحياة لتحقيق ذلك.

ووصفة الدكتور لويس عوض :

"وفى مناقشاته الكلامية كان بلنسـكى إذا غضب يصـول ويجـول ويقـارع غريمه الحجة بالحجة ويهجم عليه بالمحاجة تلو الأخـــرى كما يهجم الليث على فريســـته فلا يتركها إلا جثة بلا حراك. وفى حياته دان له النفوذ الأدبى المروع فأصـبح يعز من يشـاء من الأدبـاء ويـذل منهم من يشـاء. ولكن لم يصـدر أحكامه أبـدا عن الغـرض والهـوى. ورغم أن التوفيق فى آرائه النقدية كان يجانبه أحيانا فإن بصيرته فى اكتشاف مـواهب جوجــول ولــير منتــوف وتورجــنيف وجورنشــاروف فــدل ونيكراســوف وهــرزين ودستيوفسكى وغيرهم. وبسبب أمانته لم ير أدنى غضاضة فى العـدول عما يـراه خطأ فى آرائه. هكذا عاش حتى مات بداء السل فى عام 1848.

ويماثل بلنســكى فى الأهمية الكـاتب تشرنشفســكى الــذى – فيما رأى نقــولا برديــائف "لم يســيطر على فكر الانتلجنســيا المتطرفة فى الســتينات فحســب، بل وسيطر أيضاً على فكر الأجيـال التاليـة. وأسـهمت الهالة الـتى أحـاطت باسـمه عقب الحكم عليه بالأشغال الشاقة إسهاما كبيرا فى شعبيته.

وكتب تشرنشفسكى رواية سـماها: "ما العمـل" أصـبحت نوعا من كتب العبـادة لدى العدمية الروسية، ومرجعا للانتلجنسيا الثورية الروسية.

وهــذه الرواية هى الــتى جعلت ليــنين يكتب – فيما بعد – كتابا بنفس الاسم "ما العمل" كما أن الاتجاهات الاشتراكية لتشرنشفسكى جعلت مـاركس يـدرس الروسـية حــتى يســتطيع أن يقــرأ مؤلفاته – رغم عــزوف مــاركس عن روســيا وصــعوبة اللغة الروسية.

على أن التـأثير الأعظم على الأمة الروسـية جـاء كـرد فعل للقصة والرواية لأن الجمهور الذى يقرأ القصة والرواية أكبر من الجمهور الذى يقرأ الشعر أو النقد الأدبى. ولأن المعالجة الروائية – خاصة فى الطويلة منها – تــتيح عــرض جــوانب عديــدة من جـوانب المجتمـع. ومن هنا فيمكن القـول إن الرواية الروسـية كـانت من أكـبر عوامل التـــأثير فى المجتمع الروسى وإيجـــاد رأى عـــام. عن عوامل التخلف فى المجتمع الروسى.

كـان أول هـؤلاء الكتـاب الروائيين هو جوجـول الـذى بعد معالجة طويلة للقصة انتهى إلى القضية الاجتماعية / الإنسانية التى تجلت فى قصته المشـهورة "المعطـف" الــتى يحلم بطلها وهو موظف مغمــور بشــىء واحد هو معطف جديد يــرى أنه رمز الكرامة الإنسـانية وبعد معانـاة طويلة يحصل عليـه، ولكن فى الليلة الـتى يرتـدى فيها معطفه يتعـرض للهجـوم على قارعة الطريق ويجـرد من أغلى ما يملـك: المعطف – ويحاول بكل طرق استعادته ولكنه يفشل ويموت بتأثير الحزن ويسـكن شـبحه شـوارع العاصـمة الـتى يغطيها الجليـد. وذات يـوم ينـتزع المعطف من كتفى الـذى اغتصـبه فيختفى الشبح إلى الأبد.

وكان لهذه القصة تأثير هائل لأن جوجول أحسن عرض رثاءه للموظف المغمـور فريسة الظلم الاجتمـاعى وإحساسه بـالظلم، والضـياع وسط البيروقراطيـة. وقد قـال دستوفيسكى "كلنا خرجنا من معطف جوجول"..

وفى عـام 836 قـدم جوجـول مسـرحية "المفتش العـام" الـتى مكنته من أن يعرض لمشاهد الفساد فى الإدارة القيصرية.

وتدور أحـداث المسـرحية فى مدينة صـغيرة من مـدن الأقـاليم، يحكمها محافظ فظ مولع بالاستيلاء على الأمـوال، وزمـرة من المـوظفين الجهلة غـير الأمنـاء. ويعتقد الجميع خطأ أن خلستاكوف، وهو شاب آفاق مفلس، هو المفتش العام المنتظر قدومه من سانت بطرسبوج. ويستغل خلسـتاكوف الفوضـى، ويتقاضى الرشـى، ويخطب ابنة المحافـظ، ثم يرحل دون أن يغفل إرسـال خطـاب إلى صـديقه، يسـخر فيه من هـؤلاء الذين وقعـوا فريسة لخداعـه. ويطلع مـدير البريد على الخطـاب ويقـرأه علنا فيما بعد فى منزل المحافظ، على مسـمع من الضـحايا المـذهولين الـذين يسـمعون فى النهاية بأن المفتش العام الحقيقى قد وصل لتوه.

وصور جوجول فى قصته شخصـيات لا تنسـى، كالمحافظ الفظ وزوجته العابثـة، وابنته الفارغة العقـل، واثـنين من ملاك الأرض الحمقى، والـروس القصـار المكتـنزين، وناظر البريد المتجسس، ومدير المستشفى سوداوى المزاج، يعالج المرضى كالذباب، وأخيراً خلستاكوف، الكـاذب والـدعى الضـحل، والرمز الـدنىء للتبلد الإنسـانى. وعلى الرغم من حب جوجول للتصوير الهزلى، فقد وجد قراؤه أن شخصـياته هى شخصـيات مألوفة، كجزء من الواقع الروسى. وبلغ من صدق هذه الشخصـيات ودقة تصـويرها أن "المفتش العـام، قـوبلت بالمـديح كمؤلف هجـائى اجتمـاعى، وملهـاة قوميـة. وبـدأ أن أهميتها السياسية كهجوم على الحكم الراهن يرجح كافة مزاياها الأخرى.

وبعد المفتش العـام كتب جوجـول "الأرواح الميتـة" وهى عن محتـال "محـترم" يقطع مسـافات طويلة كى يشـترى أرواحـاً ميته لأرقـاء مـاتو من أصـحابهم وبهـذه الطريقة يدعى أنه يمتلك الآلاف من "أقنان الأرض" ويكتسب وضعا اجتماعيـاً مرموقـاً ويقوم بعملية "رهونات" عديدة ويسعى للزواج من "وارثه" وفى محاولته الوصول إلى غرضه، يصادف كافة أنواع الناس – ملاك الأراضى الراسـخى القـدم، والـذين يشـبهون الكلاب، والنبلاء الحمقى ذوى العاطفة السـطحية الـذين تعـوزهم الصـلابة ويسـمون أطفالهم "يتيموستوكليز وألسبديز" والنسـاء الثرثـارات، والمقـامرين المتبـاهين الـذين يمارسون الغش، والبخلاء الجشعين الذين يرتعدون فرقا خوفا على بنس، والمـوظفين الحاذقين الذين ينظرون إلى القانون على أنه عقبة، والثرثارين العـاطفيين الـذين تزيد خطورتهم على خطورة قطاع الطريق الخ...

ولم تكن روسيا قد شهدت من قبل كتاباً له مثل المـدى والروعة الفنيـة. وجعل التأثير المتجمع لكل المناظر والشخصيات والحوادث الناس تتساءل – هل هذه روسيا؟ هل من الممكن أن يمثل هذا الموكب من الأهواء والأوغاد الواقع؟.

ولم يصل النثر الروسى إلى أصـالته الحقيقية إلا فى كتابـات جوجـول. ولم يكن تأثيره على معاصريه أقل أهمية. والواقع أن كافة الكتاب الروس بين 1840 – 1860 ربما باستثناء تولستوى وترجنيف الناضج. أحسوا إحساساً قويا بتأثير جوجـول، بل إنهم قلدوا أسلوبه الأدبى ولا عجب فى أن بلينسكى ومن بعده تشيرنيشفكسى قد أسـمياه (عهد جوجول فى الأدب الروسى)..

وبعد إيفان تورجنيف 1818 – 1883 أول الثلاثة الـذين جعلـوا الرواية الطويلة قـوة دافعة ومـؤثرة فى المجتمع الروسـى، وقد كـان أكـثر الثلاثة إطلاعـاً على العـالم الأوربى وكـان صـديقا لفلوبـير وهـنرى جيمس وعـاش ثلاثين عامـاً فى فرنسا وألمانيا وكشف عن نفسه ككـاتب عظيم عنـدما بـدأ بكتابة "مـذكرات صـياد" وهى دراسة لشخصية الأقنان والفلاحين وملاك الأراضى وما يحدث فى الحياة الريفية. وأظهرت أن الأقنان كائنات بشرية لها نفس الصراعات النفسـية والحـنين إلى السـعادة الـذى كـان يعزى إلى سادتهم وحدهم.

وفى رواية "الآبـاء والأبنـاء"الـتى كتبت بعد تحرير الأفنـان أبـرز لنا شخصـية "بازاروف" الذى رمز به إلى رجل الكفاح وحـتى تعبـير "العـدميين" الـذى سـيتردد بعد ذلك كثيراً فى المجتمع الروسى. وفى روايته الطويلة "الأرض العذراء" أبرز نجـدانوف المثقف الرخو العـاطفى وسـولومين المهنـدس الميكـانيكى العملى وماريانا سـليلة الأسرة الأرسـتقراطية الـتى تضـحى بوضـعها الاجتمـاعى وتلتحق بـركب المكـافحين و

"ماشــورينا" الفلاحة الريفية المكافحــة.. وتنبأ بــأن مســتقبل روســيا رهن بالتقــدم الصناعى.

وتحدث الكاتب الروسى نقولا بردئانيف عن دستويفسكى وتلستوى فقال..

"وانعكست الثورة الباطنية التى كانت متصـلة فى روسـيا أكـثر ما انعكست فى عمل دوستويفسكى الخلاق، ولكنها انعكست فى تولسـتوى على نحو مختلـف، ذلك أن فن الأخير لم يكن تنبؤيـا، بل كـان ثـورة فى حد ذاتـه. ومما له أهمية أن نعقد الموازنة بين هــاتين العبقريــتين الروســيتين العظيمــتين. فالعلاقة بين العنصر الفــنى والعنصر العقلى تقيم بينهما تضــاداً حــادا، إذ كـــان دوستويفســكى فنانا ديناميــا، بل لعله أشد الفنانين دينامية فى العالم. وكل شىء عنده غائص فى جو أثيرى فــائر، كل شــىء فى حركة عنيفة، ولا شىء قد تحدد أو اتخذ شكلا نهائيا. دوستويفسكى فنـان ديونيزوسـى. وهو يعبر عن الروح الثورية، ويكشف عن ديالكتيك الثـورة، والعنصر التنبــؤى قــوى فيه غاية القــوة. لقد واجه المســتقبل، وتنبأ بــالكثير مما حــدث فيــه، وإذا كــانت روايــات دوستويفسكى مآسى، فإن روايـات تولسـتوى ملاحم. وتعد رواياته أكمل الروايـات فى الأدب العــالمى، فالحيــاة الإنســانية ممتزجة بالحيــاة الكونيــة، ومختلطة بــدورانها. دوستويفســكى يتحــرك فى التــاريخ، أما تولســتوى فيتحــرك فى الكــون. والدينامية والتنبؤى لا ينتميان إلى الحياة الكونية. وإنما ينتميان إلى التاريخ بالذات.

ومن ناحية أخرى، كان تولستوى ثوريا من حيث الفكر فضح مظالم الحياة، وكان فوضويا وعدميا، تمرد على التاريخ والمدنية بروح راديكالية لم يســمع بها من قبــل، فلا ينبغى للإنســان أن يضع قــوانين العــالم، بل عليه أن يطيع قــانون ســيد الحيــاة الأعظم وأعنى به اللـه. وكـان بالتأكيد معارضا للشـيوعية إذ لم يكن يقبل العنـف، وكـان عـدواً لكل الحكومات، ويرفض تكنيك الحياة وتنظيمها العقلى، ويؤمن بالأساس الإلهى الــذى تقــوم عليه الطبيعة والحيــاة، ويــدعو إلى الحب لا إلى البغض، ويمكن أن يعد بطريقة سلبية سلفا للشيوعية، فهو ينكر الماضى، وتقاليد التاريخ، والثقافة القديمــة، والكنيسة والدولة، ويـرفض كل ظلم اقتصـادى واجتمـاعى بين النـاس. وهو يثـور على الطبقـات الحاكمة المتمتعة بالامتيــازات، ولا يضــمر أى حب "للصــفوةـ" المثقفــة. وبلغ تــأنيب الضمير الذى تعانيه الطبقات الحاكمة فى تولستوى أوج شدته. وكان تولستوى مشـبعا تمام التشبع بفكرة قيام حياة المجتمع المتحضر على الأكاذيب والحيف. وأراد أن يقطع صلته بهذا المجتمع قطعا تاما. وفى هذه الاتجاه كـان ثوريـا، ولكنه كـان يـرفض العنف الثورى.

وبعد أن اصدر تولستوى روائعه "الحرب والسـلام" وآنا كارنينا و"البعث" تعـرض لأزمة نفسـية عميقة انتهت بـأن ينبذ هـذا الماضى وأن يكـرس حياته لخدمة الإنسـانية، ومن ذلك الحين وهو يكتب القصة. إما ليعبر عن أفكاره الدينية وإما بتـأثير رغبة أقــوى من كافة قراراته المنطقية.

وكان التغير الذى طرأ عليه نهاية عملية طويلة. ولما كـان قد تـأثر إلى حد كبـير بروسو الـذى كـان يعشـقه، وحيـاة الفلاحين الـروس الفطريـة، فقد كـان يضع الطبيعة دائمــاً فى مواجهة الحضـارة، وكـان يشـعر بـأن كافة الشـرور مبعثها المجتمع والقيم الزائفة، وبأن الإنسان خير فى جوهره. وكان ضميره يقلقه دائماً. وكـان مثل الكثـيرين من "النبلاء النادمين" فى فترة الشعبية، يخجل من ثرائه ومركزه الاجتمـاعى، وأضـفى على الفلاحين الفقراء حكمة روحية عظيمة.

وسرعان ما أصبح نبذه لمغريات العالم فعالا فعلى الـرغم من أنه كـان أبا لثلاثة عشر طفلا، ورجلا ذا طاقة جنسية قوية ومزاج شهوانى فقد هاجم الجنس بعنف ونادى بالعفــة. وفى "ســوناتا كروتــزر" وهى قصة غاضــية عن الغــيرة والعشق الجســدى (1889)، هاجم تصنع المجتمع الذى يغلف الجنس بأكاذيب عن "الحبـ" والعاطفة. ولم يكن رفضه للفن بأقل تطرفا. فقد هـاجم معظم الكتابـات، والرسـومات، والموسـيقى المعاصـرة، على أنها وسـائل ترفيه عن الطبقـات العليـا، ومكرسة تكريسا شـبه تـام لمواضيع الجماع الجنسى والبرم بالحيـاة والكبريـاء. وكل ما كتبه بعد عـام 1880 كـان

يستهدف تحقيق هذه المتطلبات. وبسط نظريته الجمالية الجديدة فى مقاله "ما هو الفن ؟" (1897 – 1998) الذى أثر بطريقة غير مباشرة فى نقاد العهد الشيوعى الذين، على أية حال، أحلوا كلمة "اجتماعى" محل كلمة "دينى". وبما أنه آمن بفضيلة العمل اليدوى وطريقة الحياة البسيطة، فقد أعطى لنفسه الحق فى الحكم على الدولة والمجتمع. ولما كان عدو للحرب، والخدمة العسكرية، والعنف، فلم يجد أية صعوبة فى إظهار التباين بين النظم السياسية أو القضائية أو القضائية ومبادئ الحب والرحمة المسيحية. وكان التصنع وأوهام الحياة القائمة على التنافس وغباء الكبرياء وعدم جدوى نشاط الإنسان العقيم هى أهدافه الأثيرة. ثم جاء بعد ذلك التحامل على الطبقة المتعلمة، بما فى ذلك الاعتقاد فى العلم والطب، وممارسات الكنيسة بقداسها الوثنى وطقوسها الدينية التى لا معنى لها. وفى "ما هو الفن؟" (وفى "الحرب والسلام" من قبلها) سخر من سخافة المسرحيات الغنائية والباليه، وبعد ذلك فى "البعث" تحدث بطريقة تحقيرية عن القداس على أنه "كلام سحر" حتى إن الكنيسة اعتبرت ذلك تجديفا وحرمت تولستوى من الكنيسة. ولكن هذا لم يمنعه على أية حال من التبشير بما أسماه "المسيحية الحقيقية" التى تقوم على موعظة المسيح فوق الجبل وأسس إنجيل المسيح: "أحب جارك" "ولا تقاوم بالعنف". وكانت هاتان الآيتان، فى رأى تولستوى، إرشادا كافيا للحياة وفقا للمشيئة الإلهية. وعلى أية حال، فقد أنكر ألوهية المسيح وخلود الروح، ورفض مناقشة مشكلات ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقية)، واقتصر على الأخلاق. ودعم تولستوى هذه الديانة الإنجيلية الفطرية بتوصيات قليلة تعكس إعجابه بالفلاح: يجب على الإنسان أن يرفض الحضارة الآلية، وأن يعيش فى وحدة مع الطبيعة، وأن يعمل بيديه (كان تولستوى يصنع أحذية ويحرث حقوله بنفسه، وكان يستمد من ذلك المتعة التى يصفها ليفين فى "آناكارنينا" وأن يظل نباتيا. وكان يرى أن البساطة والطهارة والطبيعة والتسليم، هى الفضائل الأساسية للإنسان، وكان يعتقد أن ممارسة هذه الفضائل تستطيع أن تقود الإنسان إلى الخلاص. ولا تستطيع أية ثورة أو تغيير أن تساعد على ذلك، إن مملكة الله بداخلنا، ولا يمكن تغيير البشرية إلا بإصلاح الفرد فقط بالمجهودات المركزة لملايين الإرادات المنفصلة.

وبعد أن رفض تولستوى فكرة الملكية على نحو ما فعلت الشيوعية والرسولية البدائية، وصل إلى حد التخلى عن كافة "ممتلكاته المادية" بما فى ذلك حقوق الطبع. ومع ذلك، فقد شعر بأنه لم يؤد واجبه كاملا، وفى سن الثانية والثمانين تخلى عن زوجته وأبنائه، وترك منزل أسلافه العريق وهام على وجهه فى طرق روسيا. وفى أثناء تجواله سقط مريضاً، وتوفى فى محطة سكة حديدية مغمورة عام 1910 ودفن رفاته فى حديقة كلير جليدز.

وكان لحياة تولستوى وما – يزال – تأثير بالغ الاتساع والعمق. وقد اتبع الآلاف من تلاميذه فى كافة أنحاء العالم، من غاندى فى الهند إلى رومان رولاند فى فرنسا، ومن الفوضويين الدينيين فى اليابان إلى المعارضين الضميريين فى أمريكا.

* * *

لم يكن غريباً، والحكم الروسى على ما كان عليه – جزيرة من الحكم الأوتقراطى وسط بحر من الحريات الأوربية – وأن يظل القياصرة متمسكين بحقهم الإلهى فى الحكم، ورفضهم الدائم لبدء حكم دستورى – نقول لم يكن عجيبا أن يظهر بالإضافة إلى الشعراء، والروائيين، والكتاب، مجموعة أخرى من الثوريين الذين ضاقوا ذرعاً برفض الحكومة القيصرية ودعوات الإصلاح، فبدأوا فى فى الثورة عليها.

ولعل شخصية نشايف **Nechaev** الروسية الصميمة هى أبرز رموز الحركة العدمية، وقد أسس الجمعية الثورية "المحور أو عدالة الشعب ووضع كتاب "التعاليم الثورية" الذى عرف فيه الرجل الثورى "إنسان كتب عليه الهلاك فلا مصالح شخصية، ولا عمل، ولا عواطف، ولا ارتباطات".

وأمضى نشايف عشرة أعـوام فى السجن فى ظـروف بشـعة، ولكن مضى فى دعايته فحــول حــراس الســجن جميعا إلى أعــوان له وعــبر طــريقهم كــان يراسل الجماعات الشعبية.

وأعجب الأشياء هو أن أيدلوجية الفوضوية هى فى شطرها الأكبر من خلق الفئة العليا من طبقة الأعيــان الروسى من ذوى الأملاك. فقد كــان بــاكونين وكروبــوتكين **Kropotkin** والكونت تولستوى من كبـار الأعيـان، هم مؤسسو الفوضـوية الروسـية والعالمية. وكانت الشخصـية الرئيسـية هى بـاكونين الـذى كـان يعتقد أن الثـورة الـتى تشـمل العـالم كله سـوف يشـعلها لشـعب الروسى والعنصر السـلافى، وهو فى هـذه النزعة الميسـياوية الثورية يعد رائـدا للشـيوعية. والعبـارة القائلة أن "عاطفة الهـدم، عاطفة خلاقة" هى من العبارات التى أطلقها بـاكونين. وفوضـوية بـاكونين هى الثـورة، فهو يريد أن يثيرها ثورة عالمية شاملة، وأن يحطم العالم القديم، وكان يعتقد أنه على أطلال العالم القديم، ومن الرماد المتخلف عنه، سينهض تلقائيا عالم جديد.

ومن أبرز دعاة الفكر الثورى ديمترى بساريف 1840 – 1868، وقد كان نـبيلا شـاباً يملك قلم الصـحفى الحاضر البديهـة، وكـان مجـادلا من الدرجة الأولى. وكـانت حياته قصـيرة (فقد تـوفى فى الثامنة والعشـرين وربما مـات منتحـرا)، ولكن شـهرته كانت قد استفاضت وهو فى الثانية والعشرين، وتركت كل مقالة من مقالاته أثرا هـائلا – فقد بدا أنه معبر صـادق عن معاصـريه، ينطق بما يفكـرون فيه ويرغبـون فى قولـه. وقبل كل شـىء، فقد نبذ العاطفة والحب الأفلاطـونى، والمثاليـة، والأحلام الشـاعرية على أنها "حماقة بحتة" أو دليل على الضـعف. "كل ما يبعـدنا عن واجباتنا الرئيسـية: - التعليم، التقــدم العلمى، التطــور الاجتمــاعى – هو شــىء لا فائــده منه فهو إذن أمر كريه". "إن المال الذى ينفق على البالية والمسرح وكتب الشعر يجب أن يستخدم فى تشـييد الطـرق الحديديـة". وكـان يجد متعة فى صـياغة مثل هـذه الأقـوال، "زوج من الأحذية أفضل من مسرحية لشاكسبير".

وفى سـنة 1879 حل حـزب "إرادة الشـعب" محل جماعة "الأرض والحريــة". وأكـــدت هـــذه المنظمة التآمرية المركزية أن هـــدف الحــــزب المباشر هو حكم ديمـوقراطى يحظى بموافقة الإرادة الشـعبية الحـرة، وأن الكفـاح ضد الحكم المطلق القاسى هو صراع مسلح، يحق للحـزب فيه اسـتخدام العنـف. وكـانت اللجنة المركزية للحزب تتكـون من مجموعة من الرجـال والنسـاء ذوى العقلية المثالية العـازمين على التضـحية بـذواتهم وشـرعوا فى العمل بحماية وإخلاص مطلـق. ولما كـانوا إرهـابيين وشــهداء فى نفس الــوقت، فقد ضــربوا أمثلة عديــدة فى الشــجاعة وقــوة التحمل الأخلاقى فى نضـالهم اليـائس ضد الحكومة المسـيطرة. وكـانوا مصـممين على القتل لأنهم كـانوا مسـتعدين للمـوت. وهـزت اللجنة المركزية روسـيا، بانفجـارات القنابل وحوادث الهروب المثيرة من السجن ومحـاولات اغتيـال القيصر وكبـار موظفيـه. ولم تستطع المشانق وفرق الإعدام والأشغال الشاقة إخماد جذوة تعصبهم.

"وفى 14 يناير سـنة 1878 أطلقت فـيرا زاسلوتشى رصاصـات مسدسـها على الجنرال تريبوف رئيس شرطة بطرسبرج فأصابته بجروح قاتله، وقبض عليها وحوكمت ولكن المحلفين رغم ثبوت التهمة عليها براؤوها، وكان هـذا أكـبر دليل على ما يضـمره الناس من الكراهية للجهاز والبوليس.

وجن جنـون المسـئولين وحـاولوا القبض عليهـا، ولكنها اسـتطاعت الهـرب منهم ولاذت بالفرار.

وأعقب ذلك اغتيال الجنرال مسنتسـوف الـذى عـرف بقسـوته مع المسـجونين. ففى يوم 16 أغسطس، بينما كان الجنرال سائراً فى ميدان القـديس ميخائيل أطلقت عليه رصاصـات فخر صـريعاً، وهـرب القـاتلان. وحـاولت الحكومة تعقب أثارهما دون جـدوى بل لقد اسـتطاعت الجماعة الـتى نفـذت الاغتيـال أن تصـدر نشـرات تصل إلى المصانع. "بل كان القيصر نفسه يجدها ملقاة فى أركان قصره وفوق مكتبه.

وفى 9 فبراير سنة 1879 أطلق الرصاص على الأمير الكسيس كرابوتكين حاكم خركوف وكان قد اشتهر بقسوته مع المعتقلين حتى آثر بعضهم الانتحار كما قتل بعده رئيس الشرطة السريين، كما قتل الجنرال درنتلين وهو الذى كان المسئول عن شنق بعض المسجونين.

وطرأت فكرة اغتيال القيصر، وقام العدميون بمحاولات عديدة، فأطلق عليه الرصاص فى يوم 12 أبريل سنة 1879 وهو يتمشى فى ساحة القضاء دون أن يصيبه فوضعوا خطة لتفجير قطار القيصر إثناء رحلته من القرم إلى بطرسبرج ووضعوا ألغاما فى ثلاث جهات، ولكن فى اللحظة الأخيرة سار القطار من طريق آخر. وانفجر لغم ثان ولكنه أصاب القطار الذى كان يحمل حقائب القيصر، وكان قد تقدم القطار الذى يحمل القيصر نفسه. ونجحوا فى تدمير قاعة قصر الشتاء عن طريق نجار كان يعمل بالقصر وقتل خمسة من الحراس وجرح خمسون ولكن القيصر كان قد تأخر فنجا.

ولم ييأس العدميون رغم ما اتخذته الحكومة من إجراءات قاسية، وأنها زجت بأكثر من ثلاثة آلاف رجل إلى السجون وبلغ عدد من أرسل إلى سيبريا فى سنة واحدة أثنى عشر ألفا وتطوع سبعة وأربعون لقتل القيصر. وقتل القيصر بالفعل يوم 13 مارس سنة 1881.

كان القيصر عائداً فى عربته من عرض عسكرى قرب بطرسبرج، فلوحت فتاتان بمنديلهما، وكان هذا التلويح هو الإشارة المتفق عليها بين المتآمرين من أعضاء الجمعية، فألقى رايساكوف قنبلة، وانفجرت القنبلة خلف العربة التى كان يستقلها القيصر، وجرحت عدداً من الجنود، فترجل القيصر، وفى تلك اللحظة مضى إليه قُدمُاً إجناتيوس جونفزكى وألقى قنبلته فى عناية وإحكام، وتبع ذلك انفجار مروع مزق القيصر والذى ألقى القنبلة، ولقى جونفزكى حتفه قبل القبض عليه، أما القيصر فإنه لم يعش بعد ذلك سوى ساعة ونصف ساعة[77].

ولكن اغتيال القيصر لم يثمر إلا شدة ى مقاومة الحكومة وكان القيصر الذى خلفه اسكندر الثالث أشد رجعية من سلفه ولجأت الحكومة إلى القبض الجماعى على كل من تحوم حوله أقل شائبة ونفت عشرات الألوف إلى سيبريا ومات الكثيرون خلال الرحلة، بينما مات آخرون نتيجة لسوء المعيشة والبرد وانتشار الأمراض.

وتوضح لنا تجربة التاريخ أن كل هذه الأعمال – أعمال عقيمة من ناحية النتيجة، بل إنها تضاعف السوء وتجعل قبضة السلطات تشتد وتتصلب، ولكن – من ناحية أخرى يبدو أنها كانت أمراً لازما، لأنها رد فعل للطغيان، وأنها إذا كانت سيئة، فلأن الفعل كان سيئاً.

إن المفارقة التى تعرضها هذه الصفحة الدامية، وأن الذين قاموا بعمليات الاغتيال والتدمير رغم بشاعتها كانوا رجالاً ونساءً على استعداد دائم للتضحية بحياتهم وقد صور الكاتب الفرنسى البيركامى فى مسرحيته العدول نفسيتهم وأبرز كيف أن كاليابيف وهم المكلف بإلقاء قنبلة على عربة الدوق الكبير سيرج لم يقذف قنبلته لأنه وجد بجانب الدوق طفلين صغيرين قائلا لن أضيف إلى الظلم ظلما. إن قتل الأطفال يتنافى مع الشرف وإذا كان على الثورة أن تخالف الشرف فسأتخلى عنها[78].

* * *

تلك كانت روسيا طوال القرن التاسع عشر والعشرين كانت الدولة الوحيدة التى ظل فيها طغيان القياصرة والحكم الاوتقراطى ورفض الدستور والحريات –

---

77 **(77) الجمعيات السرية للأستاذ على آدهم – أقرأ – دار المعارف ص118 بتصرف .**

78 **(78) قارن هذا الموقف بما فعلته الولايات المتحدة الأمريكية عندما لم تتردد أن تقذف من طائرة صواريخها على عربة كانت تسير فى صحارى اليمن بها ستة أشخاص كان أحدهم مطلوبا بحجة أنه من أعضاء "القاعدة" فقتل الجميع بدم بارد ودون أن تعتذر عن فعلتها .**

وكانت الفنون والآداب. هى التى حافظت على معنويات الشعب أن تتهاوى. وهى التى ألهمته الكفاح بمختلف الطرق حتى أشدها تطرفاً، وكانت هى التى هيأت روسيا للثورة عندما حان حينهـا، فعنـدما هـزمت الجيـوش الروسـية فى الحـرب العالمية الأولى ثـار الفلاحـون، وثـار الجنـود وقـاموا بثـورة مـارس 1917 الديمقراطية الـتى قضت على القيصرية، وأرادت حكماً دستورياً، وكـان يمكن أن ينجح لـولا أن ليـنين قلبها إلى ثـورة بلشفية.. وما كان يمكن أن تحدث الثورة لولا الإعداد الطويل الذى سبقها بفضل شـعر وكتابات بلنسكى وتشريفسـكى. وبفضل قصص جوجـول ونشـيكوف وبفضل الروايـات الطويلة للثالوث العظيم تورجنيف دستويفسكى ونتولستوى. ثم بفضل هؤلاء الثــوريين الذين أثبتوا حيوية الشعب..

وإذا قارنا آداب أمم أخرى لم ترزق ما رزقه الأدب الروسي من طابع انتهاضــى، ولم تتوجه إلى الشعب فتستثير همته، فلنا أن نقول إن خمول الأدب يسهم فى خمـول الشعب بحيث لا يستطيع حتى عنـدما تواتيه الفرصة أن يتحـرك – كما حـدث لمصر أثر هزيمة 67 المدوية..